

جَهْرُ خُطْبِ الْعَرَبِ

فِي عِصْوَ الْعَرَبِ فِي الزَّاهِرَةِ

الجزء الثالث

العصر العباسي الأول

ويليه ذيل الجمهرة

تأليف

أحمد زكي صموت

وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقاً

المكتبة العلمية

بيروت - لبنان



تصدير

الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمدك اللهم وقتني إلى إتمام ما بدأت ، فلك الشكر والمنة في البدء والنهاية ، وأصلي وأسلم على خاتم رسلك ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وبعد : فهذا ثالث الأجزاء من « جمهرة خطب الغرب » في خطب العصر العباسي الأول ، وهو على نسق سابقه ضبطا وتحريرا ، وشرحا وتعليقا ، ويليه ذيل الجمهرة ، في خمسة أبواب من الخطب :

الباب الأول : في خطب الأندلسيين والمغاربة .

» الثاني : في خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها .

» الثالث : في نثر الأعراب .

» الرابع : في خطب النكاح .

» الخامس : في خطب من أرتج عليهم ، ونوادير طريفة لبعض الخطباء .

وبذا تم ما قصدت إلى جمعه في هذا المؤلف ، وإني أبتهل إلى المولى القدير أن يحقق ما رجوته من استفادة قارئيه به ، وأن يسد خطانا جميعا إلى سبيل الرشاد ، إنه الكبير المتعال ؟

أحمد زكي صفوت

حرر بالقاهرة في { في القعدة سنة ١٣٥٢ هـ
مارس سنة ١٩٣٤ م

فهرس

مآخذ الخطب في هذا الجزء

- الأمالى : لأبى على - القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
- الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى : « التاسع
- صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : « الأول - التاسع
- سهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : « السادس
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
- الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول
- العقد الفريد : لابن عبد ربه : « الأول - الثانى - الثالث
- زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرى : « الأول - الثانى - الثالث
- البيان والتبيين : للجاحظ : « الأول - الثانى - الثالث
- شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد : المجلد الأول - الثانى
- أمالى السيد المرتضى : « الأول - الرابع
- مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى : « الأول
- تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبرى : « التاسع - العاشر
- تاريخ الكامل : لابن الأثير : « السادس
- مروج الذهب : للمسعودى : « الثانى
- وفيات الأعيان : لابن خلكان : « الأول - الثانى

مواسم الأدب: للسيد جعفر البيهقي العلوي : الجزء الثاني

الصناعتين : لأبي هلال العسكري

مقدمة ابن خلدون

المنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى



الباب الرابع

الخطبة والبوصايا

في

العصر العباسي الأول

١ - خطبة أبي العباس السفاح وقد بويع بالخلافة

(توفي سنة ١٣٦ هـ)

صعد أبو العباس^(١) السفاح المنبر حين بويع له بالخلافة ، فقام في أعلاه ، وصعد
عنه داود بن عليّ فقام دونه ، وتكلم أبو العباس ، فقال :

« الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تَكْرِمَةً ، وَشَرَفَهُ وَعَظَّمَهُ ، واختاره لنا
وأيدّه بنا ، وجعلنا أهله وَكَهْفَهُ^(٢) وَحَصْنَهُ ، والقُوَّام به ، والذابِّين عنه ، والناصرين له ،
وألزَمنا كَلِمَةَ التَّقْوَى ، وجعلنا أحمقَ بها وأهلها ، وخصنا بِرَحِمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

(١) هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أول الخلفاء العباسيين ، بويع
بالخلافة سنة ١٣٢ هـ . (٢) السكّيف : الوزير والملجأ .

عليه وسلم وقرابته، وأنشأنا من آباءه، وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نَبَمَتِهِ^(١)،
جمله من أنفسنا عزيراً عليه ماعننا^(٢)، حريصاً علينا، بالمؤمنين رءوفاً رحماً،
ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى
عليهم، فقال عزّ من قائل فيما أنزل من مُحْكَم القرآن: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ
عَنكُمُ الرِّجْسَ^(٣) أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» وقال: «قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى»، وقال «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» وقال: «مَا أَفَاءَ^(٤)
اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى»، وقال:
«وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى» فأعلمهم
جل ثناؤه فضلنا، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من النية^(٥) والغنيمة نصيبنا،
تكرمة لنا، وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم.

وزعمت السَّبْيِيَّة الضَّلَال أن غَيْرَنَا^(٦) أحقُّ بالرياسة والخلافة منا، فشاهت^(٧)
وُجُوهُهُمْ! يَمِّمْ ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصرهم بعد
جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، وأدخض بنا الباطل، وأصلح بنا
منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخسيسة، وأتمم بنا النقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس
بعد العداوة أهلَ تَعَاطُفٍ وَبِرٍّ، ومواساة في دينهم وديناهم، وإخواناً على سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ
في آخرتهم، فتح الله ذلك مِنةً وَمِنحةً لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فلما قبضه الله إليه قام
بذلك الأمر من بعده أصحابه، وأمرهم سُورَى بينهم، فحَوُوا مَوَارِيثَ الْأُمَمِ، فعدلوا فيها،

(١) النبع في الأصل: شجر للنسي والسهام.

(٢) الغنم، وكل ما استقبل من العمل.

(٣) ما أعاده عليه أى صيره له.

(٤) يريد العلويين.

(٥) شاء وجهه شوها بالفتح: قبح.

وَوَضَعُوهَا مُوَاضِعَهَا ، وَأَعْطَوْهَا أَهْلَهَا ، وَخَرَجُوا خِصَاصًا^(١) مِنْهَا ، ثُمَّ وَثَبَ بَنُو حَرْبٍ وَمَرْوَانٌ فَابْتَزُّوْهَا وَتَدَاوَلُوهَا بَيْنَهُمْ ، فَجَارُوا فِيهَا ، وَاسْتَأْثَرُوا بِهَا ، وَظَلَمُوا أَهْلَهَا ، فَأَمَلَى^(٢) اللَّهُ لَهُمْ حِينًا حَتَّى آسَفُوهُ^(٣) ، فَلَمَّا آسَفُوهُ انْتَقَمَ مِنْهُمْ بِأَيْدِينَا ، وَرَدَّ عَلَيْنَا حَقَّنَا ، وَتَدَارَكَ بَنَاءَ أَمْتِنَا ، وَوَلَّى نَصْرَنَا وَالْقِيَامَ بِأَمْرِنَا ، لِيُثَبِّتَ بَنَاءَ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوْا فِي الْأَرْضِ ، وَخَتَمَ بَنَاءَ كَمَا افْتَتَحَ بَنَاءَ ، وَإِنِّي لِأَرْجُو إِلَّا يَأْتِيَكُمُ الْجُورُ مِنْ حَيْثُ أَتَاكُمْ الْخَيْرُ ، وَلَا الْفَسَادُ مِنْ حَيْثُ جَاءَكُمْ الصَّلَاحُ ، وَمَا تَوْفِيقُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ إِلَّا بِاللَّهِ .

يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ ، أَنْتُمْ تَحْمِلُ مَحَبَّتَنَا ، وَمَنْزِلُ مَوَدَّتِنَا ، أَنْتُمْ الَّذِينَ لَمْ تَتَغَيَّرُوا عَنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَبْنَسِكُمْ عَنْ ذَلِكَ تَحَامُلُ أَهْلُ الْجُورِ عَلَيْكُمْ ، حَتَّى أَدْرَكْتُمْ زَمَانَنَا ، وَأَتَاكُمْ اللَّهُ بِدَوْلَتِنَا ، فَأَنْتُمْ أَسْعَدُ النَّاسِ بَنَاءَ ، وَأَكْرَمُهُمْ عَلَيْنَا ، وَقَدْ زِدْتُمْ فِي أُعْظِيَاتِكُمْ مِائَةَ دَرَاهِمٍ ، فَاسْتَعْدُوا ، فَإِنَّا السَّقَّاحُ الْمَسِيحُ ، وَالتَّائِثُ الْمُنِيرُ^(٤) .

وَكَانَ مَوْعُوكًا فَاشْتَدَّ بِهِ الْوَعَكُ^(٥) ، فَجَلَسَ عَلَى الْمُنْبَرِ ، وَصَعِدَ دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ ، فَقَامَ دُونَهُ عَلَى مَرَاقِي^(٦) الْمُنْبَرِ ، فَقَالَ :

(تَارِيخُ الطَّبَرِيِّ ٩ : ١٢٥ ، وَشَرْحُ ابْنِ أَبِي الْحَلِيدِ ٢ : ص ٢١٢)

٢ — خُطْبَةُ دَاوُدَ بْنِ عَلِيٍّ

« الْحَمْدُ لِلَّهِ ، شُكْرًا شُكْرًا شُكْرًا ، الَّذِي أَهْلَكَ عَدُوَّنَا ، وَأَصَارَ إِلَيْنَا مِيرَاثَنَا مِنْ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَيُّهَا النَّاسُ : الْآنَ أَقْشَعَتْ^(٧) حَنَادِسُ الدُّنْيَا ، وَانْكَشَفَ

(١) جِبَاعًا جَمَعَ خَبِيسٌ مِنْ خَبَسِ الْبَطْنِ مِثْلَةُ الْمِيمِ أَيْ خِلَا ، وَالْمَخْصَصَةُ : الْمَجَاعَةُ ، وَهُوَ خَصَصَانٌ بِالضَّمِّ ، وَخَبِيسُ الْحَشَا : ضَامِرُ الْبَطْنِ . (٢) أَمَلَى : أَمْلَاهُمْ . (٣) آسَفُوهُ : أَغْضَبُوهُ . (٤) أَبَارَهُ : أَدْلَكَهُ . (٥) الْوَعَكُ : أَذَى الْحُمَى وَوَجَعُهَا ، وَالْمِنْ شِدَّةُ الْتَعَبِ . (٦) جَمَعَ مِرْقَاةً يَفْتَحُ الْمِيمَ وَكُفْرَهَا . (٧) قَشَعَتْ الرِّيحُ السَّحَابَ : كَشَفَتْهُ كَأَنَّهُ شَعْتُهُ فَأَوْشَعَتْ وَانْقَشَعَتْ وَتَقَشَعَتْ ، وَالْحَنَادِسُ جَمْعُ حَنْدَسٍ يَكْسِرُ الْحَاءَ وَالذَّالَ وَهُوَ الْفَالِقَةُ .

غَطَاوْهَا ، وَأَشْرَقَتْ أَرْضُهَا وَسَمَاوْهَا ، وَطَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَطْلَعِهَا وَبَزَغَ الْقَمَرُ مِنْ مَبْزَغِهِ ، وَأَخَذَ الْقَوْسَ بَارِيهَا ، وَعَادَ السَّهْمَ إِلَى النَّزْعَةِ^(١) . وَرَجَعَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ^(٢) ، فِي أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ ، أَهْلِ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ بِكُمْ وَالْعُطْفِ عَلَيْكُمْ .

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا وَاللَّهِ مَا خَرَجْنَا فِي طَلَبِ هَذَا الْأَمْرِ لِنُسَكِّرَ لُجَيْنًا ، وَلَا عَقِيَانًا^(٣) ، وَلَا نَخْفِرَ نَهْرًا ، وَلَا نَبْنِي قَصْرًا ، وَإِنَّمَا أَخْرَجْنَا الْأَنْفُسَ مِنْ ابْتِزَازِهِمْ حَقًّا ، وَالغَضَبُ لِبَنِي عَمْنَا ، وَمَا كَرَّثْنَا^(٤) مِنْ أُمُورِكُمْ ، وَبِهَظُنَّا مِنْ شَتُونِكُمْ ، وَلَقَدْ كَانَتْ أُمُورُكُمْ تُرْمِضُنَا^(٥) وَنَحْنُ عَلَى فُرْشِنَا ، وَيَشْتَدُّ عَلَيْنَا سُوءُ سِيرَةِ بَنِي أُمِيَّةٍ فِيكُمْ ، وَخُرْقُهُمْ بِكُمْ ، وَاسْتِذْلَالُهُمْ لَكُمْ ، وَاسْتِثَارُهُمْ بِفَيْئِكُمْ وَصِدْقَاتِكُمْ وَمَعَانِيكُمْ عَلَيْكُمْ ، لَكُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَذِمَّةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذِمَّةُ الْعَبَّاسِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنْ نَحْكُمَ فِيكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَنَعْمَلَ فِيكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَنَسِيرَ فِي الْعَامَّةِ مِنْكُمْ وَالْخَاصَّةِ بِسِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، تَبًّا تَبًّا لِبَنِي حَرْبِ بْنِ أُمِيَّةٍ وَبَنِي مَرْوَانَ ، آثَرُوا فِي مَدَنِهِمْ وَعَصَرَهُمُ الْعَاجِلَةَ عَلَى الْآجِلَةِ ، وَالِدَارَ الْفَانِيَةَ عَلَى الدَّارِ الْبَاقِيَةِ ، فَرَكِبُوا الْأَنْثَامَ ، وَظَلَمُوا الْأَنْثَامَ ، وَانْتَهَكُوا الْحَرَامَ ، وَغَشَوْا الْجَرَائِمَ ، وَجَارُوا فِي سِيرَتِهِمْ فِي الْعِبَادِ ، وَسُتَّتِهِمْ فِي الْبِلَادِ ، الَّتِي بِهَا اسْتَلْذَوْا تَسَرُّبُلَ الْأَوْزَارِ ، وَتَجَلَّيْبُ الْأَصَارِ^(٦) ، وَمَرَجَوْا فِي أَعْنَةِ الْمَعَاصِي ، وَرَكَضُوا فِي مِيَادِينِ الْفَقَى ، جَهْلًا بِاسْتِدْرَاجِ اللَّهِ ، وَأُمْنًا لِمَكْرِ اللَّهِ ، فَأَتَاهُمْ بِأَسُ اللَّهِ بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ، فَأَصْبَحُوا أَحَادِيثَ ، وَمُزَقُّوا كُلُّ مُمَزَّقٍ ، قُبْعِدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَأَدَانَا^(٧) اللَّهُ مِنْ مَرْوَانَ ، وَقَدْ غَرَّهَ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ، أُرْسِلَ لِعَدُوِّ اللَّهِ فِي عِنَانِهِ ، حَتَّى عَتَرَ فِي فَضْلِ خِطَامِهِ ، فَظَنَّ عَدُوُّ اللَّهِ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنَادَى حَزْبُهُ ، وَجَمَعَ مَكَايِدُهُ ، وَرَمَى بِكِتَابَتِهِ ، فَوَجَدَ أَمَامَهُ وَوَرَاءَهُ ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، مِنْ مَكْرِ اللَّهِ وَبَأْسِهِ

(١) جمع نازع : وهو الرأى يشد البوتر إليه ايضع فيه السهم ، وصار الأمر إلى النزعة أي قام بإصلاحه أهل الأنابة ، وعاد السهم إلى النزعة : رجع الحق إلى أهله . (٢) أصله . (٣) ذهباً . (٤) كثره الغم كضرب ونصر : اشتد عليه كأكثره . (٥) أرمضه : أوجعه وأحرقه ، وأرمض الحر القوم : اشتد عليهم فأذاهم . (٦) جمع إصر كحمل وهو الذئب . (٧) نصرنا عليه .

ونِقْمَتِه ، ما أَمَات باطله ، وَتَحَقَّ ضلاله ، وجعل دائرة السوء به ، وأحيا شرفنا وعزنا ، وردَّ إلينا حقنا وإرثنا .

أيها الناس ، إن أمير المؤمنين - نصره الله نصراً عزيزاً - إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة ، أنه كره^(١) أن يَخْلُط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن أَسْحَنَفَرَ^(٢) فيه شدة الوغك ، وادعوا الله لأمر المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم الله بمروانٍ عدوِّ الرحمن ، وخليفة الشيطان ، المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ، يابِدال الدين ، وانتهاك حريم المسلمين ، الشاب^(٣) المتكهل المتهمل ، المقتدى بسلفه الأبرار الأخيار ، الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها بعالم الهدى ، ومناهج التقوى » - فعجَّ الناس له باللداء - ثم قال :

« يا أهل الكوفة : إنا والله ما زلنا مظلومين مهوورين على حقنا ، حتى أَمَحَ الله لنا شَيْعَتَنَا أَهْلَ خُرَاسَانَ ، فأحيا بهم حقنا ، وأفلج^(٤) بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، وإليه تتشوّفون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبَيْضَ به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام ، وَمَنْ عايَكم بِإِمَامٍ مَنَحَهُ المَدَالَةَ ، وأعطاه حسن الإيالة^(٥) ، فخذوا ما آتاكم الله بشكر ، والزموا طاعتنا ، ولا تُتَخَدَعُوا عن أنفسكم ، فَإِنَّ الأَمْرَ أَمْرُكُمْ ، فَإِنَّ لِكُلِّ أَهْلِ بَيْتِ مِصْرَ ، وإِنِّكُمْ مِصْرُنَا ، أَلَا وَإِنَّهُ ماصِدٌّ منبركم هذا خايمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد - وأشار بيده إلى أبي العباس - فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا ، حتى نسلّمهُ إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه ، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا . »

(تاريخ الطبري ٩ : ١٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٣)

(١) أي لأنه كره . (٢) اسحنفر الخطيب : اتسع في كلامه . (٣) كانت سنة

حين ولي الخلافة ٢٨ سنة إذ ولد سنة ١٠٤ هـ . (٤) نصر . (٥) آل الملك وعيته إيالا : ساسهم ، وآل على القوم إيالا وإيالة : ولي .

٣ - خطبة داود بن علي - وقد أرتج على السفاح

وروى أنه لما قام أبو العباس في أول خلافته على المنبر، قام بوجه كورقة المصحف فاستحيا فلم يتكلم، فنهض داود بن علي حتى صعد المنبر، فقال المنصور: فقلت في نفسي: شيخنا وكبيرنا ويدعو إلى نفسه، فلا يختلف عليه اثنان، فانتضيت سيفي، وغطيته بثوبي^(١)، وقلت: إن فعل ناجزته، فلما رقي عتبا استقبال الناس بوجهه دون أبي العباس، ثم قال: «أيها الناس، إن أمير المؤمنين يكره أن يتقدم قوله فعله، وَلَا تُرْ الْفِعَال أَجْدَى عَلَيْكُمْ مِنْ تَشْقِيقِ^(٢) الْمَقَالِ، وَحَسْبُكُمْ بَكْتَابُ اللَّهِ مُمْتَثِلًا^(٣) فِيكُمْ، وَابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلِيفَةً عَلَيْكُمْ، وَاللَّهِ - قَسَمًا بَرًّا لَا أُرِيدُ بِهِ إِلَّا اللَّهَ - مَا قَامَ هَذَا الْمَقَامَ أَحَدٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَقُّ بِهِ مِنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَامِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا، فَلْيُظَنَّ ظَانِّكُمْ، وَلْيَهْمِسْ هَامِسُكُمْ» قال أبو جعفر: ثم نزل، وَشِمْتُ^(٤) سَيْفِي.

(عيون الأخبار ٢ : ص ٢٥٢، وشرح ابن أبي الحديد ٢ : ص ٢١٣، ومواسم الأدب ٢ : ١١٤)

٤ - خطبة أخرى له

وروى السيد المرتضى في أماليه قال :

أراد أبو العباس السفاح يوماً أن يتكلم بأمر من الأمور بعد ما أفضت الخلافة إليه - وكان فيه حياة مفترط - فأرتج عليه، فقال داود بن علي بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

«أيها الناس، إن أمير المؤمنين الذي قلده الله سياسة رعيته، عُقِلَ من لسانه،

(١) في عيون الأخبار : « وغطيت ثوبي » وهو تحريف . (٢) شقق الكلام : أخرجه أحسن

خرج . (٣) امتثل طريقته : تبعها فلم يعد لها . (٤) شام سيفه يشيمه : غنمه (واستله أيضاً : ضد) .

عند ما يُعْهَد من بَيَانِهِ ، ولكل مرتقٍ مُبْهِرٍ^(١) ، حتى تنفُسُهُ العاداتُ ، فأُبْشِرُوا
بنعمةِ الله في صلاحِ دينِكُمْ ، ورَغْدِ عَيْشِكُمْ » . (الملك عبد المرتضى ٤ : ١٩)

ه — خطبة أخرى للسفاح بالكوفة

وخطب السفاح في الجمعة الثانية بالكوفة ، فقال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » والله لا أُعِدِّكُمْ شيئاً إلا وفيت بالوعد
والوعد ، ولأُعْلِنَ اللين حتى لا تنفع إلا الشدة ، ولأُغِدَنَّ السيف إلا في إقامة حد ،
أو بلوغ حق ، ولأُعْطِيَنَّكُمْ حتى أرى العطية ضياعاً ، إن أهل بيت اللعنة والشجرة^(٢)
للملعونة في القرآن ، كانوا لكم أعداء ، لا يرجعون معكم من حالة إلا إلى ما هو أشدُّ منها ،
ولا يَلِي عليكم منهم وَالٍ إلا تَمَنَّى مَنْ كان قبله ، وإن كان لاخيرَ في جميعهم ، مَنَعُوكُمْ
الصلاة في أوقاتها ، وطالبوكم بأدائها في غير وقتها ، وأخذوا المُقْبِلَ بالذُّبْرِ^(٣) ، والجار
بالجار ، وسلَّطوا شِرَاركم على خياركم ، فقد حَقَّ الله جَوْرهم ، وأزهق باطلهم ، بأهل
بيت نبيِّكم ، فما تَوَخَّرْ لكم عطاء ، ولا نَضِيع لأحد منكم حقاً ، ولا تُجْمَرُكم في بَيْتٍ ،
ولا نَخَاطِرُ بكم في قتال ، ولا نَبْذُلُكم دون أنفسنا ، والله عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ بالوفاء
والاجتهاد ، وعليكم بالسمع والطاعة » ثم نزل . (شرح ابن أبي الحديد ٢ : ص ٢١٣)

٦ — خطبة السفاح بالشام حين قتل مروان

ولما قُتِل مروان بن محمد — آخر خلفاء بني أمية — خطب السفاح ، فقال :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ، وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ، جَهَنَّمَ

(١) البهر : انقطاع النفس من الإعياء . (٢) هي شجرة الزقوم التي كتبت في أصل الجحيم ،
جعلها الله فتنة للمشركين إذ قالوا : إن النار تحرق الشجر فكم كيف تثبت .
(٣) انظر قول زياد بن أبيه في خطبته البراء الجزء الثاني ص ٢٧٢ .

يَصْلَوْنَهَا وَيُنْسِ الْقَرَارُ» نَكَمَ بِكُمْ يَاهْلَ الشَّامِ آلُ حَرْبٍ وَآلُ مَرْوَانَ، يَتَسَكَّمُونَ^(١) بِكُمْ الظُّلَمَ، وَيَتَهَوَّرُونَ بِكُمْ مَدَاحِضَ^(٢) الزَّلَقِ، يَطْشُونَ بِكُمْ حَرَمَ اللَّهِ^(٣) وَحَرَمَ رَسُولِهِ^(٤)، ماذا يقول زعمائكم غداً؟ يقولون: «رَبَّنَا هُوَ لَاءُ أَضَلُّونَا فَأَتَيْنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ» إذن يقول الله عز وجل: «لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ» أما أمير المؤمنين فقد اتشف^(٥) بكم التوبة، واغتفر لكم الزَّلةَ، وبسط لكم الإقالة^(٦)، وعاد بفضلِهِ على نقصكم، وبجله على جهلكم، فليفرخ رُوعُكُمْ^(٧)، ولتطمئن به دياركم، وليقطع مَصَارِعُ أُوْائِلِكُمْ، «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا». (العقد الفريد ٢ : ١٤٥)

٧ — خطبة عيسى بن علي حين قتل مروان

وخطب عيسى بن علي — عم السفاح — لما قتل مروان، فقال:

«الحمد لله الذي لا يفوته من طلب، ولا يعجزه من حرب، خَدَعَتْ وَاللهِ الْأَشْفَرُ نَفْسُهُ، إِذْ ظَنَّ أَنَّ اللَّهَ مُهْمِلُهُ، وَيَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، فحق مني، وإلى مني؟ أما والله لقد كَرِهْتَهُمُ الْعَمِيدَانِ^(٨) التي افترعوها، وأمسكت السماء دَرَّهَا^(٩)، وَالْأَرْضُ رَيْبَهَا^(١٠)، وَقَعَلَ الضَّرْعُ^(١١)، وَجَزَّ الْفَنِيْقُ^(١٢)، وَأَسْمَلُ^(١٣)

(١) تسكع: مشى مشياً متصفاً. (٢) جمع مدحضة: وهي المنزلة. (٣) يعني غير الله ما كان

من مقاتلة الحجاج عبد الله بن الزبير بمكة، وروى السكة بالمنجنيق في عهد عبد الملك بن مروان

(٤) يشير إلى وقعة الحرة وما أحدثه جيش مسلم بن عقبة المري بالمدينة حل عهد يزيد بن معاوية.

(٥) استأنف وابتداً. (٦) أقال مثرته: دفعه من سقوطه. (٧) الروح: بالقلم القلب،

أو موضع الفزع منه والروح بالفتح: الفزع، وأفرغت البيضة: خرج القفرخ منها، أي أخرج الروح من روحكم ولتهدوا وتطمئنوا.

(٨) أي أعواد الخافير، وافترعوها: أي علوها. (٩) مطرها. (١٠) الريح: الغدا،

والزهادة. (١١) فعل: يبس جلده على عظله. (١٢) الفنيق: الفحل المكرم لا يولدى لسكراته

حل أهله ولا يركب، والجفز: كشمس السرعة في المشي، ولم تذكر كتب اللغة ضبط فعله، وجاء في اللسان:

«الجفز: سرعة المشي بآنية»، حكاهما ابن دزيد، قال: ولا أدرى ما صحتها، وفي رواية مواسم الأدب:

«وجفل فنيق الشرك». (١٣) أسمل القلوب وعمل، كدغل وكرم: أخلق.

جَلِيبُ الدِّينِ ، وَأَبْطَلُ الْحُبُودِ ، وَأَهْدَرُ السَّمَاءِ ، وَكَانَ رَبُّكَ بِالْمَرْصَادِ ، فَدَنَدَمٌ ^(١) عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ، وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ، وَمَلَكْنَا اللَّهُ أَمْرَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ ، لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ، فَالشُّكْرُ الشُّكْرُ ، فَإِنَّهُ مِنْ دَوَاعِي الْمَزِيدِ ، أَعَاذَنَا اللَّهُ وَلِإِطَاعِهِ مِنْ مُضِلَّاتِ الْأَهْوَاءِ ، وَبَقَعَاتِ الْفِتَنِ ، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِهِ وَلَهُ .

(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ٢١٣ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٥)

٨ — خطبة داود بن علي بمكة ^(٢)

وخطب داود بن علي الناس بمكة في أول موسم ملكه بنو العباس ، فقال :
« شُكْرًا شُكْرًا ، إِنَّا وَاللَّهِ مَا خَرَجْنَا لِنَخْفِرَ فِيكُمْ نَهْرًا ، وَلَا لِنَبْنِي فِيكُمْ قَصْرًا ، أَظَنَّ عَدُوُّ اللَّهِ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، أَنْ رُوِيَ ^(٣) لَهُ مِنْ خِطَامِهِ ، حَتَّى عَثَرَ فِي فَضْلِ زَمَامِهِ ؟ فَالآنَ حَيْثُ أَخَذَ الْقَوْسَ بَارِيهَا ، وَعَادَتِ النَّبْلُ إِلَى التَّرْزَعَةِ ، وَرَجَعَ الْمَلِكُ فِي نِصَابِهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ النَّبُوَّةِ وَالرَّحْمَةِ — وَاللَّهِ لَقَدْ كُنَّا تَتَوَجَّعُ لَكُمْ وَنَحْنُ فِي قُرُوشِنَا — أَمِنْ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ ^(٤) ، لَكُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ ، لَكُمْ ذِمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَكُمْ ذِمَّةُ الْعَبَّاسِ ، لَا وَرَبُّ هَذِهِ الْبَيْتَةِ — وَأَوْمًا بِيَدِهِ إِلَى السَّكْبَةِ — لَا نَهْيُجُ مِنْكُمْ أَحَدًا » .

(تهذيب الكامل ١ : ١٨ ، والمعتمد الفريد ٢ : ١٤٧ ، والبيان والخبير

١ : ٦٨٠ ، وابن أبي الحديد ٢ : ٢١٣ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٤)

-
- (١) دمدم القوم ، ودمدم عليهم : طعمهم فأهلكهم ، فسواها : أي الذممة ، أي همهم بها فلم يفلت منهم أحد .
(٢) ولاد أبو العباس السكوفة وسوادها ، ثم ولاد المدينة ومكة واليمن والمملكة .
سنة ١٣٢ وولاد إمارة الحاج في هذه السنة ، ومات بالمدينة في ربيع الأول سنة ١٣٣ هـ (الطبري ج ٩ ص ١٤٧)
(٣) أي لأن روي له ، ظن أن لن نقدر عليه .
(٤) الحمراء : العجم لأن الغلاب على ألوانهم البيضاء والحمررة .

٩ - خطبته بالمدينة

قال : « أيها الناس : حَتَّامٌ يَهْتِفُ بِكُمْ صَرِيحُكُمْ ^(١) ؟ أَمَا أَنَا لِرَاقِدِكُمْ أَن يَهْبَ مِنْ نومه ؟ كَلَّا بَلْ رَانَ ^(٢) عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ، أَغَرَّكُمْ الْإِهْمَالُ حَتَّى حَسِبْتُمُوهُ الْإِهْمَالُ ؟ هِيَاهُ مِنْكُمْ وَكَيْفَ بِكُمْ ، وَالسُّوْطُ كُنِّي ، وَالسَّيْفُ مُشَهَّرٌ ^(٣) ! حَتَّى يُبَيِّنَ قَبِيلَةً قَبِيلَةً وَيَعْصَّ كُلُّ مُثَقَّفٍ بِالْهَامِ ^(٤) وَيُقِنِّنَ رَبَّاتِ الْخُدُورِ حَوَاسِرًا يَسْخَنَ عُرْضَ ذَوَائِبِ الْإِيْتَامِ ^(٥) (المقدّم القريدي ٢ : ١٤٦)

١٠ - خطبة أخرى له ^(٦)

وخطب فقال : « أحرز لسان رأسه ، اتعظ امرؤ بغيره ، اعتبر عاقل قبل أن يعتبر به ، فَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ ، وَقَدَّمَ الْفَضْلَ مِنْ عَمَلِهِ » ثم أخذ بقائم سيفه ، فقال : « إِنْ بِكُمْ دَاءٌ هَذَا دَوَاؤُهُ ، وَأَنَا زَعِيمٌ لَكُمْ بِشِفَائِهِ ، وما بعد الوعيد إلا الإيقاع . (يون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٢ ، ومواسم الأدب ٢ : ١١٤)

(١) الصريح : المستفح (والمغث أيضا) (٢) غلب . (٣) شهر سيفه كنع ، وشهره بالتشديد : انتضاء فرقه على الناس . (٤) فثقيف الرماح : تسويتها . (٥) قوله ويقنن : أي الرماح ، والضمير يعود على (كل مثقف) . حوامر : جمع حامر وهي كل مكتوفة الرأس والذراعين (٦) هذه الخطبة أوردها ابن قتيبة ، ومزأها إلى داود بن علي ، ونسبها صاحب المقد إلى المنصور ، وأنه قالها لما قتل الأمويين (راجع المقد ج ٧ : ص ١٤٥) .

ونصها كما أوردها : « أحرز لسان رأسه ، انتبه امرؤ لحظته ، نظر امرؤ في يومه لغده ، فشى القصد ، وقال الفضل ، وجانب الهجر » ، ثم أخذ بقائم سيفه ، فقال :

« أيها الناس : إِنْ بِكُمْ دَاءٌ هَذَا دَوَاؤُهُ ، وَأَنَا زَعِيمٌ لَكُمْ بِشِفَائِهِ ، فليعتبر عبد قبل أن يُعتَبَرُ به ، فَإِنَّمَا بَعْدَ الْوَعِيدِ الْإِنْقِطَاعُ ، وَإِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ » .
والهجر : القبح من الكلام .

١١ - خطبته وقد بلغه أن قوماً أظهروا شكاً بنى العباس

وبلغهُ أن قوماً أظهروا شكاً بنى العباس ، فافترع المنبر ، وحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَغْدَرًا يَا هَلْ أَخْلَرُ^(١) والتبديل ؟ أَلَمْ يَرَدَّ عَكُمْ الْفَتْحُ الْمِينُ^(٢) ، عَنْ الْخَوْضِ فِي ذِمِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ كَلَّا وَاللَّهِ حَتَّى تَحْمِلُوا أَوْزَارَكُمْ وَأَوْزَارَ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِكُمْ ، كَيْفَ قَامَتْ شِفَاهَكُمْ بِالشُّكْرِى لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ بَعْدَ أَنْ حَانَتْ آجَالُكُمْ فَأَرْجَاهَا ، وَابْنَعْتِ دِمَاؤَكُمْ حَقْنَهَا ، الْآنَ يَا مَنَابِتَ الدَّمَنِ ، مَشَيْتِ الضَّرَاءَ^(٣) ، وَدَبَّيْتِ الْحَمَرَ^(٤) ، أَمَا وَمُحَمَّدٍ وَالْعَبَّاسِ إِنْ عُدْتُمْ لِمِثْلِ مَا بَدَأْتُمْ ، لَأُخْصِدَنَّكُمْ بِطَبَّاتِ السُّيُوفِ ، ثُمَّ يُغْنِي رَبُّنَا عَنْكُمْ ، وَنَسْتَبْدِلُ غَيْرَكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ .

مهلاً يَا رَوَايَا^(٥) الإرجاف ، وَأَبْنَاءَ النِّفَاقِ ، عَنْ الْخَوْضِ فِيمَا كُنْتُمْ ، وَالتَّخَلُّى إِلَى مَا خُذْتُمْ ، قَبْلَ أَنْ تَتَلَفَ نَفُوسٌ ، وَيَقْلَّ عَدَدٌ ، وَيَذِلَّ عِزٌّ ، وَمَا أَتَمَّ وَتَلَكْ ؟ أَلَمْ تَجِدُوا مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا مِنْ إِيْرَاثِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مُشَارِقَ الْأَرْضِ وَمِقَارِبَهَا ؟ بَلَى وَالْحِجْرِ وَالْحِجْرِ^(٦) ، وَلَكِنَّهُ حَسَدٌ مُضْمَرٌ ، وَحَسَكٌ^(٧) فِي الصَّدُورِ ، فَرَغْنَا لِلْمَعَاطِسِ^(٨) ، وَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(٩) . »

(١) الخمر : القدر ، أَرَأَيْتُمْ . (٢) فى الأصل « أَلَمْ يَرَمْ الْفَتْحُ الْمِينِ مِنْ الْخَوْضِ فِيمَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » وهو تحريف . (٣) الضراء : الشجر الملتف فى الوادى ، يقال : تَوَارَى الصَّيْدُ مِنْهُ فِي ضَرَاءٍ ، وَفُلَانٌ يَمْشِي الضَّرَاءَ : إِذَا مَشَى مُسْتَخْفِياً فِيمَا يُوَارَى مِنَ الشَّجَرِ . (٤) فى الأصل « وَدَبَّيْتِ الْحَمَرَ » وهو تحريف ، وصوابه ما ذكرنا ، والخمر بالتحريك : كُلُّ مَا وَرَاكَ مِنْ شَجَرٍ أَوْ بَنَاءٍ أَوْ خَيْرٍ ، وَخَرَّكَ فَرَحٌ : تَوَارَى ، وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ : « يَدِبُ لَهُ الضَّرَاءُ ، وَيَمْشِي لَهُ الْحَمَرُ » وهو مثل يضرب للرجل يَخْتَلِ صَاحِبِهِ . (٥) الروايات جمع رواية : وهى المَزَادَةُ فِيمَا الْمَاءُ . (٦) الحجر : حَجَرُ الْكِبْمَةِ ، وهو ما حَوَاهِ الْحَطِيمُ الْمَدَارِ بِالْكِبْمَةِ مِنْ جَانِبِ الشَّامِ . (٧) الحسك : الحقد والعداوة . (٨) المعاطس جمع معطس كعطس وهو الأنف ، والرغم : الذل . (٩) وروى صاحب المقادير

١٢ — خطبته وقد أرتج عليه

وخطب داود بن عليّ، فحمد الله جل وعز، وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، فلما قال: أما بعد، امتنع عليه الكلام، ثم قال:

«أما بعد، فقد يَحْدُ الْمُعْسِرُ، وَيُعْسِرُ الْمُوسِرُ، وَيَقْلُ الْحَدِيدُ، وَيَقْطَعُ الْكَكِيلُ، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ بَعْدَ الْإِفْخَامِ، كَالْإِشْرَاقِ بَعْدَ الْإِظْلَامِ، وَقَدْ يَعْزُبُ الْبَيَانُ، وَيُعْقَمُ الصَّوَابُ، وَإِنَّمَا اللِّسَانُ، مُضْغَةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ، يَفْتَرُ بَقُتُورُهُ إِذَا نَكَلَ، وَيُثَوِّبُ بِإِنْبَسَاطِهِ إِذَا ارْتَجَلَ؛ أَلَا وَإِنَّا لَا نَنْطِقُ بَطَرًا، وَلَا نَسْكُتُ حَصَرًا، بَلْ نَسْكُتُ مُعْتَبِرِينَ، وَنَنْطِقُ مُرْشِدِينَ، وَنَحْنُ بَعْدُ أَمْرَاءُ الْقَوْلِ، فِينَا وَشَجَتْ^(١) أَعْرَاقُهُ، وَعَلَيْنَا عَطَفَتْ أَغْصَانُهُ وَلَنَا تَهْدَلَتْ ثَمَرَتُهُ، فَتَنْخِيرُ مِنْهُ مَا اخْلَوْلَى وَعَذُبَ، وَنَطْرَحُ مِنْهُ مَا اِمْلَوْلَحَ وَحَبِثَ، وَمِنْ بَعْدِ مَقَامِنَا هَذَا مَقَامٌ، وَبَعْدَ أَيَامِنَا أَيَّامٌ، يُعْرِفُ فِيهَا فَضْلُ الْبَيَانِ، وَفَضْلُ الْخُطَابِ وَاللَّهُ أَفْضَلُ مُسْتَعَانَ» ثم نزل^(٢).

(كتاب الصناعتين ص ٢١، وأمال السيد المرتضى ٤ : ١٩، وزهر الآداب ٢ : ٢٨٥)

بعض هذه الخطبة وعزاهما إلى أبي جعفر المنصور، فقلل: «خطب المنصور حين خروجه إلى الشام فقلل:

شَنْشَنَةُ أَعْرِفَهَا مِنْ أَخْزَمِ مَنْ يَلْقَى أَبْطَالَ الرَّجَالِ يُكَلِّمُ

جهلا مهلا روايا الإرجاف، وكهوف النفاق... إلى آخر الخطبة، راجع للمقد لأفريد ٢ : ١٤٥-
والشَّنْشَنَةُ: الطبيعة والعادة، وهو مثل لأبي أخزم الطائي، وكان له ابن يقال له أخزم، وكان عاقا، فأت
وترك بنين، فوثبوا يوما على جدعهم أبي أخزم فأدموه فقال:

إِنْ بَنَى ضَرْجُونِي بِالْأَمِّ شَنْشَنَةُ أَعْرِفَهَا مِنْ أَخْزَمِ

أَيَّ إِنْ هَؤُلَاءِ أَشْبَهُوا أَبَاهُمْ فِي الْعَقُوقِ: يضرب في قرب الشبه، ويكمل: يجرح.

(١) وشجت العروق والأغصان كوعده وشجا وشيجا: اشتبكت، والواشجة: اللحم المشتبكة.

(٢) وروى الحصري في زهر الآداب بعض هذا القول وعزاه إلى عبد الملك بن صالح، وروى السيد

المرتضى في أماليه قال:

«صعد أبو العباس السفاح المنبر، فأرتج عليه فقال: «أيها الناس، إن اللسان، بضعة

١٣ — خطبة صالح بن علي

وخطب صالح بن علي^(١) عم السفاح ، فقال :

يا أعضاء النفاق ، وعُبد الضلالة ، أغرَّكم لين أساسي ، وطولُ إيناسي ؟ حتى ظن
جاهلكم أن ذلك لفُلُولِ حَدٍّ ، وفتورِ جِدٍّ ، وخَوَرِ^(٢) قناةٍ ، كذبتِ الظنونُ ، إنها
العِترَةُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، فإِذْ قد استوليتُم العافية ، فعندى فِطامِ وفِكاكِ ، وسيفِ يَقدُّ
الهَامَ ، وإني أقول :

أغرَّكمُ أني بأكرمِ شيمَةٍ رفيقٍ ، وأني بالفواحشِ أخرقُ ؟
ومثلي إذا لم يُجْزَ أحسنَ سَعِيهِ تَكَلَّمُ نِغَاهُ فِيهَا فتنطِقُ
لعمري لقد فاحشتني فغلبتني هنيئا مريثا أنت بالفحشِ أرفقُ

(العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

١٤ — خطبة سديف بن ميمون

وروى صاحب العقد قال :

لما قَدِمَ النَّعْمَرُ بنُ يَزِيدَ بنِ عَبْدِ الْمَلِكِ عَلَى أَبِي الْعَبَّاسِ السَّفَّاحِ فِي ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنْ

مِنَ الْإِنْسَانِ ، يَكِلُ إِذَا كَلَّ ، وَيَنْفَسِحُ بَانْفَسَاحِهِ إِذَا فَسَحَ ، وَنَحْنُ أَمْرَاءُ الْكَلَامِ ، مَذَا
تَفَرَّعَتْ فُرُوعُهُ ، وَعَلَيْنَا تَهْدَلَتْ غُصُونُهُ ، أَلَا وَإِنَّا لَا تَتَكَلَّمُ هَذَرًا ، وَلَا نَسْكُتُ إِلَّا
مَعْتَبِرِينَ » ثُمَّ نَزَلَ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أَبَا جَعْفَرٍ ، فَقَالَ : « اللَّهُ هُوَ لَوْ خُطِبَ بِمِثْلِ مَا اعْتَذَرَ ،
لَسَكَانَ مِنْ أَخْطَبِ النَّاسِ » ، وَهَذَا الْكَلَامُ يَرُوي لِدَاوُدَ بنِ عَلِيٍّ هـ .

والبضعة بفتح الباء وقد تسكمر : القطعة من اللحم ، والهذر بالتحريك : سقط الكلام ويكون لئال
مصدر هذر في منطقه كضرب ونصر .

(١) هو صالح بن علي بن عبد الله بن عباس عم السفاح ، وقد وُلِّدَ السَّفَّاحُ مِصرَ سنة ١٣٢ ثم فلسطين ،
ثم وُلِّدَ مِصرَ ثانية سنة ١٣٦ ، حتى قَدِمَ الْخَبَرُ بِمَوْتِ السَّفَّاحِ فِي ذِي الْحِجَّةِ سنة ١٣٦ ، فَأَقْرَهُ الْمَنْصُورُ عَلَى
عَمَلِ مِصرَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى فَلسطِينَ ، وَمَاتَ وَهُوَ عَامِلٌ حِمصَ بِقَنْسَرِينَ . (٢) ضَعَفَ .

بنى أُمّية ، وُضعت لهم الكراسى ، ووضعت لهم كَنَمارق^(١) ، وأجلسوا عليها ، وأجلس
الغدرَ مع نفسه في اللُصّلى ، ثم أذن لِشيعته فدخلوا ودخل فيهم سُديف بن ميمون^(٢) ،
وكان متوشحاً سَيْفًا ، متنكباً قوساً ، وكان طويلاً آدم^(٣) ، فقام خطيباً .

فحمّد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيزعم الضُّلال بما حَبِطَت^(٤) أعمالهم أنْ غيرَ
آلِ محمد أولى بالخِلافة ؟ فلمَ وبِمَ أيها الناس ؟ لكم الفضلُ بالصَّحابة ، دون حقِّ
ذوى القِرابَةِ ، الشركاء في النسب ، الأَكفَاء في الحسب ، الخاصّة في الحياة ، الوُفَاة^(٥)
عند الوُفَاة ، مع ضَرْبهم على الدين جاهلكم ، وإطعامهم في الأولى جائِعكم ، فكم قَصَمَ
الله بهم من جَبَّار باغٍ ، وفاسق ظالم ، لم يُسْمَعْ بِمِثْلِ العباس ، لم تخضع له أمة بواجب حق ،
أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أبيه ، وجِلْدَةٌ ما بين عينيه^(٦) ، أَمِينُهُ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ^(٧)
وَرَسُولُهُ إلى أهل مكة ، وحاميه يوم حُتَيْن^(٨) ، لا يَرُدُّ له رأياً ، ولا يخالف له قَسْماً ،
إنكم والله معاشرَ قريش ما اخترتم لأنفسكم من حيث ما اختاره الله لكم ، تَيْمِيٌّ^(٩) مرّةً ،
وعَدَوِيٌّ^(١٠) مرّةً ، وكنتم بين ظَهْرَانِي قوم قد آثَرُوا العاجِلَ على الآجِلِ ، والفانِي
على الباقي ، وجعلوا الصدقات في الشهوات ، والفَيْءَ في اللذات والغنائم ، والغنائم

(١) كَنَمارق جمع نَمْرَقَة كَمَنْفَذَة : وهي الوسادة الصغيرة . (٢) مولد أبي العباس السفاح .

(٣) وصف من الأدمة ، وهي كالدمرة وزنا ومعنى . (٤) فسدت . (٥) الوفاة جمع

وَأَف . (٦) خطب الوليد بن عبد الملك فقال : « إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول : « إن

الحجاج جلدة ما بين عيني ، ألا وإنه جلدة وجهي كله » - البيان والتبيين ١ : ١٦٠ و ٣ : ٢١ - .

(٧) يوم مبايعة الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً معهم امرأتان

وليس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عمه العباس - وهو على دين قومه - ولكنه رأى أنه يحضر

أمر ابن أخيه ليتوثق له . (٨) كان العباس من ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة

حُتَيْن ، حين انهزم المسلمون أول الموقعة ، وكان أخذاً بلجام بغلته . (٩) يريد أبا بكر الصديق

رضي الله عنه ، وهو من تيم بن مرة بن كعب بن لؤي . (١٠) يريد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو

من علي بن كعب بن لؤي .

في الحارم ، إذا ذُكِرُوا بالله لم يَذْكُرُوا ، وإذا قَدَّمُوا بالحق أَدْبَرُوا ، فذلك زمانهم ،
وبذلك كان يعملُ شيطانهم^(١) .
(المقد القريد : ٢ : ٣٠١)

١٥ — خطبة أبي مسلم الخراساني

وروى ابن أبي الحديد قال :

وخطب أبو مسلم بالمدينة في السنة التي حج فيها في خلافة السفاح^(٢) ، فقال :
« الحمد لله الذي حَمَدَ نفسه ، واختار الإسلام ديناً لعباده ، ثم أوحى إلى محمد رسول الله
صلى الله عليه وآله من ذلك ما أَوْحَى ، واختاره من خَلقه ، نفسه من أنفسهم ، وَبَيْتَهُ
من بيوتهم ، ثم أنزل عليه في كتابه الناطق الذي حَفِظَهُ بعلمه ، وأَشْهَدَ ملائِكَتَهُ على
حقِّه ، قوله : « إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُفْرَهُمْ
تَطْهِيراً » ، ثم جعل الحق بعد محمد صلى الله عليه وآله في أهل بيته ، فصَبَرَ مَنْ صَبَرَ مِنْهُمْ
بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله على اللَّأْوَاءِ^(٣) والشدة ، وَأَغْصَى على الاستبداد
والأثرة ، ثم إن قومًا من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله ، جاهدوا على مِلَّةِ نَبِيِّهِ
وَسُنَّتِهِ بعد عصر من الزمان ، مَنْ عَمِلَ بطاعة الشيطان ، وعداوة الرحمن ، بين ظَهْرَانِي
قوم آثَمُوا العاجِلَ على الآجِلِ ، والفاني على الباقي ، إن رُتِقَ جَوْرُ فَتَقَوْهُ ، أو فُتِقَ حَقُّ رَتَقَوْهُ ،
أهل سُخُورٍ وَمَاخُورٍ ، وَطَنَائِيرٍ^(٤) وَمَزَامِيرٍ ، إن ذُكِرُوا لم يَذْكُرُوا ، أو قُدِّمُوا إلى
الحق أَدْبَرُوا وجعلوا الصَّدَقَاتِ ، في الشُّبُهَاتِ ، والمَغَانِمِ في الحارم ، والْفَيْءِ في الغني ،
هكذا كان زمانهم ، وبه كان يعمل سلطانهم ، وزعمو أن غير آل محمد أولى بالأمر
منهم ، فَلِمَ وَبِمَ أيها الناس ؟ أَلَكُمُ الْفَضْلُ بِالصَّحَابَةِ ، دون ذوى القرابة ، الشركاء

(١) فقر هذه الخطبة مروية في خطبة أبي مسلم الخراساني الآتية بعدها ، ولكنني آثرت إيراد الروایتين
جميعاً كما وردتا . (٢) وذلك في سنة ١٣٦ هـ . (٣) الشدة .

(٤) الطنائير : جمع طنبور كمصفور ، وهو الذي يلعب به .

في النسب ، وَالْوَرَثَةُ فِي السَّلْبِ ^(١) ، مع ضربهم على الدين جاهلكم ، وإطاعهم في الجذب جائعكم ، والله ما اخترتم من حيث اختار الله لنفسه ساعة قط ، وما زلتم بعد نبيه تختارون تيممًا مرة ، وَعَدَوِيًّا مرة ، وَأُمُويًّا مرة ، وَأَسَدِيًّا ^(٢) مرة ، وَسُفْيَانِيًّا مرة ، وَمَرْوَانِيًّا مرة ، حتى جاءكم من لا تعرفون اسمه ولا بيته ^(٣) يضربكم بسيفه ، فأعطيتموها عَنوةً ، وأتم صاغرون ؛ ألا إن آل محمد أئمة الهدى ، وَمَنَارُ سَبِيلِ التَّقَى ، القادة الذّادة السّادة ، بنو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَمُنَزَّلِ جَبْرِيلَ بالتَنْزِيلِ ، كم قصم الله

(١) ما يسلب ، والمراد ورثته في الخلافة . (٢) هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد ابن أسد . (٣) قال ابن أبي الحديد : « يعني نفسه لأنه لم يكن معلوم النسب ، وقد اختلف فيه أبو مول أم عربي » وقال ابن خلكان في (وفيات الأعيان ١ : ٢٨٠) في ترجمته : « أبو مسلم عبد الرحمن ابن مسلم وقيل عثمان الخراساني القائم بالدعوة العباسية ، وقيل هو إبراهيم بن عثمان بن يسار بن سدوس بن جودرن من ولد بزرجهر بن البختنكان الفارسي ، وقد اختلف الناس في نسبه ، فقيل إنه من العرب ، وقيل إنه من العجم ، وقيل من الأكراد ، وفي ذلك يقول أبو دلامة :

أبا مجرم ما غير الله نعمة حل عبده حتى يغيرها العبد

أفي دولة المنصور حاوات غدرة ألا إن أهل الدهر آباؤك الكرد

وقال ابن طباطبائي الفخري ص ١٢٢ : « أما نسبه ففيه اختلاف كثير ، فقيل : هو حر من ولد بزرجهر ، وأنه ولد بأصفهان ، ونشأ بالكوفة ، فاتصل بإبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله ابن عباس فقير اسمه وكناه بلقب مسلم ، وثقفه وفقهه ، حتى كان منه ما كان . وقيل هو عبد تنقل في الرق ، حتى وصل إلى إبراهيم الإمام ، فلما رآه أعجبه سمته وعتقه ، فأبغاه من دولاه وثقفه وفهمه ، وصار يرسله إلى شيعته وأصحاب دعوته بخراسان ، وما زال حل ذلك حتى كان من الأمر ما كان .

وأما هوفاته لما قويت شوكته أدهى أنه ابن سليط بن عبد الله بن عباس ، وكان لعبد الله بن عباس جازية فوقع عليها مرة ، ثم اعتزلها مدة فاستنكحها عبدًا فوطئها ، فولدت منه غلامًا سمته سليطًا ، ثم ألصقته بعبد الله بن عباس ، وأنكره عبد الله ولم يعترف به ، ونشأ سليط ، وهو أكره الخلق إلى عبد الله بن عباس ، فلما مات عبد الله نازع سليط ورثته في ميراثه ، وأعجب ذلك به أمية ليخضوا من علي بن عبد الله ابن عباس ، فأعانوه وأوصوا قاضي دمشق في الباطن ، قال إليه في الحكم وحكم له بالميراث ، فادعى أبو مسلم حين قويت شوكته أنه من ولد سليط هذا .

وذكر ابن خلكان أن المنصور قال له قبل قتله ، وقد عدد له مساوي وقعت عنه : « نزعهم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس ! لقد ارتقيت لا أم لك مرتق صعبا ! » .

بهم من جَبَّار طاغٍ ، وفاسق باغٍ ، شَيد الله بهم الهدى ، وَجَلَّى بهم اللَّعَى ، لم يُسمع بمثل العباس ، وكيف لا تخضع له الأمم لِواجب حقِّ الحرمة ؟ أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أبيه ، وإحدى يديه ، وَجِلْدَةٌ بين عينيه ، أَمِينُهُ يومَ الْعَقَبَةِ ، وَنَاصِرُهُ بِمَكَّةَ^(١) ، ورسوله إلى أهلها ، وَحَامِيهِ يومَ حُنَيْنٍ ، عند ملتقى الْفَتَنِينَ ، لا يخالف له رسماً ، ولا يَفْصِي له حكماً ، الشافع يومَ نَبَقِ الْمُقَابِ^(٢) ، إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في الأحزاب ، ها إن في هذا أيها الناس لَعِبْرَةً لِأُولَى الْأَبْصَارِ .

(شرح ابن أبي الحديد م : ٢ : ٢١٥)

١٦ - خالد بن صفوان وأحوال السفاح

روى الجاحظ قال :

كان خالد بن صفوان الْأَهْتَمِيُّ من سُمَّار أبي العباس السَّفَّاح ، وأهل المنزلة عنده ، ففخرَ عليه ناس من بَلْخَارِث^(٣) ، وأكثروا في القول ، فقال أبو العباس : لِمَ لا تنكلم يا خالد ؟ فقال : « أَخْوَال^(٤) أمير المؤمنين وَعَصَبَتُهُ » قال : « فأتهم أعمام أمير المؤمنين وَعَصَبَتُهُ » قال خالد : وما عسى أن أقول لقوم ، كانوا بين ناسج بُرْدٍ ، ودابغ جِلْدٍ ،

(١) يشير إلى ما كان من العباس في غزوة أحد ، وذلك أن جيش المشركين خرج من مكة لمحاربة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا مقابل المدينة ، وبلغ الخبر الرسول من كتاب يمث به إليه عمه العباس الذي لم يخرج معهم في هذه الحرب محتجاً بما أصابه يوم بدر ، وكان بمكة يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار المشركين (وقيل إنه كان قد أسلم قبل الهجرة ، وكان يكتم إسلامه) .

(٢) موضع بين مكة والمدينة . وذلك أن العباس شفع فيه يوم فتح مكة في أبي سفيان ، وفي أهل مكة فغفا النبي صلى الله عليه وسلم عنهم .

(٣) انظر الجزء الثاني ٢٣٥ . (٤) كانت أم السفاح من بني الحارث ، وهي ربيعة بنت عبيد الله فمين عبيد الله بن عبد المذنان الحارثي ، والذالك يقال له ابن الحارثية .

وسائس قرود ، وراكب عزد^(١) ، كلّ عليهم هُدهد^(٢) ، وغرّتهم فأرة^(٣) ،
وملكتهم امرأة^(٤) ؟ » .
(البيان والتبيين ١ : ١٨٤)

* * *

وروى الحضريّ في زهر الآداب قال :

« دخل خالد بن صفوان على أبي العباس السفاح ، وعنده أخواله من بني الحارث
ابن كعب ، فقال : ما تقول في أخوالى ؟ فقال : « هم هامة^(٥) الشرف ، وعرين^(٦)
الكرم ، وعرّس الجود ، إن فيهم خصالا ما اجتمعت في غيرهم من قومهم ، لأنهم
أطولهم لِمَا^(٧) ، وأكرم شِئًا ، وأطيبهم طَعْمًا^(٨) ، وأوفاهم ذِئمَا ، وأبعدهم هِمًّا ،
الجنرة في الحرب ، والرّفْد^(٩) في الجذب ، والرأس في كل خطب ، وغيرهم
بمنزلة العجب^(١٠) » .

فقال : وصفت أبا صفوان فأحسنّت ، فزاد أخواله في الفخر ، ففضّب أبو العباس

(١) المرء : الحمار .

(٢) يشير إلى حديث المحدث مع سليمان عليه السلام في قوله تعالى : « وَتَقَعَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ، فَكَيْتَ غَيْرَ بِمُعِدِّ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ، إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ، وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ، وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ . . . الآيات » .

(٣) يشير إلى ما يزعجه المؤرخون من أن سيل العرم للذي غرّب اثنين كان سببه قرض الجرذ لسد مأرب

انظر الجزء الأول ص ١٠٥ . (٤) هي بلقيس (بالسكسر) ملكة سبأ .

(٥) الهامة : رأس كل شيء . (٦) العرين : الأنف ، أو ما صلب من عظمه ، ومن كل شيء

أوله . (٧) في الأصل « أما » وأراه بحرفا ، وصوابه « لما » والتم جمع لمة بالسكسر ، وهى الشعر المجاوز

شحمة الأذن . (٨) الطعم : الطعام . (٩) الرّفْد : العطاء والصلّة . (١٠) العجب : أسل

للقنب ، ومؤخر كل شيء .

لأعماله ، فقال : افخر يا خالد على أخوال أمير المؤمنين ، قال : وأنت من أعماله ، قال :

« كيف أفاخر قومًا بين ناسج بُرد ، وسائس قرد ، ودابغ جلد ، وراكب عرد ، دلّ عليهم هُدهد ، وغرقهم جُرذ ، وملكتهم امرأة ؟ » ، فأشرق وجه أبي العباس .
(زهر الآداب ٣ : ١٣٠ ، ٣٤٦)

١٧ — خالد بن صفوان ورجل من بني عبد الدار

وفاخر خالد بن صفوان رجلاً من بني عبد الدار الذين يسكنون اليمامة ، فقال له العبدري : من أنت ؟ قال : أنا خالد بن صفوان بن الأهم ، فقال له العبدري : أنت خالد « كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ^(١) » وأنت ابن صفوان ، وقال الله تعالى : « كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ^(٢) » ، وأنت ابن الأهم ، والصحيح خير من الأهم ^(٣) ، فقال له خالد ابن صفوان : يا أخا بني عبد الدار ، أتتكلم ؟ وقد هَشَمْتَكَ هاشم ، وأمَّتْكَ ^(٤) بنو أمية ، وخَزَمْتَكَ بنو مخزوم ، وَجَجْتَكَ بنو جُجج ^(٥) ؟ فأنت عَبْد دَارِهِمْ ^(٦) تفتح إذا دخلوا ، وَتُغْلِقُ إذا خرجوا » فقام العبدري محمواً .

(أمال السيد المرتضى ١ : ٢١٥ ، والبيان والتبيين ١ : ١٨٢)

(١) وتام الآية الكريمة : « وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ » .

(٢) صفوان جمع صفوانة : وهي الحجر الصلب الضخم كالصفوان والصفة ، والآية الكريمة : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ، فَأَصَابَهُ وَابِلٌ ، فَفَرَكَهُ صَدْداً ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » .

(٣) هم كفروح : انكسرت ثناباه من أصولها فهو أهم . (٤) قادتك (٥) انظر الجزء الثاني ص ٩٨ . (٦) وكانت الحجابة في بني عبد الدار ، انظر الجزء الثاني ص ٩٨ أيضاً .

١٨ — خالد بن صفوان يرثي صديقاله

وقال الجاحظ : قيل لرجل — أراه خالد بن صفوان^(١) — مات صديق لك ، فقال :
« رحمة الله عليه ، لقد كان يملأ العينَ جمالا ، والأذنَ بيانًا ، ولقد كان يُرْجَى
فلا يَحْشَى ، ويُغشى فلا يَغشى ، ويُعطى فلا يُعطى ، قليلاً لدى الشرِّ حضوره ، سليماً
للصديق ضميره » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والأمال ٢ : ١٧٤)

١٩ — خالد بن صفوان يمدح رجلاً

وذكر خالد رجلاً ، فقال :
« كان والله بديع المنطق ، دَلِقَ^(٢) الجزأة ، جَزَل الألفاظ ، عربىَّ اللسان ، ثابت
المُعْدَة ، رقيق الحواشى ، خفيف الشَّفتين ، بليلى الريق ، رَحْبُ الشرف ، قليل
الحركات ، خَفِيَ الإشارات ، خُلُوُ الشَّمال ، حَسَنُ الطلاوة^(٣) ، حَيِّياً جَرِيئاً ، قَتُولاً
صَمُوتاً ، يُقْلُ الحَزْ^(٤) ، وَيُصِيبُ الفاصل ، لم يكن بالمعذر^(٥) فى منطقهِ ، ولا بالزَّمنِ^(٦)
فى مُرُوءتِهِ ، ولا بالخرق^(٧) فى خَلِيقَتِهِ ، متبوعاً غير تابع ، كأنه عَلمٌ فى رأسه نار » .
(زهر الآداب ٣ : ١٦٧)

٢٠ — كلمات بليغة لخالد بن صفوان

وقال خالد بن صفوان لبعض الوُلاة : « قَدِمْتَ فَأَعْطَيْتَ كُلاًّ بِقِسْطِهِ مِنْ وَجْهِكَ

-
- (١) ورواية القائل : عن الأصمعي قال خالد بن صفوان لفتى بين يديه : رحم الله أباك . . . الخ .
(٢) مأخوذ من « سيف دلق » أى سهل الخروج من غده ، ويقال : اندلق السيل أى اندفع ،
واندلق للسيف : أى شق جفنه فخرج منه . (٣) الطلاوة مثلثة : القبول . (٤) الحز : اللطم .
(٥) عذر فى الأمر تعديراً ، إذا قصر ولم يجتهد . (٦) أى الممعب ، والزمانة كسحابة : العاهة ،
زمن كفرح فهو زمن وزمين . (٨) الخرق : الذى لا يحسن العمل والتصرف فى الأمور .

أبوكرامتك^(١) ، حتى كأنك من كل أحد ، وحتى كأنك لست من أحد .

(الأمالي ١ : ٢١٦ ، زهر الآداب ٣ : ٣٤٧ ، ١٦٧)

وقال شبيب بن شيبية لخالد بن صفوان : « مَنْ أَحَبَّ إِخْوَانَهُ إِلَيْكَ ؟ » قال :

« مَنْ سَدَّ خَلْجِي ، وَغَفَرَ زَلَّتِي ، وَقَبِلَ عَلَيَّ . » (الأمالي ١ : ١٩٨)

وذكر شبيب عنده مرة ، فقال : « ليس له صديق في السر ، ولا عدو في العلانية . »

قال الجاحظ : « وهذا كلام ليس يعرف قدره إلا الراسخون في هذه الصناعة . »

(البيان والتبيين ١ : ١٨٤ ، زهر الآداب ٣ : ٢٠٩)

وقال خالد : « ما الإنسان ، لولا اللسان ، إلا صورة ممثلة ، أو بهيمة مُمَهَّمَة ، »

وقال « أُنْقُوا كَجَانِيْقِ^(٢) الضُعفاء » يريد الدعاء . (البيان والتبيين ١ : ١٩٠)

وذكر المزاح بحضرة خالد بن صفوان ، فقال : « يُنْشِقُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ مِثْلَ الْخُرْدَلِ ،

يُفْرِغُ عَلَيْهِ مِثْلَ الْمَرْجَلِ ، وَيَرْمِيهِ بِمِثْلِ الْجُنْدَلِ ، ثُمَّ يَقُولُ : إِنَّمَا كُنْتُ أَمْزَحُ ! » .

(زهر الآداب ٥٢ : ٨)

٢١ — عمارة بن حمزة والسفاح

وقال عُمارَةُ بن حمزة لأبي العباس السفاح - وقد أمر له بجوائز نفيسة وكنوة وصلة ،

وَأَدْنَى مَجْلِسِهِ :

« وَصَلَّكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَبَرَكَ ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ أَرَدْنَا شُكْرَكَ عَلَى كُنْهِ^(٣)

صِلَتِكَ ، إِنْ الشُّكْرَ لَيَقْصُرُ عَنْ نِعْمَتِكَ ، كَمَا قَصُرْنَا عَنْ مَنَزَلَتِكَ ، ثُمَّ إِنْ اللَّهُ تَعَالَى

جَعَلَ لَكَ فَضْلًا عَلَيْنَا ، بِالتَّقْصِيرِ مِنَّا ، وَلَمْ تَحْرِمْنَا الزِّيَادَةَ مِنْكَ لِنَقْصِ^(٤) شُكْرَنَا . »

(زهر الآداب ٣ : ٢٤٦)

(١) وفي رواية زهر الآداب : « من نظرك ومجلسك في صونك وهداك . »

(٢) جمع منجنيق بفتح الميم وكسرهما : آلة ترى بها الحجارة . (٣) كنه الشيء : حقيقته .

(٤) في الأصل : « لبعض » وأراء محرفا .

خطب أبي جعفر المنصور (توفي سنة ٥١٥هـ)

٢٢ - خطبته بمكة

خطب أبو جعفر المنصور بمكة ، فقال :

« أيها الناس : إنما أنا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه ، وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وإرادته ، وأعطيه بإذنه ، فقد جعلني الله عليه قفلاً ، إن شاء أن يفتحني فتحنى لإعطائكم ، وقسم أرزاقكم ، فإن شاء أن يقفلني عليها أقفلني ، فارغبوا إلى الله وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم من فضله ما أعلمكم به إذ يقول : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » أن يوفقني للرشاد والصواب ، وأن يُلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » .

(العقد المفريد ٢ : ١٤٥ ، وعيون الأخبار م ٢ ص ٢٥١ ، تاريخ الطبري ٩ : ٢١)

٢٣ - خطبته بمكة بعد بناء بغداد

وحج بعد بناء بغداد فقام خطيباً بمكة ، فكان مما حفظ من كلامه^(١) : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ^(٢) مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ، أَمْرٌ مُبَرَّمٌ ، وَقَوْلٌ عَدْلٌ ، وَقَضَاءٌ فَضْلٌ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَفْلَحَ^(٣) حُجَّتُهُ ، وَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ،

(١) عزاء صاحب العقد هذه الخطبة إلى سليمان بن علي (انظر ج ٢ ص ١٤٥) ، وكذا صاحب مواهب

الأدب (انظر ج ٢ : ص ١١٥) . (٢) قبل المراد بالزبور جنس الكتب المنزلة ، وبالدكر العرج

المحفوظ . (٣) نصر .

الذين اتخذوا الكعبة غرضاً ، وَالْفَيْءَ إِرْثًا ، وَجَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ^(١) ، لَقَدْ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ، فكم ترى من بر مُعْطَلَةٍ^(٢) وَقَصْرِ مَشِيدٍ ، أمهلهم الله حتى بدّلوا السَّنةَ ، واضطهدوا العِترَةَ^(٣) وَعَنَدُوا^(٤) واعتدوا واستكبروا ، وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ، ثم أخذهم فهل تُحِشُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا؟^(٥) .
(تاريخ الطبري ٩ : ٣١١ ، والكامل لابن الأثير ٦ : ١٢)

٢٤ - خطبته بمدينة السلام

وخطب بمدينة السلام « بغداد » فقال :
« يا عباد الله ، لَا تَظَلَمُوا ، فَإِنَّهَا مَظْلَمَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاللَّهُ لَوْلَا يَدُ خَاطِئَةٍ ، وَظَلَمُ ظَالِمٍ ، لَمَشَيْتُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ فِي أَسْوَاقِكُمْ ، وَلَوْ عَلِمْتُ مَكَانَ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنِّي لِأَتَيْتُهُ حَتَّى أَدْفَعُهُ إِلَيْهِ » .
(تاريخ الطبري ٩ : ٣١٠)

٢٥ - خطبته وقد أخذ عبد الله بن حسن وأهل بيته

ولما أخذ عبد الله بن حسن^(١) وإخوته ، والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته ، صعد المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

(١) الدفة : للفرقة والقطعة والجمع مضمون ، وجعل المشركون القرآن عِضِينَ أى فرقا : فرقوا فيه القول ، فجعلوه كذبا وسحرا وكهانة وشعرا ، فهم قد (مضوه) بالتشديد أفضاء أى جزءه وأجزاء ، وهو يرهب هنا الأمويين يشير إلى أنهم عطلوا بعض أوامر القرآن بما أتوه من الأعمال من رمى الكعبة ، واضطهاد أهل البيت الخ . (٢) متروكة لا يستحق منها هلاك أهلها ، ومشيد : مرفوع أو مطلق بالثيد (بالكسر) وهو ما طلى به الحائط من جص ونحوه ، أى معطل خال من ساكنيه أيضا . (٣) العترة نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأدنون . (٤) عند (مثلث اللون) من العاريق : مال (٥) الصوت الخفى
(٦) هو عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقد حمله المنصور هو وأهل بيته ، من المدينة إلى العراق سنة ١٤٤ هـ ، وألقاهم في غياهبات السجون حتى ماتوا بسجن البكوفة ، وكان يخوف أن يغالبه على الخلافة محمد بن عبد الله هذا (وهو محمد الملقب بالنفس الزكية) وقد خرج عليه بالمدينة فوجه المنصور جيشا لقتاله فقتل سنة ١٤٥ هـ ، وخرج أخوه إبراهيم بن المنصور بالبصرة فقتل أيضا في هذه السنة .

« يا أهل خراسان : أتم شيعتنا وأنصارنا ، وأهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منّا ، وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن أبي طالب ، تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير ، فقام فيها علي ابن أبي طالب ، فتطأخ ، وحكم عليه الحكمين ، فافترقت عنه الأمة ، واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه ، وبطانتته وثقاته فقتلوه ، ثم قام من بعده الحسن بن علي ، فوالله ما كان فيها برجل ، قد عرضت عليه الأموال فقيلها ، فدرس إليه معاوية : إني أحعلك ولياً عهدي من بعدى ، فخذعه فانسلخ له مما كان فيه ، وسلمه إليه ، فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلقها غداً ، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ، ثم قام من بعده الحسين بن علي ، فخذعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق ، والإغراق في الفتن ، أهل هذه المدرة السوداء وأشار إلى الكوفة فوالله ما هي بحرب فأحاربها ولا سلم فأسلمها ، فرّق الله بيني وبينها ، فخذلوه وأسلموه حتى قتل ، ثم قام من بعده زيد بن علي ، فخذعه أهل الكوفة وغرّوه ، فلما أخرجوه^(١) وأظهروه أسلموه وقد كان أتى محمد بن علي^(٢) ، فناشده في الخروج ، وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة ، وقال له : إنا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة ، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده عتي داود بن علي ، وحذّره غدر أهل الكوفة ، فلم يقبل وتم^(٣) على خروجه ، فقتل وصلب بالكناسة^(٤) ثم وثب علينا بنو أمية ، فأماوا شرفنا ، وأذهبوا عزنا ، والله ما كانت لهم عندنا نيرة^(٥) يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم ، وبسبب خروجهم عليهم ، فنفّونا من البلاد فصيرنا مرة بالطائف . ومرة بالشّام ، ومرة بالشّراء^(٦) ، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة

(١) وقد خرج في خلافة هشام بن عبد الملك ، فقاتله يوسف بن عمر الثقفي والى العراق ، وقتل وصلب

سنة ١٢١ هـ . (٢) يريه أباه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

(٣) تم على الأمر : استمر عليه . (٤) موضع بقرب الكوفة .

(٥) نأر . (٦) موضع بين دمشق والمدينة (الكرك الآن) .

وأنصارا، فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان، ودفع بحكمكم أهل الباطل، وأظهر حقنا، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم، فقرأ الحق مقرأه، وأظهر مناره، وأعز أنصاره، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين، فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا، وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا، وبغيا لما فضلنا الله به عليهم، وأكرمنا به من خلافته، وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم :

جَهْلًا عَلَىٰ وَجِبْنَا عَنْ عَدُوهُمْ كَبِئْسَتِ الْخَلَّتَانِ الْجَهْلُ وَالْجُبْنُ

فإني والله يأهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة، بلغني عنهم بعض السقم والتمرؤم^(١)، وقد دسست لهم رجالا، فقلت : قم يا فلان، قم يا فلان، فخذ معك من المال كذا، وحدوث لهم مثالا يعملون عليه، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة، فدسوا إليهم تلك الأموال، فوالله ما بقى منهم شيخ ولا شاب، ولا صغير ولا كبير، إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم، وحللت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي، وطلبهم الفتنة، والتماسهم الخروج على، فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين « ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية « وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ » .

(تاريخ الطبري ٩ : ٣١٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٤١)

٢٦ — خطبته حين خروج محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن

ولما خرج محمد وإبراهيم ابنا عبد الله، شن^(١) المنصور عليه درعه، وتقلد سيفه، وصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه ثم قال :

مَالِي أَكْفَيْكَ عَنْ سَعْدٍ وَتَشْتُمُنِي؟ وَلَوْ شَتَّمْتُ بَنِي سَعْدٍ لَقَدْ سَكَنُوا

(١) الأصل فيه : تمرمه : تمرقه ونزع ما عليه من اللحم . (٢) شن عليه درعه : صجها .

جَهْلًا عَلَيْنَا وَجُبْنَا عَنْ عِلْمِهِمْ لَبِثْتَ اَتْلُتَانِ الْجَهْلُ وَالْجُبْنُ
أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ حَجَّرُوا عَمَّا قَنَاهُ ، فَمَا عَصَدُوا الْكَافِي ، وَمَا شَكَرُوا الْمُنْعَمَ ، فَإِذَا
حَاولُوا أَشْرَبَ رَتْقًا عَلَى غَصَصٍ ، وَأَبَيْتُ مِنْهُمْ عَلَى مَضَضٍ ، كَلَّا وَاللَّهِ لَا أَصِلُ ذَا رَحِمٍ
حَاولَ قَطِيعَتِهَا ، وَلَنْ لَمْ يَرْضَ بِالْمَعْوِ لِيَطْلُبَنَّ مَا لَمْ يَوْجَدْ عِنْدِي ، فَلْيُبْقِ خَوْفَ نَفْسٍ
عَلَى نَفْسِهِ ، قَبْلَ أَنْ تَمُتِي ، فَلَا يُسْكِي عَلَيْهِ .
(مواسم الأدب ٢ : ١١٩)

٢٧ — خطبته وقد قتل أبا مسلم الخراساني

وخطب بالمدائن عند قتل أبي مسلم الخراساني^(١) ، فقال :
« أَيُّهَا النَّاسُ : لَا تَخْرُجُوا مِنْ أُنْسِ الطَّاعَةِ إِلَى وَحْشَةِ الْمَعْصِيَةِ ، وَلَا تُسْرِثُوا غَشَّ
الْأُتَمَّةِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يُسَرَّ أَحَدٌ قَطُّ مِنْكَرَةً إِلَّا ظَهَرَتْ فِي آثَارِ يَدِهِ ، وَفَلَّتَاتِ لِسَانِهِ ،
وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ ، وَأَبْدَاهَا اللَّهُ لِإِمَامِهِ ، بِإِعْزَازِ دِينِهِ ، وَإِعْلَاءِ حَقِّهِ ، إِنَّا لَنْ نَبْخَسَكَم
حَقُوقَكُمْ ، وَلَنْ نَبْخَسَ الدِّينَ حَقَّهُ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ مِنْ نَارَعَنَا عُرُوءَ هَذَا الْقَمِيصِ أَجْزَرَانَاهُ
خَبِيٍّ هَذَا الْفِعْدِ ، وَإِنْ أَبَا مُسْلِمٍ بَايَعْنَا وَبَايَعَ النَّاسَ لَنَا ، عَلَى أَنَّهُ مِنْ نَكْتٍ بَنَّا فَقَدْ
أَبَاحَ دَمَهُ ، ثُمَّ نَكْتُ بَنَّا ، فَحَكَمْنَا عَلَيْهِ لِأَنفُسِنَا حُكْمَهُ عَلَى غَيْرِهِ لَنَا ، وَلَمْ تَمْنَعْنَا
رِعَايَةَ الْحَقِّ لَهُ ، مِنْ إِقَامَةِ الْحَقِّ عَلَيْهِ . »

(تاريخ الطبري ٩ : ٣١٣ ، ومجمع الأمثال ١ : ٣١٨ ، ومواسم الأدب ٢ : ١٢٠ وغرر
الخصائص الواضحة ٧٦) .

(١) قتل أبو مسلم سنة ١٣٧ ، وذلك أن المنصور كان قد أرسله لحرب عمه عبد الله بن علي — وكان
قد خرج عليه بالشام كما سيأتي — فلما ظفر أبو مسلم ، وضم جميع ما كان في عسكر عبد الله ، وانهزم عبد الله
إلى البصرة ، أرسل المنصور بعض خدومه للحفاظ على ما في العسكر من الأموال ، فغضب أبو مسلم ، وقال :
أمين على الدماء ، خائن في الأموال ! وشم المنصور ، وعزم على الخلاف ، وأن يتوجه إلى خراسان ،
فجعل المنصور يتلطف به حتى استقدمه إليه وقتله .

٢٨ - خطبة أخرى

وخطب فقال :

« أيها الناس ، لا تنفروا أطراف النعمة بقلة الشكر ، فتحلَّ بِكُمْ النِّعْمَةُ ، ولا تستروا غِشَّ الأئمة ، فإن أحداً لا يستر مُنْكَراً إلا ظهر في فلتات لسانه ، وَصَفَحَات وجهه ، وطَوَّالِ نظره ، وإنا لانجمل حقوقكم ماعَرَ قَمِّ حَقَّنَا ، ولا ننسى الإحسان إليكم ما ذَكَرْتُمْ فَضْلَنَا ، ومن نازَعَنَا هذا القميصَ أوطأنا أُمَّ رَأْسِهِ خَبءٌ ^(١) هذا الغمد . والسلام » .

(مواسم الأدب ٢ : ١٢٠)

٢٩ - قوله وقد قوطع في خطبته

وخطب يوم الجمعة . فقال :

« الحمد لله أحمدُه . وأستعينه . وأؤمن به . وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له : أيها الناس . اتقوا الله . فقام إليه رجل . فقال : أذكرك من ذَكَرْتَنَا بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . فقطع الخطبة . ثم قال : « سَمِعًا سَمِعًا لِمَنْ فَهِمَ عَنْ اللَّهِ . وَذَكَرَ بِهِ . وأعوذ بالله أن أكون جَبَّاراً عَنِيداً . وَأَنْ تَأْخُذَنِي الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ . لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذْنٌ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَهْتِدِينَ . وَأَنْتَ أَيُّهَا الْقَائِلُ . فوالله ما أردت بها وجه الله . وَلَكِنَّكَ حَاوَلْتَ أَنْ يُقَالَ : قَامَ فَقَالَ . فَمُوقِبَ فَصَبَرَ . وَأَهْوَنَ بِهَا ! وَيَلَّكَ لَوْ هَمَمْتُ ^(٢) ! فَاهْتَبَلَهَا ^(٣) إِذْ غَفَرْتُ . وَإِيَّاكَ وَإِيَّاكُمْ مَعْشَرَ النَّاسِ أَخْتَهَا فَإِنَّ الْحِكْمَةَ عَلَيْنَا نَزَلَتْ . وَمِنْ عِنْدِنَا فَصَلَّتْ . فَرُدُّوا الْأُمُورَ إِلَى أَهْلِهَا . تُورِدُوهُ مَوَارِدَهُ . وَتُصْدِرُوهُ مَصَادِرَهُ . ثُمَّ عَادَ فِي خُطْبَتِهِ . فَكَأَنَّهُ يَقْرَأُهَا مِنْ كَفِّهِ . فَقَالَ : وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ »

(تاريخ الطبري ٩ : ٣١١ ، والعقد الفريد ٢ : ١٤٥ ، وميرون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٦ ، والكامل لابن الأثير ٦ : ١٢ ، وصبح الأمل ١ : ٢٦٢) .

(١) الخبء : ما خبيء . (٢) أى لو همت بتقابلك . (٣) اغتصبها .

٣٠ — المنصور يصف خلفاء بني أمية

واجتمع عند المنصور أيام خلافته جماعة من ولد أبيه . منهم عيسى بن موسى والعباس بن محمد وغيرهما . فتذاكروا خلفاء بني أمية . والسبب الذي به ساءوا عزهم . فقال المنصور :

« كان عبد الملك جبّاراً لا يُبالى ماصنع . وكان الوليد لحنّاً مجنوناً . وكان سليمان همته بطنه وفرجه . وكان عمر أعور بين عُثمان . وكان هشام رجل القوم . ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من السلطان ، يحوطونه ويصونونه ويحفظونه . ويحرسون ما وهب الله لهم منه ، مع تسنّمهم معالي الأمور ، ورَفْضهم أدانيها ، حتى أفضى أمرهم إلى أحداثٍ مُترَفِّين من أبنائهم ، فغمطوا^(١) النعمة ، ولم يشكروا العافية ، وأساءوا الرعاية . فابتدأت النّعمة منهم ، باستدراج الله إياهم ، آمنين مكره ، مُطَرِّحين صيانة الخلافة ، مستخفين بحق الرياسة ، ضعيفين عن رسوم السياسة ، فسلبهم الله العِزّة ، والبسهم الذلّة ، وأزال عنهم النعمة » . (شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٢١٥)

٣١ — المنصور يصف عبد الرحمن الداخل

وقال المنصور يوماً لأصحابه : أخبروني عن صقر قريش ، مَنْ هو ؟ قالوا : أمير المؤمنين ، الذي راض^(٢) الملّك ، وسكّن الزلازل ، وحسّم الأدواء . وأباد الأعداء . قال : ما صنعتُم شيئاً . قالوا : فمعاوية . قال : ولا هذا . قالوا : فعبد الملك بن مروان . قال : ولا هذا ، قالوا : فمن يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الرحمن بن معاوية^(٣) ، الذي عبّر

(١) غمط النعمة : طهرها وحقرها .

(٢) ذلل . (٣) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل مؤسس دولة بني أمية بالأندلس وسائر .

البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلاداً أعجيباً مُفَرِّداً ، فمَصَّرَ الأمصار ، وَجَنَّدَ الأجناد ، ودَوَّنَ
الدواوين ، وأقام مُلكاً بعد انقطاعه ، بحسن تديره ، وشدة سِكيمته . إن معاوية
نهضَ بِمَرْكَبِ حَمَلِهِ عَلَيْهِ مُعَمَّرٌ وَعُثْمَانُ ، وَذَلَّالاً لَهُ صَعْبُهُ ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ بِبَيْعَةٍ تَقْدِّمُ لَهُ
عَقْدُهَا ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِطَلَبِ غَيْرِهِ واجْتِمَاعِ شِيعَتِهِ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ مُنْفَرِدٌ بِنَفْسِهِ ، مُؤَيَّدٌ
بِرَأْيِهِ ، مُسْتَصْحَبٌ لِعِزِّهِ .

(المقفه الفريد ٢ : ٢٠٢)

وصايا المنصور لابنه المهدي

٣٢ - وصية له

قال المنصور لابنه المهدي : « يَا بُنَيَّ لَا تُبْرِمَ أَمْراً حَتَّى تَفَكَّرَ فِيهِ ، فَإِنْ فِكْرُهُ الْعَاقِلُ مِرَّآئُهُ ، تُرِيهِ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَلِيفَةَ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا التَّقْوَى ، وَالسَّاطَانَ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا الطَّاعَةُ ، وَالرَّعِيَّةَ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا الْعَدْلُ ، وَأَوَّلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ ، وَأَنْقَضُ النَّاسُ عَقْلاً مَنْ ظَلَمَ مِنْ هُوَ دُونَهُ » .

(نهاية الأرب ٦ : ٤١ ، والمقد الفريد ١ : ١٤)

٣٣ - وصية أخرى له

ووصاه فقال له : « إِنِّي لَمْ أَدَعْ شَيْئاً إِلَّا قَدْ تَقَدَّمْتُ إِلَيْكَ فِيهِ ، وَسَأَوْصِيكَ بِمُخْصَالِ اللَّهِ مَا أَظْنُكَ تَفْعَلُ وَاحِدَةً مِنْهَا — وَكَانَ لَهُ سَقَطٌ فِيهِ دَفَاتِرُ عِلْمِهِ ، وَعَلَيْهِ قُفْلٌ لَا يَأْمَنُ عَلَى فَتْحِهِ وَمِفْتَاحِهِ أَحَدٌ ، يَصُرُّ مِفْتَاحَهُ فِي كُمِّ قَمِيصِهِ — فَقَالَ لِلْمَهْدِيِّ : انْظُرْ هَذَا السِّفْطَ فَاحْتَفِظْ بِهِ ، فَإِنْ فِيهِ عِلْمُ آبَائِكَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَأَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَإِنْ أَحْزَنَكَ أَمْرٌ فَانْظُرْ فِي الدَّفْتَرِ الْأَكْبَرِ ، فَإِنْ أَصَبْتَ فِيهِ مَا تَرِيدُ ، وَإِلَّا فَالْثَانِي وَالثَّالِثُ حَتَّى بَلَغَ سَبْعَةً ، فَإِنْ ثَقُلَ عَلَيْكَ فَالْكُرْسَى الصَّغِيرَةَ ، فَإِنَّكَ وَاجِدٌ فِيهَا مَا تَرِيدُ ، وَمَا أَظْنُكَ تَفْعَلُ ، وَانْظُرْ هَذِهِ الْمَدِينَةَ فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْتَبْدِلَ بِهَا ، فَإِنَّهَا يَبْتَكَ وَعِزُّكَ ، قَدْ جَمَعْتُ لَكَ فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ ، مَا إِنْ كُسِرَ عَلَيْكَ الْخِرَاجُ عَشْرَ سَنِينَ ، كَانَ عِنْدَكَ كِفَايَةٌ لِأَرْزَاقِ الْجُنْدِ وَالنَّفَقَاتِ ، وَعَطَاءِ الذَّرِّيَّةِ ، وَمَصْلَحَةِ الثَّغُورِ ، فَاحْتَفِظْ بِهَا فَإِنَّكَ لَا تَزَالُ عَزِيزاً مَا دَامَ

يت مالك عامراً ، وما أظنك تفعل . وأوصيك بأهل بيتك ، أن تظهر كرامتهم
وتقدمهم ، وتكثر الإحسان إليهم ، وتعظم أمرهم ، وتوطئ الناس أعقابهم ، وتوليهم
المنابر ، فإن عزك عزهم ، وذكرم لك ، وما أظنك تفعل ، وانظر مواليك فأحسن إليهم
وقربهم ، واستكثر منهم ، فإنهم مادّتك لشدة إن نزلت بك ، وما أظنك تفعل .
وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بدّلوا أموالهم في دولتك ،
ودمائم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن
مسيئتهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم في أهله وولده ،
وما أظنك تفعل ، وإياك أن تبني مدينة الشرقية ، فإنك لا تتم بناءها ، وما أظنك تفعل ،
وإياك أن تستعين برجل من بني سليم ، وأظنك ستفعل ، وإياك أن تدخل النساء
في مشورتك في أمرك ، وأظنك ستفعل .
(تاريخ الطبري ٩ : ٢١٩)

٣٤ - وصية أخرى له

ووصى المهدي أيضاً ، فقال : « اتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى ،
يجعل لك فيما كرتك وحرزتك خراجاً ، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث
لا تحسب ، احفظ يا بني محمداً صلى الله عليه وسلم في أمته ، يحفظ الله عليك أمورك ،
وإياك والدم الحرام ، فإنه حوب^(١) عند الله عظيم ، وعار في الدنيا لازم مقيم ، والزم
الحلال ، فإن فيه ثوابك في الآجل ، وصلاحك في العاجل ، وأقم الحدود ، ولا تعتد
فيها فتبور^(٢) ، فإن الله لو علم أن شيئاً أصاح لدينه ، وأزجر عن معاصيه من الحدود ،
لأمر به في كتابه ، واعلم أنه من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب
والعقاب على من سعى في الأرض فساداً ، مع ما ذكر له عنده من العذاب العظيم ، فقال :

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ، فالسلطان يا بنى حبلُ الله اللتين ، وعُروته الوثقى ، ودين الله القيم ، فاحفظه وحطه ، وحصنه وذُبَّ عنه ، وأوقع بالمُحْدِثِينَ فِيهِ ، واقم المارقين منه ، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم ، والمثلات ^(١) بهم ، ولا تجاوز ما أمر الله به في مُحْكَمِ الْقُرْآن ، واحكم بالعدل ولا تشطط ، فإن ذلك أقطع للشغب ، وأحسم للعدو ، وأنجع في الدواء ، وعِفَّ عَنِ النَّيِّ ، فليس بك إليه حاجة مع ما أخلفه لك ، وافتتح عملك بصلة الرَّحِمِ وَبِرِّ الْقَرَابَةِ ، وَإِيَّاكَ وَالْآثَرَةَ ، والتبذير لأموال الرعية ، وَاشْحَنَ ^(٢) الثغور ، وَاضْبِطِ الْأَطْرَافَ ، وَأَمِّنِ السُّبُلَ وَخُصَّ الْوَاسِطَةَ ^(٣) ووسَّعِ الْمَعَاشَ ، وسكن العامة ، وأدخل المرافق عليهم ، واصرف الكماره عنهم ، وأعد الأموال واخزنها . وإياك والتبذير ، فإن النوائب غير مأمونة ، والحوادث غير مضمونة ، وهى من شيم الزمان ، وأعد الرجال والكرَاعَ ^(٤) والجند ما استطعت . وَإِيَّاكَ وَتَأْخِيرَ عَمَلِ الْيَوْمِ إِلَى غَد ، فتتدارك عليك الأمور وتضع ، جِدِّ فِي إِحْكَامِ الْأُمُورِ النَّازِلَاتِ لِأَوْقَاتِهَا أَوْلاً فَأَوْلاً ، واجتهد وثمر فيها ، وأعد رجلاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجلاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وباشر الأمور بنفسك ولا تضجر ، ولا تسكل ، ولا تفشل ، واستعمل حسن الظن بربك ، وَأَسِئُ الظن بعمالك وكتائبك ، وخذ نفسك بالتيقظ ، وتنفذ من يبيت على بابك ، وسهل إذنك للناس ، وانظر في أمر النزاع إليك ، ووكل بهم عيناً غير نائمة ، ونفساً غير لاهية ، ولا تنم فإن أباك لم ينم منذ وَلِيَ الْخِلَافَةَ ، وَلَا دَخَلَ عَلَيْهِ غَمَضٌ إِلَّا وَقَلْبُهُ مُسْتَيْقِظٌ ، هذه وصيتي إليك ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ .

(تاريخ الطبرى ٩ : ٢٢٠)

(١) جمع مثلة : وهى العقوبة . (٢) أى الاملاها بالدافعة . (٣) التوسطة

(٤) الكراع : اسم يجمع الخيل .

٣٥ — خطبة النفس الزكية حين خرج على المنصور

لما خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب بالنفس الزكية^(١) على المنصور ، قام على منبر المدينة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنه قد كان من أمر هذا الطاغية أبي حنيفة من بنائه القبة الخضراء ، التي بناها معاندة لله في ملكه ، وتصغيره الكعبة الحرام ، وإنما أخذ الله فرعون حين قال : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » . وإن أحقَّ الناس بالقيام في هذا الدين أبناء المهاجرين الأولين ، والأنصار المؤاسين ، اللهم إنهم قد أحلوا حرامك ، وحرّموا حلالك وعَمِلُوا بغير كتابك ، وَغَيَّرُوا عهدَ نبيك صلى الله عليه وسلم ، وآمَنُوا من أَخَفَّتْ ، وَأَخَافُوا من آمَنَتْ ، فَأَخْصِمَ عَدَدًا ، وَأَقْتَلَهُمْ بَدَدًا^(٢) ، وَلَا تُبْقِ عَلَى الْأَرْضِ مِنْهُمْ أَحَدًا » .

(ذيل لأمال ص ١٢١) .

(١) كان بنو هاشم — الطالبون والمباصيون — قد اجتمعوا أخريزات العصر الأولى ، وتذاكروا حالهم وما هم عليه من الاضطهاد ، وما قد آل إليه أمر بني أمية من الاضطراب ، وانفقوا على أن يدمروا الناس لأبهم سرا ، ثم قالوا لا بد لنا من رئيس نبائهم ، فاففقوا على مبايعة النفس الزكية ، وكان من صادات بني هاشم ورجالهم فضلا وشرفا وعلمًا ، وشاء القدر أن يظفر المباصيون بالخلافة ، فوليا السفاح ثم المنصور ، ولم يكن المنصور هم منذ تروا عرشها سوى طلب النفس الزكية ليقتله ، وأغراه بذلك أن الناس كانوا شديدى الميل إليه ، وكانوا يعتقدون فيه الفضل والشرف والرياسة ، فطلبه المنصور هو وأخاه إبراهيم من أبيهما عبد الله بن الحسن ، فقال لا علم لي بهما — وكانا قد تغيبا خوفا منه — فلما أطال عليه ، قال : كم تطول ؟ والله لو كانا تحت قدمي ، لما رفعتهما عنهما ، سبحان الله ! أتدرك يولدى لثقتلهم ! فقبض عليه ، رعل أمه من بني الحسن وحسبهم في سجن السكوفة حتى ماتوا فيه كما تقدم ، ولم يزل النفس الزكية متفربا منذ أفضت الدولة إلى بني العباس خوفا منه على نفسه ، فلما علم بما جرى لوالده واقومه ظهر بالمدينة وأظهر أمره ، وتبعه أعيان المدينة ، ثم غلب عليها ، وعزل عنها أميرها ، ورتب عليها حاملا وقاضيا ، فوجه المنصور لقتاله جيشا بقيادة ابن أخيه عيسى بن موسى ، فسكّات الغلبة لسكر المنصور ، وقتل النفس الزكية ، وحمل رأسه إلى المنصور سنة ١٤٥ هـ .

(٢) متبديين : متفرقين .

٣٦ - وصية عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي

لابنه محمد (أو إبراهيم)

ووصى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ابنه محمداً النفس الزكية (أو إبراهيم) ، فقال :

« أَيْ بُنَيَّ ، إِنِّي مُؤَدِّ حَقِّ اللَّهِ فِي تَأْدِيكَ ، فَأَدِّ إِلَيَّ حَقَّ اللَّهِ فِي الْإِسْتِمَاعِ مِنِّي ، أَيْ بُنَيَّ كَفِّ الْأَذَى ، وَارْفُضِ الْبُذَا ^(١) ، وَاسْتَعِنْ عَلَى الْكَلَامِ بِطَوْلِ الْفِكْرِ ، فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَدْعُوكَ فِيهَا نَفْسُكَ إِلَى الْكَلَامِ ، فَإِنَّ لِلْقَوْلِ سَاعَاتٍ يَضُرُّ فِيهَا الْخَطَأُ ، وَلَا يَنْفَعُ فِيهَا الصَّوَابُ . وَاحْذَرْ مَشُورَةَ الْجَاهِلِ وَإِنْ كَانَ نَاصِحاً ، كَمَا تَحْذَرُ مَشُورَةَ الْعَاقِلِ إِذَا كَانَ غَاشّاً ، لِأَنَّهُ يُرِيدُكَ بِمَشُورَتِهِ . وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ رَأْيَكَ إِذَا احْتَجَجْتَ إِلَيْهِ وَجَدْتَهُ نَاصِحاً ، وَوَجَدْتَ هَوَاكَ يَقْطَاناً ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْتَبِدَّ بِرَأْيِكَ ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ هَوَاكَ ، وَلَا تَفْعَلْ فِعْلاً إِلَّا وَأَنْتَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّ عَاقِبَتَهُ لَا تُرِيدُكَ ، وَأَنَّ نَتِيجَتَهُ لَا تَجْنِي عَلَيْكَ »

(زهر الأدب ١ : ٩٢ والبيان والتبيين ١ : ١٨٠ ، ٢ : ٨٨)

٣٧ - قول عبد الله بن الحسن وقد قتل ابنه محمد

ولما قتل المنصور ابنه محمداً — وكان عبد الله في السجن — بَعَثَ بِرَأْسِهِ إِلَيْهِ
مَعَ الرَّبِيعِ حَاجِبِهِ ، فَوَضَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ :

رَحِمَكَ اللَّهُ أَبَا الْقَاسِمِ ، فَقَدْ كُنْتُ مِنْ « الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْفُقُونَ
الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، وَيَخَافُونَ
سُوءَ الْحِسَابِ » ، ثُمَّ تَمَثَّلَ :

(١) البذاء : السفه والإنحاش في المنطق .

فَتَى كَانَ يَحْمِيهِ عَنِ الذِّلِّ سَيْفُهُ وَيَكْفِيهِ سَوَاءَ الْأُمُورِ اجْتِنَابُهَا
ثم التفت إلى الربيع ، فقال له : « قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا مدة ، ومن
نعيمك مثلاً ، والموعِدُ اللهُ تعالى » قال الربيع : فما رأيتُ المنصور قطُّ أ كثرَ
انكساراً منه حين أبلغته الرسالة . (زهر الآداب ١ : ٩٥)

٣٨ — امرأة محمد بن عبد الله والمنصور

ولما قتل المنصور محمد بن عبد الله ، اعترضته امرأة معها صبيّان ، فقالت :
« يا أمير المؤمنين ، أنا امرأة محمد بن عبد الله ، وهذان ابناه ، أَيْتَمَهُمَا سَيْفُكَ ،
وَأَضَرَّعَهُمَا ^(١) خَوْنُكَ ، فَنَاشَدْتُكَ اللهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَصْعَرَ لَهَا خَدَّكَ ، فَيُنْأَى
عَنْهَا رِفْدُكَ ، أَوْ لَتَعَزَّيْنِكَ عَلَيْهِمَا شَوَابِكُ النَّسَبِ ، وَأَوَاصِرُ ^(٢) الرَّحِمِ » .
فالتفت إلى الربيع ، فقال : أَرَدْتُ عَلَيْهِمَا ضِيَاعَ أَيْبِهِمَا ، ثُمَّ قَالَ : كَذَا وَاللَّهِ أَحِبُّ
أَنْ تَكُونَ نِسَاءً بَنَى هَاشِمٍ . (زهر الآداب ١ : ٩٦)

٣٩ — جعفر الصادق والمنصور

وكان أهل المدينة لما ظهر محمد بن عبد الله ، أجمعوا على حرب المنصور ونصر محمد ،
فلما ظفر المنصور أحضر جعفرًا الصادق ^(٣) بن محمد الباقر ، فقال له : قد رأيتَ إطباق
أهل المدينة على حربى ، وقد رأيتُ أَنْ أبعثَ إليهم من يعور ^(٤) ويحجر ^(٥) نخلمهم ،
فقال له جعفر : « يا أمير المؤمنين ، إن سليمان أُعْطِيَ فَشَكَرَ ، وإن أيوب ابتلى فَصَبَرَ ،

(١) أذلما . (٢) أواصر جمع آصرة ، والآصرة : حبل صغير يشد به أسفل الخيلاء (وهي
أيضاً الرحم والقراية) . (٣) هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين
ابن الحسين عليه السلام وتوفى سنة ١٤٨ هـ . (٤) في الأصل « يعور » وأراه محرفاً ، وقد أصلحته
« يعور » يقال : عور البئر أى طمها وسد عيونها التى ينبع منها الماء . (٥) جمر النخل : قطع جماره .

وإن يوسف قدّر ففقر ، فاقتدِ بأيّهم شئتَ ، وقد جعلك الله من نسل الذين يعفون
ويصفحون » ، فقال أبو جعفر : إنَّ أحداً لا يعلّمنا الحلمَ ، ولا يعرفنا العلمَ ، وإنما قالتُ
هممتُ ، ولم ترني فعلتُ ، وإنك لتعلم أن قدرتي عليهم تمنعني من الإساءة إليهم .
(زمر الآداب ١ : ٩٦)

* * *

وروى صاحب العقد قال :

لما حج المنصور مرّاً بالمدينة ، فقال للربيع الحبيب : علىّ بجعفر بن محمد ، قتلني الله
إن لم أقتله ، فمُطّل به ، ثم ألحّ عليه ، فحضر ، فلما كُشِفَ الستر بينه وبينه ، ومثّلَ
بين يديه ، همّس جعفر بِشَفَتَيْهِ ، ثم تقرب وسلم ، فقال : « لاسلم الله عليك يا عدوّ الله ،
تعمل على الفوائل في ملكي ؟ قتاني الله إن لم أقتلك » . قال : « يا أمير المؤمنين ،
إن سليمان صلى الله على محمد وعليه أعطى فشكر ، وإن أيوب ابتلى فصبر ، وإن يوسف
ظلم ففقر ، وأنت على إرثٍ منهم ، وأحقّ من تأتّى بهم » ، فنكس أبو جعفر رأسه مليّاً
وجعفر واقف ، ثم رفع رأسه ، وقال : « إلىّ أبا عبد الله فأنت القريب القرابة ، وذو الرحم
الواشجة ^(١) ، السليم الناحية ، القليل الفائلة » ، ثم صاحفه يمينه ، وعانقه بشماله ، وأجلسه
معه على فراشه ، وانحرف له عن بعضه ، وأقبل عليه بوجهه يحادثه ويسأله ، ثم قال :
باربيع ، عجل لأبي عبد الله كُسوته وجأزته وإذنه .
(المقعد الفريد ١ : ١٤٥)

٤٠ - صفح المنصور عن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب

ولما داهن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب في شأن إبراهيم بن عبد الله^(١) ، وصار إلى المنصور ، أمر الربيع بن خثعم سواده ، والوقوف به على رموس اليمانية في المقصورة يوم الجمعة ، ثم قال : قل لهم :

« يقول لكم أمير المؤمنين قد عرّقت ما كان من إحساني إليه ، وحسن بلائي ، وقديم نعمتي عليه ، والذي حاول من الفتنة ، ورام من البغي ، وأراد من شق العصا ومعاونة الأعداء ، وإراقة الدماء ، وإنه قد استحق بهذا من فعله ، أليم العقاب ، وعظيم العذاب ، وقد رأى أمير المؤمنين إتمام بلائه الجليل لديه ، ورب^(٢) نعمائه السابقة عنده لما يعرفه أمير المؤمنين من حسن عائدة الله عليه ، وما يؤمله من الخير العاجل والآجل ، عند العفو عن ظلم ، والصفح عن أساء ، وقد وهب أمير المؤمنين مسيئتهم لحسنهم ، وغادرهم لوفيتهم » .

(البيان والتبيين ٣ : ١٨٥)

٤١ - استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور

ولما انهزم عبد الله بن علي^(٣) من الشام قديم على المنصور وقد منهم ، فقام عدة منهم ، فتكلموا ، ثم قام الحارث بن عبد الرحمن الغفاري ، فقال : « يا أمير المؤمنين

(١) هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، أخو النفس الزكية ، وقد خرج على المنصور بالبصرة ، فوجه إليه المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى بعد رجوعه من قتل النفس الزكية فقاتله وقتل إراهم في المعركة سنة ١٤٥ هـ .

(٢) رب الشيء : جمعه وزاده ، ورب الصبي : ربه حتى أدرك .

(٣) هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس عم المنصور ، وكان قد خرج عليه بالشام ، وقال : إن السفاح قال لي إن ظهرت على مروان الحمدي - وكان السفاح أرسله لقتال مروان بالشام - فأنت ولي العهد بعدي ، وشهد له جماعة بذلك . فأرسل المنصور أبا مسلم الحرابي لهاربته فهزمه ، وهرب عبد الله إلى البصرة ، ونزل على أخيه سديد بن علي ، فشفع فيه سديدان إلى المنصور فأمنه ، فلما جاء إليه حبسه ومات في حبسه ، وقيل إنه بنى له بيتاً ، وجعل في أساسه ملحاً ، ثم أجري الماء فيه ، فذقت الريحته علي فمات .

إنا لسنا وفدٌ مباهاةٍ ، وإنما نحن وفدٌ توبةٍ ، وإنا ابتُلينا بفتنةٍ استخفت كريمنا ، واستفرت حليمنا ، ونحن بما قدمنا مُعترفون ، وبما سلف منا مُعترفون ، فإن تُعاقبنا فبما أجرمنا . وإن تعفُ عنا فيفضلك علينا . فاصفح عنا إذ ملكت . وأمنن إذ قدّرت . وأحسنن إذ ظفرت ، فطالما أحسنتَ إلى من أساء مِنّا » ، فقال المنصور : قد فعلت . ثم قال للحرسى : هذا خطيبهم ، وأمر برد ضياعه عليه بالقُوطة ^(١) .

(العقد الفردي ١ : ١٤٤ : وتاريخ العبرى ٩ : ٣٠٧ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٨)

٤٢ - استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور أيضا

وقال عثمان بن خُزيم للمنصور ، حين عفا عن أهل الشام في إجلالهم ^(٢) مع عبد الله بن عليّ عمه : « يا أمير المؤمنين ، لقد أعطيتَ فشكرتَ وابتليتَ . فصبرت ، وقدّرتَ فعفوت » .

وقال آخر : « يا أمير المؤمنين ، الانتقامُ عدلٌ ، والتجاوزُ فضلٌ ، والمتفضلُ قد جاوز حدَّ النُصف ، فنحن نُعيزُ أمير المؤمنين بالله أن يرَضَى لنفسه بأوكس ^(٣) النصيبين ، دون أن يبلغ أرفع الدرجتين » .

وقال آخر : « من انتقم فقد شفى غيظَ نفسه ، وأخذ أنصَحَ حقّه ، وإذا انتقمَ فقد انتقصَ ^(٤) ، وإذا عفوت تطوّلت ^(٥) . ومن أخذ حقّه ، وشفى غيظَه ، لم يجب شكرُه ، ولم يُذكر في العالمين فضله . وكظُم الغيظ حِلْمٌ ، والحِلْم صَبْرٌ ، والتشقى طَرْفٌ من العَجَز ^(٦) ، ومن رَضِيَ ألا يكون بين حاله وبين حال الظالم إلا سِتْر رقيق ،

(١) كورة دمشق .

(٢) في الأصل : إجلالهم . وهو تحريف ، والصواب : إجلالهم . أى في فتنتهم ويواجههم من الجلبة بالعبريك وهو الصياح . (٣) من الوكس كوعد : وهو النقصان .

(٤) أى انتقص حَقك ومخروجنّا عليك ، فحقك الانتقام منا لأخذ حَقك .

(٥) تطول عليه : آمن وتفضل . (٦) وفي زهر الآداب : « من الجزع » .

وحجابٌ ضعيف ، لم يجزم في تفضيل الحلم ، وفي الاستيثاق من ترك دواعي الظلم ، ولم تر أهل النُهي . والمنسويين إلى الحِجَابِ والتُّقَى ، مدَحُوا الحُكَّامَ بشدة العقاب . وقد ذكروهم بحسن الصَّنِيع ، وبكثرة الاغتفار ، وشدة التغافل . وبعدُ ، فالمعاقِب مستعدٌّ^(١) لعداوة أولياء اللُذنب ، والعاقِب مستدعٍ لشكرهم . آمِنٌ من مكافأَتهم^(٢) أيام قُدْرَتهم ، وَلَآنُ يُبْنَى عليك باتساع الصدر ، خير من يُبْنَى عليك بضيق الصدر^(٣) ، على أن إقالتك عشرة عباد الله ، مُوجِبٌ لإقالتك عثرتك من رب عباد الله . وعفوك عنهم موصول بعفو الله عنك ، وعقابك لهم موصولٌ بعقاب الله لك . قال الله عزَّ وجلَّ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٥ ، وزهر الآداب ٣ : ٨٨)

٤٣ — أبو جعفر المنصور والربيع

وقال سعيد بن مُسلم بن قُتَيْبَةَ : دعا المنصور بالربيع^(٤) ، فقال : سَلْنِي مَا تَرِيدُ ، فَقَدْ سَكَتَ حَتَّى نَطَقْتَ ، وَخَفَفْتَ حَتَّى ثَقَلْتَ . وَتَلَّتَ حَتَّى أَكْثَرْتَ ، فَقَالَ : « وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا أَرْهَبَ بَحُلُوكَ وَلَا أَسْتَقْصِرُ عُمرَكَ . وَلَا أَسْتَصْغِرُ فَضْلَكَ ، وَلَا أَغْنِمُ مَالَكَ ، وَإِنْ يَوْمِي بِفَضْلِكَ عَلَى أَحْسَنُ مِنْ أَمْسِي ، وَغَدُكَ فِي تَأْمِيلِي أَحْسَنُ مِنْ يَوْمِي . وَلَوْ جَازَ أَنْ يَشْكُرَكَ مِثْلِي بَغَيْرِ الْخِدْمَةِ وَالْمَنَاصَحَةِ لَمَّا سَبَقَنِي لَذَلِكَ أَحَدٌ » قَالَ : صَدَقْتَ ، عَلَيَّ بِهَذَا مِنْكَ أَحَلَّكَ هَذَا الْحُلَّ ، فَسَلْنِي مَا شِئْتَ ، قَالَ : أَسْأَلُكَ أَنْ تَقَرِّبَ عَبْدَكَ « الْفَضْلَ »^(٥) وَتُوَثِّرَهُ وَتُحِبَّهُ ، قَالَ : يَارَبِيعَ ، إِنْ الْحُبَّ لَيْسَ بِمَالٍ يُوْهَبُ

(١) وفي زهر الآداب : « مستودع » . (٢) مجازاتهم .

(٣) وفي زهر الآداب : « خير من أن توصف بضيقة » .

(٤) هو أبو الفضل الربيع بن يونس ، وزر المنصور ، وكان مهيباً فصيحاً كافياً حازماً فطناً ، ولم يزل وزيراً للمنصور إلى أن مات المنصور . وقام الربيع بأخذ البيعة للمهدي ، ثم سعى به أعدؤه إلى الهادي ، فقتله سنة ١٧٠ هـ . (٥) هو ابنه الفضل بن الربيع ، وقد وزر الرشيد بعد البرامكة ، وابنه الأمين كما سألني .

ولا رتبة مُبَدَّل ، وإنما تَوَكَّدَه الأسبابُ ، قال : فأجعل لى طريقاً إليه ، بالتفضل عليه ،
قال : صدقت . وقد وَصَلْتُهُ بألف درهم ، ولم أصل بها أحداً غير عُومَتِي ، لتعلم ماله
عندى . فيكون منه ما يستدعى به محبتي ، قال : فكيف سألت له المحبة ياربيع ؟
قال : لأنها مفتاح كل خير ، ومغلاق كل شر ، تُسْتَرُّ بها عندك عيوبه ، وتصيرُ
حَسَنَاتٍ ذُنُوبُهُ . قال : صدقت . (زهر الآداب ٢ : ١٦٣)

٤٤ - مقام عمرو بن عبيد بين يدي المنصور

دخل عمرو^(١) بن عُبيد على المنصور بعد ما بايع للهدى ، فقال له : يا أبا عثمان ،
هذا ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، فقال له عمرو : يا أمير المؤمنين ، أراك
قد وَطَّدْتَ لَهُ الأمور ، وهى تصير إليه . وأنت عنه مُسْتَوِل ، فاستعبر المنصور ، وقال له :
عِظْنِي يا عمرو ، قال : « يا أمير المؤمنين : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك
منها ببعضها ، وإن هذا الذى فى يديك ، لو بقى فى يد غيرك لم يصل إليك . فأحذر ليلةَ
تَمَخَّضُ عن يوم لا ليلة بعده ، فوجم أبو جعفر من قوله ، فقال له الربيع : يا عمرو
غَمَّتْ أمير المؤمنين ، فقال عمرو : إن هذا صَحْبِكَ عشرين سنةً ، لم يَرَ لك عليه أن
يَنْصَحَكَ يوماً واحداً . وما عَمِلَ وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه ،
قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ قد قلت لك ، خاتمي فى يدك ، فتعال وأصحابك فاكِفْنِي ،
قال عمرو : أدعنا بعد ذلك ، تَسْخُ أُنْفُسَنَا بِعَوْنِكَ ، بِيَابِكَ أَلْفُ مَظْلَمَةٍ ، أَرَدُدُ منها شيئاً
نَعْلَمُ أنك صادق . »

(مروج الذهب ٢ : ٢٢٤ ، وحيون الأخبار ٢ : ص ٣٣٧ ، ووفيات الأعيان

١ : ٣٨٤ ، والقد الفرهد ١ : ٣٠٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٤٨)

٤٥ - مقام رجل من الزهاد بين يدي المنصور

بينما المنصور يطوف ليلاً إذ سمع قائلاً يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور البغى والفساد في الأرض ، وما يحُول بين الحق وأهله من الطمع ، فخرج المنصور ، فجلس ناحية من المسجد ، وأرسل إلى الرجل يدعوه ، فصلى الرجل ركعتين ، واستلم الركن . وأقبل مع الرسول ، فسلم عليه بالخلافة ، فقال المنصور : ما الذي سمعتك تذكر من ظهور البغى والفساد في الأرض ؟ وما الذي يحُول بين الحق وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني^(١) ، قال : يا أمير المؤمنين إن أمنتني على نفسي ، أنباتك بالأمور من أصولها . وإلا احتجرت منك . واقتصرت على نفسي ، ففيها لي شغلٌ ، فقال : أنت آمنٌ على نفسك قتل ، فقال : يا أمير المؤمنين إن الذي دخله الطمع ، حتى حال بينه وبين ما ظهر من البغى والفساد لأنت ، قال : ويحك ، وكيف يدخلني الطمع ، والصفراء والبيضاء^(٢) في قبضتي ، والحلوى والحامض عندي ؟ قال : وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك ؟ إن الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر . وأبواباً من الحديد . وحجبةً معهم السلاح ، ثم سجنك فيها عنهم ، وبعثت عمالك في جباية الأموال وجمعها ، وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع ، وأمرت ألا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان ، نفرٌ سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ، ولا الجائع العارى ، ولا الضعيف الفقير ، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء نفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرت ألا يُحجَبُوا عنك ، تجبى الأموال وتجمعها ولا تقسمها ، قالوا : هذا

(١) أوجنى وآلنى . (٢) الصفراء والبيضاء : الدنانير والدراهم .

قد خان الله ، فما بالنا لانخونه وقد سَجَنَ لنا نفسه ؟ فَأَتَمَّرُوا بِالْأَيُّمِ إِلَى يَصْلَ إِلَيْكَ مِنْ عِلْمِ
أَخْبَارِ النَّاسِ شَيْءٌ إِلَّا مَا أَرَادُوا ، وَلَا يُخْرِجُ لَكَ عَامِلٌ ، فَيُخَالِفُ أَمْرَهُمْ إِلَّا قَصَبَهُ (١)
عِنْدَكَ وَنَفَوَهُ ، حَتَّى تَسْقُطَ مَنَزِلَتُهُ ، وَيَصْفُرُ قَدْرُهُ ، فَلَمَّا انْتَشَرَ ذَلِكَ عَنْكَ وَعَنْهُمْ ،
أَعْظَمَهُمُ النَّاسُ وَهَابَهُمْ ، فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ صَانَعَهُمْ عُمَّالُكَ بِالْهَدَايَا وَالْأَمْوَالِ ، لِيَقْوُوا بِهَا
عَلَى ظِلْمِ رَعِيَّتِكَ ، ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ ذُووُ الْقُدْرَةِ وَالثَّرْوَةِ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، لِيَنَالُوا بِهِ ظِلْمَ مَنْ دُونِهِمْ
فَامْتَلَأَتْ بِلَادُ اللَّهِ بِالطَّمَعِ بَغْيًا وَفَسَادًا ، وَصَارَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ شُرَكَاءَكَ فِي سُلْطَانِكَ ،
وَأَنْتَ غَافِلٌ ، فَإِنْ جَاءَ مَظْتَلَمٌ حَيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دُخُولِ مَدِينَتِكَ ، فَإِنْ أَرَادَ رَفْعَ قِصَّتِهِ إِلَيْكَ
عِنْدَ ظَهْوَرِكَ ، وَجَدَكَ قَدْ نَهَيْتَ عَنْ ذَلِكَ ، وَأَوْقَفْتَ النَّاسَ رِجَالًا يَنْظُرُ فِي مَظَالِمِهِمْ ،
فَإِنْ جَاءَكَ ذَلِكَ الرَّجُلُ ، فَبَاغَ بِطَانَتِكَ خَبْرَهُ ، سَأَلُوا صَاحِبَ الْمَظَالِمِ أَلَا يَرْفَعُ مَظْلَمَتَهُ
إِلَيْكَ ، فَإِنَّ الْمَظْلَمَ مِنْهُ لَهُ بِهِمْ حُرْمَةٌ ، فَأَجَابَهُمْ خَوْفًا مِنْهُمْ ، فَلَا يَزَالُ الْمَظْلُومُ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ ،
وَيُلَوِّذُ بِهِ ، وَيَشْكُو وَيَسْتَنِيثُ ، وَهُوَ يَدْفَعُهُ وَيَعْتَلِّ عَلَيْهِ ، فَإِذَا أَجْهَدَ وَأُخْرِجَ وَظَهَرَتْ ،
صَرَخَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَضُرِبَ ضَرْبًا مُبَرِّحًا لِيَكُونَ نَكَالًا لغيره ، وَأَنْتَ تَنْظُرُ فَلَا
تُنْكِرُ ، فَمَا بَقَاءُ الْإِسْلَامِ عَلَى هَذَا ؟ وَقَدْ كُنْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَسَافِرُ إِلَى الصِّينِ
فَقَدِمْتُهَا مَرَّةً ، وَقَدْ أَصِيبَ مَا كُفِّرَ بِسَمْعِهِ ، فَبَكَى يَوْمًا بِكَاءٍ شَدِيدًا ، فَخَنَّهُ جَاسَاؤُهُ
عَلَى الصَّبْرِ ، فَقَالَ : أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَبْكِي لِلْبَلِيَّةِ النَّازِلَةِ بِي ، وَلَكِنِّي أَبْكِي لِمَظْلُومٍ بِالْبَابِ
يَصْرُخُ ، وَلَا أَسْمَعُ صَوْتَهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَا إِذَا ذَهَبَ سَمْعِي ، فَإِنْ بَصَرِي لَمْ يَذْهَبْ ، نَادُوا
فِي النَّاسِ أَلَا يَابَسَ ثَوْبًا أَحْمَرًا إِلَّا مَظْلَمٌ ، ثُمَّ كَانَ يَرْكَبُ الْفِيلَ طَرَفِي نَهَارَهُ ، وَيَنْظُرُ
هَلْ يَرَى مَظْلُومًا ؟ فَهَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُشْرِكٌ بِاللَّهِ ، غَابَتْ رَأْفَتُهُ بِالْمُشْرِكِينَ شُحًّا نَفْسَهُ ،
وَأَنْتَ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ ، ثُمَّ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ ، لَا تَغْلِبُ رَأْفَتُكَ بِالْمُسْلِمِينَ عَلَى شُحِّ نَفْسِكَ ؟
فَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تَجْمَعُ الْمَالَ لَوْلَاكَ ، فَقَدْ أَرَاكَ اللَّهُ عِبْرًا فِي الطِّفْلِ ، يَسْقُطُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ،

(١) عَابَهُ وَشَتَمَهُ ، وَفِي الْعَقْدِ الْقَرِيدِ : « غَوْنُوهُ » .

وما له على الأرض مالٌ، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله يَلطُفُ بذلك الطفل، حتى تعظم رغبةُ الناس إليه، ولست بالذى تعطى، بل الله يعطى من يشاء ماشاء، وإن قلتَ إنما أجمع المال لتشديد السلطان، فقد أراك الله عِبرًا في بنى أمية، ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة، وأعدُّوا من الرجال والسلاح والكُراع، حتى أراد الله بهم ما أراد، وإن قلتَ إنما أجمع لطاب غاية هي أجسم من الغاية التي أنا فيها فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلةٌ، لا تُدرِك إلا بخلاف ما أنت عليه يا أمير المؤمنين، هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل؟ قال المنصور: لا، قال: فكيف تصنع بالملك الذى خوّلكَ مُلكَ الدنيا، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل؟ ولكن بالخلود فى العذاب الأليم، قد رأى ما قد عُقدَ عليه قلبك، وَعَمِلَتَه جوارحك، ونظر إليه بصرك، واجترحتَه^(١) يداك، ومشت إليه رجلاك، هل يُغنى عنك ماشحت عليه من مُلك الدنيا إذا انتزعه من يدك، ودعاك إلى الحساب؟ فبكى المنصور وقال: يا ليتنى لم أُخلَق، ويحك! فكيف أحتال لنفسي؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن للناس أعلامًا يَفْزَعون إليهم فى دينهم، ويرضون بهم، فاجعلهم بطانتك يرشدوك، وشاورهم فى أمرك يسدّدوك، قال: قد بعثت إليهم فهربوا منى، قال: خافوا أن تحمِلَهم على طريقتك، ولكن افتح بابك، وسهّل حجّابك، وانصر المظلوم، واقمع الظالم، وخذ النّى والصدقات مما خل وطاب، واقسمه بالحق والعدل على أهله، وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ويُعدّوك على صلاح الأمة»، وجاء المؤذنون، فسلموا عليه، فصلى وغاد إلى مجلسه، وَطُلِبَ الرجل فلم يوجد.

(مبون الأخبار م ٢ : ص ٣٢٣، والمعقد للفرید ١ : ٣٠٤)

٤٦ - مقام الأوزاعي بين يدي المنصور

قال الأوزاعي^(١) : دخلت على المنصور ، فقال لي : ما الذي بطأ بك عني ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، وما الذي تريد مني ؟ فقال : الاقتباس منك ، قلت : أنظر ماتقول ، فإن « مَكْحُولاً »^(٢) » حدثني عن عطية بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من بَلَغَ عن الله نصيحة في دينه ، فهي رحمة من الله سِيَقَتْ إليه ، فإن قَبِلَهَا من الله بِشُكْرٍ ، وإِلَّا كانت حُجَّةً من الله عليه ، ليزداد إثماً ، ويزداد عليه غَضَباً ، وإن بَلَغَهُ شَيْءٌ من الحق فرضى فله الرضا ، وإن سَخِطَ فله السُّخْطُ ، ومن كرهه فقد كَرِهَ الله لأن الله هو الحقُّ المبين » فلا تَجْهَلَنَّ ، قال : وكيف أجهل ؟ قال : تسمع ولا تعمل بما تسمع ، قال الأوزاعي : فسلَّ عليَّ الربيع السيفَ ، وقال : تقول لأمر المؤمنين هذا ؟ فاتهره المنصور وقال : أَمْسِكْ ، ثم كَلَّمَهُ الأوزاعي ، وكان في كلامه أن قال :

« إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذي أصبحت به ، والله سَأَلْتُكَ عن صغيرها وكبيرها ، وفَتَيْلِهَا ونَقِيرِهَا »^(٣) ، ولقد حَدَّثَنِي عُروَةُ بن رُوَيْمٍ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَا مِنْ رَاعٍ يَبِيتُ غَاشًّا لِرَعِيَّتِهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ رَاحَةَ الْجَنَّةِ » خَفِيقٌ على الوالى أن يكون لرعيته ناظراً ، ولما استطاع من عَوْرَاتِهِمْ سَاتِراً ، وبالقِسْطِ

(١) هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ، إمام أهل الشام ، ولم يكن بها أعلم منه . وله بيمليك سنة ٥٨٨ هـ . وتوفي سنة ١٥٧ ببيروت . والأوزاعي : نسبة إلى أوزاع ، وهي بطن من ذى الكلاع من الجن ، وقيل : بطن من همدان ، وقيل الأوزاع : قرية بدمشق ، ولم يكن عبد الرحمن منهم ، وإنما زل فيهم : فنسب إليهم ، وهو من سبى الجن .

(٢) هو مكحول بن عبد الله الشامي ، معلم الأوزاعي ، وكان من سبى كابل ، وقع إلى سعيد بن النعاس ، فوهبه لامرأة من هذيل فأعتقته ، قال الزهري : العلماء أربعة : سعيد بن المسهب بالمدينة ، والشعبي بالكوفة ، والحسن البصري بالبصرة ، ومكحول بالشام ، ولم يكن في زمنه أبصر منه بالفتيا ، وسمع أنس بن مالك وغيره ، وكان مقامه بدمشق ، وتوفي سنة ١١٨ هـ .

(٣) الفتيل : السحاة التي في شق النوة ، والنقير : النقرة التي في ظهر النواة .

فما ينهم قائماً ، لَا يَتَخَوَفُ مُحْسِنُهُمْ مِنْهُ رَهَقًا^(١) ، وَلَا مُسِيئُهُمْ عُذُوانًا ، فقد كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ، ويردع عنه المناققين ، فأتاه جبريل فقال : « يا محمد ، ماهذه الجريدة بيدك ! اقدفها لاتملأ قلوبهم رُعْبًا » فكيف من سفك دماءهم ، وشقق أبشارهم ، وأنهب^(٢) أموالهم ؟ يا أمير المؤمنين : إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرايبا لم يتعمده ، فهبط جبريل ، فقال : « يا محمد ، إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمتك » واعلم أن كل مافي يدك لا يعْدِلُ شربة من شراب الجنة ، ولا ثمرة من ثمارها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَقَابُ^(٣) قَوْسٍ أَحَدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ، أَوْ قُدَّةٌ^(٤) خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا بِأَسْرَها » إن الدنيا تنقطع ويَزُولُ نعيمها ، ولو بقي الملك لِنَ قَبْلِكَ لم يصل إليك يا أمير المؤمنين ، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار عُلِّقَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآذَاهُمْ ، فكيف من يتقَّمَصُه ؟ ولو أن ذنوبا^(٥) من صديد أهل النار صُبَّ عَلَى مَاءِ الْأَرْضِ لَاجَنَّتْ^(٦) ، فكيف بمن يتجرَّعه ؟ ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وُضِعَتْ عَلَى جَبَلٍ لَذَابَ ، فكيف من سُلِكَ^(٧) فيها ، وَيُرَكَّدُ فُضَاهُهَا عَلَى عَاتِقِهِ ؟ وقد قال عمر بن الخطاب : « لَا يَقُومُ أَمْرَ النَّاسِ إِلَّا حَصِيفُ^(٨) الْعُقْدَةِ ، بَعِيدُ الْغِرَّةِ^(٩) لَا يَطْلُعُ النَّاسُ مِنْهُ عَلَى عَوْرَةٍ ، وَلَا يُحْتَقِ فِي الْحَقِّ عَلَى جِرَّةٍ^(١٠) ، وَلَا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لُومَةٌ لِأَمٍّ » .

واعلم أن السلطان أربعة : أمير يَظْلِفُ^(١١) نفسه وُعمَّاله ، فذلك له أجرُ المجاهد في سبيل الله ، وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويدُ الله بالرحمة على رأسه تُرْفَرَفُ ، وأمير رَتَعَ ورَتَعَ عُعمَّاله ، فذاك يحْمِلُ أَثْقَالَه وَأَثْقَالَ مَعِ أَثْقَالِهِ ، وأمير يَظْلِفُ نفسه ،

(١) ظلما . (٢) جعلها نهباً يغار عليه . (٣) القاب : ما بين المقبض والسية (وسية للقوس كعدة : ما عطف من طرفها) . (٤) ريش السهم . (٥) الذنوب : الدلو . (٦) جعله آجناً أى متغير الظلم والوف . (٧) قيد . (٨) حصف الرجل ككرم : استحم عقله فهو حصيف ، وأحصف الحبل ، أحكم نظره . (٩) الغفلة . (١٠) أحتق : حقد حقدا لا ينحل ، وأحتق الصلب : لزق بالطن ، والجرة ما يفيض به الهمير فيأكله ثانية ، والمراد أنه لا يضر الحقد والحق . (١١) يكف .

ورجع عماله ، فذاك الذى باع آخرته بدنياه غيره ، وأمير يرتع ويظلفُ عمَّالَه ، فذاك شر الأكياس .

واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم ، عُرض على السموات والأرض والجال ، فأبين أن يَحْمِلَنَّهُ وَأَشْفَقْنَ مِنْهُ ، وقد جاء عن جدك فى تفسير قول الله عزَّ وجلَّ : « لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا » أن الصغيرة التسم ، والكبيرة الضحك ، وقال : فما ظنكم بالكلام وما عَمِلْتُهُ الأيدى ؟ فأعيزك بالله أن يُخَيِّلَ إليك أن قرابتك برسول الله صلى الله عليه وسلم تنفع مع المخالفة لأمره ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا ضفيةُ عمةَ محمد ، ويا فاطمةُ بنتَ محمد ، استوهبَا أنفسكما من الله ، إني لا أغني عنكما من الله شيئاً ، وكان جدك الأكبر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة ، فقال : « أئى عم ، نفس تُخَيِّبُهَا ، خير لك من إمارة لا تُخَصِّبُهَا » نَظَرَا إِلَيْهِ ، وَشَفَقَا عَلَيْهِ أَنْ يَلِيَ فَيَجُورَ عَنْ سُنَّتِهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، فلا يستطيع له نفعاً ، ولا عنه دَفْعاً ، هذه نصيحتى إن قبلتها فلنفسك عَمِلْتَ ، وإن رَدَدْتُهَا فنفسك تَحَسَّتْ ، والله الموفق للخير والمعين عليه ، قال : بلى ، نقبلها ونشكر عليها ، وبالله نستعين .

(العقد الفريد ١ : ١٠٥ ، وعبود الأخبار م ٢ : ص ٢٣٨)

٤٧ - نصيحة يزيد بن عمر بن هبيرة للمنصور

ودخل يزيد بن عمر بن هبيرة^(١) على أمير المؤمنين المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين : توسّع توسعاً قُرُشِيّاً ، ولا تَضِيقْ ضِيقاً حِجَازِيّاً .

ويروى أنه دخل يوماً ، فقال له المنصور حدثنا ، فقال : « يا أمير المؤمنين :

(١) ولقنسر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وجمع له مروان بن محمد ولاية البصرة والكوفة ، وكان آخر من جمع له المراقبان من الولاة ، ولما استظهرت عليه جيوش خراسان ، وهزمت عسكره لحق بمدينة واسط ، فتحصن بها . ولما بويج السفاح بالخلافة وجه أخاه أبا جعفر المنصور لقتاله ، فحصره بواسط شهراً ، ثم أنه وانفتح البلد صلحاً ، ثم قتله .

إن سلطانكم حديث ، وإمارتكم جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوة عَذْلها ، وجنبوهم مرارة جَوْرها ، فوالله يا أمير المؤمنين ، لقد مَحَضْتُ^(١) لك النصيحة » ثم نهض فنهض معه سبعمائة من قيس ، فأتأَّارَه^(٢) المنصور بصره ، ثم قال : لا يَعْزِ مُلْكٌ يكون فيه مثلُ هذا ! .

(تهذيب الكامل ١ : ٢٨)

٤٨ — معن بن زائدة والمنصور

ودخل مَعْن^(٣) بن زائدة الشَّيباني على أبي جعفر المنصور وقد أُسنَّ ، فقارب في خَطْوِه ، فقال له المنصور : لقد كَبِرت سِنُّكَ يا معنُ ، قال : في طاعتك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنك لَجَلَدٌ ، قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين ، قال : وإنَّ فيكَ كَبِيعَةً ، قال : هي لك يا أمير المؤمنين ، قال : فأَيُّ الدولتين أَحَبُّ إليك ، هذه أم دولة بنى أمية ؟ قال : ذلك إليك يا أمير المؤمنين ، إن زاد بِرْكَ على برهم كانت دولتك أَحَبَّ إلىَّ .

(البيان والتهيين ٣ : ٢٢٩ ، ووفيات الأعيان ٢ : ١٠٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦١)

٤٩ — معن بن زائدة وأحد زوَّارِه

ودخل رجل على مَعْن بن زائدة ، فقال : ما هذه النَّفِية ؟ فقال : « أيها الأمير ، ما غابَ عن العين مَنْ يذكُرُه القلبُ وما زال شوقِي إلى الأمير شديدًا ، وهو دونَ

(١) أخلصت . (٢) أقرَّاه البحر : أتبعه إياه ، وحده إليه النظر .

(٣) كان جوادًا شجاعًا جزيل السَّطاء كثير المعروف ، وكان في أيام بنى أمية منتقلًا في الولايات ، منقطعا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري أمير المراقين ، فلما انتقلت الدولة إلى بنى العباس وحاصر المنصور يزيد بمدينة واسط كما تقدمنا ، أبلى يومئذ من مع يزيد بلاء حسنًا ، فلما قتل يزيد خاف ممن من أبي جعفر المنصور ، فاستقر عنه مدة ، ولم يزل مستترًا حتى كان يوم الهاشمية ، وذلك أن جماعة من أهل خراسان ناروا على المنصور ، وجرت مقتلة عظيمة بينهم وبين أصحاب المنصور بالهاشمية — وهي مدينة بناها السفاح بالقرب من الكوفة — وكان ممن متواريًا بالقرب منهم ، فخرج متنكرًا معًا متلجًا ، وتقدم إلى القوم ، وقاتل قدام المنصور قتالًا أبان فيه من نجدة وشهامة وفرقهم ، فلما أفرج عن المنصور ، قال له : من أنت وبجلك ؟ —

ما يَجِبُ لَهُ ، وذكرى له كثيراً وهو دون قدره ، ولكن جَفْوَةُ الْحِجَابِ ، وَقِيَّةُ
بَشَرِ الْعِلْمَانِ ، منعاني من الإكثار » ، فأمر بتسهيل حجابها ، وأجزل صلته .

(زهر الآداب ١٦١ : ٣)

٥٠ - المنصور وأحد الأعراب

ودخل أعرابي على المنصور فتكلم ، فأعجب بكلامه ، فقال له : سل حاجتك ،
فقال : يُبْقِيكَ اللهُ ، وَيَرْيِدُ فِي سُلْطَانِكَ ، فقال : سل حاجتك ، فإيس في كل وقت
تؤمّر بذلك ، قال : « وَلِمَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَوَاللَّهِ مَا أَسْتَقْصِرُ عَمْرَكَ ، وَلَا أَخَافُ
بُخْلَكَ ، وَلَا أَغْنَمُ مَالَكَ ، وَإِنْ سَوَّاءُكَ لَشَرَفٍ ، وَإِنْ عَطَاكَ لَزَيْنٌ ، وَمَا بَامْرئٍ
بَذَلَ وَجْهَهُ إِلَيْكَ نَقْصٌ وَلَا شَيْنٌ » . فأحسن جائزته وأكرمه .

(الصناعاتين ص ٤١ ، المقد الفريد : ١٣٩)

٥١ - أعرابية تعزى المنصور وتهنئه

وروى القَلَقَشَنْدِيُّ قال : تعرّضت أعرابية للمنصور في طريق مكة بعد وفاة
أبي العباس السَّفَّاح ، فقالت :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَحْتَسِبُ الصَّبْرَ ، وَقَدَّمَ الشُّكْرَ ، فَقَدْ أَجْزَلَ اللهُ لَكَ الثَّوَابَ
فِي الْحَالِيْنَ ، وَأَعْظَمَ عَلَيْكَ الْمِنَّةَ فِي الْحَادِثِيْنَ ، سَلَبَكَ خَلِيفَةَ اللهِ ، وَأَفَادَكَ خِلَافَةَ اللهِ ،
فَسَلِّمْ فِيمَا سَلَبَكَ ، وَاشْكُرْ فِيمَا مَنَحَكَ ، وَتَجَاوَزَ اللهُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَارَ لَكَ
فِيمَا مَلَكَكَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْدِينِ » .

- فقال : أنا طلبتك يا أمير المؤمنين من بن زائده ، فأمنه المنصور وأكرمه ، وصار من خواصه ، وول
سجستان في أواخر أمره ، فلما كانت سنة ١٥١ أنهس قوم من الخوارج بين صناع كانوا يعملون في داره
بمدينة همت ، فقتلوه وهو يحتجم ، وتجهّم ابن أخيه يزيد بن مزيد بن زائدة ، فقتلهم بأسرهم .

وروى الجاحظ قال : عَزَّتْ امرأةُ النصور عن أبي العباس مقدّمه من مكة ، قالت : « أعظم الله أجرك ، فلا مصيبة أجلُّ من مصيبتك ، ولا عِوَضُ أعظم من خلافتك » .
(صبح الأعشى ٩ : ٢٧٨ ، والبيان والبيان ٢ : ٥٥)

٥٢ — خطبة محمد بن سليمان^(١) يوم الجمعة (وكان لا يذيرها)

الحمد لله ، أحمدَه وأستعينهُ وأستغفره ، وأومن به ، وأتوكلُ عليه ، وأشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى
ودين الحق ، ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، من يعتصم بالله ورسوله ،
قد اعتصم بالعمروة الوثقى ، وسعد في الأولى والآخرة ، « وَمَنْ يَفْصِلِ اللَّهُ وَرَسُولَهُ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا وَخَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ، أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يُطِيعُهُ
وَيُطِيعُ رَسُولَهُ ، وَيَتَّبِعُ رِضْوَانَهُ ، وَيَتَجَنَّبُ سُخْطَهُ ، فَإِنَّمَا نَحْنُ لَهُ وَبِهِ . أوصيكم عباد الله
بتقوى الله ، وأحسكم على طاعة الله ، وأرضى لكم ما عند الله ، فإن تقوى الله أفضل
ما تحاثَّ الناس عليه ، وتداعوا إليه ، وتواصوا به ، فاتقوا الله ما استطعتم ، وَلَا تَمُوتُنَّ
إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .
(البيان والتبيين ٢ : ٦٥)

٥٣ — وصية مسلم بن قتيبة

وقال مُسْلِمُ بن قُتَيْبَةَ^(٢) : « لَا تَطْلُبَنَّ حاجتك إلى واحد من ثلاثة : لَا تَطْلُبْهَا
إِلَى الكَذَّابِ ، فَإِنَّهُ يُقَرِّبُهَا وَهِيَ بَعِيدَةٌ ، وَيُبْعِدُهَا وَهِيَ قَرِيبَةٌ ؛ وَلَا تَطْلُبْهَا إِلَى الْأَحْمَقِ ،

(١) هو محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان عامل البصرة في خلافة أبي جعفر المنصور
وتوفي سنة ١٧٣ في خلافة الرشيد .

(٢) استشاره المنصور في قتل أبي مسلم ، فقال : ماترى في أمره ؟ قال : « لَوْ كَانَ فِيهَا آلِهَةٌ
إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » فقال : حسبك يا بن قتيبة ، لقد أودعتها أدنا واعمى (وفيها الأعيان ١ : ٢٨٢) .

فإنه يريد أن ينفكك وهو يضرّك ؛ ولا تطلبها إلى رجل له عند قوم مأكلة ، فإنه يجعل حاجتك وقاء لحاجته .
(الأمال ٢ : ١٩٠)

٥٤ — خطبة المهدي (توفي سنة ١٦٩ هـ)

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه ، ورضى به من خلقه ، أحده على آلائه^(١) ، وأجده لبلائه^(٢) ، وأستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه توكل راضٍ بقضائه ، وصابر لبلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده المصطفى ، ونبيه المجتبي^(٣) ، ورسوله إلى خلقه وأمينه على وحيه ، أرسله بعد انقطاع الرجاء ، وطُمُوس^(٤) العلم ، واقتراب من الساعة ، إلى أمة جاهلية ، مختلفة أممية ، أهل عداوة وتضاعن ، وفرقة وتباين ، قد استهوتهم شياطينهم ، وغلب عليهم قُرناؤهم^(٥) ، فاستشعروا الردى ، وسلكوا العمى ، يبشر من أطاعه بالجنة وكريم ثوابها ، وينذر من عصاه بالنار وأليم عقابها ، « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ » .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن الاقتصار عليها سلامة ، والترك لها ندامة ، وأحثكم على إجلال عظمته ، وتوقير كبريائه وقدرته ، والالتفاء إلى ما يقرب من رحمته وينجى من سخطه ، ويُنال به مآلديه ، من كريم الثواب ، وجزيل المآب ، فاجنبوا ما خوفكم الله من شديد العقاب ، وأليم العذاب ، ووعيد الحساب ، يوم توفقون بين يدي الجبار ، وتعرضون فيه على النار « يَوْمَ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ؛ يَوْمَ يُفَرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ

(١) نعمه ، والمفرد إلى كحمل وشمس ، وألو كشمس ، وألى كصا وإلى كرضا .

(٢) البلاء : يكون منعة ، ويكون محنة . (٣) المخفار . (٤) الدروس والانحاء .

(٥) القرين : المصاحب ، والشيطان : المقرون بالإنسان : لا يفارقه .

مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ؛ يَوْمَ لَا يُجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ؛ يَوْمَ لَا يُجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ » ، فإن الدنيا دار غرور ، وبلاء وشرور ، واضمحلال وزوال ، وتقلب وانتقال ، قد أفنت مَنْ كان قبلكم ، وهى عائدة عليكم وعلى مَنْ بعدكم ، من رَكَنَ إليها صرَعته ، ومن وثِقَ بها خاتته ، ومن أَمَلَهَا ^(١) كذبتهُ ، ومن رجاها خذلتُهُ ، عَزَّهَا ذُلُّ ، وغناها فقر ، والسعيد من تركها ، والشقي فيها من آثرها ، وَالْمَغْبُوتُونَ فِيهَا مِنْ بَاعَ حَظَّهُ مِنْ دَارِ آخِرَتِهِ بِهَا ، فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ ، والتوبة مقبولة ، والرحمة مبسوطة ، وبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الزَّكِيَّةِ ^(٢) ، فى هذه الأيام الخالية ، قبل أن يؤخذ بِالْكَظَمِ ^(٣) ، وتندموا فلا تنالون الندم ، فى يوم حسرة وتأشف ، وكآبة وتلهف ، يوم ليس كالأيام ، وموقف ضنك المقام . إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ وَأَبْلَغَ الْمَوْعِظَةِ كِتَابُ اللَّهِ ، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » . أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ - إلى آخر السورة - أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِمَا أَوْصَاكُمْ اللَّهُ بِهِ ، وَأَنْهَاكُمْ عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ ، وَأَرْضَى لَكُمْ طَاعَةَ اللَّهِ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

(١) أمله وأمله بالتخفيف والتشديد . (٢) زكاً يزكو : تما وصبح .

(٣) الكظم : الحلق أو الغم ، أو مخرج النفس ، أى قبل الموت .

مشاورة المهدي لأهل بيته

في حرب خراسان

روى ابن عبد ربه قال :

« هذا ما تراجع فيه المهدي ووزراؤه ، وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان ، أيام تحاملت عليهم العمال وأعنفَتْ ، فحملتهم الدالة وما تقدّم لهم من المكانة ، على أن نكثوا ببيعهم ، ونقضوا موثقتهم ، وطرّدوا العمال ، والتوّوا بما عليهم من الخراج ، وحمل المهدي ما يجب من مصلحتهم ، ويكره من عنّتهم ، على أن أقال عثرتهم ، واغتفر زلتهم ، واحتمل دألتهم ، تطوّلوا بالفضل ، واتساعاً بالعفو ، وأخذاً بالحجة ، ورفقاً بالسياسة ، ولذلك لم يزل مذكّله الله أعباء الخلافة ، وقلّده أمور الرعية ، رفيقاً بمدار سلطانه ، بصيراً بأهل زمانه ، باسطاً للمعدلة في رعيته ، تسكّن إلى كسفه ، وتأنّس بعفوه ، وثقّ بحلمه . فإذا وقعت الأقضية اللازمة ، والحقوق الواجبة . فليس عنده هَوَاة ، ولا إغضاء ، ولا مدهانة ، أثرّة للحق ، وتياماً بالعدل ، وأخذاً بالحزم ؛ فدعا أهل خراسان الاغترار بحلمه ، والثقة بعفوه ، أن كسروا الخراج ، وطرهوا العمال وسألوا ما ليس لهم من الحق ، ثم خلطوا احتجاجاً باعتذار ، وخُصومة بإقرار ، وتنصلاً باعتلال ؛ فلما انتهى ذلك إلى المهدي ، خرج إلى مجلس خلّائه ، وبعث إلى نفر من لحمة^(١) ووزرائه ، فأعلمهم الحال ، واستنصَحهم للرعية ، ثم أمر الموالى^(٢) بالابتداء ، وقال للعباس^(٣) بن محمد : أي عمّ تعقّب قولنا ، وكن حَكَمًا بيننا ، وأرسل إلى ولديه

(١) الحمة : القرابة . (٢) جمع مولى ، وهو هنا القريب كابن العم ونحوه .

(٣) هو العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أخو المنصور .

موسى وهرون ، فأحضرهما الأمر ، وشاركهما فى رأى ، وأمر محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم ، وإثبات مقالاتهم فى كتاب .

٥٥ — مقال سلام صاحب المظالم

قال سلام صاحب المظالم :

« أيها المهدي : إن فى كل أمر غايةً ، ولكل قوم صناعةً ، استفرغت رأيهم ، واستفرقت أشغالهم ، واستنفدت أعمارهم ، وذهبوا بها ، وذهبت بهم ، وعُرفوا بها ، وعُرفت بهم ، ولهذه الأمور التى جعلتُنّا فيها غايةً ، وطلبتَ معونتنا عليها أقوام من أبناء الحرب وساسة الأمور ، وقادة الجنود ، وفرسان الهزاهز^(١) ، وإخوان التجارب ، وأبطال الوقائع ، الذين رشّحتهم سجالها^(٢) ، وقبّأتهم ظلالها ، وعَضَّتْهم شدائدُها ، وقَرَمَتْهم نواجذُها^(٣) ، فلو عَجَمْتَ ما قبلهم ، وكشفتَ ما عندهم ، لو جَدْتَ نظائرَ تويّدَ أمرِك ، وتجارِبَ توافقَ نظرك ، وأحاديثَ تقوِّى قلبك . فأما نحن معاشرَ عمالك . وأصحابِ دواوينك . فحسنُ بنا ، وكثيرُ منا أن نقومَ بثقلِ ما حَمَلْتَنَا من عملك ، واستودَعْتَنَا من أمانتك ، وشغلْتَنَا به من إمضاءِ عدلك ، وإنفاذِ حُكْمِك ، وإظهارِ حقك . »

فأجابه المهدي : « إن فى كل قوم حكمةً . ولكل زمان سياسة . وفى كل حال تدبير . يُبْطِلُ الآخِرُ الأولَ . ونحن أعلمُ بزماننا ، وتدبيرِ ساططاننا . »

قال نعم : أيها المهدي : أنت متسعُ الرأى ، وثيقُ العقدة ، قوىُّ المنة^(٤) ، بليغُ الفطنة ، معصومُ النية ، تحضُّورُ الروية ، مؤيّدُ البديهة ، موفّقُ العزيمة ، مُعَانُ بالظفرِ ، مَهْدِيٌّ إلى الخَيْرِ . إن هَمَمْتَ فى عزْمِك مواقعُ الظنِّ ، وإن اجتمعتَ صدعُ فِعْلِك

(١) الهزرة والهزاهز : تخريك البلياء والحروب الناس . (٢) جمع سجل كشمس : وهو الدلو

العظيمة مملوءة . (٣) فرم الطعام : أكله ، والنواجذ : أنصى الأضراس . (٤) القوة .

ملتبس الشك . فاعزم يَهْدِ الله إلى الصواب قلبك . وقل يُنطق الله بالحق لسانك .
فإن جنودك جَمَّة . وخزائنك عامرة . ونفسك سَخِيَّة . وأمرُك نافذ .

فأجابه المهدي : « المشاورة والمناظرة بالمرحمة ومفتاحا بَرَكة . لا يَهْلِك عليهما
رأى ، ولا يَنْفِيْل^(١) معهما حَزْم ، فأشيروا برأيكم ، وقولوا بما يَحْضُرُكم ، فإنى من
ورائكم ، وتوفيقُ الله من وراء ذلك » .

٥٦ — مقال الربيع بن يونس^(٢)

وقال الربيع :

أيها المهدي : إن تصاريف وجوه الرأى كثيرة . وإن الإشارة ببعض معارض
القول يسيرة . ولكن خراسان أرض بعيدة المسافة . مُتَرَاخِيَةِ الشُّقَّة^(٣) . متفرقة السُّبُل
فإذا ارتأيت من مُحْكَمِ التدبير . ومُبَرَّمِ التقدير . ولُبابِ الصواب ، رأياً قد أحكمهُ
نظرك ، وَقَلْبُهُ تدبيرك . فإيس وراءه مذهب طاعن . ولا دونه مَعْلَقُ لُخْصُومَةِ عائب .
ثم خَبَّتِ الْبُرْدُ^(٤) به ، وانطوت الرُّسُلُ عليه ، كان مالحري أن لا يصل إليهم مُحْكَمُهُ .
إلا وقد حدث منهم ما يَنْقُضُهُ . فما أيسر أن ترجع إليك الرسل . وَتَرِدَ عليك الكتب
بحقائق أخبارهم ، وشوارد آثارهم ، ومصادر أمورهم ، فَتَحْدِثَ رأياً غيرَه ، وتبتدع
تديراً سواه ، وقد انفرجت الخلق ، وتحلَّت العُقَد ، واسترخى الحِقَاب^(٥) ، وامتد
الزمان . ثم كَلِمَ موقع الآخرة كمصدر الأولى . ولكن الرأى أيها المهدي وفقك الله .
أن تصرف إجابة النظر ، وتقايب الفكر فيما جمعتنا له ، واستشترتنا فيه من التدبير
لحرهم ، والحيل في أمرهم ، إلى الطلب لرجل ذى دين فاضل ، وعقل كامل ، ووَرَعَ

(١) قال رأيه وتغليل : أخطأ وضمف . (٢) وزير لابي جعفر المنصور وقتله الهادي سنة ١٧٠ هـ

(٣) البعد والسفر البعيد . (٤) جمع بريد : وهو الرسول ، وخبت : أسرع .

(٥) الحِقَاب : ما تشده المرأة في وسطها .

واسع . ليس موصوفاً بهوى فى سواك ، ولا متبهما فى أثره عليك ، ولا ظنيناً^(١) على دخلة^(٢) مكروهة . ولا منسوباً إلى بدعة محدورة . فيقدح فى ملكك ، ويرى^(٣) الأمور لفيرك ، ثم تستند إليه أمورهم . وتفوض إليه حربهم ، وتأمره فى عهدك ووصيتك إياه . بلزوم أمرك ما لزمته الحزم . وخلاف نهيك إذا خالفه الرأى ، عند استحالة الأمور ، واشتداد الأحوال التى ينقض أمر الغائب عنها ، ويثبت رأى الشاهد لها ، فإنه إذا فعل ذلك ، فوائب أمرهم من قريب ، وسقط عنه ما يأتى من بعيد ، تمت الحيلة ، وقويت المكيدة . ونفذ العمل . وأخذ النظر إن شاء الله .

٥٧ — مقال الفضل بن العباس

قال الفضل بن العباس :

« أيها المهدي : إنَّ ولىَّ الأمور ، وسائسَ الحروب ، ربما نحى جنوده ، وفرق أمواله فى غير ماضيقٍ أمرٍ حزبه^(٤) ، ولا ضفطة حال اضطرته ، فيقعّد عند الحاجة إليها ، وبعد التفرقة لها ، عديماً منها . فاقداً لها . لا يثق بقوة ، ولا يصول بعدة ، ولا يفرغ إلى ثقة . فالرأى لك أيها المهدي وقلقك الله ، أن تُعفى خزائنك من الإفراق للأموال ، وجنودك من مكابدة الأسفار ، ومقارعة الأخطار ، وتغدير القتال ، ولا تُسرّع للقوم فى الإجابة إلى ما يطلبون ، والعطاء لما يسألون ، فيفسد عليك أدبهم ، وتجري من رعيّتك غيرهم ، ولكن اغزهم بالحيلة ، وقاتلهم بالمكيدة ، وصارعهم باللين ، وخاتلهم^(٥) بالرفق ، وأبرق^(٦) لهم بالقول ، وأرعِد نحوهم بالفعل ، وابعث البعوث ،

(١) متبهما . (٢) دخلة الرجل مثلك ، ودخيلته : نيه ومذهبه .

(٣) فى كتب اللغة : راضه وروضه : ذله ، وأراض الأرض جعلها رياضاً . (٤) اشت عليه .

(٥) خادهم . (٦) رعد وبرق ، وأرعد وأبرق : تهد وتومد .

وجنّد الجنود ، وكتب الكتائب ، واعقد الألوية ، وانصب الرايات ، وأظهر أنك
موجهٌ إليهم الجيوش مع أحقّ قوّادك عليهم ، وأسوّمهم أثراً فيهم ، ثم ادسّ الرسل ،
وابثّ الكتب ، وضع بعضهم على طمعٍ من وعدك ، وبعضاً على خوفٍ من وعيدك ،
وأوقد بذلك وأشباهه نيرانَ التحاسد فيهم ، واغرس أشجار التنافس بينهم ، حتى تُملأ
القلوبُ من الوحشة ، وتنطوى الصدورُ على البغضة ، ويدخل كلا من كلِّ الحذر
والهيبة ، فإن مرّامَ الظفر بالفيلة ، والقتال بالحيلة ، والمناسبة^(١) بالكتب ، والمكايـدة
بالرسل ، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخّل في القلوب ، القويّ الموقّع من النفوس ،
المعقود بالحجج ، الموصول بالحيل ، المبني على اللين الذي يستميل القلوب ، ويسترقّ
العقول والآراء ، ويستميل الأهواء ، ويستدعي المواتاة^(٢) ، أنفذ من القتال بظلمات
السيوف ، وأسنة الرماح ، كما أن الوالي الذي يستنزل طاعة رعيته بالحيل . ويفرّق كلمة عدوه
بالمكايـدة ، أحكم عملاً ، وألطف منظرًا ، وأحسن سياسة من الذي لا ينال ذلك
إلا بالقتال ، والإتلاف للأموال . والتفجير والخطار^(٣) . وليعلم المهدي أنه إن وجهه
لقتلهم رجالاً لم يسر لقتالهم إلا بجنود كثيفة ، تخرج عن حال شديدة ، وتقدّم على
أسفارٍ ضيقة ، وأموال متفرقة ، وقود غشّة ، إن ائتمهم استنفدوا ماله ، وإن
استنصّحهم كانوا عليه لاله » .

قال المهدي : « هذا رأى قد أسفر نوره ، وأبرق ضوؤه ، وتمثّل صوابه للعيون ،
ومجسّد حقه في القلوب ، ولسكن فوق كلِّ ذي علم عليم » ، ثم نظر إلى ابنه عليّ ،
فقال : ما تقول ؟

٥٨ - مقال علي بن المهدي

قال علي بن المهدي :

« أيها المهدي : إن أهل خراسان لم يَخْلَعُوا عن طاعتك ، ولم يَنْصِبُوا من دونك أحداً ، يَقْدَحُ في تغيير ملكك ، وَيُريِضُ الأمور لفساد دولتك ، ولو فعلوا لكان الخطبُ أيسرَ ، والشأنُ أصغرَ ، والحالُ أدلَّ ، لأن الله مع حقه الذي لا يَخْذُلُهُ ، وعند موْعده الذي لا يُخْلِفُهُ ، ولكنهم قوم من رعيتك ، وطائفة من شيعتك ، الذين جعلك الله عليهم والياً ، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً ، طَلَبُوا حقاً ، وسألوا إنصافاً ، فإن أُجِبْتَ إلى دعوتهم ، ونَفَسْتَ عنهم قبل أن يتلاحَمَ منهم حال ، ويَحْدُثَ من عندهم قَتَقٌ ، أطمعتَ أمر الرب ، وأطْفَأْتَ نائِرَةَ الحرب ، ووفَّرتَ خزائن المال ، وطرحْتَ تفريرَ القتال ، وحَمَلَ الناسُ حَمَلَ ذلك على طبيعة جُودك ، وسَجِيَّة حُلمك ، وإِسْجَاح^(١) خايقتك ، ومَعْدِلَةَ نظرك ، فَأَمِنْتَ أَنْ تُنْسَبَ إلى ضعف ، وأن يكون ذلك فيما بقي دُرْبَةٌ ، وإن منعتهُم ما طَلَبُوا ، ولم تُجِبْهم إلى ما سألوا ، اعتدَلْتَ بك وبهم الحالُ ، وساوَيْتهم في مَيْدَانِ الخِطَابِ ، فما أَرَبُ المهدي أن يَعِيْدَ إلى طائفة من رعيته ، مقرِّين بِمملكته ، مُدْعِنين بِطاعته ، لا يُخْرِجونَ أَنفُسَهُم عن قدرته ، ولا يُبْرِثُونَهَا من عبوديته ، فيمْلِكُهم أَنفُسَهُم ، ويَخْلَعُ نَفْسَهُ عنهم ، ويقف على الحيل معهم ، ثم يجازيهم السوء في حَدِّ المِقاوَرَةِ ومِضْمارِ الخِطَاوَةِ . أيريد المهدي - وفقه الله - الأموال ؟ فلمعمرى لا يَنَالُهَا ولا يَظْفَرُ بِهَا إلا بِإِثْاقِ أَكْثَرِ مَنَها مما يَطْلُبُ منهم ، وأَضَاعَفَ ما يَدَّعِي قِبَالَهُم ، ولو نَالَهَا فَحَمَلَتْ إِلَيْهِ ، وَوُضِعَتْ بِخِزَانِطِهَا^(٢) بين يديه

(١) الإِسْجَاح : حسن العفو .

(٢) جمع غريطة : وهي وعاء من آدم وفضه يمرج على ما فيه .

ثم تجافى لهم عنها ، وطال عليهم بها ، لكان إليه مما يُنسب ، وبه يُعرف ، من الجود الذى طبعه الله عليه ، وجعل قرّة عينه ، ونهته^(١) نفسه فيه ، فإن قال المهدي : هذا رأى مستقيم سديد ، فى أهل الخراج الذين شكّوا ظلم عمالنا ، وتحامل ولاتنا ؛ فأما الجنود الذين تقصّوا موافق المهود ، وأنطقوا لسان الإرجاف ، وفتحوا باب المعصية ، وكسروا قيد الفتنة ، فقد ينبغى لهم أن أجمعهم نكالا لغيرهم ، عظة لسواهم ، فيعلم المهدي أنه لو أتى بهم مغلولين فى الحديد ، مُقرّنين^(٢) فى الأصفاد^(٣) ، ثم اتسع لحقن دماهم عفوه ، ولإقالة عثرتهم صَنْجَعُه ، واستبقاهم لما هم فيه من حرب ، أو لمن يازأهم من عدوه ، كما كان بدعا من رأيه ، ولا مستنكرا من نظره ، لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً ، وأشدّها وقفاً ، وأصدقها صولة ، وأنه لا يتعاضده^(٤) عفوّ ، ولا يتكادّه^(٥) صفحٌ ، وإن عظم الذنب ، وجل الخطبُ ، فالرأى للمهدي وفقه الله تعالى أن يحل عُقْدَةُ الغيظ ، بالرجاء لحسن ثواب الله فى العفو عنهم ، وأن يذكر أولى حالاتهم ، وَضِيعَةَ عِيالاتهم ، برّاهم ، وتوسّعاً لهم ، فإنهم إخوان دولته ، وأركان دعوته ، وأساس حقه الذين بعزتهم يصول ، وبحجّتهم يقول ، وإنا مثلهم فيما دخلوا فيه من مَسَاخِطِه ، وتعرّضوا له من معاصيه ، وانطّوا فيه عن إجابته ، ومثله فى قلة ما غيّر ذلك من رأيه فيهم ، أو نُقِلَ من حاله لهم ، أو تغيّر من نعمته بهم ، كمثل رجاين أخوين متناصيرين متوازيين ، أصاب أحدهما خبلٌ عارض ، وهُوَ حادث . فنهض إلى أخيه بالأذى ، وتحامل عليه بالسكروه ، فلم يزد أخوه إلا رقةً له ، ولطفاً به ، واحتياجاً لمدّاة مرضه ، ومراجعة حاله ، عطفاً عليه ، وبرّاه به ، ومَرَحَةً له .

(١) النهمة : الحاجة وبلوغ الشهوة فى الشيء .

(٢) مقيدون . (٣) الأصفاد : القيود : جمع صفد كسب .

(٤) تعاضده الأمر : عظم عليه . (٥) تكادّه الأمر : شق عليه .

فقال المهدي : أما على فقد نوى سَمَتَ الأليان^(١) ، وَفَضَّ القلوبِ في أهل خراسان ،
ولكلُّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ ، فقال : ما ترى يا أبا محمد يعني موسى ابنه (المهدي) .

٥٩ - مقال موسى بن المهدي

فقال موسى :

« أيها المهدي : لَا تَسْكُنْ إلى حلاوة ما يجرى من القول على ألسنتهم ، وأنت
ترى الدماء تسيل من خَلَلِ فِعلهم ، الحالُّ من القوم ينادى بِمَضْمَرَةٍ شر ، وَخَفِيَّةٍ حَقْد ،
قد جعلوا المَعاذيرَ عليها سِتْرًا ، واتخذوا الْعِلَلِ من دونها حِجَابًا ، رجاء أن يدافعوا
الأيامَ بالتأخير ، والأُمُورَ بالتطويل ، فيكسِرُوا حِيلَ المهدي فيهم ، ويُفْنُوا جنودَهُ
عنهم ، حتى يتلاحم أمرهم ، وتتلاحق مَادَّتُهُمْ ، وتستفحل حربهم ، وتستمر الأمور بهم
والمهدي من قولهم في حالِ غِرَّةٍ ، وَلِبَاسِ أَمَنَةٍ ، قد فَتَرَ لها ، وَأَنَسَ بها ، وسكن إليها .
ولولا ما اجتمعت به قلوبُهُمْ ، وَبَرَدَتْ عليه جلودُهُم من المناصبَةِ بالقتال ، والإضرار
للِقِرَاعِ ، عن داعية ضلال ، أو شيطان فساد ، لَرَهَبُوا عواقب أخبار الوُلاة ، وَغَبَّ
بِسُكُونِ الأُمُورِ ، فليَشْدُدْ المهدي وَقْفَهُ الله أَرْزَهُ^(٢) لهم ، ويكْتَبْ كتابه نحوهم ،
وليُضِعْ الأمر على أشد ما يَحْضُرُهُ فيهم ، وليوقن أنه لا يعطيهم خُطَّةً يريد بها صلاحهم ،
إلا كانت دُرْبَةٌ إلى فسادهم ، وقوة على معصيتهم ، وداعية إلى عودتهم ، وسبباً لفساد
مَنْ يَحْضُرُهُ من الجنود ، ومن ببابه من الوفود الذين إن أَقْرَمَ وتلك العادة ، وأجرام
على ذلك الأَرَبِ ، لم يبرح في فَتْقِ حادِث ، وخلافٍ حاضر ، لا يصالح عليه دين ،
ولا تستقيم به دنيا ، وإن طالب تغييرَه بعد استحكام العادة ، واستمرار الدُّرْبَةِ ، لم يصل

(١) الأليان : الملائكة . مصدر لآين ، والسمت : الطريق .

(٢) للقوة والظهور .

إلى ذلك إلا بالعقوبة المفردة . والمثوثة الشديدة . والرأى للمهدى وفقه الله أن لا يقبل عثرتهم . ولا يقبل معذرتهم . حتى تطأهم الجيوش . وتأخذهم السيوف . ويستعز^(١) بهم القتل . ويحدق بهم الموت . ويحيط بهم البلاء . ويطبق عليهم الذل . فإن فعل المهدى بهم ذلك . كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم . وهزيمة لكل بادرة شر منهم . واحتمال المهدى في مثوثة غزوتهم هذه . تضع عنه غزوات كثيرة . ونفقات عظيمة . فقال المهدى : « قد قال القوم . فاحكم يا أبا الفضل » .

٦٠ — مقال العباس بن محمد

فقال العباس بن محمد :

« أيها المهدى : أما الموالى فأخذوا بفروع الرأى ، وسلكوا جنابات الصواب ، وتعدوا أموراً قصّر بنظرهم عنها ، أنه لم تأت تجاربهم عليها . وأما الفضل فأشار بالأموال ألا تنفق ، والجنود ألا تفرق ، وبأن لا يعطى القوم ما طلبوا ، ولا يُبذل لهم ما سألوا . وجاء بأمر بين ذلك استصفاً لأمرهم ، واستبانة بخبرهم . وإنما يهيج جسيات الأمور صفارها .

وأما على فأشار باللين وإفراط الرقيق . وإذا جرّد الوالى لمن غيظ أمره وسفه حقه ، اللين بحتاً ، والخير تحضاً . لم يخلطهما بشدة تعطف القلوب عن لينه . ولا بشرّ ينجسهم إلى خيره . فقد ملكهم الخلع لعذرهم . ووسّع لهم الفرجة لثني أعناقهم . فإن أجابوا دعوته . وقبلوا لينه من غير خوف اضطهرم ولا شدة . فزوة^(٢) في رءوسهم يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم . ويستصرخون بها رأى المهدى فيهم . وإن لم يقبلوا دعوته . ويسرعوا لإجابته باللين المحض ، والخير الصراح . فذلك ما عليه الظن بهم ، والرأى فيهم ، وما قد يشبه أن يكون من مثلهم . لأن الله تعالى خالق الجنة . وجعل فيها

(١) يشهد .

(٢) وثبة إلى الشر .

من النعيم القيم . والملك الكبير . مالا يَحْظُرُ على قلب بشر . ولا تُذَرِّكه الفِكر . ولا تعلمه نفس ، ثم دعا الناس إليها ، ورغَّبهم فيها . فلولا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمةً يسوقهم بها إلى الجنة لما أجابوا ولا قبلوا .

وأما موسى فأشار بأن يُعَصَّبوا بشدة لا لين فيها . وأن يُرَمَوْا بشرًّا لا خير معه . وإذا أضرر الوالى لمن فارق طاعته . وخالف جماعته . الخوف مُفَرِّداً . والشر مجرِّداً . وليس معهما طمع . ولا لينٌ يَنبئهم . اشتدت الأمور بهم . وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين . إما أن تدخلهم الحِمِيَّةُ من الشدة . والأفنة من الذلة . والامتعاض من القهر . فيدعوهم ذلك إلى التَّماذى في الخلاف . والاستبسال في القتال . والاستسلام للموت . وإما أن ينفقوا بالكُره . ويُذعنوا بالقهر على بفضة لازمة . وعداوة باقية . تُورث النفاق . وتُعقِبُ الشقاق . فإذا أمكنتهم فرصة أو ثابَّت^(١) لهم قدرة . أو قويت لهم حال . عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ وأشدَّ مما كان .

وقال في قول أبي الفضل : أيها المهدي أكنى دليل . وأوضح برهان . وأبين خبر بأن قد أجمع رأيه . وحزَمَ نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم . وتوجيه البعث نحوهم . مع إعطائهم ما سألوا من الحق . وإجابتهم إلى ما سألوه من العدل . قال المهدي : ذلك رأى .

٦٦ - مقال هرون بن المهدي

قال هرون :

« خلطت الشدة أيها المهدي باللين . فصارت الشدة أمرًا فِطامٍ لما تَكْرَهُ . وعاد اللين أهدى قائِد إلى ما تُحِبُّ . ولكن أرى غير ذلك » .

قال المهدي : « لقد قلت قولاً بديعاً . وخالفت فيه أهل بيتك جميعاً . والمرء

مُؤْتَمَنَ بِمَا قَالَ . وَظَنِينَ بِمَا ادَّعى . حتى يَأْتِيَ بَيِّنَةٌ عَادِلَةٌ . وَحُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ . فَاخْرُجْ عَمَّا قُلْتَ » قَالَ هَرُونَ : « أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ . إِنْ الْحَرْبُ خُدْعَةٌ ^(١) . وَالْأَعَاجِمُ قَوْمٌ مَكْرَةٌ . وَرَبَّمَا اعْتَدَلْتَ الْحَالَ بِهِمْ . وَاتَّفَقْتَ الْأَهْوَاءَ مِنْهُمْ . فَسَكَانَ بَاطِنُ مَا يُسْرُونَ عَلَى ظَاهِرِ مَا يُعْلِنُونَ . وَرَبَّمَا افْتَرَقْتَ الْحَالَانِ . وَخَالَفَ الْقَلْبَ الْإِسَانُ . فَانْطَوَى الْقَلْبُ عَلَى مَحْجُوبَةٍ تَبْطُنُ . وَاسْتَسْرَّ بِمَدْخُولَةٍ لَا تَعْلَنُ . وَالطَّيِّيبُ الرِّفِيقُ بِطَبَّةٍ . الْبَصِيرُ بِأَمْرِهِ . الْعَالِمُ بِمُقَدَّمِ يَدِهِ . وَمَوْضِعِ مَيْسَمِهِ ^(٢) لَا يَتَعَجَّلُ بِالْإِدْوَاءِ . حَتَّى يَقَعَ عَلَى مَعْرِفَةِ الدَّاءِ . فَالرَّأْيُ لِلْمَهْدِيِّ - وَقَعَهُ اللَّهُ - أَنْ يَفِرَّ ^(٣) بَاطِنُ أَمْرِهِمْ فَرَّ الْمُسِنَّةَ . وَيَمَخُضُ ظَاهِرُ حَالِهِمْ نَحْضَ السَّيِّئِ . بِمُتَابَعَةِ الْكُتُبِ . وَمُظَاهَرَةِ الرُّسُلِ . وَمَوَالَاةِ الْعِيُونِ . حَتَّى تُهْتَكَ حُجُبُ عِيُونِهِمْ . وَتُكْشَفَ أَغْطِيَةُ أُمُورِهِمْ . فَإِنْ انْفَرَجَتْ الْحَالَ وَأَفْضَتْ الْأُمُورُ بِهِ إِلَى تَغْيِيرِ حَالٍ . أَوْ دَاعِيَةِ ضَلَالٍ اشْتَمَلَتْ الْأَهْوَاءُ عَلَيْهِ . وَانْقَادَ الرِّجَالُ إِلَيْهِ . وَامْتَدَّتِ الْأَعْنَاقُ نَحْوَهُ بَدِينٍ يَعْتَقِدُونَهُ . وَإِثْمٌ يَسْتَحْلُونَهُ . عَصَبَهُمْ بِشِدَّةٍ لَا لَيْنَ فِيهَا . وَرِمَاهُمْ بِعُقُوبَةٍ لَا عَفْوَ مَعَهَا . وَإِنْ انْفَرَجَتْ الْعِيُونُ . وَاهْتَصَرَّتِ السُّتُورُ . وَرُفِعَتْ الْحُجُبُ . وَالْحَالَ فِيهِمْ مَرِيعَةٌ ^(٤) . وَالْأُمُورُ بِهِمْ مَعْتَدَلَةٌ . فِي أَرْزَاقٍ يَطْلُبُونَهَا . وَأَعْمَالٍ يُنْكَرُونَهَا . وَظُلُمَاتٍ يَدْعُونَهَا . وَحَقُوقٍ يَسْأَلُونَهَا . بِمَاتَةٍ سَابَقَتْهُمْ . وَدَالَّةٍ مَنَاحَتْهُمْ . فَالرَّأْيُ لِلْمَهْدِيِّ - وَقَعَهُ اللَّهُ - أَنْ يَتَسَعَ لَهُمْ بِمَا طَلَبُوا . وَيَتَجَافَى لَهُمْ عَمَّا كَرِهُوا . وَيَشْعَبَ ^(٥) مِنْ أَمْرِهِمْ مَا صَدَعُوا . وَيَرْتُقَ مِنْ فَتَقِهِمْ مَا قَطَعُوا . وَيَوَلَّى عَلَيْهِمْ مَنْ أَحْبَبَا . وَيَدَاوِي بِذَلِكَ مَرْضَى قُلُوبِهِمْ وَفُسَادَ أُمُورِهِمْ . فَإِنَّمَا الْمَهْدِيُّ وَأُمَّتُهُ . وَسَوَادُ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ . بِمَنْزِلَةِ الطَّيِّيبِ الرِّفِيقِ . وَالْوَالِدِ الشَّفِيقِ . وَالرَّاعِيِ الْحَرْبِ الَّذِي يَحْتَالُ لِلرَّابِضِ غَنَمِهِ . وَضَوَّالِ رَعِيَّتِهِ . حَتَّى يُبْرِئَ الْمَرِيضَةَ مِنْ دَاءِ عِلَّتِهَا . وَيُرَدِّ الصَّحِيحَةَ إِلَى أُنْسٍ جَمَاعَتِهَا . ثُمَّ إِنْ خَرَّاسَانُ بِخَاصَّةٍ

(١) خُدْعَةٌ بِسُكُونِ الدَّالِ وَتَثْنِيَةِ الْهَاءِ . وَبَقَمِ الْهَاءِ وَفَتْحِ الدَّالِ . أَيْ تَنْفِضُ بِخُدْعَةٍ .

(٢) الْمَيْسَمُ : الْمَكْوَاةُ . (٣) فَرَّ الدَّابَّةُ : كَشَفَ عَنْ أَسْنَانِهَا لِيَعْرِفَ سَبِيلَهَا .

(٤) مَرَجُ الْوَادِي كَكُرْمٍ مَرَاةٍ : أَصْغَبَ بِكَثْرَةِ الْكَلَالِ فَهُوَ مَرِيعٌ . (٥) تَصْلَحُ .

الذين لهم دالة محمولة . وماتة مقبولة . ووسيلة معروفة . وحقوق واجبة . لأنهم أيدي دولته . وسيوف دعوته . وأنصار حقه . وأعوان عدله . فليس من شأن المهدي الاضطغان عليهم . ولا المؤاخذة لهم . ولا التوغر^(١) بهم . ولا المكافأة بإساءتهم . لأن مبادرة حَسَمِ الأمور ضَعِيفَةٌ قبل أن تقوى ، ومحاولة قطع الأصول ضئيلة قبل أن تغلظ ، أحزم في الرأي وأصح في التدبير من التأخير لها والتهاون بها حتى يلتئم قليلها بكثيرها ، وتجتمع أطرافها إلى جمهورها .

قال المهدي : « ما زال هرون يقع وقع الحياء^(٢) حتى خرج خروج القدح من الماء وانسلَّ انسلال السيف فيما ادعى فدعوا ما سبق موسى فيه أنه هو الرأى ، وثني بعده هرون ، ولكن من لأعنة الخيل وسياسة الحرب وقيادة الناس إن أمعن بهم اللجاج وأفرطت بهم الدالة ؟ » .

٦٣ — مقال صالح بن علي^(٣)

قال صالح :

« لسنا نبليغ أيها المهدي بدوام البحث وطول الفكر أدنى فِراسة رأيك وبمض لحظّاتِ نظرك ، وليس ينفض عنك من بيوتات العرب ورجالات المعجم ، ذو دين فاضل ورأى كامل ، وتدبير قوى ، تقلده حربك ، وتستودعه جندك ، ممن يحتمل الأمانة العظيمة ويضطلع بالأعباء الثقيلة وأنت بحمد الله ميمون النّقيية^(٤) ، مبارك العزيمة ، مخبور التجارب ، محمود العواقب معصوم العزم ، فليس يقع اختيارك ولا يقف نظرك على أحد توليه أمرك ، وتُسند إليه ثغرك ، إلا أراك الله ماتحب ، وجمع لك منه ما تريد » .

(١) توغر الرجل : تشدد . (٢) المطر .

(٣) هو صالح بن علي بن عبد الله بن همام . (٤) النفس والطبيعة .

قال المهدي : « إني لأرجو ذلك لتقديم عادة الله فيه وحسن معونته عليه ولكن أحب الموافقة على الرأي ، والاعتبار للمشاورة في الأمر المهم » .

٦٣ - مقال محمد بن الليث

قال محمد بن الليث :

« أهل خراسان أيها المهدي قوم ذوو عِزَّةٍ وَمَنْعَةٍ ، وشياطينُ خَدَاعَةٍ ، زُرُوعِ الْحِمِيَّةِ فيهم نابتة ، وملابس الأنفة عليهم ظاهرة ، فالروية عنهم عازبة والعجلة فيهم حاضرة ، تسبق سيولهم مطرهم ، وسيوفهم عذهم ، لأنهم بين سِفْلَةٍ لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم ، وبين رؤساء لا يلجمون إلا بشدة ولا يقطمون إلا بالمرء ، وإن ولي المهدي عليهم وضعاً لم تنقذ له العطاء ، وإن ولي أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء وإن آخر المهدي أمرهم ، ودافع حربهم ، حتى يصيب لنفسه من حشمة ومواليه أو بنى عمه أو بنى أبيه ناصحاً ، يتفق عليه أمرهم ، وثقةً تجتمع له أملاؤهم^(١) بلا أنفة تكزيمهم . ولا حية تدخلهم ، ولا مصيبة تنفرهم ، تنفست الأيام بهم ، وتراخت الحال بأمرهم . فدخل بذلك من الفساد الكبير ، والضياح العظيم ، مالا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جدّ ، ولا يستصلحه وإن جهّد ، إلا بعد دهر طويل ، وشرّ كبير ، وليس المهدي سوقفه الله فاطماً عاداتهم ، ولا قارِعاً صفاتهم^(٢) ، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما ، ولا عدل^(٣) في ذلك بهما ، أحدهما لسان ناطق موصول بسمعك ، ويدٌ ممثلة لعينك ، وصخرة لا تُزعزع ، وبهمة^(٤) لا تُدنى ، وبازل^(٥) لا يُفرعه صوت الجملجمل ، نقي المرعش ، نزيه النفس ، جليل الخطر^(٦) اتضعت الدنيا عن قدره ، وسما نحو الآخرة

(١) جمع ملاكعب : وهو الجماعة . (٢) الصفات : الحجر الصلد للضخم . (٣) العدل : النظير .

(٤) البهمة : الصخرة ، والشيء الذي لا يهتز من أين يؤد . (٥) البازل : الجمل في السنة

الناصية ، والرجل الكامل في تجربته . (٦) القدر .

بِهِمَّتِهِ ، وجعل الغَرَضَ الأقصى لِعَيْنِهِ نُصْبًا ، والغَرَضَ الأدنى لِقَدَمِهِ مَوْطِئًا ، فليس يقبل عملاً ، ولا يتمدى أملاً ، وهو رأس مَوَالِيكَ ، وأنصح بنى أَيْبِكَ ، رجل قد غُذِيَ بلطيف كرامتك ، وَنَبَتَ في ظل دولتك ، ونشأ على قوائم أدبك ، فإن قَلَدته أَمَرَمَ وَحَمَلْتَهُ نِقْلَهُمْ ، وأسندتَ إِلَيْهِ تَفَرَّغَهُمْ ، كان قَفْلاً فَتَحَهُ أَمْرُكَ ، وباباً أَغْلَقَهُ نَهْيُكَ . فجعل العدل عليه وعليهم أَمِيراً ، والإنصاف بينهُ وبينهم حاكماً ، وإذا أَحْكَمَ النِّصْفَةَ . وملك المَعْدَلَةَ ، فأعطاهم ما لهم ، وأخذ منهم ما عليهم ، غرس لك في الذی بین صدورهم وأسكن لك في السُّوَيْدَاءِ ، داخلَ قلوبهم ، طاعةً راسخةً العروق ، باسقةً الفروع ، متماثلةً في حواشي عوامهم ، متمكنةً من قلوب خواصهم ، فلا يبقى فيهم ريبٌ إِلَّا نَفَوْهُ ولا يلزمهم حقٌ إِلَّا أَدَّوهُ ، وهذا أحدهما ، والآخر عُوْدٌ من غَيْضَتِكَ ^(١) ، وَتَبَعَهُ من أرومتك ، فَتَى السن ، كَهْلُ الحِلْمِ ، راجح العقل ، محمود الصَّرامة ، مأمون الخلاف . يجرد فيهم سيفه ، ويسيطر عليهم خيره ، بقدر ما يستحقون ، وعلى حسب ما يستوجبون وهو فلان أيها المهدي ، فسَلَّطَهُ - أعزك الله عليهم ، ووجهه بالجيوش إليهم ، ولا تَمْنَعُكَ ضَرَاةٌ ^(٢) سِنِّهِ ، وحادثة مَوَلَدِهِ ، فإن الحِلْمَ والثقة مع الحداثة ، خير من الشك والجهل مع الكهولة ، وإنما أحداكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه ، واختصكم به من مكارم الأخلاق ، ومحامد الفعال ، ومحاسن الأمور ، وصواب التدبير ، وصرامة الأنفس ، كِفَرَاخِ عِتَاقِ الطير ، المُحْكِمَةَ لأخذ الصيد بلا تَدْرِيْبٍ ، والعارفة لوجوه النَّفْعِ بلا تَأْدِيبٍ . فالحلم والعلم ، والعزم والحزم ، والجود والثَّوْدَةُ ، والرفق ، ثابت في صدوركم ، مزرورع في قلوبكم ، مُسْتَحْكِمٌ لكم ، متكامِلٌ عندكم بطبائع لازمة ، وغرائز ثابتة » .

(١) البَيْضَةُ : الأَجَمَةُ وجميع الشجر في منفض ماء . (٢) المراد حداثة

٦٤ — مقال معاوية بن عبد الله

قال معاوية بن عبد الله :

« أفتاه^(١) أهل بيتك أيها المهدي في الحِلْم على ما ذكر ، وأهل خراسان في حال عزٍّ على ما وُصف ، ولكن إن ولي المهدي عليهم رجلا ليس بقديم الذكر في الجنود . ولا بنبيه الصوت في الحروب ، ولا بطويل التجربة للأُمور ، ولا بمعروف السياسة للجيوش ، والهَيْبَةِ في الأعداء دخل ذلك أمران عظيمان ، وَخَطَرَان مَهُولَان ، أحدهما أن الأعداء يفتَمِزونها منه ، وَيَحْتَقِرُونَهَا فيه ، وَيَحْتَرُونُ بها عليه ، في النهوض به . والمقارعة له ، والخلاف عليه ، قبل مآحين الاختبار لأمره ، والتكشاف لحاله ، والعلم بطباعه ؛ والأمر الآخر أن الجنود التي يقود ، والجيوش التي يَسُوس ، إذا لم يختبروا منه البأسَ والنَّجْدَةَ ، ولم يعرفوه بالصوت^(٢) والهَيْبَةِ ، انكسرت شجاعتهم ، وماتت نَجَلَتُهُمْ . واستأخرت طاعتهم ، إلى حين اختبارهم ، ووقوع معرفتهم ، وربما وقع البَوَارُ قبل الاختبار . وباب المهدي — وَفَّقَهُ اللهُ — رجل مَهِيْب نبيه حَنِيْكَ^(٣) صِيَّت ، له نسبٌ زَالٍ . وصوتٌ عال ، قد قاد الجيوشَ وساس الحروب ، وتألَّف أهلَ خراسان ، واجتمعوا عليه بِالمَقَّة ، وَوَقَّعُوا به كل الثَّقَّة ، فلو ولَّاه المهدي أمرهم ، لسكفاه الله شرهم . »

قال المهدي : « جانبَتَ قَصْدَ الرَّمِيَّة ، وَأَبَيْتَ إِلَّا عَصَبِيَّةً إِذْ رَأَيْتُ الحَدَثَ من أهل بيتنا ، كَرَأَى عشرة حُلَمَاء من غيرنا . ولكن أين تركتم ولي العهد ؟ » . قالوا : « لم يمتنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جده ، ونسيجَ وَحْدِهِ^(٤) . ومن الدين وأهله . بحيث يقصُر القول عن أدنى فضله ، ولكن وجدنا الله عز وجل حَجَبَ عَنْهُ » .

(١) جمع فتى كيتيم وأيتام . (٢) الصوت والصلوات والصيت : الذكر الحسن . (٣) حنك .

(٤) هو نسيج وحده : لا نظير له منفرد بخصال معدودة لا يشركه فيها غيره ، كما أن القوب النفيس

لا ينسج على مثاله غيره ، أي لا يشرك بينه وبين غيره في اللدى .

خلقه ، وسَتَرَ دُونِ عِبَادِهِ ، عِلْمٌ مَا تَخْتَلِفُ بِهِ الْأَيَّامُ ، وَمَعْرِفَةٌ مَا تَجْرِي عَلَيْهِ الْمَقَادِيرُ مِنْ حَوَادِثِ الْأُمُورِ ، وَرَيْبُ الْمُنُونِ ^(١) الْمُخْتَرِمَةُ لِحَوَالِي الْقُرُونِ ، وَمَوَاضِي الْمُلُوكِ فَكَّرَ هُنَا شُسُوعَهُ ^(٢) عَنْ مَحَلَّةِ الْمَلِكِ ، وَدَارِ السُّلْطَانِ ، وَمَقَرِّ الْإِمَامَةِ وَالْوِلَايَةِ ، وَمَوْضِعِ الْمَدَائِنِ وَالْخَزَائِنِ ، وَمَسْتَقَرِّ الْجُنُودِ ، وَمَعْدِنِ الْجُودِ ، وَاجْتَمَعَ الْأَمْوَالُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ قُطْبًا لِمَدَارِ الْمَلِكِ ، وَمِصِيدَةً لِقُلُوبِ النَّاسِ ، وَمَثَابَةً لِإِخْوَانِ الطَّمَعِ ، وَثَوَارَ الْفِتَنِ ، وَدَوَاعِيَ الْبِدْعِ . وَفُرْسَانَ الضَّلَالِ ، وَأَبْنَاءَ الْمَوْتِ ، وَقَالْنَا إِنْ وَجَّهَ الْمَهْدَى وَلِيَّ عَهْدِهِ ، لَحْدَثَ فِي جَيُوشِهِ وَجُنُودِهِ ، مَا قَدْ حَدَثَ بِجُنُودِ الرِّسْلِ مِنْ قَبْلِهِ ، لَمْ يَسْتَطِعِ الْمَهْدَى أَنْ يُعَقِّبَهُمْ بَغِيرِهِ ، إِلَّا أَنْ يَنْهَضَ إِلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ ، وَهَذَا خَطَرٌ عَظِيمٌ ، وَهَوْلٌ شَدِيدٌ ، إِنْ تَنَفَّسَتْ الْأَيَّامُ بِمَقَامِهِ . وَاسْتَدَارَتْ الْحَالُ بِإِمَامِهِ ، حَتَّى يَقَعَ عِوَضُ لَا يَسْتَفْتِي عَنْهُ ، أَوْ يَحْدُثُ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ . صَارَ مَا بَعْدَهُ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ هَوًى وَأَجَلُ خَطَرًا ، لَهُ تَبَعًا ، وَبِهِ مُتَصِلًا .

٦٥ — مقال المهدي

قال المهدي :

« اَلْخَطْبُ أَيْسَرُ مِمَّا تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ ، وَعَلَى غَيْرِ مَا تَصِفُونَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ ، نَحْنُ أَهْلُ الْبَيْتِ نَجْرِي مِنْ أَسْبَابِ الْقَضَايَا ، وَمَوَاقِعِ الْأُمُورِ ، عَلَى سَابِقٍ مِنَ الْعِلْمِ ، وَبِحَتْمٍ مِنَ الْأَمْرِ ، قَدْ أَنْبَأَتْ بِهِ الْكُتُبُ ، وَتَنْبَأَتْ عَلَيْهِ الرِّسْلُ ، وَقَدْ تَنَاهَى ذَلِكَ بِأَجْمَعِهِ إِلَيْنَا . وَتَسْكُمُ بِحَدِّ أَفِيرِهِ ^(٣) عِنْدَنَا ، فِيهِ نَدْبَرُ ، وَعَلَى اللَّهِ تَتَوَكَّلُ ، إِنَّهُ لَا بُدَّ لَوْلَى عَهْدِي . وَوَلَّى عَهْدِي عَقْبِي بَعْدِي أَنْ يَقُودَ إِلَى خِرَاسَانَ الْبَعُوثِ ، وَيَتَوَجَّهَ نَحْوَهَا بِالْجُنُودِ ؛ أَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّهُ يُقَدِّمُ إِلَيْهِمْ رِسْلَهُ ، وَيُعْمَلُ فِيهِمْ حِيَلَهُ . ثُمَّ يُخْرِجُ نَشِيطًا إِلَيْهِمْ حَقِيقًا

(١) المنون النية (مؤنث) والمخترة : المهلكة ، والحوالي جمع خالية : وهي الماضية .

(٢) شمع كنع شعما وشسوعا : بعد فهو شاسع وشسوع .

(٣) جمع حذفور كمصفور أو حذفار كقرطاس : وهو الجانب .

عليهم . يريد أن لا يدع أحداً من إخوان الفتن ، ودواعي البدع ، وفُرسان الضلال .
إلا توطأه بحرَّ القتل ، وألبسه قناع القهر . وقلده طوق الذل ، ولا أحداً من الذين
علوا في قصِّ جناح الفتنة ، وإخماد نار البدعة ، ونُصرة ولاة الحق ، إلا أجرى عليهم
دِيم فضله ، وجداول نهله ، فإذا خرج مُزْمِعاً به ، مُجْمِعاً عليه ، لم يسر إلا قليلاً حتى
يأتيه أن قد عملت حيله ، وكَدَحَت كتبه ، ونَفَذَت مكائده ، فَهَدَّأت نافرة القلوب .
ووقعت طائفة الأهواء ، واجتمع عليه المختلفون بالرضا ، فيميل نظراً لهم ، وبراً بهم .
وتعطفاً عليهم ، إلى عدو قد أخاف سبيلهم وقطع طريقهم ، ومنع حجاجهم بيت الله
الحرام ، وسلب تجارهم رزق الله الحلال ؛ وأما الآخر فإنه يوجه إليهم ، ثم تعتدله
الحجة عليهم بإعطاء ما يطلبون ، وبذلل ما يسألون ، فإذا سمحت الفرق بقراباتها له .
وجنح أهل النواحي بأعناقهم نحوه ، فأصغت إليه الأفئدة ، واجتمعت له الكلمة .
وقد رمت عليه الوفود ، قصد لأول ناحية بجمعت^(١) بطاعتها ، وألقت بأزمئتها ، فألبسها
جناح نعمته ، وأنزلها ظلَّ كرامته وخصَّها بعظيم حباؤه^(٢) ، ثم عم الجماعة بالمعدلة .
وتعطف عليهم بالرحمة ، فلا تبقى فيهم ناحية دانية ، ولا فرقة قاصية ، إلا دخلت عليها
بركته ، ووصلت إليها منفعته ، فأغنى فقيرها ، وجبر كسيرها ، ورفع وضعفها . وزاد
رفيعها ، ما خلا ناحيتين ، ناحية يغاب عليها الشقاء ، وتستميلهم الأهواء ، فتستخف
بدعوته ، وتبطن عن إجابته ، وتتأقل عن حقه ، فتكون آخر من يبعث ، وأبطأ من
يوجه ، فيصطلي عليها موجدة ، ويتغنى لها علة ، لا يلبث يجد^(٣) بحق يلزمهم ، وأمر
يجب عليهم ، فتستلحمهم الجيوش ، وتأكلهم السيوف ، ويستحرر بهم القتل ، ويحيط
بهم الأمر ، ويُفنيهم التتبع ، حتى يُخرب البلاد ويوتيم الأولاد ، وناحية لا يسقط
لهم أماناً ، ولا يقبل لهم عهداً ، ولا يجعل لهم ذمة ، لأنهم أول من فتح باب الفرقة .

(١) جمع بالحق بخوعاً : أقر به وخضع له . (٢) خطائه . (٣) يفضب .

وندرع جلباب الفتنة ، وربض في شق العصا ، ولكنه يقتل أعلامهم ، ويأسر قوادهم ويطلب هُراهم ، في لجج البحار ، وقُلل الجبال ، وَحَمِل^(١) الأودية ، ويطون الأرض . تقتيلاً وتغليلاً وتنكيلاً ، حتى يدع الدنيا خراباً ، والنساء أَيْامى ، وهذا أمر لانعرف له في كتبنا وقتاً ، ولا نصحح منه غير ما قلنا تفسيراً ؛ وأما موسى ولي عهدي ، فهذا أَوَانُ تَوَجُّهه إلى خراسان ، وحلوله بِجُرْجان ، وما قضى الله له من الشخوص إليها . والمقام فيها ، خير للمسلمين مَغَبَّةً ، وله بإذن الله عاقبة من المقام بحيث يُغَمَّرَ في لجج بخورنا ، ومدافع سيولنا ، ومجامع أمواجنا ، فيتصاغر عظيم فضله ، ويتدأب^(٢) مَشْرِقُ نُوره ، ويتقلل كثير ما هو كائن منه ، فمن يصحبه من الوزراء ، ويختار له من الناس ؟ » .

٦٦ — مقال محمد بن الليث

قال محمد بن الليث :

« أيها المهدي : إن وليَّ عهدك أصبح لأُمتك ، وأهل ملتك ، علماً قد تثنت نحوه أعناقها ، ومدَّت سَمْتَه أبصارها . وقد كان لقرب داره منك ، ومحلَّ جواره لك ، عَطْل^(٣) الحال ، غُفل الأمر ، واسع العذر . فأما إذا انفرد بنفسه . وخلا بنظره . وصار إلى تدييره . فإن من شأن العامة أن تنفقد مخارج رأيه . وتستنصت لمواقع آثاره وتسأل عن حوادث أحواله ، في برِّه ومَرَاحته . وإقساطه^(٤) ومَعَدَلته ، وتدييره وسياسته ، ووزرائه وأصحابه . ثم يكون ماسبق إليهم أغاب الأشياء عليهم ، وأملك الأمور بهم ، وألزمها لقلوبهم ، وأشدّها استمالةً لرأيهم ، وعطفاً لأهوائهم . فلا يفتأ المهدي — وقته الله — ناظراً له فيما يقوى عمده مملكته ، ويسدّد أركان ولايته ،

(١) الحمل : بطن السيل . (٢) يضطرب .

(٣) عطل (كفتح ح) من الحال والأدب : خلا فهو مطلق كغفل وعنه . (٤) عدله .

ويستجمع رضا أمته بأمر هو أزينُ لحاله . وأظهرُ لجماله ، وأفضلُ مَغَبَّةً لأمره ، وأجلُ مَوْقِعاً في قلوب رعيته ، وأحمدُ حالاً في نفوس أهلِ مِلَّتِهِ . ولا أدفعُ مع ذلك باستِجَاج الأهواءِ له . وأبلغُ في استعطاف القلوب عليه ، من مَرَحَةٍ تظهر من فعله . ومعدلة تنفُث عن أثره . ومحبة للخير وأهله ، وأن يختار المهديُّ — وفقههُ الله — من خيار أهل كل بلدة . وقفاء أهل كلِّ مصر ، أقواماً تسكنُ العائَةُ إليهم إذا ذُكِرُوا ، وتأنس الرعية بهم إذا وُصِفُوا . ثم تسهلُ لهم عِمارة سُبُل الإحسان ، وَفَتْح باب المعروف . كما قد كان فُتِحَ له ، وسُهِلَ عليه .

قال المهدي : صدقتَ ونصحتَ . ثم بعث في ابنه موسى ، فقال :

٦٧ — مقال المهدي

« أَيُّ بُنْيٍّ . إنك قد أصبحتَ لَسَمْتَ وجوه العامة نُصْباً ، ولَمُنَى أعطافِ الرعية غايَةً ، فَحَسَنَتُكَ شامِلَةٌ . وَإِسَاءَتُكَ نائِيَةٌ ، وأمرُكَ ظاهر ، فعليك بتقوى الله وطاعته . فاحتِمْلِ سُخْطَ الناسِ فيهما ، ولا تطلب رضاهم بِمُخْلَافِهما ، فإن الله عز وجل كافيك مَنْ أسخطه عليك إِيثارُكَ رِضاه . وليس بكافيك مَنْ يُسخطه عليك إِيثارُكَ رضا مَنْ سواه . ثم اعلم أن الله تعالى في كلِّ زمانٍ فَتْرَةٌ من رسله . وبقايا من صَفوة خلقه ، وَخَبَايا لِنُصرة حقهِ ، يَجِدُّ حَبْلَ الإسلامِ بدعواهم ، وَيَشِيدُ أركان الدين بُنُصرتهم ، وَيُخْذِلُ لأولياء دينه أنصاراً ، وعلى إقامة عدله أعواناً . يَسُدُّونَ اِخْلالَ ، وَيُقِيمُونَ الْمَيْلَ ، ويدفعون عن الأرض الفساد ، وإن أهل خراسان أصبحوا أيديَ دولتنا ، وسيوفَ دعوتنا ، الذين نستدفعُ المَكاريه بطاعتهم ، ونستصرفُ نزول العظائم بِمُناحَتهم . وَنُدَافِعُ رَيْبَ الزمانِ بعزائمهم ، وَنُزَاحِمُ ركن الدهر ببصائرهم ، وهم عِماد الأرض إذا أُرْجِفَ كَنَفُها ، وخوفُ الأعداء إذا بَرَزَتْ صَفَحَتُها ، وَحُصُونُ الرعية إذا تضايقت الحال بها ، قد مضت لهم وقائعُ صادقات ، ومواطنُ صالحات ، أَخَذَتْ نيرانَ

الْفِتْنِ ، وَقَسَمْتَ ذَوَاعِيَّ الْبِدْعِ . وَأَذَلَّتْ رِقَابَ الْجَبَّارِينَ ، وَلَمْ يَنْفَسُوكَ كَذَلِكَ مَا جَرَوْا
مَعَ رِيحِ دَوْلَتِنَا ، وَأَقَامُوا فِي ظِلِّ دَعْوَتِنَا ، وَاعْتَصَمُوا بِحَبْلِ طَاعَتِنَا ، الَّتِي أَعَزَّ اللَّهُ بِهَا
ذِلَّتَهُمْ ، وَرَفَعَ بِهَا ضَعْفَهُمْ ، وَجَعَلَهُمْ بِهَا أَرْبَابًا فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَمَلُوكًا عَلَى رِقَابِ الْعَالَمِينَ
بَعْدَ لِبَاسِ الذِّلِّ ، وَقِنَاعِ الْخَوْفِ ، وَإِطْبَاقِ الْبَلَاءِ ، وَنُحَالِفَةِ الْأَسَى ، وَجَهْدِ الْبَأْسِ
وَالضَّرِّ . فَظَاهَرُوا عَلَيْهِمْ لِبَاسَ كِرَامَتِكَ ، وَأَنْزَلَهُمْ فِي حَدَائِقِ نِعْمَتِكَ ، ثُمَّ اعْرِفْ لَهُمْ
حَقَّ طَاعَتِهِمْ ، وَوَسِيلَةَ دَائَتِهِمْ ، وَمَائَةَ سَابِقَتِهِمْ ، وَحُرْمَةَ مَنَاصِحَتِهِمْ ، بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ،
وَالْتَوْسِيعَةِ عَلَيْهِمْ ، وَالْإِنَابَةِ لِحُسْنِهِمْ ، وَالْإِفَالَةَ لِسَيِّئِهِمْ .

أَيُّ بَنِي ، ثُمَّ عَلَيْكَ الْعَامَّةَ . فَاسْتَدْعِ رِضَاهَا بِالْعَدْلِ عَلَيْهَا ، وَاسْتَجْلِبْ مَوَدَّتَهَا
بِالْإِنصَافِ لَهَا ، وَتَحَسَّنْ بِذَلِكَ لِرَبِّكَ ، وَتَوَثَّقْ بِهِ فِي عَيْنِ رِعْيَتِكَ ، وَاجْعَلْ عُجَالَ الْعُدُوِّ
وَوُلاَةَ الْحَجَجِ مُقَدِّمَةً بَيْنَ يَدَيِ عَمَلِكَ ، وَنَصَفَةً مِنْكَ لِرِعْيَتِكَ ، وَذَلِكَ أَنْ تَأْمُرَ قَاضِيَ
كُلِّ بِلَدٍ ، وَخِيَارَ أَهْلِ كُلِّ مِصْرٍ ، أَنْ يَخْتَارُوا لَأَنْفُسِهِمْ رِجَالًا تَوَلِيَهُ أَمْرَهُمْ ، وَتَجْعَلَ
الْعَدْلَ حَاكِمًا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ، فَإِنْ أَحْسَنَ مُحَدَّثَ ، وَإِنْ أَسَاءَ عُذِرْتَ . هَؤُلَاءِ عُمَالُ
الْعُدُوِّ ، وَوُلاَةُ الْحَجَجِ ، فَلَا يَسْقُطَنَّ عَلَيْكَ مَافِي ذَلِكَ إِذَا انْتَشَرَ فِي الْآفَاقِ ، وَسَبَقَ إِلَى
الْأَسْمَاعِ مِنْ انْعِقَادِ أَلْسِنَةِ الْمُزْجِفِينَ ، وَكَبَتْ قُلُوبُ الْحَاسِدِينَ ، وَإِطْفَاءُ نِيرَانِ الْحُرُوبِ ،
وَسَلَامَةُ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ ، وَلَا يَنْفَسُكََنَّ فِي ظِلِّ كِرَامَتِكَ نَازِلًا ، وَبِعُورًا حَبْلُكَ مُتَعَلِّقًا ،
رِجَالَانِ : أَحَدُهُمَا كَرِيمَةٌ مِنْ كِرَامَتِ رِجَالِ الْعَرَبِ ، وَأَعْلَامُ بِيُوتَاتِ الشَّرَفِ ، لَهُ أَدَبُ
فَاضِلٍ ، وَحِلْمٌ رَاجِحٌ ، وَدِينٌ صَحِيحٌ ، وَالْآخَرُ لَهُ دِينٌ غَيْرُ مَغْمُوزٍ ، وَمَوْضِعٌ غَيْرُ مَدْخُولٍ ،
بَصِيرٌ بِتَقْلِيلِ الْكَلَامِ ، وَتَصْرِيفِ الرَّأْيِ ، وَأَنْحَاءِ الْقُرْبِ ، وَوَضْعِ الْكِتَابِ ، عَالِمٌ
بِحَالَاتِ الْحُرُوبِ ، وَتَصَارِيفِ الْخَطُوبِ ، يَضَعُ آدَابًا نَافِعَةً ، وَآثَارًا بَاقِيَةً ، مِنْ مُحَاسِنِكَ
وَتَحْسِينِ أَمْرِكَ ، وَتَحْلِيَةِ ذِكْرِكَ ، فَتُسْتَشِيرُهُ فِي حَرْبِكَ ، وَتُدْخِلُهُ فِي أَمْرِكَ ، فَرَجُلٌ
أَصَبَتْهُ كَذَلِكَ ، فَهُوَ يَأْوِي إِلَى تَحَلَّتِي ، وَيَرْعَى فِي خُصْرَةِ جَنَانِي ، وَلَا تَدْعُ أَنْ تَخْتَارَ
لَكَ مِنْ فُقَهَاءِ الْبُلْدَانِ ، وَخِيَارِ الْأَمْصَارِ ، أَقْوَامًا يَكُونُونَ جِيرَانَكَ وَنُصْرَتَكَ ، وَأَهْلًا

مشاورتك فيما تُورد ، وأصحاب مناظرتك فيما تُصدِر ، فسرّ على بركة الله ، أحبك الله
من عونه وتوفيقه دليلاً يَهْدِي إلى الصواب قلبك ، وهادياً ينطق بالخير لسانك .
وكتب في شهر ربيع الآخر سنة سبعين ومائة ببغداد^(١) .
(العقد الفريد ١ : ٥٧)

٦٨ — ابن عتبة يعزى المهدي ويهته

لما توفى المنصور دخل ابن عتبة^(٢) مع الخطباء على المهدي ، فسلم قال :
« آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك الله لأمر المؤمنين فيما
خلقه له أمير المؤمنين بعده ، فما مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين ، ولا عظمى أفضل
من وراثته مقام أمير المؤمنين ، فاقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطية ، واحتسب
عند الله أفضل الرزية » .
(البيان والبيان ٢ : ١٠٢ ، والعقد الفريد ٢ : ٣٥)

٦٩ — يعقوب بن داود يستعطف المهدي

لما سخط المهدي على وزيره يعقوب بن داود^(٣) أحضره ، فقال : يا يعقوب ،
قال : كبيك يا أمير المؤمنين ، تلبيةً مكروبٍ لموجدتك ، شريكٍ بفصحتك ، قال :

(١) ملاحظة : أقول : وهذا يناق ما ورد في التاريخ : إذ المعروف أن المهدي توفى في المحرم سنة ١٦٩
وأعقبه الهادي ، الذي توفى في ربيع الأول سنة ١٧٠ ، فكيف يكون تاريخ كتابة هذه المشاورة هو ربيع
الآخر سنة ١٧٠ أي بعد وفاة المهدي والهادي ، مع أنه ذكر في سياق خبرها أن المهدي أمر محمد بن أبي
بجفت مراجعتهم ، وإثبات مقالهم في كتاب ، أي أنها كتبت في المجلس الذي حدثت فيه المشاورة . ولم أورد في
التاريخ أيضاً أن الهادي خرج إلى جرجان سنة ١٦٦ و ١٦٧ (راجع تاريخ الطبري ج ١٠ ص ٧ - ٨)
الهم إلا أن يقال إنها كتبت في مجلس المشاورة ، وبقيت محفوظة لدى كاتبها ، حتى نشرت للناس في ربيع
الآخر سنة ١٧٠ أي أن ذلك التاريخ هو تاريخ كتابتها لإعلانها للجمهور ، عل أننا نتشكك فيها من وجهة
أخرى ، وذلك لما نراه عليها من ملامح الكتابة الفنية المنسقة .

(٢) وفي العقد الفريد « أبو العيناء المحدث » .

(٣) وكان المهدي قد فرض إليه الأمور كلها ، وسلم إليه الدواوين ، وقدمه على جميع الناس ، ثم سخط
عليه . وسبب ذلك أنه دفع إليه رجلاً من العلويين ، وقال له : أحب أن تكشفني أمره ، فلما صار للملوك -

« ألم أرفع قدرك وأنت خامل ، وأسير ذكرك وأنت هامل ، وألبستك من نعم الله تعالى ونعمى مالم أجد عندك طاقةً لحمله ، ولا قياماً بشكره ؟ فكيف رأيت الله تعالى أظهر^(١) عليك ، وردّ كيدك إليك ! » .

قال : « يا أمير المؤمنين ، إن كنت قلت هذا بتيقن وعلم فأني معترف ، وإن كان بسماية الباغين ، ونمائهم المعاندين ، فأنت أعلم بأكثرها ، وأنا عائد بكرمك ، وعيم شرفك » .

فقال : لولا الحنث^(٢) في دمك لألبستك قميصاً لاتشد عليه أزراراً ، ثم أمر به إلى السجن ، فتولى وهو يقول : « الوفاء يا أمير المؤمنين كرم ، والمودة رحيم ، وما على العفو ندم ، وأنت بالعفو جدير ، وبالحاسن خَلِيق » ، فأقام في السجن إلى أن أخرجه الرشيد .
(زمر الأدب ٣ : ٢٠٧)

٧٠ - رجل من أهل خراسان يخطب محضرة المهدي

وقدّم على المهدي رجل من أهل خراسان ، فقال : « أطل الله بقاء أمير المؤمنين ، إنا قوم تأيناً عن العرب ، وشغلنا الحروب عن الخطب ، وأمير المؤمنين يعلم طاعتنا ، وما فيه مصلحتنا ، فيكتفي منا باليسير عن الكثير ، ويقتصر على مافي الضمير ، دون التفسير » ، فقال المهدي : أنت أخطب من سمعته .
(الصناعتين ص ٤٠)

١ - فيده : قال له : يا مقوب تلق الله بدي ، وأنا ابن هلى بن أبي طالب ، وابن فاطمة رضى الله عنها ، وليس لك إليك ذنب ؟ فرق له ، وخل سيبله ، ونهى الخبر إلى المهدي ، فأرسل في طلب العلوي حتى ظفر به ، واستلحقه مقوب ، فقال : ما فعلت بالعلوي ؟ قال : قد أراح الله منه أمير المؤمنين ، قال : مات ؟ قال : نعم ، فاستلحقه ، فحلف له : فأخرج إليه العلوي ، فلم يجر جواباً ، فأمر بحبسه في بئر مظلمة ، ومازاله محبوساً حتى عفا عنه الرشيد وتوفى سنة ١٨٦ هـ . (١) أي أعان عليك .

(٢) في الأصل : الحسب « وأرى أنها معرفة من « الحنث » وهو الذنب العظيم والإثم .

٧٩ - مقام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي

دخل صالح بن عبد الجليل على المهدي ، فسأله أن يأذن له في الكلام ، فقال : تكلم فقال :

« إنه لما سَهَّل علينا ما توعَّرَ على غيرنا من الوصول إليك ، قُنا مقامَ الأداء عنهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بإظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي ، عند انقطاع عُذرِ السكَّان ، ولا سِيَّما حين اتَّسَمَت بِمِسْمِ التواضع ، ووعدت الله وَحَمَلَةَ كتابه إثَارَ الحق على ما سواه ، فَجَمَعْنَا وَإِيَّاكَ مُشْهَدًا من مشاهد التمهيص ، لِيَمَّ مُؤَدِّينَا على موعود الأداء عنهم ، وقابلنا على موعود القبول ، أو يزيدنا تمحيصُ الله إيانا في اختلاف السر والعلانية ، وَيُحَلِّينَا حِلْيَةَ الكذابين ، فقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : « من حَجَبَ الله عنه الْعِلْمَ ، عَذَّبَهُ على الجهل ، وَأَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا مَنْ أَقْبَلَ إِلَيْهِ الْعِلْمَ وَأَدْبَرَ عَنْهُ ، ومن أَهْدَى اللهُ إِلَيْهِ عِلْمًا فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ ، فَقَدْ رَغِبَ عَنْ هَدْيَةِ اللهِ وَقَصَّرَ بِهَا » ، فَأَقْبَلَ ما أَهْدَى اللهُ إِلَيْكَ من أَسْنَتِنَا ، قبولَ تحقيق وعمل لا قبولَ سُمْعَةٍ ورياء ، فإنه لا يَعْدَمُكُ منا إِعْلَامٌ لِمَا تَجْهَلُ ، أو مُوَاطَاةٌ على ما تعلم ، أو تذكير لك من غفلةٍ ، فقد وَطَّنَ اللهُ عِزًّا وَجَلَّ نَبِيَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على نزولها ، تَعْزِيَةً عما فات ، وَتَحْصِينًا من التماذى ، وَدَلَالَةً على المخرج ، فقال : « وَإِنَّمَا يَنْزَعُ عَنْكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » وَأُطْلِعَ اللهُ على قلبك ، بما ينورُ اللهُ به القلوبَ ، من إثَارِ الحق ، ومنابذة الأهواء فإنك إن لم تفعل ذلك يَرُ اثْرُكَ وَأَثَرُ اللهِ عَلَيْكَ فِيهِ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . »

٧٢ — عظة شبيب بن شيبة للمهدى

وقال شبيب بن شَيْبَةَ^(١) للمهدى : « يا أمير المؤمنين ، إن الله إذ قَسَمَ الأقسام في الدنيا ، جعل لك أَسْناها وأَعلاها ، فلا ترض لنفسك من الآخرة ، إلا مثل ما رضى لك به من الدنيا ، فأوصيك بتقوى الله ، فعليكم نَزَلَتْ ، ومنكم أُخِذَتْ ، وإليكم تُرِدُّ » .
(العقد الفريد ١ : ٣٠٧)

٧٣ — خطبته في تعزية المهدي بابنته

لما ماتت البانُوقة بنت المهدي ، جَزَعَ عليها جزعاً لم يُسمع بمثله ، فجلس للناس يعزونه ، وأمر ألا يُحَجَّبَ عنه أحد ، فأكثر الناس في التعازي ، واجتهدوا في البلاغة ، وفي الناس من ينتقد هذا عليهم من أهل العلم والأدب ، فأجمعوا على أنهم لم يسمعوا تعزية أوجز ، ولا أبلغ ، من تعزية شبيب بن شيبة ، فإنه قال :
« أعطاك الله يا أمير المؤمنين على ما رزيت أجراً ، وأعقبك صبراً ، ولا أجهَدَ الله بلاءك بِنِعمة ، ولا نزع منك نعمةً ، ثَوَابُ الله خيرٌ لك منها ، ورحمة الله خير لها منك وأحقُّ ما صَبِرَ عليه مالا سبيل إلى رَدِّه^(١) » .
(تاريخ الطبري ١٠ : ٢١)

٧٤ — خطبة أخرى له في مدح الخليفة

قيل لبعض الخلفاء إن شبيب بن شيبة يستعمل الكلام ويستعدله ، فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لرجوت أن يفتضح ، فأمر رسولا فأخذ بيده إلى المسجد فلم يفارقه حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم حق الصلاة عليه ، ثم قال :

(١) هو شبيب بن شيبة بن عبد الله بن عمرو بن الأهم الملقب بالقمي وهو ابن عم خالد بن صفوان .
توفي في حدود سنة ١٧٠ هـ .

(٢) روى صاحب العقد أن شيبيا عزي بهذا المقال المنصور على أخته أبي العباس (العقد الفريد ٢ : ٣٥) .

« ألا إن لأمير المؤمنين أشباهاً أربعة : الأسد الخادر^(١) ، والبحر الزاخر ، والقمر الياهر ، والربيع الناضر ؛ فأما الأسد الخادر : فأشبه منه صولته وَمَضَاهُ ؛ وأما البحر الزاخر : فأشبه منه جوده وعطاءه ؛ وأما القمر الباهر : فأشبه منه نوره وَضِيَاءه ؛ وأما الربيع الناضر : فأشبه منه حسنه وبهاءه ، ثم نزل وأنشأ يقول :

وموقفٍ مثل حَدِّ السيف قَتُّ به أَحْيَى الذَّمَّار وترميني به الحَدَقُ^(٢)
فما زَلِقْتُ ، وما أَلْقَيْتُ كاذِبَةً إذا الرجال على أمثاله زَلِقُوا

(المعقذ للفريد ٢ : ١٥٨ ، ١ : ١٣٨ ، زهر الآداب ٣ : ٢٠٩)

٧٥ — كلمات لشبيب بن شيبه

وقال شبيب : « اطلب الأدب ، فإنه دليل على المروءة ، وزيادة في العقل ، وصاحب في الغربة ، وَصِلَة في المجلس » .

وقال للمهدي يوماً : « أراك الله في بنيك ، ما أرى أباك فيك ، وأرى الله بنيك فيك ، ما أراك في أبيك » .
(البيان والتبيين ١ : ١٩٠)

وخرج من دار الخلافة يوماً ، فقال له قائل : كيف رأيتَ الناس ؟ قال : « رأيت الداخل راجحاً ، والخارج راضياً » .

(البيان والتبيين ١ : ١٩٠ ، وزهر الآداب ٣ : ١٢٩)

٧٦ — خطبة يوسف بن القاسم بن صديح الكاتب

يوم ولي الرشيد الخلافة

روى الطبرى قال : لما كانت الليلة التي توفي فيها موسى الهادى ، أخرج هَرَمَّة ابن أعين هرون الرشيد ليلاً ، فأقعدته للخلافة ، فدعا هرون يحيى بن خالد بن برمك

(١) الخدر : أجمة الأسد ومنه يقال أسد خادر ، وأخدر الأسد : لزم الأجمة . وأخدر العرين الأسد : ستره فهو نخدر بكسر الدال وفتحها . (٢) الغمار : ماتجيب حمايته .

- وكان محبوساً - وقد كان عزم موسى على قتله ، وقتل هرون الرشيد في تلك الليلة^(١) فحضر يحيى ، وتقلد الوزارة ، ووجه إلى يوسف بن القاسم بن صُبَيْح الكاتب ، فأحضره وأمره بإنشاء الكتب ، فلما كان غداة تلك الليلة وحضر القواد ، قام يوسف ابن القاسم ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« إِنْ اللَّهُ بِمَنْتَهُ وَلُطْفِهِ ، مَنْ عَايَكُمْ مَعَاشِرَ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ ، بَيْتِ الْخِلَافَةِ ، وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَإِيَّاكُمْ أَهْلَ الطَّاعَةِ مِنْ أَنْصَارِ الدَّوْلَةِ وَأَعْوَانِ الدَّعْوَةِ ، مِنْ نِعْمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَى بِالْعَدَدِ ، وَلَا تَنْقُضِي مَدَى الْأَبَدِ ، وَأَيَادِيهِ التَّامَّةُ ، أَنْ جَمَعَ الْفَتْكَمَ ، وَأَعْلَى أَمْرِكُمْ ، وَشَدَّ عَضْدَكُمْ ، وَأَوْهَنَ عَدُوَكُمْ ، وَأَظْهَرَ كَلِمَةَ الْحَقِّ ، وَكُنْتُمْ أَوْلَى بِهَا وَأَهْلُهَا ، فَأَعَزَّكُمْ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ قُوَّةً عَزِيزاً ، فَكُنْتُمْ أَنْصَارَ دِينِ اللَّهِ الْمَرْضَى ، وَالذَّائِبِينَ بِسَيْفِهِ الْمُنْتَضَى ، عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِيَّاكُمْ اسْتَنْقَذَهُمْ مِنْ أَيْدِي الظُّلْمَةِ أُمَّةَ الْجَوْرِ ، وَالنَّاقِضِينَ عَهْدَ اللَّهِ ، وَالسَّافِكِينَ الدَّمَ الْحَرَامَ ، وَالْآكِلِينَ النَّفْيَ وَالْمُسْتَأْثِرِينَ بِهِ ، فَادْكُرُوا مَا عَظَاكُمْ اللَّهُ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ ، وَاحْذَرُوا أَنْ تَغْيُرُوا فَيَغْيُرَ بِكُمْ ، وَإِنْ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ اسْتَثْنَى بِخَلِيفَتِهِ مُوسَى الْهَادِي الْإِمَامَ ، فَقَبِضَهُ إِلَيْهِ ، وَوَلَّى بَعْدَهُ رَشِيداً مَرْضِياً أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِكُمْ رَهْوفاً رَحِيماً ، مِنْ مُحْسِنِكُمْ قَبُولاً ، وَعَلَى مَسِيئِكُمْ بِالْعَفْوِ عَطُوفاً ، وَهُوَ - أَمْتَعُ اللَّهِ بِالنِّعْمَةِ ، وَحَفِظَ لَهُ مَا اسْتَرْعَاهُ إِيَّاهُ مِنْ أَمْرِ الْأُمَّةِ ، وَتَوَلَّاهُ بِمَا تَوَلَّى بِهِ أَوْلِيَائِهِ وَأَهْلَ طَاعَتِهِ - يَعِدُّكُمْ مِنْ نَفْسِهِ الرَّأْفَةِ بِكُمْ ، وَالرَّحْمَةِ لَكُمْ ، وَقَسَمَ أُعْطِيَاتِكُمْ فَيْكُمْ عِنْدَ اسْتِحْقَاقِكُمْ ، وَيَبْذُلُ لَكُمْ مِنَ الْجَائِزَةِ ، مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى الْخُلَفَاءِ ، مِمَّا فِي بُيُوتِ الْمَالِ مَا يَنْبُوبُ عَنْ رِزْقِ كَذَا وَكَذَا شَهْراً ، غَيْرَ مُقَاسٍ لَكُمْ بِذَلِكَ فِيمَا تَسْتَقْبِلُونَ مِنْ أُعْطِيَاتِكُمْ وَحَامِلاً بَاقِيَ ذَلِكَ لِلدَّفْعِ عَنْ حَرِيمِكُمْ ، وَمَا لَعَلَّهُ أَنْ يَخْذُلَ فِي النَّوَاحِي وَالْأَقْطَارِ مِنْ

(١) وكان الهادي يريد أن يجعل الخلافة في ابنه جعفر ، ويخلف أخاه هارون . وسعى إلى الهادي يحيى ابن خالد ، وقيل له إنه ليس عليك من هرون خلاف ، وإنما يفقهه يحيى بن خالد ، فأغضب ذلك موسى الهادي على يحيى وأمر بهجسه .

العصاة المارقين ، إلى بيوت الأموال ، حتى تعود الأموال إلى جِمامها^(١) وكثرتها ،
والحال التي كانت عليها ، فاحمدوا الله وجددوا شكراً يوجب لكم المزيد من
إحسانه إليكم ، بما جدّد لكم من رأى أمير المؤمنين ، وتفضل به عليكم ، أيده الله
بطاعته ، وارغبوا إلى الله له في البقاء ، ولكم به في إدامة النعماء ، لعلكم ترحمون ،
وأعطوا صفة أيمانكم ، وقوموا إلى بيعتكم ، حاطكم الله وحاط عليكم ، وأصلح بكم
وعلى أيديكم ، وتولاكم ولاية عباده الصالحين . (تاريخ الطبري ١٠ : ٤٨)

٧٧ — خطبة هرون الرشيد (توفي سنة ١٩٣ هـ)

« الحمد لله نحمده على نعمه ، ونستعينه على طاعته ، ونستنصره على أعدائه ،
ونؤمن به حقاً ، ونتوكل عليه ، مفرّضين إليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، بعثه على فترة من الرسل ، ودروس^(٢)
من العلم ، وإدبار من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، بشيراً بالنعيم المقيم ، ونذيراً بين
يدى عذاب أليم ، فبلغ الرسالة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله ، فأدّى عن الله وعده
ووعيده ، حتى أتاه اليقين ، فعلى النبي من الله صلاة ورحمة وسلام .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن في التقوى تكفير السيئات ، وتضعيف
الحسنات ، وفوزاً بالجنة ، ونجاةً من النار ، وأحذّركم يوماً تشخص^(٣) فيه الأبصار ،
وتعلن فيه الأسرار ، يوم البعث ، ويوم التغابن^(٤) ، ويوم التلاق ، ويوم التناد ،
يوم لا يستغقب من سيئة ، ولا يزُداد من حسنة ، يوم الآزفة^(٥) ، إذ القلوب لدى
المنابر كاطمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين^(٦)

(١) كثرتها . (٢) دروس : محام . (٣) شخص بصره كنع : فتح عينيه ، وجعل لا يظرف .

(٤) يوم القيامة ، وسمى بذلك لأن أهل الجنة تغيب فيه أهل النار بأخذ منازلهم في الجنة أو أمنا .

(٥) الآزفة ، من أزف كفرح : دنا وقرب . (٦) بـمـارتها للنظر إلى المحرم .

وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

عباد الله : إنكم لم تُخلَقُوا عبثًا ، ولن تُتركوا سُدًى ، حصَّنوا إيمانكم بالأمانة ، ودينكم بالورع ، وصلاتكم بالزكاة ، فقد جاء في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له ، ولا دينَ لمن لا عهدَ له ، ولا صلاةَ لمن لا زكاةَ له » . إنكم سَفَرٌ^(١) مجتازون ، وأنتم عن قريب تنقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى ، وإلى الهدى بالأمانة ، فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين ، ومغفرته للتائبين ، وهداه للمُتَّبِعِينَ . قال الله عز وجل وقوله الحق : « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَاسْأَلْنِي أَكْتُبْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » ، وقال : « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » وإياكم والأمانى ، فقد غرَّت وأزْدَت^(٢) ، وأوبقت كثيرًا ، حتى أكذبتهم منايهم ، فتناوشوا^(٣) التوبة من مكان بعيد ، وحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ، فأخبركم ربكم عن المثلث فيهم وصرَّف الآيات ، وضربَ الأمثال ، فرغَّب بالوعد ، وقدم إليكم الوعيد ، وقد رأيتم وقائعهم بالقرون الخوالى جِنًّا فجِلا ، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر ، باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ، ومن بين أظهركم ، لاندفعون عنهم ، ولا تحولون دونهم ، فزالت عنهم الدنيا ، وانقطعت بهم الأسباب ، فأسلمتهم إلى أعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب ، « لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » . إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ؛ يقول الله عز وجل « وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إنه هو السميع العليم ، بسم الله الرحمن الرحيم : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ .

اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ . وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . آمُرُكُمْ بِمَا أُمِرَ اللَّهُ بِهِ ،
وَأَنْهَاكُمْ عَمَّا نَهَاكُمْ عَنْهُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ . (المقدّم الفريد ٢ : ١٤٧)

٧٨ — وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين

وَوَصَى الرَّشِيدُ مُؤَدِّبَ وَلَدِهِ الْأَمِينَ ، قَالَ :

« يَا أَحْمَرُ^(١) ، إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ دَفَعَ إِلَيْكَ مُهْجَةً نَفْسِهِ ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ ، فَصَيِّرْ
يَدَكَ عَلَيْهِ مَبْسُوطَةً ، وَطَاعَتَهُ لَكَ وَاجِبَةً ، فَسَكُنْ لَهُ بِحَيْثُ وَضَعَكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
أَقْرَبَ نَحْوِ الْقُرْآنِ ، وَعَرَفَ الْأَخْبَارَ ، وَرَوَّهَ الْأَشْعَارَ ، وَعَلَّمَهُ السَّنَنَ ، وَبَصَّرَهُ بِمَوَاقِعِ الْكَلَامِ
وَبَدَائِهِ ، وَامْنَعْهُ مِنَ الضَّحِكِ إِلَّا فِي أَوْقَاتِهِ ، وَخُذْهُ بِتَعْظِيمِ مَشَائِخِ بَنِي هَاشِمٍ إِذَا دَخَلُوا
عَلَيْهِ ، وَرَفَعْ مَجَالِسِ الْقَوَادِ إِذَا حَضَرُوا مَجْلِسَهُ ، وَلَا تَمَرَنَّ بِكَ سَاعَةً إِلَّا وَأَنْتَ مُفْتَنٌ
فَائِدَةً تُفِيدُهُ إِيَّاهَا ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تُحْزِنَهُ ، فَتُمِيتَ ذِهْنَهُ ، وَلَا تُنَمِّنَ فِي مَسَاحَتِهِ ، فَيَسْتَحِلَّ
الْفِرَاقَ وَيَأْلَفَهُ ، وَقَوْمُهُ مَا اسْتَطَعْتَ بِالْقُرْبِ وَالْمَلَانَةِ ، فَإِنْ أَبَاهَا فَعَلَيْكَ بِالشَّدَةِ وَالْعِلَظَةِ » .
(مقدمة ابن خلدون ص ٦٣٢)

٧٩ — خطبة لجعفر بن يحيى البرمكي (قتل سنة ١٨٧ هـ)

وَهَاجَتِ الْعَصْبِيَّةُ بِالشَّامِ بَيْنَ أَهْلِهَا فِي عَهْدِ الرَّشِيدِ (سنة ١٨٠ هـ) وَتَفَاقَمَ أَمْرُهَا ،
فَاغْتَمَّ لِذَلِكَ الرَّشِيدُ ، وَعَقَدَ لَجْعَفَرُ بْنُ يَحْيَى عَلَى الشَّامِ ، وَقَالَ لَهُ : إِمَّا أَنْ تَخْرُجَ أَنْتَ
أَوْ أَخْرَجَ أَنَا ، فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ : بَلْ أَقِيكَ بِنَفْسِي ، فَشَخَّصَ فِي جِلَّةِ الْقَوَادِ وَالْكَرَاعِ
وَالسَّلَاحِ ، فَأَتَاهُمْ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ ، وَقَتَلَ زَوَاقِلَهُمْ^(٢) وَالتَّلَصُّصَةَ مِنْهُمْ ، وَلَمْ يَدْعُ بِهَا رَحْمًا
وَلَا فِرْسًا ، فَعَادُوا إِلَى الْأَمْنِ وَالطَّمَأْنِينَةِ ، وَأَطْفَأَ ذَلِكَ النَّارَ .

(١) هو علي بن المبارك الأحمر صاحب الكسافي، وكان يؤدب الأمين، وكان مشهوراً بالنحو واتساع

الحفظ ، ومات سنة ٢٠٦ هـ ، أو سنة ٢٠٧ هـ . انظر ترجمته في «نزهة الألبا في طبقات الأدباء» ص ١٢٥ .

(٢) الزواجيل : المصوص .

فلما قَدِمَ على الرشيد دخل عليه ، فقبل يديه ورجليه ، ثم مثل بين يديه ، فقال :
 « الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي آنَسَ وحشتي ، وأجاب دعوتي ، ورحمَ تضرعي ،
 وأنسا^(١) في أجلي ، حتى أراني وجه سيدي ، وأكرمني بقربه ، وأمتنَّ عليَّ بتقبيل يده ،
 وردّني إلى خدمته ، فوالله إن كنت لأذكر غيبتى عنه ، ونحرجي والمقادير التي
 أزعجتني ، فأعلم أنها كانت بمعاصي لحقتني ، وخطايا أحاطت بي ، ولو طال مقامى عنك
 يا أمير المؤمنين - جعلني الله فداك - خِفتُ أن يذهب عقلي ، إشفاقاً على قربك ،
 وأسفاً على فراقك ، وأن يجعل بي عن إذكك الاشتياقُ إلى رؤيتك ، والحمد لله الذي
 عصمني في حال الغيبة ، وأمتنني بالعافية ، وعرفني الإجابة ، ومسكني بالطاعة ، وحال
 بيني وبين استعمال المعصية ، فلم أشخص إلا عن رأيك ، ولم أقدم إلا عن إذكك وأمرك
 ولم يختبر مني أجلٌ دونك ، والله يا أمير المؤمنين - فلا أعظم من اليمين بالله - لقد عاينتُ
 ما لو تُعرَضَ لي الدنيا كلها ، لاخترتُ عليها قربك ، ولكنا رأيتها عوضاً من
 المقام معك » .

ثم قال له بعقب هذا الكلام في هذا المقام :

« إن الله يا أمير المؤمنين لم يزل يُبليكَ^(٢) في خلافتك ، بقدر ما يعلم من نيّتك ،
 ويُرِيكَ في رعيّتك غاية أمنيّتك ، فيُصلِّح لك جماعتهم ، ويجمع ألفتهم ، ويَلْمُ شعثهم ،
 حفظاً لك فيهم ، ورحمة لهم ، وإِنما هذا للتمسك بطاعتك ، والاعتصام بحبل مرّضاتك ،
 والله الحمودُ على ذلك وهو مُستَحِقُّه . وفارقتُ يا أمير المؤمنين أهلَ كُورِ الشَّامِ
 وهم منقادون لأمرك ، نادمون على ما فرّط من معصيتهم لك ، متمسكون بحبلك ،
 نازلون على حُكْمِكَ ، طالبون لعفوك ، واثقون بحلمك ، مؤثّلون فضلك ، آمِنون
 بادرّتك ، حالهم في اتّلافهم كحالهم كانت في اختلافهم ، وحالهم في ألفتهم كحالهم

كانت في امتناعهم ، وعفو أمير المؤمنين عنهم ، وتغفله^(١) لهم ، سابق لمعذرتهم ،
 وصلة أمير المؤمنين لهم ، وعطفه عليهم ، متقدم عنده لسألتهم ، وإيم الله يا أمير المؤمنين
 لئن كنت قد شخّصت عنهم ، وقد أخذ الله شرارهم ، وأطفا نارهم ، ونقّ مرقاهم^(٢) ،
 وأصلح دماءهم^(٣) ، وأولاني الجليل فيهم ، ورزقني الانتصار منهم ، فما ذلك كله :
 إلا ببركتك ويمنك وربحك^(٤) ، ودوام دولتك السعيدة اليمونة الدائمة ، وتخوفهم
 منك ، ورجائهم لك . والله يا أمير المؤمنين ما تقدمت إليهم إلا بوصيتك ، وما علمتهم
 إلا بأمرك ، ولا سرت فيهم إلا على حدّ ما مثّلت لي ورسمته ، ووقفتني عليه ، والله
 ما اتقادوا إلا لدعوتك ، وتوحد^(٥) الله بالصنع لك ، وتخوفهم من سطوتك . وما كان
 الذي كان مني ، وإن كنت قد بذلت جهدي ، وبلغت مجهودي ، قاضيا بعض حقك
 عليّ ، بل ما ازدادت نعمتك عليّ عظما ، إلا ازددت عن شكرك مجزّا وضعفا ،
 وما خلق الله أحدا من رعبتك ، أبعد من أن يطمع نفسه في قضاء حقك مني ،
 وما ذلك إلا أن أكون باذلا مُنْهَجِي في طاعتك ، وكلّ ما يقرب إلي موافقتك ،
 ولكنني أعرف من أباديك عندي ما لا أعرف مثلها عند غيري ، فكيف بشكري !
 وقد أصبحت واحد أهل دهرى ، فيما صنعت فيّ ؟ وبني ؟ أم كيف بشكري ! وإنما
 أقوى على شكرك يا كرامك إياي ؟ ، وكيف بشكري ! ولو جعل الله شكري
 في إحصاء ما أوليتني ، لم يأت على ذلك عدّي ؟ وكيف بشكري ! وأنت كهني دون
 كلّ كهف لي ؟ وكيف بشكري ! وأنت لا ترضى لي ما أَرْضاه لي ؟ وكيف بشكري !
 وأنت تجدد من نعمتك عندي ما يستغرق كلّ ما سلف عندك لي ؟ أم كيف بشكري !
 وأنت تُدسّيني ما تقدم من إحسانك إليّ ، بما تُجدّده لي ؟ أم كيف بشكري ؟ وأنت

(١) تغفله الله برحمته : غفره بها . (٢) جمع مارق : وهو الخارج الخائذ .

(٣) الدماء : جماعة الناس . (٤) قوتك .

(٥) توحد الله تعالى بعصمته : عصمه ولم يكله إن غفره .

تَقَدَّمَنِي بِطَوْلِكَ عَلَى جَمِيعِ أَكْفَائِي؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي! وَأَنْتَ وَلِيِّي؟ أَمْ كَيْفَ بِشُكْرِي! وَأَنْتَ الْمَكْرَمُ لِي؟ وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي رَزَقَنِي ذَلِكَ مِنْكَ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ لَهُ إِذْ كَانَ الشُّكْرُ مَقْصُوراً عَنْ بُلُوغِ تَأْدِيَةِ بَعْضِهِ، بَلْ دُونَ شِقْصٍ^(١) مِنْ عَشْرِ عَشِيرِهِ - أَنْ يَتَوَلَّى مَكَافَأَتَكَ عَنِّي، بَمَا هُوَ أَوْسَعُ لَهُ وَأَقْدَرُ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَقْضِيَ عَنِّي حَقَّكَ، وَجَلِيلَ مِنَّتِكَ، فَإِنْ ذَلِكَ بِيَدِهِ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَيْهِ.» (تاريخ الطبري ١٠ : ٦٦)

٨٠ - استعطاف أم جعفر بن يحيى للرشد

روى صاحب المقصد قال :

« كَانَتْ أُمُّ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى^(٢) - وَهِيَ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ قَحْطَبَةَ - أَرْضَعَتْ الرُّشِيدَ مَعَ جَعْفَرٍ ، لِأَنَّهُ كَانَ رُبِّيَّ فِي حِجْرِهَا ، وَغُدِّيَ بِرِسْلِهَا^(٣) ، لِأَنَّ أُمَّهُ مَاتَتْ عَنْ مَهْدِهِ ، فَكَانَ الرُّشِيدُ يَشَاوِرُهَا مُظْهِراً لِإِكْرَامِهَا ، وَالتَّبَرُّكِ بِرَأْيِهَا ، وَكَانَ آتِي وَهُوَ فِي كِفَالَتِهَا أَنْ لَا يَحْجُبُهَا ، وَلَا اسْتَشْفَعَتْهُ لِأَحَدٍ إِلَّا شَفَعَهَا ، وَآلَتْ عَلَيْهِ أُمُّ جَعْفَرٍ أَنْ لَا دَخَلَ عَلَيْهِ إِلَّا مَا ذُوْنَا لَهَا ، وَلَا شَفَعَتْ لِأَحَدٍ مَقْتَرِفٍ ذَنْباً ، فَكُمُ أُسِيرٍ فَكَّتْ وَمُتَّبِعٍ عِنْدَهُ فَتَحَتْ ، وَمَسْتَعْلِقٍ مِنْهُ فَرَّجَتْ ، وَاحْتَجَبَ الرُّشِيدُ بَعْدَ قُدُومِهِ^(٤) ، فَطَلَبَتْ الْإِذْنَ عَلَيْهِ مِنْ دَارِ الْبَاقُونَةِ ، وَمَتَّتْ^(٥) بَوْسَائِلَهَا إِلَيْهِ ، فَلَمْ يَأْذَنْ لَهَا ، وَلَا أَمَرَ بِشَيْءٍ فِيهَا ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ بِهَا خَرَجَتْ كَاشِفَةً وَجْهَهَا ، وَاضِعَةً لِثَامَهَا ، مُحْتَفِيَةً^(٦) فِي مَشْيِهَا ، حَتَّى صَارَتْ بِيَابَ قَصْرِ الرُّشِيدِ ، فَدَخَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ الْفَضْلِ الْحَاجِبُ ،

(١) الشقص : السهم والنصيب ، والعشير : جزء من عشرة كالعشار والعشر .

(٢) كَانَ الْبَرَامِكَةُ قَدْ اسْتَأْثَرُوا بِشُيُورِ الدَّوْلَةِ وَأُمُومِهَا ، وَغَلَبُوا الرُّشِيدَ عَلَى سُلْطَانِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَعَهُمْ تَصَرُّفٌ فِي مَسْأَلَةٍ ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مِنَ الْخِلَافَةِ إِلَّا رَسْمُهَا وَصُورَتُهَا - وَحَدِيثُهُمْ فِي ذَلِكَ طَوِيلٌ ، لَيْسَ هَاهُنَا مَوْضِعُهُ - فَمَزَمَ عَلَى نَكَبَتِهِمْ ، حَتَّى انْتَهَزَ فُرْصَةَ رَجُوعِهِ مَعَهُمْ مِنَ الْحِجْجِ سَنَةَ ١٨٧ ، فَقَتَلَ جَعْفَرًا لِخِلَافَةِ طَرِيقِهِ ، وَقَبِضَ عَلَى يَحْيَى وَابْنِهِ الْفَضْلَ وَبَقِيَّةِ الْبَرَامِكَةِ ، وَحَبَسَهُمْ فِي سَجْنِ الزَّنَادَةِ إِلَى أَنْ مَاتُوا فِيهِ ، وَاسْتَصْنَى أُمُومَهُمْ وَضِيَاءَهُمْ . (٣) الرسل : اللب .

(٤) أَيْ مِنَ الْحِجْجِ . (٥) تَوَسَّلَتْ . (٦) احْتَنَى : مَشَى حَافِئاً .

فقال : ظئر^(١) أمير المؤمنين بالباب ، في حالة تقلب شمانة الحاسد ، إلى شفقة أم الواحد ؛ فقال الرشيد : ويحك يا عبد الملك ! أو ساعية ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين حافية . قال : أدخلها يا عبد الملك ، فربّ كبد غدتها ، وكربة فرجتها ، وعورة سترتها ، فدخلت ، فلما نظر الرشيد إليها داخلّة محتفية ، قام محتفياً حتى تلقاها بين عمد المجلس وأكبّ على تقبيل رأسها ، ومواضع تديبها ، ثم أجلسها معه ، فقالت : يا أمير المؤمنين أيعدّو علينا الزمان ، ويخفونا خوفاً لك الأعوان ، ويحزرك^(٢) بنا البهتان ، وقد ربّيتك في حجرى ، وأخذت برضاك الأمان من عدوى ودهرى ؟ فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ، قالت : ظئرك يحيى ، وأبوك بعد أبيك ، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين ، من نصيحتة ، وإشفاقه عليه ، وتعرضه للحتف في شأن موسى أخيه^(٣) ، قال لها : يا أم الرشيد ، أمرٌ سبق ، وقضاء حم^(٤) ، وغضب من الله نفذ ، قالت : يا أمير المؤمنين « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ »^(٥) قال : صدقت فهذا مما لم يَمْحُهُ الله ، فقالت : الغيب محبوب عن النبيين ، فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ فأطرق الرشيد مليّاً ، ثم قال :

- (١) الظئر : العاطفة على ولد غيرها ، المرضعة له ، في الناس وغيرهم ، لذكر وللأنثى .
(٢) يفضلك . (٣) قدما أن الهادى كان اعتزم خلع أخيه الرشيد من ولاية العهد ، واستخلاف ابنه جعفر ، وقد سعى إلى الهادى بيحيى بن خالد ، وأنه يفسد عليه أخاه الرشيد ، فحبسه وهم يقتله . ويروى أنه قال للهادى في خلع الرشيد لما كلمه فيه : « يا أمير المؤمنين ، إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان ، هانت عليهم أيمانهم ، وإن تركتهم على بيعة أخيك ، ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكده لبيعتهم » فقال : صدقت ونصحت ، ولما في هذا تدبير ، ولما أوبر بحبسه رفع إليه يحيى رقعة : إن عندي نصيحة ، قدعا به ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أخلنى ، فأخلاه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أرايت إن كان الأمر - أسأل الله ألا تبلغه - وأن يقدمنا قبله - أظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر ، وهو لم يبلغ الحلم ، ويرضونه به لصلاتهم وحجهم وغزورهم ؟ قال : والله ما أظن ذلك ، قال : يا أمير المؤمنين ، أفتأمن أن يسموا إليها أهلك ، وجنتهم مثل فلان وفلان ، ويطلع فيها غيرهم ، فتخرج من ولد أبيك ؟ فقال له : نهتني يا يحيى ، وقال له : لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك ؟ أما كان ينبغي أن تعقده له ؟ فكيف بأن تحله عنه ، وقد عقده المهدي له ؟ ولكن أرى أن تقرر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله ، فإذا بلغ جعفر مبلغ الله به ، أنيته بالرشيد فخلع نفسه ، وكان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده ، قيل فقيل للهادى قوله ورأيه وأمر بإطلاقه . (٤) حم : قدر . (٥) أم الكتاب : أصله ، أو اللوح المحفوظ .

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميم لا تنفع^(١)

فقلت بغير رواية : ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين ، وقد قال الأول^(٢) :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل « وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ » . فأتى هرون ملياً ، ثم قال : يا أم الرشيد أقول :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكذب إليه بوجه آخر الدهر تقبل

فقلت : يا أمير المؤمنين وأقول :

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعني يمينك فانظروا أي كف تبدل^(٣)

قال هرون : رضيت ، قالت : فهبه لي يا أمير المؤمنين ، فقد قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : « من ترك شيئاً لله ، لم يُوجده^(٤) » الله لفقده » فأكب هرون ملياً ،

ثم رفع رأسه يقول : « لله الأمر من قبل ومن بعد » قالت : يا أمير المؤمنين

« وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » .

واذكر يا أمير المؤمنين أليتك^(٥) ما استشفعت إلا شفعتني . قال : واذكر

يا أم الرشيد أليتك أن لا شفعت لمقترف ذنباً ، فلما رآته صرّح بمنعها ، ولاذ^(٦) عن

مطلبها ، أخرجت حقاً من زمرودة^(٧) خضراء ، فوضعت بين يديه ، فقال الرشيد : ما هذا ؟

ففتحت عنه قفلاً من ذهب ؛ فأخرجت منه خفصته^(٨) وذوائبه وثناياه ، قد غمست

جميع ذلك في المسك ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، استشفع إليك ، وأستعين بالله عليك ،

(١) التمام جمع تيممة : وهي العود التي تعلق على الصبي دفماً للعين ، أو المرض والبيت لأبي ذؤيب الهذلي .

(٢) هو الأخطل . (٣) هذا البيت والذي قبله من قصيدة لأم بن أوس المزني مطلعها :

لمررك ما أدرى ، وإني لأوجل على أينما تعدو المنية أول ؟

(٤) أي يحزنه . (٥) الآية : القسم . (٦) أي لم يجبه . (٧) الزمرد والزمرد بالدهال

والدهال . (٨) خفص الجارية كضرب خفصاً ، وهو كالختان للغلام ، وقيل : خفص الصبي خخته ،

فاستعمل في الرجل ، والأهرف أن الخفص للمرأة والختان للصبي ، يقال للجارية خفصت ، والغلام حتن .

وبما صار معي من كريم جسدك، وطيب جوارحك، ليحيي عبدك، فأخذ هرون ذلك فليته، ثم استعبر وبكى بكاء شديداً، وبكى أهل المجلس، وصرّ البشير إلى يحيى، وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له، ورجوع عنه، فلما أفاق رمى جميع ذلك في الحق، وقال لها: **لَحَسَنُ مَا حَفِظْتَ الْوَدِيعَةَ**، قالت: وأهلٌ للكفاة أنت يا أمير المؤمنين، فسكت وأقلّ الحق، ودفعه إليها، وقال: «**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا**» قالت: والله يقول: «**وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**» ويقول: «**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ**»، ثم قال: وما ذلك يا أم الرشيد؟ قالت: أو ما أقسمت لي به ألا تحببني ولا تتمهني^(١)؟ قال: أحب يا أم الرشيد أن نشتره محكمة فيه. قالت: أنصفت يا أمير المؤمنين، وقد فعت غير مستقيمة لك، ولا راجعة عنك. قال: بكم؟ قالت: برضاك عمن لم يخطبك، قال: يا أم الرشيد أمانى عليك من الحق مثل الذي لهم؟ قالت: بلى يا أمير المؤمنين، أنت أعزُّ عليّ، وهم أحبُّ إليّ. قال: فتحكمي في تمنيةٍ بغيرهم، قالت: بلى قد وهبته، وجعلتك في حلٍّ منه، وقامت عنه، وبقي مبهوئاً ما يحير^(٢) لفظةً». (العقد الفريد ٢ : ٢٢)

٨١ — خطبة يزيد بن يزيد الشيباني

لما رضى الرشيد عن يزيد بن يزيد^(٣) أذن له بالدخول عليه، فلما مثل بين يديه قال: «**يا أمير المؤمنين، الحمد لله الذي سهّل لي سبيلَ الكرامة بِلِقَائِكَ**، وردَّ عليّ

(١) امتنه : اهدله .

(٢) يحير : يرد . (٣) وذلك أن الوليد بن طريف الشامي خرج في عهد الرشيد بالجزيرة، واشتدت شوكته وكثر تبعه سنة ١٧٩ هـ، فوجه إليه الرشيد يزيد بن يزيد الشيباني، فجعل يقاتله ومهاكره، وكانت البرامكة منخرقة عن يزيد، فأغروا به الرشيد، وقالوا: إنما يتجافى عنه لرحم (لأنه شيباني مثله) وإلا فشوة للوليد يسيرة وهو يواعده، وينتظر ما يكون من أمره، فوجه إليه الرشيد كتاب مقضب، يقول فيه: «لو وجهت بأحد الخدم أقام بأكثر مما تقوم به ولستك مداهن متعصب»، وأمير المؤمنين يقسم بالله أن آخرت مناجزة

النعمة بوجه الرضا منك ، وكشف عن ضبابة الكرب بإفضالك ، وجزاك الله يا أمير المؤمنين في حال سُخْطِكَ جزاء المحسنين المراقبين ، وفي حال رضاك جزاء النعمين المتتئين التطولين ، فقد جعلك الله - وله الحمد - تَنْبَتْ^(١) تَحْرُجاً عند الغضب ، وتمنَّ تَطَوُّلاً بالنعم ، وتستبقي المعروف عند الصنائع^(٢) تفضلاً بالعفو .

(العقد الفريد ١ : ١٤١ ، وتاريخ الطبري ١٠ : ١١٧ وزهر للأدب ٢ : ٢٨٧)

٨٢ - خطبة عبد الملك بن صالح^(٣) (توفي سنة ١٩٦ هـ)

أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم : « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » ؟ يا أهل الشام ، إن الله وصف إخوانكم في الدين ، وأشباهكم في الأجسام فحذرهم نبيّه محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقال : « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ ، قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ » ؟ فقاتلكم الله أني تُصْرَفُونَ ؟ جُثِّتْ مَائِلَةٌ ، وَقُلُوبٌ طَائِرَةٌ ، تَشُبُّونَ^(٤) الْفَتَنَ ، وَتَوَلَّوْنَ الدُّبُرَ ، إِلَّا عَنْ حَرَمِ اللَّهِ فَإِنَّهُ دَرَيْتُكُمْ^(٥) ، وَحَرَمَ رَسُولَهُ ، فَإِنَّهُ مَغْزَاكُمْ ، أَمَّا وَحُرْمَةُ النُّبُوَّةِ وَالْخِلَافَةِ لَتَنْفِرَنَّ خِفَافًا وَثِقَالًا ، أَوْ لَا وَسِعَنَكُمْ إِرْغَامًا وَنَكَالًا .

(العقد الفريد ٢ : ١٤٦)

الوايد ، ابوجهن إليك من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين ه ثم حل يزيد حل الوليد فقتله وبعث رأسه إلى الرشيد ، فلما انصرف يزيد بالظفر ، حجب برأى البرامكة ، وأظهر الرشيد السخط عليه ، فقال : وحق أمير المؤمنين لأصيفن وأشتون على فرسى أو أدخل ، فارتفع الخبر بذلك فأذن له فدخل ، فلما رآه الرشيد ضحك وسر ، وأقبل يصيح مرحباً بالأعرابي ، حتى دخل وأجلس وأكرم وعرف بلاؤه وفناء صدره (راجع أخباره في الأغاني ١١ : ٨ ، وابن خلكان ٢ : ٢٨٣ ، والطبري ١٠ : ٦٥) .

(١) وفي رواية الطبري « تنيب » . (٢) وفي الطبري : « وتقف عن المص » .

(٣) هو عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ، ولي الرشيد بلاد الجزيرة والشام وغيرها .

(٤) توفدون . (٥) الدريجة : الحلقة يتلم الطلح والرمي عليها .

٨٣ - عبد الملك بن صالح يعزى الرشيد ويهنئه

ودخل عبد الملك بن صالح دار الرشيد ، فقال له الحاجب : إن أمير المؤمنين قد أصيب الليلة بآبن له ، ووُلد له آخر ، فلما دخل عليه قال : « سَرَّكَ اللهُ يا أمير المؤمنين فيما ساءَكَ ، ولا ساءَكَ فيما سَرَّكَ ، وجعل هذه بهذه ، مَثُوبَةً على الصبر ، وَجَزَاءً على الشكر » .
(المعتمد الفريد ٢ : ٢٥)

٨٤ - غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح

وَنَصَبَ^(١) له ابنه « عبدُ الرحمن » وكتابته « قُمامة » فسمعيا به إلى الرشيد ، وقالوا له : إنه يطلب الخلافة ، ويطمع فيها ، فأخذه وحَبَسَهُ عند الفضل بن الربيع ، وذكرُوا أنه أدخل على الرشيد حين سَخِطَ عليه ، فقال له الرشيد : أ كُفِرًا بالنعمة ، وَجُحُودًا لَجَلِيلِ الْمَنَّةِ والتسكِرِمة ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين ، لقد بُؤْتُ^(٢) إِذْنًا بالندم ، وتعرَّضْتُ لاستحلال النَّقَمِ ، وما ذاك إلا بغيُّ حاسِدٍ ، نافَسَنِي فيكَ مودةَ القرابة ، وتقديَمَ الولاية ، إنك يا أمير المؤمنين خليفةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته ، وأمينه على عِثْرَتِهِ ، لك عليها فرضُ الطاعة وأداءُ النصيحة ، ولها عليك العدلُ في حُكْمِهَا ، والتَثَبُّتُ في حَادِثِهَا ، والغُفْرانُ لذُنُوبِهَا » ، فقال له الرشيد : « أَتَضَعُ لِي من لسانك ، وترفع لِي من جَنَانِكَ ؟ هذا كاتِبُكَ قُمامة ، يُخْبِرُ بِفَلَكَ وفساد نيتك ، فَاسْمَعْ كلامه » ، فقال عبد الملك : « أعطاك ما ليس في عَقْدِهِ^(٣) ، ولعله لا يقدر أن يَعْضَنِي^(٤) ولا يَنْهَتَنِي بما لم يَعْرِفِهِ مِنِّي » ، وأُخْصِرَ قُمامة ، فقال له الرشيد : تكلم غير هائبٍ ولا خائف ، قال : « أقول إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك » ،

(١) عاداه . (٢) رجعت . (٣) أى ما يمتقده .

(٤) عضه كعض : كذب ونم ، وعضه فلانا : بهته وقاله فيه ما لم يكن .

فقال عبد الملك: أهو كذلك يا قامة؟ قال قامة: نعم، لقد أردت ختل^(١) أمير المؤمنين، فقال عبد الملك: وكيف لا يكذب عليّ من خلني، وهو يبهتني في وجهي؟ فقال له الرشيد: « وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرني بعُتُوك، وفساد نيتك، ولو أردت أن أحتج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك، فبِمَ تدفعهما عنك؟ »، فقال عبد الملك: « هو مأمور، أو عاق مجبور، فإن كان مأموراً: فمعتور، وإن كان عاقاً: فقاجر كفور، أخبر الله عز وجل بعداوته، وحذر منه بقوله: « إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ »، فنهض الرشيد وهو يقول: « أمّا أمرك فقد وضح، ولكني لا أعجل حتى أعلم الذي يُرضي الله فيك، فإنه الحكم بيني وبينك »، فقال عبد الملك: « رضيت بالله حكماً، وبأمر المؤمنين حاكماً، فإني أعلم أنه يؤثر كتاب الله على هواه وأمر الله على رضاه ».

* * *

فلما كان بعد ذلك جالس مجلساً آخر، فسلم لما دخل، فلم يردّ عليه، فقال عبد الملك: ليس هذا يوماً أحتج فيه، ولا أجادب منازعاً وخفماً. قال: ولم؟ قال: لأن أوّله جرى على غير السنّة، فأنا أخاف آخره، قال: وما ذاك؟ قال: لم تردّ علىّ السلام، أنصف نصفة العوام، قال: السلام عليكم اقتداء بالسنّة، وإيثاراً للعدل، واستملاً للتحية، ثم التفت نحو سليمان بن أبي جعفر فقال: وهو يخاطب بكلامه عبد الملك:

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مُراد
ثم قال: « أما والله لكانني أنظر إلى شؤوبها قد همع^(٢)، وعارضها^(٣) قد لَمع،

(١) ختله: خدعه. (٢) الشؤبوب: الدفعة من المطر، وهمع: سال وانصب.

(٣) العارض: السحاب المتعرض في الأفق، والضمير للفتنة المفهومة من سياق الحديث.

وَكُنِّي بِالْوَعِيدِ قَدْ أَوْزَى نَارًا تَسْطَعُ ، فَأَقْلَعُ عَنْ بَرَاجِمِ^(١) بِلَا مَعَاصِمٍ ، وَرَعُوسٍ
بِلَا غَلَاصِمِ^(٢) فَهَلَّا مَهْلًا ، فَبِي وَاللَّهِ سَهْلٌ لَكُمْ الْوَعْرُ ، وَصَفَا لَكُمْ الْكَدِرُ ، وَأَلْقَتْ
إِلَيْكُمْ الْأُمُورُ أَثْنَاءَ^(٣) أَرْمَتَهَا ، فَذَارِ لَكُمْ نَذَارِ قَبْلَ حُلُولِ دَاهِيَةِ خَبُوطٍ بِالْيَدِ ،
لَبُوطٍ^(٤) بِالرَّجْلِ » . فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : « اتَّقِ اللَّهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا وَلَّاكَ ، وَفِي رِعْيَتِهِ
الَّتِي اسْتَرَعَاكَ ، وَلَا تَجْعَلِ الْكُفْرَ مَكَانَ الشُّكْرِ ، وَلَا الْعِقَابَ مَوْضِعَ الثَّوَابِ ، فَقَدْ
نَخَلْتُ النَّصِيحَةَ ، وَخَحَصْتُ^(٥) لَكَ الطَّاعَةَ ، وَشَدَدْتُ أَوَاجِي^(٦) مَلِكِكَ بِأَثْقَلِ مِنْ
رُكْنِي يَلْمُ^(٧) ، وَتَرَكْتُ عَدُوَّكَ مُشْتَغَلًا^(٨) ، فَاللَّهُ اللَّهُ فِي ذِي رَحْمِكَ أَنْ تَقْطَعَهُ
- بَعْدَ أَنْ يَلْتَمِسَهُ^(٩) - بِظَنٍّ أَفْصَحَ الْكِتَابُ لِي بِعَقْصِهِ^(١٠) ، أَوْ بِبَغْيِ بَاغٍ يَنْهَسُ^(١١)
الْحَمَّ ، وَيَالِغُ^(١٢) الدَّمَ ، فَقَدْ وَاللَّهِ سَهَّلْتَ لَكَ الْوَعْرَ ، وَذَلَّلْتَ لَكَ الْأُمُورَ ، وَجَمَعْتَ
عَلَى طَاعَتِكَ الْقُلُوبَ فِي الصُّدُورِ ، فَكَمْ مِنْ لَيْلٍ تِمَامٍ^(١٣) فَيْكَ كَابِدَتُهُ ، وَمَقَامٍ ضَيِّقٍ
لَكَ قُمَتُهُ ، كُنْتُ فِيهِ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي جَعْفَرِ بْنِ كَلَّابِ :

وَمَقَامٍ ضَيِّقٍ فَرَجَّتُهُ بَيْنَانِي وَلِسَانِي وَجَدَلُ
لَوْ يَقُومُ الْفِيلُ أَوْ فَيَّالَهُ زَلَّ عَنْ مِثْلِ مَقَامِي وَزَحَلَ^(١٤)
فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : « أَمَّا وَاللَّهِ لَوْلَا الْإِبْقَاءُ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ لَضَرَبْتَ عُنُقَكَ » .

- (١) جمع بركة كقنفذة : وهي مفصل الأصابع ، أو ظهر القصب عن الأصابع ، والمعاصم جمع معصم
ككبر : وهو موضع السوار أو اليد . (٢) جمع غلصة بالفتح وهي رأس الخلقوم وهو الموضع الذي
في الخلق . (٣) أثناء الشيء ومثانيه طاقاته ، واحدهما فني كحفل ومثناة بفتح الميم وكسرهما .
(٤) لبط به الأرض ضرب ، ولبط البعير كضرب : خبط بيده وهويده .
(٥) أخلصت . (٦) جمع آخية وتشديد : حررة تربط إلى وتد مدقوق وتشدد فيها الدابة ، وأخيت
الدابة فأخيت : صنعت لها آخية وربطتها بها . (٧) يللم أو ألم أو يرمم : ميقات العين : جبل حل
مرحلتين من مكة . (٨) وفي رواية العقد : « وتركت عدوك سبيلًا تتعاوره الأقدام » .
(٩) بلاك فلانا : لزمته . (١٠) الغصه بسكون الضاد وفتحها : الكلب والخنزير . (١١) نهس اللحم
كنع وسمع : أكله بمقدم أسنانه ونزفه . (١٢) ولغ الكلب في الإفناء ومنه وبه يلغ كيهب ويالغ :
شرب ما فيه بأطراف لسانه ، أو أدخل لسانه فيه فحركه . (١٣) ليل التمام : أطول ليال الشتاء .
(١٤) زحل من مقامه : زال كزحل .

ولم يزل عبد الملك محبوساً حتى تُوفّي الرشيد ، فأطلقه محمد الأمين وعقد له على الشام^(١) .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٨٩ ، والمقد الفريه ١ : ١٤٣ ،
والكمال لابن الأثير ٦ : ٧٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٨٣)

٨٥ — قوله بعد خروجه من السجن

ولما خرج من السجن وذكر الرشيد فعله به قال :

« والله إن الملك لشيء مانويته ، ولا تمنيته ، ولا نصبت له ولا أردته ، ولو أردته لكان إلى أسرع من الماء إلى الخدور^(٢) ، ومن النار إلى ييس العرفج^(٣) ، وإني لماخوذ بما لم أجن ، ومستول عما لا أعرف ، ولكنه حين رآني للملك قفينا^(٤) ، وللخلافه خطيرا^(٥) ، ورأى لي يداً تناولها إذا مدت ، وتبلغها إذا بسطت ، ونفساً تكمل نلصاها ، وتستحقها بفعالها ، وإن كنت لم أختَر تلك الخصال ، ولم أضطنِع تلك الفعال ، ولم أترشح لها في السر ، ولا أشرت إليها في الجهر ، ورآها تحن إلى حنين الوالدة الواهية ، وتميل إلى ميل الكلوك^(٦) ، وخاف أن ترغب إلى خير مرغّب ، وتنزع إلى أخصب منزع ، عاقبني عقاب من سهر في طلبها ، وجهد في التماسها ، فإن كان إنما حبسني على أني أصلح لها وتصلح لي ، وأليقُ بها وتليق بي ، فليس ذلك بذنب جنيته فأتوب منه ، ولا تطاولت له فأحط نفسي عنه ، وإن زعم أنه لا صرف لعقابه ، ولا نجاة من عذابه ، إلا بأن أخرج له من جد العلم والحلم والحزم ، فكما لا يستطيع المضياع أن يكون مصلحا ، كذلك لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلا ،

(١) وقد جعل للأمين عهد الله وميثاقه : لئن قتل وهو حي لا يعطى المأمون طاعة أبداً ، فات قبل قتل الأمين ، فدفن في دار من دور الإمارة ، فلما خرج المأمون يريد الروم أرسل إلى ابن له حوله أباه من داري ، فنهشت عظامه وحولت . (٢) المكان المنحدر . (٣) شجر . (٤) جديرا .
(٥) عظيم القدر . (٦) الفاجرة المتساقطة على الرجال .

وسواء عليه أعاقبني على علمي وحلمي، أم أعاقبني على نسبي وسني، وسواء عليه عاقبني على جوالي، أم أعاقبني على محبة الناس لي، ولو أردتها لأعجلته عن التفكير، وشغلته عن التدبير، ولما كان فيها من الخطب إلا اليسير». (العقد الفريد ١ : ١٤٢)

٨٦ - وصية عبد الملك بن صالح لابنه

أوصى عبد الملك بن صالح ابنه فقال :

« أَيْ بَنِيَّ احْلُمُ ، فَإِنْ مِنْ حِلْمٍ سَادَ ، وَمَنْ تَفَهَّمَ ازْدَادَ ، وَالْقَى أَهْلَ الْخَيْرِ فَإِنْ لَقَاءَهُمْ عِمَارَةٌ لِلْقُلُوبِ ، وَلَا تَجْمَعُ بِكَ مَطِيَّةَ اللَّجَاجِ ، وَفَيْئِكَ مَنْ أَعْتَبَكَ ^(١) ، وَالصَّاحِبُ الْمُنَاسِبُ لَكَ ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْمَكْرُوهِ يَعْصِمُ الْقَلْبَ ، الْمِرَاحُ يورِثُ الضَّغَائِنَ ، وَحَسَنُ التَّدْبِيرِ مَعَ الْكَفَافِ خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ مَعَ الْإِسْرَافِ ، وَالْاِقْتِصَادُ يُثْمَرُ ^(٢) الْقَلِيلُ ، وَالْإِسْرَافُ يُبِيرُ ^(٣) الْكَثِيرَ ، وَنِعَمَ الْحِظُّ الْقَنَاعَةُ ، وَشَرَّ مَا صَحِبَ الْمَرْءَ الْحَسَدُ ، وَمَا كُلُّ عَوْرَةٍ تُصَابُ ، وَرَبَّمَا أَبْصَرَ الْعَمَى رُشْدَهُ ، وَأَخْطَأَ الْبَصِيرَ قَصْدَهُ ، وَالْيَأْسُ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ ، وَالْعِفَّةُ مَعَ الْحِرْفَةِ ^(٤) خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفَجْوَرِ ، أَرْفُقْ فِي الطَّلَبِ وَأُجْمِلْ فِي الْكَسْبِ ، فَإِنَّهُ رَبُّ طَلَبٍ ، قَدْ جَرَّ إِلَى حَرْبٍ ^(٥) ، لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمُنْجِحٍ ^(٦) ، وَلَا كُلُّ مُلِحٍّ بِمُحْتَاجٍ ، وَالْمَغْبُونُ مِنْ غَيْرِنِ نَصِيبُهُ مِنَ اللَّهِ ، عَاتِبٌ مِنْ رَجَوْتِ عُتْبَاهُ ، وَفَاكِهَةٌ مِنْ أَمْنَتِ بُلُوَاهُ ، لَا تَكُنْ مِضْحَكًا كَأَنَّ مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ ، وَلَا مَسَاءً إِلَى غَيْرِ أَرْبٍ ، وَمَنْ نَأَى عَنِ الْحَقِّ أَضَاقَ مَذْهَبُهُ ، وَمَنْ اقْتَصَرَ عَلَى حَالِهِ كَانَ أَنْعَمَ لِبَالِهِ ، لَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمٌ مِنْ ظُلْمِكَ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا سَعَى فِي مَضْرَتِهِ وَنَفَعَكَ ، وَعَوَّدَ نَفْسَكَ السَّمَّاحَ ، وَتَحَيَّرَ لَهَا مِنْ كُلِّ خُلُقٍ أَحْسَنَهُ ، فَإِنَّ الْخَيْرَ عَادَةٌ ، وَالشَّرُّ لِحَاجَةٌ ، وَالصَّدُودُ آيَةُ الْمَقْتِ ، وَالتَّعَلُّلُ آيَةُ الْبَخْلِ ، وَمَنْ أَلْفَقَهُ كِتْمَانُ السَّرِّ ، وَلِقَاحُ الْمَعْرِفَةِ

(١) اعتبه : أعطاه العتبي أو الرضا . (٢) ينمي ويكثر . (٣) يهلك .

(٤) الحرمان . (٥) حربه حرباً كطليه : سلب ماله . (٦) أنجح : صار ذا نجاح .

(٧ - جبهة خطب العرب - ثالث)

دراسة العلم ، وطولُ التجارب زيادة في العقل ، والقناعة راحة الأبدان ، والشرف التقوى ، والبلاغة معرفة رَتق الكلام وفتقهِ ، بالعقل تُستخرج الحكمة ، وبالحلم يستخرج غور العقل ، ومن شَمَّر في الأمور ، ركب البحور ، شر القول ما نقَضَ بعضُهُ بعضا ، وَمَنْ سَعَى بالنيمة حَذَره البعيد ، وَمَقَّتْهُ القريب . من أطلال النظر بإرادةٍ تامَّةٍ أدرك الغاية ، ومن توانى في نفسه ضاع . من أسرف في الأمور انتشرت عليه ، ومن اقتصد اجتمعت له ، والاحتاجة تورث الضياع للأمور ، غِبُّ الأدب أحمد من ابتدائه ، مُبادرة الفهم تورث النسيان ، سوء الاستماع يُعَقِّبُ العيَّ ، لَا تُحَدِّثْ من لَا يُقْبِلُ بوجهه عليك ، وَلَا تُنْصِتْ لمن لَا يَنْتَعِي ^(١) بحديثه إليك . البلادة للرجل هُجْنَةٌ ، قَلَّ مَالِكٌ إِلَّا اسْتَأَثَرَ ، وَقَلَّ عاجزٌ إِلَّا تَأَخَّرَ ، الإحجام عن الأمور يُورث العجزَ ، والإقدام عليها يورث اجتلاب الخط ، سوء الطَّعْمَةِ ^(٢) يُفْسِدُ العِرْضَ ، وَيُخْلِقُ الوجه ، وَيَمَحِّقُ الدين ، الهَيْمَةُ قرين الحرمان ، والجلسارة قرين الظفر ، وَفَيْتُكَ من أنصفك ، وأخوك مَنْ عَاتَبَكَ ، وشريكُكَ مَنْ وَفَى لَكَ ، وَصَفَيْتُكَ من آثَرَكَ ، أَعْدَى الأعداءِ العقوقُ ، اتباعُ الشهوة يُورث الندامة ، وَفَوَتْ الفُرْصَةُ يورث الحسرة ، جميع أركان الأدب التَّائِي لِلرَّفَقِ ، أَكْرَمَ نفسك عن كل دنيَّةٍ ، وإن ساقنك إلى الرغائب ، فإنك لا تجد بما تبدَّل من دينك ونفسك عَوْضًا ، لا تساعد ^(٣) النساءَ فَيَمْلَأَنَّكَ ، واستبقِ من نفسك بَقِيَّةً ، فإنهن أن يرين أنك ذو اقتدار ، خيرٌ من أن يطلعن منك على انكسار ، لا تَمْلِكُ المرأةُ الشفاعةَ لغيرها ، فتميلَ من شفعتَ لها عليك معها ، أَىْ بنى ، إني قد اخترت لك الوصية ، وَحَصَّصْتُكَ النصيحة ، وأَدَيْتُ الحقَّ إلى الله في تأديبك ، فلا تُغْفِلَنَّ الأخذَ بأحسنها ، والعملَ بها ، والله موفِّقك .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٢)

(١) نعى الحديث ونمناه بالتشديد: رَفَعَهُ . (٢) الطَّعْمَةُ: وجه المكسب . (٣) لعلها لا تقاعد .

٨٧ - وصية أخرى له

عن يزيد بن عقال قال :

وَصَّى عبد الملك بن صالح ابنه وهو أمير سَرِيَّة ، ونحن ببلاد الروم فقال له :
« أنت تاجرُ الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيس ، الذي إن وجد ربحاً تجر ،
وإلا احتفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة ، وكن من اجتياك
على عدوك ، أشدَّ خوفاً من احتيال عدوك عليك ^(١) » . (البيان والبيان ٥٤ : ٢)

٨٨ - كلمات حكيمة لابن السماك

وقال محمد بن صبح - المعروف بابن السَّامَك ^(٢) - :

« خيرُ الإخوان أقلُّهم مصانعةً في النصيحة ، وخير الأعمال أحلاها عاقبةً ، وخير
الثناء ما كان على أفواه الأخيار ، وأشرفُ السلطان ما لم يخالطه البطر ، وأغنى الأغنياء
من لم يكن للحرص أسيراً ، وخير الإخوان من لم يخاصم ، وخير الأخلاق أعونها
على الورع ، وإنما يُخْتَبَرُ ذلَّ الرجال عند الفاقة والحاجة » .

(زهر الآداب ٢ : ٢٠٠)

٨٩ - ابن السماك والرشيد

وذكر محمد بن هرون عن أبيه قال : حضرت الرشيد ، وقال له الفضل بن الربيع :
يا أمير المؤمنين قد أحضرتُ ابن السَّامَك كما أمرتني ، قال : أدخِله ، فدخل ، فقال له :

(١) أوردت هذه الوصية في الجزء الثاني ص ١٨٥ معزوة إلى عبد الملك بن مروان كما أوردتها صاحب
المقد ، ويؤيد ذلك ما رواه الطبري - ج ٨ : ٣٧ - إذ يقول : « وفي سنة ٨٤ كانت غزوة عبد الله بن
عبد الملك بن مروان للروم ، ففتح فيها المصينة - كسفينة - ومزايها الجاحظ إلى عبد الملك بن صالح كما ترى
في هذه الرواية . (٢) كان زاهدا عابدا حسن الكلام صاحب مواظ ، وهو كوفي ، قدم بغداد زمن
الرشيد فسكت بها مدة ، ثم رجع إلى الكوفة فأت بها سنة ١٨٣ هـ .

عِظْنِي ، قال : يا أمير المؤمنين : اتَّقِ اللَّهَ وَخُذْهُ لِاشْرِيكَ لَهُ ، واعلم أنك واقِفٌ غداً بين يدي الله رَبِّكَ ، ثم مصروفٌ إلى إحدى منزلتين ، لا ثالثة لهما : جنة أو نار ، فبكى هرون حتى اخضَلَّتْ^(١) لحيته ، فأقبل الفضل على ابن السماك ، فقال : سبحان الله ! وهل يتخالَجُ أحداً شكٌّ في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله ؟ لقيامه بحق الله ، وعدَّله في عبادته ، وفضله ، فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ، ولم يلتفت إليه وأقبل على أمير المؤمنين ، فقال : يا أمير المؤمنين إن هذا - يعني الفضل بن الربيع - ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم ، فاتق الله وانظر لنفسك ، فبكى هرون حتى أشفقنا عليه ، وأخم الفضل بن الربيع ، فلم ينطق بحرف حتى خرجنا .

قال : ودخل ابن السماك على الرشيد يوماً ، فبينما هو عنده إذ استسقى ماء ، فأَتَى بِقُلَّةٍ من ماء ، فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها ، قال له ابن السماك : على رِسْلِكَ^(٢) يا أمير المؤمنين : بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو مُنِعْتَ هذه الشَّرْبَةَ ، بكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي ، قال : اشرب هنَّاك الله ، فلما شربها ، قال له : أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو مُنِعْتَ خروجها من بدنك ، بماذا كنت تشتريها ، قال : بجميع ملكي ، قال ابن السماك : إن مُلْكاً قيمته شربة ماء لجديرٌ ألا يُناقَسَ فيه ، فبكى هرون ، فأشار الفضل بن الربيع إلى ابن السماك بالانصراف فانصرف .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١١٩ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٤٩)

الفتنة بين الأمين والمأمون

وقد الأمين إلى المأمون

لما عزم محمد الأمين على خلع أخيه عبد الله المأمون من ولاية العهد^(١)، كتب إليه كتاباً يستقدمه، ويحبب أن يكون بقربه - وكان المأمون على خراسان - ودفع الكتاب إلى العباس بن موسى، وإلى عيسى بن جعفر، وإلى محمد بن عيسى بن نهيك، وإلى صالح صاحب المصلى، وأمرهم أن يتوجهوا به إلى المأمون، وألا يدعوا وجهاً من اللين والرفق إلا بلغوه، وسهّلوا الأمر عليه، (وذلك سنة ١٩٤ هـ) فتوجهوا بكتابته، فلما وصلوا إلى المأمون أذن لهم، فدفعوا إليه الكتاب، ثم تكلم العباس بن موسى :

٩٠ - خطبة العباس بن موسى

حمد الله وأثنى عليه، ثم قال : « أيها الأمير : إن أخاك قد تحمّل من الخلافة ثقلًا عظيمًا، ومن النظر في أمور الناس عبثًا جليلاً، وقد صدّقت نيته في الخير، فأعوزمه الوزراء والأعوان والكفّاءة على العدل، وقليل ما يأنس بأهل بيته، وأنت أخوه

(١) ذكروا أن الفضل بن الربيع وزير الأمين، كان قد خاف المأمون، لما فعله عند موت الرشيد بطوس من إحضار جميع ما كان في مسكره إلى الأمين، بعد أن كان الرشيد قد أشهد به المأمون، وعلم أن الخلافة إن أنضت إلى المأمون يوما وهو حي لم يبق عليه، فحسن للأمين خلع المأمون والبيعة لابنه موسى - ولم يكن ذلك من رأى الأمين ولا عزمه - واتفق مع الفضل جماعة على ذلك، قال الأمين إلى أقوالهم، ثم إنه استشار عقلاء أصحابه، فجهّز عن ذلك وحذروه عاقبة البغي ونكث اليهود، وقالوا له: لا تجرى القواد على النكث للأيمان وعمل الخلع فيخلعوك، فلم يلتفت إليهم، ومال إلى رأى الفضل بن الربيع، وشرع فوحد المأمون باستدعائه إلى بغداد، فلم يهتدع وكتب يعطفر.

وشقيقه^(١) وقد فرّجَ إليك في أموره ، وأَمَلَكَ للموازرة والمكافئة^(٢) ، ولسنا نستطيعُك في برّه ، اتهاماً لنضرك له ، ولا نحضّك على طاعة ، تخوّفاً لخلافك عليه ، وفي قدومك عليه أنس عظيم ، وصلاح لدولته وسلطانته ، فأجِبْ أيها الأمير دعوة أخيك ، وآثِر طاعته ، وأَعِنّه على ما استعانك عليه في أمره ، فإن في ذلك قضاء الحق ، وصِلّة الرحم ، وصلاح الدولة ، وعِزّ الخلافة ؛ عزم الله للأمير على الرشد في أموره ، وجعل له الخيرة والصّلاح في عواقب رأيه .

٩١ — خطبة عيسى بن جعفر

وتكلم عيسى بن جعفر بن أبي جعفر ، فقال :
« إن الإكثار على الأمير - الله ، الله - في القول خرقٌ ، والاقتصار في تعريفه ما يجب من حق أمير المؤمنين تقصير ، وقد غاب الأمير - أكرمه الله - عن أمير المؤمنين ، ولم يستغن عن قربهِ من شَهِدَ غيره من أهل بيته ، ولا يجد عنده غنى ، ولا يجد منه خلفاً ، ولا عوضاً ، والأمير أولى مَنْ بَرَّ أخاه ، وأطاع إمامه ، فليعمل الأمير فيما كتب به إليه أمير المؤمنين بما هو أَرْضَى وأقربُ من موافقة أمير المؤمنين ومحبته ، فإن القدوم عليه فضلٌ وحظ عظيم ، والإبطاء عنه وَكْفٌ^(٣) في الدين ، وضرر ومكروه على المسلمين . »

٩٢ — خطبة محمد بن عيسى بن نهيك

وتكلم محمد بن عيسى بن نهيك ، فقال :
« أيها الأمير إنا لَنَزِيدُكَ بالإكثار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحق أمير المؤمنين ، ولا نَشَحِّدُ نيتك بالأساطير وأُخْطَبُ فيما يلزمك من النظر والعناية

(١) أمه أم ولد يقال لها مارجل .

(٢) المعاونة . (٣) الكف الميل والجور والعيب ، الإثم .

بأمر المسلمين ، وقد أعوز أمير المؤمنين الكفاة والنصحاء بحضرته ، وتناولك فزعاً إليك في المعونة والتقوية له على أمره ، فإن تجب أمير المؤمنين فما دعاك إليه ، فنعمة عظيمة يتلافى بها رعيته وأهل بيتك ، وإن تقعد يُفنى الله أمير المؤمنين عنك ، ولن يضمه ذلك مما هو عليه من البرِّ بك ، والاعتماد على طاعتك ونصيحتك .

٩٣ — خطبة صالح صاحب المصلح

وتكلم صالح صاحب المصلح ، فقال :

« أيها الأمير : إن الخلافة ثقيلة ، والأعوان قليل ، ومن يكيد هذه الدولة ، وينطوى على غشها ، والمعاندة لأوليائها ، من أهل الخلاف والمعصية كثير ، وأنت أخو أمير المؤمنين وشقيقه ؟ وصالحُ الأمور وفسادها راجعٌ عليك وعليه ، إذ أنت وليُّ عهده ، والمشارك في سلطانه وولايته ، وقد تناولك أمير المؤمنين بكتابه ، ووثق بمعاونتك على ما استعانك عليه من أموره ، وفي إجابتك إياه إلى القسوم عليه صلاح عظيم في الخلافة ، وأنسٌ وسكونٌ لأهل الملة والدِّمة ، وفقَّ الله الأمير في أموره ، وقضى له بالذي هو أحب إليه وأنفع له » .

٩٤ — خطبة المأمون

لحمد الله المأمون ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« قد عرفتموني من حق أمير المؤمنين — أكرمه الله — مالا أنكره ، ودعوتوني من الوزارة والمعونة إلى ما أوتره ولا أدفعه ، وأنا لاطاعة أمير المؤمنين مقدم ، والمسارة إلى ماسرته وواقفه حريص ، وفي الروية تبيانُ الرأي ، وفي إعمال الرأي نصحُ الاعتزام والأمر الذي دعاني إليه أمير المؤمنين أمرٌ لا أتأخر عنه تثبُطاً ومدافعةً ، ولا أتقدم عليه

اعتسافاً وَعَجَلَةً ، وأنا في ثَغْرٍ^(٢) من ثغور المسلمين ، كَلَبَ عدوُّه ، شديد شوكتُهُ ، وإن أهملتُ أمره لم آمَنَ دخول الضرر والمكره على الجنود والرعية ، وإن أقت عليه لم آمَنَ قُوَّةَ ما أَحِبَّ من معونة أمير المؤمنين وموازرتِه وإيثار طاعته ، فانصرفوا حتى أنظَرُ في أمرى ، ويصحّ الرأى فيما أعتزِمُ عليه من مَسِيرى إن شاء الله .

ثم بعث معهم بكتاب إلى الأمين ، يسأله أن يُعَفِّيَه من الشخوص إليه ، وأن يُقرَّه على عمله ، إذ يرى أن ذلك أعظم غناء على المسلمين . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٤٦)

٩٥ — وصية السيدة زبيدة لعلى بن عيسى بن ماهان

وَنَمَى الشرّ بين الأخوين ، واستطار شرره ، وبعث الأمين جيشاً كثيفاً بقيادة على بن عيسى بن ماهان لحرب المأمون ، وأعد المأمون للقائه جيشاً بقيادة طاهر بن الحسين فلما أراد على الشخوص إلى خراسان ، ركب إلى باب السيدة زبيدة^(٣) والدة الأمين فودَّعها ، فقالت له :

« يا على ، إن أمير المؤمنين ، وإن كان ولدى ، إليه تناهت شفقتى ، وعليه تكامل حِذرى ، فإني على عبد الله مُنْعِطَةٌ مُشْفِقَةٌ لما يَحْدُثُ عليه من مكروه وأذى ، وإنما ابني مَلِكٌ نَافِسٌ أخاه في سلطانه ، وَغَارَاهُ^(٤) على ما في يده ، والكريم يؤكل لحمه ، وَيُؤِمِّتُهُ غيره ، فَاعْرِفْ لعبد الله حقَّ والده وأخوته ، ولا تَجِبْهُ^(٥) بالكلام ، فإنك لست نظيره ، ولا تَقْتَسِرُهُ^(٦) اقتسار العبيد ، ولا تُرْهِنْهُ بقيد ولا غُلٍّ^(٧) ، ولا تمنع منه جاريةً ولا خادماً ، ولا تعتف عليه في السير ، ولا تساوره في المسير ، ولا تركب قبله ،

(١) الثغر: موضع الحفاة من فروج البلدان. (٢) هي السيدة زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور وليس في خلفاء بني العباس من أمه وأبوه هاشميان سواء .

(٣) في الأصل : « غاره » وأراه محرّفاً عن « غاراه » ، غاريته مغارة وغراء : لاجبجه .

(٤) جبهه كنهه : لقيه بما يكره . (٥) قسره واقتسره : قهره .

(٦) أرمته : أضغفه ، وفي الفخرى : « ولا قومه » وأرمته : أضغفه أيضاً ، ولانل : القيد .

ولا تستقلّ على دابتك حتى تأخذ برِكابه ، وإن شمتك فاحتمل منه ، وإن سفّه عليك فلا تراذه .

ثم دفعت إليه قيداً من فضّة ، وقالت : إن صار في يدك فقيده بهذا القيد ، فقال لها : سأقبل أمرك ، وأعمل في ذلك بطاعتك .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٤٩ ، والفخرى ص ١٩٥)

٩٦ - وصية الأمين لابن ماهان

وخرج على بن عيسى بن ماهان من بغداد (في ٧ من شعبان سنة ١٩٥ هـ) وخرج معه الأمين يشيعه ، وأقبل يوصيه ، فقال :

« أَمْنَعُ جُنْدَكَ مِنَ الْعَبَثِ بِالرَّعِيَةِ ، وَالْفَارَةِ عَلَى أَهْلِ الْقُرَى ، وَقَطْعِ الشَّجَرِ ، وَاتِّهَاكِ النِّسَاءِ ، وَوَلِّ الرِّىَّ يَحْيَى بْنَ عَلِيٍّ ^(١) ، وَاضْمُمْ إِلَيْهِ جُنْدًا كَثِيفًا ، وَمُرّه لِيُدْفَعْ إِلَى جَنْدِهِ أَرْزَاقَهُمْ مِمَّا يَحْيَى مِنْ خَرَاجِهَا ، وَوَلِّ كُلَّ كُورَةٍ تَرْحَلُ عَنْهَا رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِكَ ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَيْكَ مِنْ جُنْدِ أَهْلِ خُرَاسَانَ وَوُجُوهُهَا فَأَظْهَرِ إِكْرَامَهُ ، وَأَحْسِنْ جَائِزَتَهُ ، وَلَا تَعَاقِبْ أَحَدًا بِأَخِيهِ ، وَضِعْ عَنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ رُبْعَ الْخَرَاجِ ، وَلَا تَأْمِنْ أَحَدًا رِمَاكَ بِسَهْمٍ ، أَوْ طَعْنٍ فِي أَصْحَابِكَ بِرِمَحٍ ، وَلَا تَأْذَنْ لِعَبْدِ اللَّهِ فِي الْمَقَامِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي تَظْهَرُ فِيهِ عَلَيْهِ ، فَإِذَا أَشْخَصْتَهُ ، فَايْكُنْ مَعَ أَوْثَقِ أَصْحَابِكَ عِنْدَكَ ، فَإِنْ غَرَّ الشَّيْطَانُ فَنَاصَبَكَ ، فَاحْرَصْ عَلَى أَنْ تَأْسِرَهُ أَسْرًا ، وَإِنْ هَرَبَ مِنْكَ إِلَى بَعْضِ كُورِ خُرَاسَانَ ، فَتَوَلَّ إِلَيْهِ الْمَسِيرَ بِنَفْسِكَ ، أَفْهَمْتَ كُلَّ مَا أَوْصَيْكَ بِهِ ؟ » .

قال : نعم ، أوصاح الله أمير المؤمنين ، قال : سر على بركة الله وعونه .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٠)

(١) هو يحيى بن علي بن عيسى بن ماهان .

٩٧ - استهانة ابن ماهان بأمر طاهر بن الحسين

وخرج ابن ماهان ، فلما جاز حُلُوان ، لَقِيَتْهُ الْقَوَافِلُ مِنْ خُرَاسَانَ ، فَكَانَ يَسْأَلُهَا عَنْ الْأَخْبَارِ ، فَيَقَالُ لَهُ : إِنَّ طَاهِرًا مُقِيمًا بِالرَّيِّ ، يَغْرِضُ أَصْحَابَهُ ، وَيَرْمِي^(١) آلَهُ ، فَيَضْحَكُ ثُمَّ يَقُولُ :

« وما طاهر ؟ فوالله ما هو إلا شوكة من أغصاني ، أو شرارة من نارى ، وما مثل طاهر يتولَّى على الجيوش ، ويلقى الحروب » ، ثم التفت إلى أصحابه فقال : « والله ما بينكم وبين أن ينقص انقصاصَ الشجر من الريح العاصف ، إلا أن يبلغه غُيُورُنَا عَقْبَةً^(٢) هَمْدَان ، فَإِنَّ السَّخَالَ^(٣) لَا تَقْوَى عَلَى نِطَاحِ الْكِبَاشِ ، وَالثَّعَالِبَ لَا صَبْرَ لَهَا عَلَى لِقَاءِ الْأَسَدِ ، فَإِنْ يُقِمَّ طَاهِرٌ بِمَوْضِعِهِ يَكُنْ أَوَّلَ مَعْرَضٍ لِطُبَاتٍ^(٤) السُّيُوفِ وَأَسِنَّةِ الرِّمَاحِ . وسار حتى صار فى أول بلاد الرى ، وأتاه صاحب مقدّمته وقال : « لو كنت - أبى الله الأمير - أذ كَيْتَ الْعِيُونِ ، وَبَعَثْتَ الطَّلَائِعَ ، وَارْتَدَّتْ مَوْضِعًا تُعْسِكِرُ فِيهِ ، وَتَتَخَذَ خَنْدَقًا لِأَصْحَابِكَ يَأْمَنُونَ بِهِ ، كَانَ ذَلِكَ أْبْلَغَ فِى الرَّأْيِ ، وَأَنْسَ لِلْجَنْدِ » .

قال : « لا ، لَيْسَ مِثْلُ طَاهِرٍ يَشْتَمَعِدُّ لَهُ بِالْمَكَايِدِ وَالتَّحْفِظِ ، إِنْ حَالَ طَاهِرٌ تَوَلَّى إِلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ ، إِمَّا أَنْ يَتَحَصَّنَ بِالرَّيِّ ، فَيَنْهَبَهُ^(٥) أَهْلُهَا ، فَيَكْفُونَا مَثُونَتَهُ ، أَوْ يُخَلِّيَهَا وَيُدْبِرُ رَاجِعًا لَوْ قَرُبَتْ خِيُولُنَا وَعَسَا كَرْنَا مِنْهُ » .

وأُتِيَ بِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ ، فَقَالَ : « اجْعَمِ مَتَفَرِّقِ الْعَسْكَرَ ، وَاحْذَرِ عَلَى جَنْدِكَ الْبِيَاتَ ، وَلَا تَسْرَحِ الْخَيْلَ إِلَّا وَمَعَهَا كَنْفٌ^(٦) مِنَ الْقَوْمِ ، فَإِنَّ الْعَسَاكَرَ لَا تُسَاسُ بِالتَّوَانِي ،

(١) يصلح . (٢) العقبة : مرق صعب من الجبال . (٣) السخال جمع سخلة بالفتح : وهو وله

الغنم ذكراً أو أنثى . (٤) الطبات جمع طبة : وهى حد الصيف . (٥) به : كنهه : أخذه بغتة ، قال تعالى :

« بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » ، وفى مروج الذهب : « ميثب به » .

(٦) الكنف : الجماعة .

والحروب لا تدبّر بالاغترار ، والثقة أن تحترز ، ولا تقل : الحارب لي طاهر ، فالشرارة الخفية ربما صارت ضراماً^(١) ، والثلة من السيل ربما اغترّبها وتهوّن ، فصارت بحراً عظيماً ، وقد قرّبت عساكرنا من طاهر ، فلو كان رأي الهرب لم يتأخر إلى يومه هذا . قال : اسكت ، فإن طاهراً ليس في هذا الموضع الذي ترى ، وإنما يتحفظ الرجال إذا لقيت أقرانها ، وتستعدّ إذا كان المناوي^(٢) لها أكفأها ونظراءها .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٢٩٩)

٩٨ — حزم طاهر وقوة عزمه

وعسكر طاهر على خمسة فراسخ من الرّسى ، وأتاه محمد بن العلاء ، فقال : « أيها الأمير ، إن جندك قد هابوا هذا الجيش ، وامتلات قلوبهم خوفاً ورعباً منه^(٣) ، فلو أقمت بمكانك ، ودافعت القتال إلى أن يشأمهم^(٤) أصحابك ، ويأنسوا بهم ، ويعرفوا وجه المأخذ في قتالهم » ، فقال :

« لا ، إني لا أوتى من قلة تجربة وحزم ، إن أصحابي قليل ، والقوم عظيم سوادهم ، كثير عددهم ، فإن دافعت القتال ، وأخرت المناجزة ، لم آمن أن يطلّعوا على قلتنا وعورتنا ، وأن يستميلوا من معي برغبة أو رهبة ، فينفر عني أكثر أصحابي ، ويخذلني أهل الحفاظ والصبر ، ولكن ألف الرجال بالرجال ، وألحم^(٥) الخيل بالخيال ، وأعتمد على الطاعة والوفاء ، وأصبر صبر محتسب للخير ، حريص على الفوز بفضل الشهادة ، فإن

(١) الضرام : اشتعال النار في الحلفاء وغيرها ، ودقائق الخطب الذي يسرع اشتعال النار فيه .

(٢) المعادى .

(٣) وكانت عدة مسكر ابن ماهان حسين ألفاً ، وذكر بعض أهل بغداد أنهم لم يروا مسكراً كان أكثر رجالاً وأفره كراعاً ، وأظهر سلاحاً ، وأتم عدة ، وأكل هيئة من مسكره ، وروى أن طاهراً كاف في أقل من أربعة آلاف . (٤) شاماً وتشاماً : شم أحدهما الآخر ، والمعنى اقترباً .

(٥) أى أقرن الخيل بالخيال ، من قولهم : ألحمت الحرب فالتحمت ، والملاحم يضم الميم ويفتح الحاء : المالصق بالقوم ، ولاحم الشيء بالشيء : ألصقه به .

يَرْزُقُ اللَّهُ الظُّفَرَ وَالْفَلَجَ^(١) ، فَذَلِكَ الَّذِي نَزِيدُ وَرَجُو ، وَإِنْ تَكُنِ الْآخَرَى فَلَسْتُ
أَوَّلَ مَنْ قَاتَلَ فَقُتِلَ ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ أَجْزَلُ وَأَفْضَلُ » . (قارِخ الطبري ١٠ : ١٥١)

٩٩ — طاهر يشد عزيمة جنده

وَكَتَبَ طَاهِرُ بْنُ الْحُسَيْنِ كِتَابَهُ ، وَكَرَدَسَ كَرَادِيْسَهُ^(٢) ، وَسَوَّى صَفُوفَهُ ،
وَجَمَلَ يَمْرَ بَقَائِدَ قَائِدٍ ، وَجَمَاعَةَ جَمَاعَةٍ ، فَيَقُولُ :

« يَا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ، وَأَهْلَ الْوَفَاءِ وَالشُّكْرِ ، إِنَّكُمْ لَسْتُمْ كَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَرَوْنَ مِنْ
أَهْلِ النَّكَثِ وَالْفَدْرِ ، إِنْ هَؤُلَاءِ ضَيَّعُوا مَا حَفِظْتُمْ ، وَصَفَّرُوا مَا عَظَّمْتُمْ ، وَنَكَثُوا
الْأَيْمَانَ الَّتِي رَعَيْتُمْ ، وَإِنَّمَا يَطْلُبُونَ الْبَاطِلَ ، وَيَقَاتِلُونَ عَلَى الْفَدْرِ وَالْجَهْلِ ، أَصْحَابُ سَلْبٍ
وَنَهَبٍ ، فَلَوْ قَدْ غَضَضْتُمْ الْأَبْصَارَ ، وَأَثْبَتْتُمُ الْأَقْدَامَ ، قَدْ أَنْجَزَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَفَتَحَ عَلَيْكُمْ أَبْوَابَ
عِزِّهِ وَنَصْرِهِ ، فَخَالِدُوا طَوَاغِيتَ الْفِتْنَةِ ، وَيَعَاسِبِ النَّارَ^(٣) عَنْ دِينِكُمْ ، وَدَافِعُوا بِحَقِّكُمْ
بِاطِلَهُمْ ، فَإِنَّمَا هِيَ سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » .

وَنَشِبَ الْقِتَالُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَدَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى جَيْشِ ابْنِ مَاهَانَ وَقُتِلَ^(٤) .

وَوَجَّهَ الْأَمِينَ بَعْدَ ذَلِكَ لِحَرْبِ طَاهِرٍ جَيْشًا بِقِيَادَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَبَلَةَ ، فَهَزَمَ
وَقُتِلَ أَيْضًا . (قارِخ الطبري ١٠ : ١٥٢)

(١) الفوز الظفر .

(٢) الكرادييس جمع كردوسة بالضم : وهي القطعة العظيمة من الخيل وكردس الخيل جعلها كتيبة كتيبة .

(٣) الطواغيت جمع طاغوت : وهو الشيطان وكل رأس ضلال ، واليعاسيب جمع يعسوب : وهو الرئيس

الكبير . (٤) روى أن نعي هل بن عيسى ورد إلى الأمين وهو هل للشط يعيد السمك ، فقال للذي

أخبره : وهلك دهنه ، فإن كوثرا قد اصطاد سمكتين ، وأنا ما اصطدت شيئا بعد — وكان كوثر خادما
خصيا له وكان يحبه — .

١٠٠ — وصف الفضل بن الربيع غفلة الأمين

وندب أسد بن يزيد بن مزيد لقتال طاهر

وبعث الفضل بن الربيع بعد مقتل عبد الرحمن بن جبلة إلى أسد بن يزيد بن مزيد ، قال : فأتيته ، فلما دخلت عليه وجدته قاعداً في صحن داره ، وفي يده رُقعة قد قرأها ، واحمرّت عيناه ، واشتد غضبه ، وهو يقول :

« ينام نوم الظَّربان ^(١) ، وينتبه انتباه الذئب ، همته بطنه ، ولذته قرجه ، لا يفكر في زوال نعمته ، ولا يروى في إمضاء رأى ولا مكيدة ، قد ألهاه كأسه ، وشغله قدحه ، فهو يجري في لهوه ، والأيام تُسرّع ^(٢) في هلاكه ، قد شمرَّ عبدُ الله له عن ساقه ، وفوق له أصيب ^(٣) أسهمه ، يرميه على بعد الدار بالحلف النافذ ، والموت القاصد ^(٤) ، قد عبّى له المنايا على مُتون الخيل ، وناط ^(٥) له البلاء في أسنة الرماح ، وشفار السيوف . ثم استرجع وتمثل بأبيات للبعيث ^(٦) ، ثم التفت إلى فقال :

« يا أبا الحارث ، إنا وإياك لنجى إلى غاية ، إن قصّرنا عنها دُمنّا ، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا ، وإنما نحن شعب من أصل ، إن قوى قوينّا ، وإن ضعف ضعفنا ، إن هذا قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكفاء ^(٧) ، يشاور النساء ، ويعتمد على الرؤيا . وقد أمكن أهل اللهو والخسارة من سمعه ، فهم يعدّونه الظفر ، ويمنّونه عُقب ^(٨) الأيام ،

(١) الظربان : دويبة فوق جرو الكلب منتنة الريح كثيرة الفسوس ، يضرب بها المثل فيقال : « أنسى من ظربان » . (٢) في الأصل « تضرع » وأراه محرفاً . (٣) أصيب : أفل من صاب السهم يصيب صبيها : أى أصاب ، ومهم صيوب كصبور . (٤) القاصد أى الكاسر ، من القصد بالفتح : هو الكسر أى وجهه كان ، أو بالنصف ، كالتقصيد ، يقال قصد الخنق وقصدها : كسرها وفصلها فتقصدت . (٥) هلق . (٦) هو خدائش بن بشر المخاشمي ، أحد شعراء الدولة الأموية ، وكان يهاجى جريراً . (٧) وصف من الوكفاء بالتحريك : وهو الإثم والهمب والنقص ، وكف كفرح إذا أثم ، وفي رواية القطري « الوكفاء » بالعين ، وهي الحمقاء . (٨) العقب كقفل وصق : العاقبة .

والهلاك أسرع إليه من السيل إلى قيعان^(١) الرمل ، وقد خَشِيتُ وألله أن يَهْلِكَ بهلاكه ، ونعطبَ بنعطيه .

وأنت فارس العرب وابن فارسها ، وقد فَزِعَ إليك في لقاء هذا الرجل (طاهر) ، وأطمعته فيما قبلك أمران ؛ أمّا أحدهما فَصِدْقُ طاعتك ، وفضلُ نصيحتك ؛ والثاني يُمنُ نَقِيتك^(٢) ، وشدة بأسك ، وقد أمرني بإزاحة عِلَّتِكَ ، وبسَطِ يدك فيما أحببت ، غير أن الاقتصاد رأس النصيحة ، ومفتاح اليُمن والبركة ، فَأَنْجِزِ حوائجك ، وعَجِّلِ المبادرة إلى عدوك ، فَإِنِّي أَرْجُو أن يُؤَلِّكَ الله شرف الفتح ، وَيَلْمَ بك شعث هذه الخلافة والدولة . فأجاب بالسمع والطاعة ، غير أنه طلب مطالب لم تَرُقْ في عين الأمين فغضب عليه ، وأمر بِسَجْنِهِ .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٨ وزهر الآداب ٢ : ١٥٨)

١٠١ - وصية الأمين لأحمد بن مزيد

ثم ندب عمه أحمد بن مَزِيد ، فلما أراد الشخوص دخل على الأمين ، فقال : أوصني أكرم الله أمير المؤمنين ، فقال :

« أوصيك بِخِصَالِ عِدَّةٍ : إِيَّاكَ والبغى فَإِنَّهُ عِقَالُ^(٣) النصر ، ولا تقدّم رجلاً إلا باستخارة ، ولا تشهر سيفاً إلا بعد إعدار ، ومهما قَدَرْتَ عليه باللين ، فلا تتعدّه إلى إلى الخرق والشَّرّه ، وأحسن صحابة من معك من الجند ، وطالعني بأخبارك في كل يوم ، ولا تخاطر بنفسك في طلب الزُّلْفَةِ^(٤) عندي ، ولا تستقها فيما تخوف رجوعه على ، وكن لعبد الله أخاً مضافاً ، وقريناً برّاً ، وأحسن مجامعته ، وصحبته ومعاشرته ، ولا تتخذ له إن استنصرك ، ولا تبطئ عنه إذا استنصرحك ، ولتكن أيديكما^(٥) واحدة ، وكلتكما متفقة » .

(١) القيعان جمع قاع : وهو أرض مطبنة سهلة قد انفرجت عنها الجبال والآكام .

(٢) النقية : النفس والطبيعة . (٣) العقال في الأصل : الحبل الذي تقيد به الدابة .

(٤) الزلفة والزلنى : القرية . (٥) أى أنت وعبد الله بن حميد بن قحطبة .

وتوجه أحمد بن مزيد في عشرين ألفاً من الأعراب ، وعبد الله بن حميد بن قحطبة في عشرين ألفاً من الأبناء ، حتى نزلا خانقين - قريباً من حلوان - ولم يزل طاهر يخال في وقوع الاختلاف والشغب بينهم ، حتى اختلفوا ، وانتفض أمرهم ، وقاتل بعضهم بعضاً ، فأخَلَوْا خانقين ورجعوا عنها ، دون أن يلقوا طاهراً .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٥٩)

١٠٢ - مقال عبد الملك بن صالح للأمين

وكان عبد الملك بن صالح يشكر للأمين تخلية سبيله ، ويوجب بذلك على نفسه طاعته ونصيحته ، فلما قوى طاهر ، واستعلى أمره ، وهزم من هزم من قواد الأمين وجيوشه ، دخل عبد الملك على الأمين ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إني أرى الناس قد طمعوا فيك ، وأهل العسكرين قد اعتمدوا ذلك ، وقد بذلت سماحتك ، فإن تمت على أمرك أفسدتهم وأبطرتهم ، وإن كففت أمرك عن العطاء والبذل أسخطتهم وأغضبتهم ، وليس تملك الجنود بالإمساك ، ولا يبق ثبوت الأموال على الإنفاق والسرف ، ومع هذا فإن جندك قد رعبتهم الهزائم ونهكتهم ، وأضعفتهم الحرب والوقائع ، وامتلات قلوبهم هيبةً لعدوهم ، ونكولاً^(١) عن لقاءهم ومناهضتهم ، فإن سيرتهم إلى طاهر ، غلبت بقليل من معه كثيرهم ، وهزم بقوة نيته ضعف نصائحهم ونياتهم ، وأهل الشام قوم قد ضرسهم^(٢) الحروب ، وأدبتهم الشدائد ، وجلهم منقاد إلى ، مسارع إلى طاعتي ، فإن وجهني أمير المؤمنين اتخذت له منهم جنداً يعظم نكايتهم في عدوه ، ويؤيد الله بهم أوليائه وأهل طاعته . »

فقال الأمين : « فإني مؤليك أمرهم ، ومقويك بما سألت من مال وعُدّة ، فعجل

(٢) جريتهم واحكمتهم .

(١) جبنا وخوفاً .

الشخصَ إلى ما هنالك ، فاعمل عملاً يظهر أثره ، ويُمجّد بركته ، رأيك ونظرك فيه إن شاء الله ، فولاه الشام والجزيرة .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٦١ ، والكمال لابن الأثير ٦ : ١٠٣)

١٠٣ — الشعب في جيش عبد الملك بن صالح

وسار عبد الملك بن صالح ، فلما قدّم الرّقة^(١) ، كتب إلى رؤساء أجناد الشام ووجوه الجزيرة ، فلم يبق أحد من يُرَجَى ، ويذكر بأسه وغناؤه إلا وعدّه ، وبسط له في أمّله وأمنيته ، قدّموا عليه رئيساً بعد رئيس ، وجاعة بعد جاعة ، فكان لا يدخل عليه أحد إلا أجازّه ، وخلع عليه وخمّله ، فأتاه أهل الشام ، الزّواقيل والأعراب من كل فج ، واجتمعوا عنده حتى كثّروا ، بيّد أنه شبت نار الفتنة بين جند أهل خراسان وبين الزّواقيل^(٢) ، وأفضى الأمر إلى تلاحمهم واقتتالهم ، ثم قام رجل من أهل حصص ، فقال : « يا أهل حصص ، الهرب أهون من العطب ، والموت أهون من الذل ، إنكم بعدتم عن بلادكم ، وخرجتم من أقاليمكم ، ترجون الكثرة بعد القلة ، والعزة بعد الذلّة ؛ ألا وفي الشر وقعتم ، وإلى حومة الموت أنختم ، إن النّايا في شوارب المسوودة^(٣) وفلانيسهم ، النّفير النّفير^(٤) قبل أن ينقطع السبيل ، وينزل الأمر الجليل ، ويفوت المطلب ، وبمشر المذهب ، ويبعد العمل ، ويقترب الأجل » .

وقام رجل من كلب ، فقال :

« يا معشر كلب ، إنها الراية السّوداء ، والله ما ولت ولا عدّلت ، ولا ذلّ

(١) بلدة على الفرات . (٢) وسببها أن بعض جند أهل خراسان نظر إلى دابة كانت قد أخذت منه

في إحدى اللّوعدات تحت بعض الزّواقيل ، فتملق بها ، فجرى الأمر بينهما إلى أن اختلفا ، واجتمعت جماعة من الزّواقيل والجنّة فتلّاحوا ، وأمان كل فريق منهم صاحبهم ، ثم اتسع نطاق الفتنة فانشقت وحدة الجيش .

(٣) كانت الجنود الخراسانية التي تقاتل الامويين في سبيل نشر الدّعوة العبّاسية يحملون الرايات السود

فسموا من أجل ذلك المسوودة . (٤) نفر إلى الأمر كضرب نفيرا : أسرع إليه .

نصرها ، ولا ضُف ولَيْهَا ، وإنكم لتعريفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم ، وآثار أسنتهم في صدوركم ، اعتزلوا الشر قبل أن يعظم ، وتخطّوه قبل أن يضطرم ، شامكم ، داركم داركم ، الموت الفلستيني خير من العيش الجزري ، ألا وإني راجع فمن أراد الانصراف فلينصرف معي .

ثم سار وسار معه عامة أهل الشام ، وأقبلت الزواويل حتى أضرموها ما كان يُجمع من الأعلاف بالنار ، (وكان ذلك في سنة ١٩٦ هـ) . (تاريخ الطبري ١٠ : ١٩٢)

١٠٤ — خطبة الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان

يدعو إلى خلع الأمين

ومات عبد الملك بن صالح بالرقّة ، وكان معه الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان ، فأقل الجند من الجزيرة إلى بغداد ، فتلقاه أهلها بالكرامة والتعظيم ، وضربوا له القباب ، واستقبله القواد والرؤساء والأشراف ، ثم اجتمع إليه الناس فقام فيهم فقال : « يا معشر الأبناء ، إن خلافة الله لا تُجَاوَز بالبطر ، ونعمه لا تستصحب بالتجبر والتكبر ، وإن محمداً يريد أن يُوتغ^(١) أديانكم ، وينكث ببيعةكم ، ويفرق جمعكم ، وينقل عزّكم إلى غيركم ، وهو صاحب الزواويل بالأمس ، وبالله إن طالت به مدة ، وراجع من أمره قوّة ، ليرجعن وبال ذلك عليكم ، وليعرفن ضرره ومكروهه في دولتكم ودعوتكم ، فاقطعوا أثره قبل أن يقطع آثاركم ، وضعوا عزّه قبل أن يضع عزّكم ، فوالله لا ينصره منكم ناصرٌ إلا خذل ، ولا يمنعه مانعٌ إلا قتل ، وما عند الله لأحد هداةٌ ، ولا يراقب على الاستخفاف بعهوده ، وألحنت بأيامه . »

وخلع الحسين بن علي محمداً الأمين وحبسه^(٢) ، وأخذ البيعة لعبد الله المأمون .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٩٣)

(١) أوتغ دته بالإثم : نفسه ، وأوتغه الله : أهلكه .

(٢) وكان حبس الحسين بن علي في قصر أبي جعفر يرمين .

١٠٥ - خطبة محمد بن أبي خالد

في فض الناس عن اتباع الحسين بن علي بن عيسى

فلما أصبح الناس من الغد ، طلبوا من الحسين بن علي الأرزاق ، وماج الناس بعضهم في بعض ، وقام محمد بن أبي خالد ، فقال :

« أيها الناس ، والله ما أدرى ، بأي سبب يتأمر الحسين بن علي علينا ، ويتولّى هذا الأمر دوننا ؟ ماهو بأكبرنا سنّا ، ولا أكرمنا حسَبًا ، ولا أعظمنا منزلةً ، وإن فينا من لا يَرْضَى بالدنيّة ، ولا يُقَاد بالخادعة ، وإنّي أوّلُكم ، نقض عهدَه ، وأظهر التغييرَ عليه ، والإنكار لفعله ، فمن كان رأيُه رأيي ، فليعتزل معي » .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٦٤)

١٠٦ - إطلاق الأميين من سجنه ورده إلى مجلس الخلافة

وقام أسد الحرّبيّ ، فقال : « يا معشر الحربية ، هذا يومٌ له ما بعده ، إنكم قد فُتِمْتُمْ وطال نومكم ، وتأخّرتُم فُقدّم عليكم غيرُكم ، وقد ذهب أقوامٌ بذِكر خلع محمد وأسرِه فاذهبوا بذِكر فكّه وإطلاقه » .

فأقبل شيخ كبير من أبناء الكِفاية على فرس ، فصاح بالناس : اسكتوا ، فسكتوا ، فقال :

« أيها الناس ، هل تعتدّون على محمد بقطع منه لأرزاقكم ؟ قالوا : لا ، قال : فهل قَصَّرَ بأحد منكم ، أو من رؤسائكم وكبرائكم ؟ قالوا : ما علينا ، قال : فهل عزَل أحدًا من قوّادكم ؟ قالوا : معاذ الله أن يكون فعل ذلك ، قال : فما بالكم خذلتموه ، وأعنتم عدوّه على اضطهاده وأسرِه ؟ أمّا والله ما قَتَلَ قومٌ خليفَتهم قَطُّ ، إلا سلّط الله عليهم السيفَ القاتل ، واختلف الجارِف ، انهضوا إلى خليفَتكم وادفعوا عنه ، وقَاتِلُوا من أراد خلعه والفتك به » .

قنهضوا معه وقاتلوا الحسين بن عليّ وأصحابه قتالا شديداً ، وأكثروا في أصحابه الجراح ، وأسروا الحسين ، ودخل أسد الحربى على محمد فكسر قيوده وأقعدته في مجلس الخلافة .

وأتى الأمين بالحسين بن عليّ ، فلامه على خلافه وقال له : ألم أقدم أباك على الناس ، وأولّه أعنة الخيل ، وأملأ يده من الأموال ، وأشرف أقداركم في أهل خراسان ، وأرفع منازلكم على غيركم من القواد ؟ قال : بلى ، قال : فما الذى استحققت به منك أن تخلع طاعتي ، وتؤلّب الناس علىّ ، وتندبهم إلى قتالى ؟ قال : الثقة بعفو أمير المؤمنين وحسن الظن بصفحه وتفضله ، قال : فإن أمير المؤمنين ، قد فعل ذلك بك ، وولّاك الطلب بشارك ، ومن قُتل من أهل بيتك ، ثم دعا له بخيلة ، فخلعها عليه ، وحمله على مراكب ، وأمره بالمسير إلى حُلوان ، وخرج الحسين ، فهرب في نفر من خدمه ومواليه ، فنادى محمد في الناس ، فركبوا في طلبه فأدركوه وقتلوه . (تاريخ الطبرى ١٠ : ١٦٤)

١٠٧ - خطبة داود بن عيسى يدعو إلى خلع الأمين

وقام داود بن عيسى^(١) وإلى مكة والمدينة - وكان خطيباً فصيحاً جَهِير الصوت - يدعو إلى خلع الأمين ومبايعة المأمون ، فقال :

(١) هو داود بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان الأمين حين أفضت الخلافة إليه يث به والياً على مكة والمدينة ، فأقام والياً عليهما حتى دخلت سنة ١٩٦ ، فكتب الأمين إلى داود بن عيسى بأمره بخلع عبد الله المأمون ، والبيعة لابنه موسى ، وبعث إلى الكتائب الذين كان الرشيد كتبهما وعلقهما في السكبة ، فأغلقهما ، فلما فعل ذلك جمع داود حجة السكبة والقريشيين والفقهاء ، ومن كان شهد على ما في الكتائب من الشهود - وكان داود أحدهم - فقال داود : قد علمت ما أخذ علينا وعليكم الرشيد من العهد والميثاق ، عند بيت الله الحرام ، حين بايعنا لابنيه لتكونن مع المظلوم منهما على النظام ، ومع المبغى عليه على الباغى ، ومع المفقور به على الغادر ، فقد رأينا ورأيتم أن محمداً (الأمين) قد بدأ بالظلم والبغي والغدر على أخويه عبد الله المأمون ، والقاسم المؤتمن ، وخلصهما ، وبايع لابنه الطفل رضيع صغير لم يقطع ، واستخرج الشرطين من السكبة عاصياً ، فحرقهما بالنار ، وقد رأيت خلعهم ، وأن أبايك لعبد الله المأمون بالخلافة ، إذ كان مظلوماً مبغياً عليه ، فقال له أهل مكة : رأينا تبع لرأيك ، ونحن خالموه معك ، فجمع الناس ، وخطبهم هذه الخطبة .

« الحمد لله مالِكُ الْمُلْكِ ، يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، أَرْسَلَهُ بِالْدِّينِ ، وَخَتَمَ بِهِ النَّبِيِّينَ ، وَجَعَلَهُ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ .

أما بعد ، يا أهل مكة ، فأتتم الأصلُ والفرع ، والعشيرة والأُسرة ، والشركاء في النِّعمة ، إلى بلدكم يَفِدُ وَفَدَ اللَّهُ^(١) ، وإلى قِبَلتكم يَأْتُمُ المسلمون ، وقد عَلِمْتُمْ مَا أَخَذَ عَلَيْكُمْ الرِّشِيدُ هرون ، رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَصَلَاتُهُ ، حِينَ بَايَعَ لِابْنِهِ مُحَمَّدٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، لَتَنْصُرُنَّ الْمَظْلُومَ مِنْهُمَا عَلَى الظَّالِمِ ، وَالْبَغْيَ عَلَيْهِ عَلَى الْبَاغِي ، وَالْمَغْدُورَ بِهِ عَلَى الْغَادِرِ ، أَلَا وَقَدْ عَلِمْتُمْ وَعَلِمْنَا أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ هُرُونَ قَدْ بَدَأَ بِالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ ، وَالْغَدْرِ ، وَخَالَفَ الشُّرُوطَ الَّتِي أَعْطَاهَا مِنْ نَفْسِهِ فِي بَطْنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَقَدْ حَلَّ لَنَا وَلَكُمْ خَلْعُهُ مِنَ الْخِلَافَةِ وَتَصْيِيرِهَا إِلَى الْمَظْلُومِ الْبَغْيِيِّ عَلَيْهِ ، الْمَغْدُورَ بِهِ ، أَلَا وَإِنِّي أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ خَلَعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ هُرُونَ مِنَ الْخِلَافَةِ ، كَمَا خَلَعْتُ قَلَنْسُوتَ هَذِهِ مِنْ رَأْسِي وَخَلَعْتُ قَلَنْسُوتَهُ عَنْ رَأْسِهِ ، فَرَمَى بِهَا إِلَى بَعْضِ الْخُدَمِ تَحْتَهُ ، وَكَانَتْ مِنْ بُرُودِ حَبْرَةٍ^(٢) مَسْلُوسَةِ حُمْرَاءَ ، وَأَتَى بِقَلَنْسُوتِ سَوْدَاءَ هَاشِمِيَّةٍ فَلَبِسَهَا - ثُمَّ قَالَ : قَدْ بَايَعْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ الْمَأْمُونِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْخِلَافَةِ ، أَلَا فَاقْبَلُوا إِلَى الْبَيْعَةِ خَلَايِفَتِكُمْ ، فَصَعِدَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْوُجُوهِ إِلَيْهِ إِلَى الْمَنْبَرِ رَجُلٌ فَرَجُلٌ ، فَبَايَعَهُ لِعَبْدِ اللَّهِ الْمَأْمُونِ بِالْخِلَافَةِ وَخَلَعَ مُحَمَّدًا .

(تاريخ الطبري ١٠ : ١٧٠)

(١) أي لتأدية فريضة الحج . (٢) برود حبرة : ضرب من البرود البياض ، يقال : برد حبرة مثل حبرة على الوصف والإضافة ، وبرود حرة ، وليس حبرة موضعاً أو شيئاً معلوماً ، إنما هو رشي كقوله : ثوب قرمز ، والقرمز : صبغة .

١٠٨ - خطبة الأمين وقد تولى الأمر عنه

ولما رأى الأمين الأمر قد تولى عنه ، وأنصاره يتسللون فيخرجون إلى طاهر ، أمر بإحضار كل من كان معه في المدينة من القواد والجند ، فأشرف عليهم وقال : « الحمد لله الذى رفع ويضع ، ويعطي ويمنع ، ويقبض وينسط ، وإليه المصير ، أحمد على نوائب الزمان ، وخذلان الأعوان ، وتشتت الرجال ، وذهاب الأموال ، وحلول النوائب ، وتوقد المصائب ، حمداً يدخر لى به أجزل الجزاء ، ويرفدنى ^(١) أحسن العزاء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كما شهد لنفسه ، وشهدت له ملائكته ، وأن محمداً عبده الأمين ، ورسوله إلى المسلمين صلى الله عليه وسلم ، آمين رب العالمين .

أما بعد : يامعشر الأبناء ، وأهل السبق إلى الهدى ، فقد علمتم غفلى كانت أيام الفضل بن الربيع وزيراً على ومشير ، فمادت ^(٢) به الأيام بما كزمنى به من الندامة فى الخاصة والعامة ، إلى أن نهتهمونى فانتبهت ، واستغتمونى فى جميع ما كرهتم من نفسى وفيكم ، فبذلت لكم ما حواه ملكى ، ونالته قدرتى مما جمعه وورثته عن آبائى فقوت ^(٣) من لم يحز ، واستكفيت من لم يكف ، واجتهدت - علم الله - فى طلب رضاكم بكل ما قدرت عليه ، واجتهدت - علم الله - فى مساءتى فى كل يوم ما قدرتم عليه ، من ذلك توجيهى إليكم على بن عيسى شيخكم وكبيركم ، وأهل الرأفة بكم ، والتحنن عليكم ، فكان منكم ما يطول ذكره ، ففقرت الذنب ، وأحسنتم واحتملت وعزيت نفسى عند معرفتى بشذوذ الظفر ، وحرصى على مقامكم مسلحة ^(٤) بخلوان مع ابن كبير صاحب دعوتكم ، ومن على يدى أبيه ^(٥) كان نفركم ، وبه تمت طاعتكم

(١) وفده وأرفده : أعطاه . (٢) طاولته وأملهته . (٣) أى اتخذته قائداً .

(٤) المسلحة : للقوم ذوو سلاح .

(٥) يعنى جده عبد الله بن حميد بن قحطبة ، وهو قحطبة بن شبيب الطائى ، أحد الدعاة العباسية والقواد

الذين قاتلوا الجيوش الأموية - انظر الجزء الثانى ص ٥١٣

عبد الله بن حميد بن قحطبة ، فصرتم من التائب عليه إلى مالا طاقة له به ، ولا صبر عليه ، يقودكم رجل منكم وأتم عشرون ألفاً إلى عامين ، وعلى سيدكم متوثبين ، مع سعيد الفرد ، سامعين له مطيعين ، ثم وثبت مع الحسين على ، فخلعتموني وشتمتموني ، واتهبتموني وحبستموني وقيدتموني ، وأشياء منعتموني من ذكرها ، حقد قلوبكم ، وتلكي^(١) طاعتكم أكبر وأكثر ، فالحمد لله حمد من أسلم لأمره ، ورضى بقدره ، والسلام .

وكانت عاقبة أمره أن قتل سنة ١٩٨ هـ وحل رأسه إلى المأمون بخراسان .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٢٠٥ ، ومروج الذهب ٢ : ٣٠٥)

١٠٩ - استعطاف الفضل بن الربيع للمأمون

وقال المأمون للفضل بن الربيع^(٢) لما ظفر به : « يا فضل ، أكان من حقّ عليك وحقّ آبائي ونعمهم عند أبيك وعندك أن تثلّبني^(٣) وتسبّي وتخرّض على دمي ؟ أحبّ أن أفعل بك ما فعلته بي ؟ » .

فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن عذري يُحقدك إذا كان واضحاً جليلاً ، فكيف إذا خفّته^(٤) العيوب ، وقبّحته الذنوب ، فلا يضيق عني من عفوك ما وسّع غيري منك فأنت كما قال الشاعر^(٥) فيك :

صَفُوحٌ عَنِ الْأَجْرَامِ حَتَّى كَأَنَّهُ مِنْ الْعَفْوِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ النَّاسِ مُجْرِمًا
وَلَيْسَ يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بِهِ الْأَذَى إِذَا مَا الْأَذَى لَمْ يَفْشَ بِالْكَرْهِ مُسْلِمًا
(زهر الآداب ٢ : ١٦٣)

(١) مسهل عن تلكؤ . (٢) توفي سنة ٢٠٨ . (٣) ثلّبه كضربه : لأمه وعابه .

(٤) مكلف في الأصل ، وربما كان « أخفته » لقوله قبل : « إذا كان واضحاً » .

(٥) هو الحسن بن رجا بن أبي الضحاك .

١١٠ - خطبة طاهر بن الحسين ببغداد بعد مقتل الأمين

ودخل طاهر بن الحسين بغداد يوم الجمعة بعد قتل الأمين ، فصلى بالناس وخطبهم خطبة بليغة ، وقد حضره من بنى هاشم والقواد وغيرهم جماعة كثيرة قال :

« الحمد لله مالك الملك ، يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ ، وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُسْرِئِينَ ، وَلَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ، إِنْ ظَهَرَ غَلَبَتْنَا لَمْ يَكُنْ مِنْ أَيْدِينَا وَلَا كَيْدِنَا ، بَلْ اخْتَارَ اللَّهُ لِلْخَلِيفَةِ ، إِذْ جَعَلَهَا عِمَاداً لِدِينِهِ ، وَقَوَاماً لِعِبَادِهِ ، وَضَبَطَ الْأَطْرَافَ ، وَسَدَّدَ الثُّغُورَ ، وَإِعْدَادِ الْعُدَّةَ ، وَجَمَعَ الْفَيْءَ ، وَإِنْفَازِ الْحُكْمِ ، وَنَشْرِ الْعَدْلِ ، وَإِحْيَاءِ السُّنَّةِ بَعْدَ إِذْ بَالَ الْبَطَالَاتِ ، وَالتَّلَذُّ بِمُوبِقِ الشَّهَوَاتِ ، وَالْمُخْلِدُ إِلَى الدُّنْيَا مُسْتَحْسَنٌ لِدَاعِي غُرُورِهَا ، مُحْتَلِبٌ دِرَّةٌ ^(١) نَعْمَهَا ، أَلْفٌ زَهْرَةٌ رَوْضَتِهَا ، كَلِفٌ بَرُونِقٌ بَهْجَتِهَا ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ وِفَاءٍ مَوْعُودِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِمَنْ بَغَى عَلَيْهِ ، وَمَا أَحْلَى بِهِ مِنْ بَأْسِهِ وَنَقْمَتِهِ ، لَمَّا نَكَبَ ^(٢) عَنْ عَهْدِهِ ، وَارْتَكَبَ مَعْصِيَتَهُ ، وَخَالَفَ أَمْرَهُ ، وَغَيَّرَهُ نَاهِيَةَ ، وَعَظَّمَتْهُ مُؤَدَّبَةً ، فَتَمَسَكُوا بِدَقَائِقِ عُصْمٍ ^(٣) الطَّاعَةِ ، وَاسْتَلَكُوا مَنَاحِي سَبِيلِ الْجَمَاعَةِ ، وَاحْذَرُوا مِصَارِعَ أَهْلِ الْخِلَافِ وَالْمَعْصِيَةِ ، الَّذِينَ قَدَحُوا زِنَادَ الْفِتْنَةِ ، وَصَدَعُوا شَعْبَ الْأُلُفَّةِ ، فَأَعْقَبَهُمُ اللَّهُ خَسَارَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . »

(تاريخ الطبري ١٠ : ٢٠٩ ، والمعقد الفريد ٢ : ١٥٥)

(٢) عدل .

(١) الدرة : اللين .

(٣) جمع عصام ككتاب ، وعصام القرية : وباطها وسيرها الذي تحمل به .

خطب المأمون (توفي سنة ٨٢١٨ هـ)

١١١ - خطبته وقد ورد عليه نعي الرشيد

خطب الناس بمرّو حين ورد عليه نعي الرشيد ، فقال :
« إن ثمرة الصبر الأجر ، وثمره الجزع الوزر ، والتسليم لأمر الله عزّ وجلّ ، فائدةٌ
جليلة ، وتجارة مُربحة ، فالموت حَوْضٌ مُورود ، وكأسٌ مشروب ، وقد أتى على خليفتم
ما أتى على نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فَإِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجعون ، فما كَانَ إِلَّا عَبْدًا
دعِيَ فَأجاب ، وَأَمِيرَ فَأطاع ، وقد سَدَّ أميرُ للمؤمنين ثَمْلَهُ ، وقامَ مَقَامَهُ ، وفي أعناقكم
من العهد ما قد عرّقتُم ، فأحْسِنُوا الْعَزَاءَ عَلَى إِمَامِكُمُ الْمَاضِي ، واغْتَبِطُوا بِالنِّعْمَاءِ وَالْوَفَاءِ
في خليفتم الباقي ، يَا أَهْلَ الدُّنْيَا : الموتُ نازلٌ ، وَالْأَجَلُ طَالِبٌ ، وَأَمْسِرْ واعِظْ ،
واليومَ مَغْتَمٌ ، وَغَدٌ مُنْتَظَرٌ » .

١١٢ - خطبته وقد سلم الناس عليه بالخلافة

ولما بلغه بخراسان قتلُ أخيه ، وأقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة ، صعد المنبر ،
فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :
« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنِّي جَعَلْتُ اللَّهَ عَلَى نَفْسِي ، إِنِ اسْتَرَعَانِي أُمُورٌ كَمْ أَنْ أَطِيعَهُ فِيكُمْ ،
وَلَا أَسْفِكُ دِمَاءَ عَمْدٍ لَا تُحِلُّهُ حُدُودُهُ ، وَتُسْفِكُهُ فَرَائِضُهُ ، وَلَا آخِذٌ لِأَحَدٍ مَالًا ، وَلَا
أَمَانًا ، وَلَا نَحْلَةً ^(١) تَحْرُمُ عَلَى ، وَلَا أَحْكُمُ بِهِوَايَ ، فِي غَضَبِي وَلَا رِضَايَ ، إِلَّا مَا كَانَ

(١) علة : أصطاه والامم للنحلة .

في الله وله ، جعلتُ كله لله عهداً مؤكداً ، وميثاقاً مُشدداً ، إني أفي رغبة في زيادته إياي في نعمتي ، ورهبةً من مسألتِهِ إياي عن حقه وخلقه ، فإن غيّرتُ أو بدلتُ كنتُ للغيرِ مستأهِلاً ، وللنكالِ مُعرّضاً ، وأعوذ بالله من سَخَطِهِ ، وأرغب إليه في المعونة على طاعته ، وأن يحول بيني وبين معصيته .

١١٣ — خطبته يوم الجمعة

الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومستوجبهِ على خلقه ، أحمدُه وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهرهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وَحُدَّه ، والعملِ لما عنده ، والتنجِزِ لوعده ، والخوفِ لوعيده ، فإنه لا يَسْلَمُ إِلَّا من اتقاه وَرَجَاهُ ، وعَمِلَ لَهُ وأرضاه ، فاتقوا الله عبادَ الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما بَقِيَ بما يزول عنكم ، وترحلوا فقد جُدَّ بكم ، واستعدُّوا للموت فقد أظْلَمَ ، وَكُونُوا قَوْمًا صَاحِبِينَ ، فانتبهوا ، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدارٍ فاستبدلوا ، فإن الله لم يخلقكم عبثاً ، ولم يترككم سُدىً ، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموتُ أن ينزل به ، وَإِنْ غَايَةً تَنْقُصُهَا اللَّحْظَةُ ، وَتَهْدِمُهَا السَّاعَةُ الْوَاحِدَةُ ، لجذيرة بِقَصْرِ الْمَدَةِ ، وَإِنْ غَائِبًا يَحْدُوهُ ^(١) الْجَدِيدَانِ : الليل والنهار لحَرِيٍّ بِسُرْعَةِ الْأَوْبَةِ ، وَإِنْ قَادِمًا يَحُلُّ بِالْفَوْزِ أَوْ بِالشَّقَاةِ لِمُسْتَحِقٍّ لِأَفْضَلِ الْعُدَّةِ ، فاتَّقِ عَبْدُ رَبِّهِ ، وَنَصَحْ نَفْسَهُ ، وَقَدِّمْ تَوْبَتَهُ ، وَغَلِبْ شَهْوَتَهُ ، فَإِنْ أَجَلُهُ مُسْتَوْرٌ عَنْهُ ، وَأَمَلُهُ خَادِعٌ لَهُ ، وَالشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ ، يَزِينُ لَهُ الْعَصِيَّةَ لِيُرْكَبَهَا ، وَيُمَيِّنِيهِ التَّوْبَةَ لِيَسُوِّفَهَا ، حَتَّى تَهْجُمَ عَلَيْهِ مَنِيَّتُهُ ، أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا ، فَيَالِهَا حَسْرَةً عَلَى ذِي غَفْلَةٍ ، أَنْ يَكُونَ عَمْرُهُ عَلَيْهِ حِجَةً ، أَوْ تَوْدِيهِ أَيَّامُهُ إِلَى شِقَاةٍ ، نَسَأَ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مَنْ لَا تُبْطِرُهُ نِعْمَةٌ ،

وَلَا تَقْصُرْ بِهِ عَنْ طَاعَتِهِ غَفْلَةً ، وَلَا تَحُلَّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ فَرْعَةً . إِنَّهُ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ، وَبِيدِهِ الْخَيْرُ ، وَإِنَّهُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ » . (عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٣ ، والمفرد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٤ - خطبته يوم الأضحي

قال بعد التكبير والتحميد : إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله ، وأوجب تشريفه ، وعظم حرُمته ، ووفق له من خلقه صفوته ، وابتلى فيه خليله ، وفدى فيه من الذَّبْحِ نبيه ، وجعله خاتَمَ الأيامِ المعلوماتِ من العَشْرِ ، ومَتَدَّمَ الأيامِ العدوداتِ من النَّفْرِ ^(١) ، يومٌ حَرَامٌ ، من أيامِ عظامٍ ، في شهرِ حَرَامٍ ، يومُ الْحِجِّ الْأَكْبَرِ ، يومٌ دعا الله إلى مَشْهَدِهِ ، ونَزَلَ الْقُرْآنَ بتعظيمه ، قال الله جل وعز : « وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحِجِّ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » ، وَكَانَ يَوْمَ ذَلِكَ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا ، وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ، ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ ، وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ ، وَلِيَطَّوِّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ^(٢) » .

فتقربوا إلى الله في هذا اليوم بذبائحكم ، وعظّموا شعائر الله ، واجعلوها من طيب أموالكم ، وبصحة التقوى من قلوبكم ، فإنه يقول : « لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ^(٣) » ، ثم التكبير والتحميد والصلاة على النبي والوصية

(١) يوم النفر : اليوم الذي ينفر فيه الناس من منى ، وهو بعد يوم للقر (يوم القر بالفتح : اليوم الذي بعد يوم النحر ، لأن الناس يقرون في منازلهم) .

(٢) رجالا : أي مشاة ، جمع راجل كقائم وقيام ، - وهل كل ضامر : أي وركبانا على كل ضامر ، أي بغير مهزول ، يأتين : أي الضواير ، صفة لضاير حلال على المعنى ، من كل فج عميق : أي طريق بعيد ، ليشهدوا مَنَافِعَ لَهُمْ : دينية ودنيوية ، في أيام معلومات : هي عشر ذي الحجة ، وقيل : أيام النحر ، من بهيمة الأنعام : الإبل والبقر والغنم التي تحرر للضحايا ، ثم ليقضوا تَفَثَهُمْ : أي يزيلوا أوساخهم وشعثهم من نحو قص الأظفار ، وحلق العانة ، وغير ذلك .

(٣) أي يرفع إليه منكم العمل الصالح .

بالتقوى ، ثم قال بعد ذكر الجنة والنار ، عَظُمَ قَدْرُ الدَّارَيْنِ ، وارتفع جزاء العاملين ^(١) ، وطالت مدة الفريقين ، اللَّهُ اللَّهُ ، فوالله إنه أَلْجَدُّ لَا اللَّعِبَ ، وإنه الحقُّ لا الكذب ، وما هو إلا الموت والبعث ، والميزان والحساب والقصاص والصراط ، ثم العقاب والثواب ، فمن نجا يومئذ فقد فاز ، ومن هوى يومئذ فقد خاب ، الخير كله في الجنة ، والشر كله في النار .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٤ ، والمعد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٥ — خطبته يوم الفطر

قال بعد التكبير والتحميد : إن يومكم هذا يوم عيد وَسَنَّةٌ ، وابتهال ورغبة ، يومٌ خَتَمَ اللَّهُ به صِيَامَ شهر رمضان ، وافتتح به حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ ، فجعله خَاتِمَةَ الشهر ، وأوَّلَ أيامِ شهور الحج ، وجعله مُعَقَّبًا لمفروض صومكم ، ومُتَنَفِّلًا قِيَامكم ، أَحَلَّ فيه الطعامَ لكم ، وحرَّم فيه الصيامَ عليكم ، فاطلبوا إلى الله حوائجكم ، واستغفروه لتفريطكم ، فإنه يقال : « لا كبير مع استغفار ، ولا صغير مع إصرار » ثم التكبير والتحميد ، وذكر النبي عليه الصلاة والسلام ، والوصية بالتقوى ، ثم قال : فانقوا الله عباد الله ، وبادروا الأمر الذي أَعْتَدَلْ فيه يَقِينُكُمْ ، ولم يَحْتَضِرْ ^(٢) الشكُّ فيه أحداً منكم ، وهو الموت المكتوبُ عليكم ، فإنه لَا نُسْتَقَالُ بعده عَثْرَةٌ ، وَلَا تُحْطَرُّ قبله تَوْبَةٌ ، واعلموا أنه لا شَيْءَ قبله إلا دُونُهُ ، ولا شَيْءَ بعده إلا فَوْقَهُ ، ولا يُعِينُ على جَزَعِهِ وَعَلَزِهِ ^(٣) وَكَرْبِهِ . ولا يعين على القبر وظلمته ، وَضِيقِهِ وَوَحْشَتِهِ ، وَهَوْلِ مَطَاعِهِ وَمَسْأَلَةِ مَلَائِكَتِهِ ، إلا العملُ الصالحُ الذي أَمَرَ اللَّهُ به ، فمن زَلَّتْ عند الموت قدمه ، فقد ظهرت ندامته ، وفاتته استقالته ، ودعا من الرَّجْعَةِ إلى مَالٍ يُجَابُ إليه ، وبذل من الفِدْيَةِ مَالًا يُقْبَلُ منه ، فاللَّهُ اللَّهُ عباد الله ، وكونوا قومًا سألوا الرَّجْعَةَ فَأَعْطَوْهَا ، إِذْ مُنِعَهَا الَّذِينَ طَلَبُوهَا ،

(١) أى عمل الخير وعمل للشر . (٢) يحضر .

(٣) العلز : ما يصيب المريض عند حشجة الموت من رعدة واضطراب .

فإنه ليس يتنمى المتقدمون قبلكم إلا هذا المهل المبسوط لكم ، واحذروا ما حذركم الله ،
 واتقوا اليوم الذى يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم ، ونشر صحيفكم الحافظة لأعمالكم ،
 فينظر عبداً ما يضع فى ميزانه مما ينقل به ، وما يميل^(١) فى صحيفته الحافظة لما عليه وله .
 فقد حكى الله لكم ما قال الفرطون عندها ، إذ طال إعراضهم عنها ، قال : « وَوُضِعَ
 الْكِتَابُ فَتَرَى الْجُرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا ، مَا لِهَذَا الْكِتَابِ
 لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ
 أَحَدًا » ، وقال : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ^(٢) لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ،
 وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » ، ولست أنها كم عن
 الدنيا بأعظم مما نهتكم الدنيا عن نفسها ، فإن كل ما بها ينهى عنها ، وكل ما فيها يدعو
 إلى غيرها ، وأعظم مما رآته أعينكم من عجائبها ذم كتاب الله لها ، ونهى الله عنها ،
 فإنه يقول : « فَلَا تَعْرِزَنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَفْرَنَّكُمْ بِاللهِ الْفَرُورُ » ، وقال :
 « إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ . . الآية » ، فانتفعوا بمعرفتكم بها ، وبإخبار الله عنها ،
 واعلموا أن قوماً من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذروا مصارعها ، وجانبوا خدائنها ،
 وآثروا طاعة الله فيها ، فأدركوا الجنة بما تركوا منها .

(ميون الأخبار ٢ : ص ٢٥٥ ؛ والمعقد الفريد ٢ : ١٤٨)

١١٦ — خطبة ابن طباطبا العلوى

وخطب محمد^(٣) بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم طباطباً بن الحسن بن الحسن بن
 على بن أبى طالب ، حين انتهب قائد جيوشه أبو السرايا السرى ابن منصور قصر
 العباس بن موسى بن عيسى ، فقال :

(١) يمل . (٢) القسط : العدل : مصدر وصف به المبالغة أو ذوات القسط .
 (٣) خرج بالكوفة لمشر خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٩ هـ يدعو إلى الرضى من آل محمد ، والعمل
 بالكتاب والسنة ، وكان القيم بأمره في تدبير الحرب ، وقيادة جيوشه أبا السرايا السرى بن منصور وكان سبب
 خروجه صرف المأمون طاهر بن الحسين عما كان إليه من أعمال البلدان التي افتتحها ، وتوجهه إلى ذلك الحسن =

« أما بعدُ : فإنه لا يزال يَبْلَغُنِي أن القائل منكم يقول : إن بنى العباس قُلُوبَنَا ، ونَحْوُضُ في دِمَائِهِمْ ، وَتَرْتَعُ في أَمْوَالِهِمْ ، وَيُقْبَلُ قولنا فيهم ، وَتُصَدَّقُ دعوانا عليهم ، حُكْمٌ بِلا عِلْمٍ ، وَعَزْمٌ بِلا رَوِيَّةٍ ! عَجَبًا لِمَنْ يُطْلَقَ بذلك لسانه ، ويحدث به نفسه ! أَبَكْتَابُ اللَّهِ تَعَالَى حَكَمَ ، أَمْ لِسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَبَعَ ؟ أَفِي مِثْلِي ^(١) مَعَهُ حَلَمٌ ، أَمْ بَسْطَ يَدِي لَهُ بِالْجُودِ أَمَلٌ ؟ هِيَهَاتَ ! فَارْزُوا الْحَقَّ بِمَا نَوَى ، وَأَخْطَأْ ذُو الْبَاطِلِ بِمَا تَمَنَّى ، حَقُّ كُلِّ ذِي حَقٍّ فِي يَدِهِ ، وَكُلُّ مُدَّعٍ عَلَى حِجَّتِهِ ، وَيَلْزَمُ لِمَنْ اغْتَضَبَ حَقًّا ، وَادَّعَى بِاطِلًا ، أَفْلَحَ مَنْ رَضِيَ بِحُكْمِ اللَّهِ ، وَخَافَ مِنْ أَرْغَمَ الْحَقُّ أَفْقَهُ ، الْعَدْلُ أَوْلَى بِالْأَثَرَةِ وَإِنْ رَغِمَ الْجَاهِلُونَ ، حَقٌّ لِمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ أَنْ يَجْتَنِبَ الْمُنْكَرَ ، وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَ الْعَدْلِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى مَرَارَةِ الْحَقِّ ، كُلُّ نَفْسٍ تَسْمُو إِلَى هِمَّتِهَا ، وَنِعْمَ الصَّاحِبُ الْقَنَاعَةُ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنْ أَكْرَمَ الْعِبَادَةُ الْوَرَعَ ، وَأَفْضَلَ الزَّادُ التَّقْوَى ، وَاعْمَلُوا فِي دُنْيَاكُمْ ، وَتَزَوَّدُوا لِآخِرَتِكُمْ ، اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْعَصِيَّةَ وَحِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّهُمَا يَمْحَقَانِ الدِّينَ ، وَيُورِثَانِ النِّفَاقَ ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، يَصْلُحْ لَكُمْ دِينُكُمْ ، وَتَحْسُنَ الْمَقَالَةَ فِيكُمْ . الْحَقُّ أَبْلَجُ ، وَالسَّبِيلُ مِنْهَجٌ ، وَالْبَاطِلُ لَجَلَجٌ ^(٢) ، وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ ، وَلِكُلِّ فِي الْحَقِّ سَعَةٌ ، مِنْ حَارَبَنَا حَارَبَنَا ،

= ابن سهل ، قلنا فعل ذلك تحدث الناس بالعراق أن الفضل بن سهل قد غلب على المأمون ، وأنه قد أزاله قصرًا حجب به عن أهل بيته ، ووجوه قواده من الخاصة والعامة ، وأنه يهرم الأمور على دواء ، ويستبد بالرائى دونه ، ففضبه لذلك بالعراق من كان بها من بني هاشم ، ووجوه الناس ، وأنفوا من غلبة الفضل على المأمون ، واجتروا على الحسن بن سهل بذلك ، وهاجت الفتى في الأمصار ، فكان أول من خرج بالكوفة ابن طباطبا المذكور ، فوجه إليه الحسن بن سهل زهير بن المنذِب في عشرة آلاف فواقهم فهزموه واستباحوا عسكره ، قلنا كان من غد اليوم الذى كانت فيه الوقعة (وذلك يوم الخميس ليلة غلت من رجب سنة ١٩٩) مات ابن طباطبا فجأة فذكر أن أبا السرايا سمع ، وذلك أن ابن طباطبا لما أحرز ما من عسكر زهير منه أبا السرايا ، وحظره عليه ، وكان الناس له مطيعين ، فعمل أبو السرايا أنه لا أمر له معه فسمه .

(١) في الأصل : « أفي مثل » وهو تحريف ، والصواب ما ذكرته .

(٢) أبلج : أى واضح بين . والمنهج الطريق الواضح ، والباطل الخلق : أى يترد فيه صاحبه فلا يصيب غرجا .

وَمَنْ سَأَلْنَا سَأَلْنَاهُ ، وَالنَّاسَ جَمِيعًا آمَنُونَ إِلَّا رَجُلًا نَصَبَ لَنَا نَفْسَهُ ، وَأَعَانَ عَلَيْنَا بِمَالِهِ ،
وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَقُولَ : وَرَجُلٌ قَالَ فِينَا يَتَنَاوَلُ مِنْ أَعْرَاضِنَا : لَقُلْتُ ، وَكُنِي ، حَسْبُ كُلِّ
أَمْرٍ مَا يَصْنَعُهُ ، وَسَيُكْفِي الظَّالِمُونَ » . (مواسم الأدب ٢ : ١١٢)

١١٧ - استعطاف إبراهيم بن المهدي المأمون

لما ظفر المأمون بعمه إبراهيم بن المهدي^(١) أمر بإدخاله عليه ، فجىء بإبراهيم
يَحْجُلُ^(٢) في قيوده ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال له
المأمون : لا سلم الله عليك ، ولا حفظك ، ولا رعاك ، ولا كَلَّاكَ^(٣) يا إبراهيم ، فقال
له إبراهيم : على رِسْلِكَ^(٤) يا أمير المؤمنين ، ولي^(٥) الثَّارِ مُحْكَمٌ في القصاص ، والعَفْوُ
أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، ومن مدَّ له الاغترار في الأمل ، هَجَمَتْ بِهِ الْأَنَاءُ عَلَى التَّلَفِ^(٦) وقد
أَصْبَحَ ذَنْبِي فَوْقَ كُلِّ ذَنْبٍ ، كما أن عفوك فوق كل^(٧) عفو ، فإن تعاقبَ فَبِحَقِّكَ ،
وَإِنْ تَعَفَّ فَبِفَضْلِكَ » ، ثم قال :

ذَنْبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ
نَخَذَ بِحَقِّكَ أَوْ لَا فَاصْفَحْ بِفَضْلِكَ عَنْهُ
إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فَعَالِي مِنَ الْكِرَامِ فَكُنْهُ

فأطرق المأمون ملياً ، ثم رفع رأسه فقال : إني سأورت أبا إسحق^(٨) والعباس

(١) كان المأمون قد عهد بالخلافة لعل الرضا بن موسى الكاظم ، فلما سمع العباسيون ببغداد (وكان المأمون
يمرو حاضرة خراسان) ماطعه المأمون من نقل الخلافة من البيت العباسي إلى البيت العلوي ، أنكروا منه ذلك ،
وخلعوه من الخلافة ، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدي سنة ٢٠١ هـ ، ولما علم المأمون بذلك جد في المسير إلى بغداد ،
وهرب عمه إبراهيم وتوارى .

(٢) حجل المقيد كضرب ونصر : رفع رجلا ، وتريث في مشيه هل رجله .

(٣) كلاء : حرسه . (٤) المهل والتؤدة . (٥) صاحبه .

(٦) وفي رواية : « ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الرخاء ، أمن عادية الدهر » .

(٧) وفي رواية : « وقد أصبحت فوق كل ذي ذنب ، كما أصبح كل ذي عفو دونك » وفي أخرى :
« وقد جعلت الله فوق كل ذي ذنب » ، كما جعل كل ذي ذنب دونك .

(٨) أبو إسحق هو المنتصم أخو المأمون ، والعباس هو ابن المأمون .

في قتلك فأشارا علىَّ به ، قال : فما قلتَ لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلتُ لهما : بدأنا له بإحسان ، ونحن نستأمره فيه ، فإنَّ غيرَ فالله يغير ما به ، قال : أمّا أن يكونا قد نصحاك في عِظَم قدر الملك ، وما جرّت عليه عادةُ السياسة فقد فعلا ، ولكن أيتَ أن تستجلب النصر إلا من حيثُ عودك الله ، ثم استعبر با كيّا ، فقال له المأمون : ما يُبكيك ؟ قال : جَدَلًا ، إذ كان ذنبي إلى من هذه صِفتهُ في الإنعام ، ثم قال : يا أمير المؤمنين إنه وإن كان جُرْمي يبلغ سَفْكَ دمي ، فلم أمير المؤمنين وتفضله يُبلغاني عفوّه ، ولى بعدها شفاعَةُ الإقرار بالذنب ، وَحُرْمَةُ الأبِ بعد الأب ، قال المأمون : « القدرةُ تذهب الحفيظة ^(١) ، والندم توبةٌ ، وعفوُ الله بينهما ، وهو أكبر ما يحاول ، يا إبراهيم : لقد حَبَبْتُ إلى العفو ، حتى خِفْتُ أن لا أُوجَرَ عليه ، أمّا لو عَلِمَ الناس ما لنا في العفو من اللذة ، لتقربوا إلينا بالجنايات ، لانتزيب ^(٢) عليك ، يغفر الله لك ، ولو لم يكن في حق نسبك ما يبلغ الصفح عن زَلَّتْكَ ، لبلغك ما أملتَ حسنُ توضُّلك ، ولطيف تنصُّلك » ، ثم أمر بردَّ ماله وضياعه ، فقال :

رَدَدْتُ مَالِي ، وَلَمْ تَبْخَلْ عَلَيَّ بِهِ وَقَبِلَ رَدَّكَ مَالِي قَدْ حَقَّقْتُ دَمِي
فَأُبْتُ مِنْكَ - وَمَا كَأَفَاتُهَا - بِيَدٍ هَا الْحَيَاتَانِ مِنْ وَفْرٍ مِنْ عَدَمٍ ^(٣)
وَقَامَ عِلْمُكَ بِي فَاحْتِجَّ عِنْدَكَ لِي مَقَامَ شَاهِدٍ عَدْلٍ غَيْرِ مُتَّهِمٍ
فَلَوْ بَدَأْتُ دَمِي أَبْغِي رِضَاكَ بِهِ وَالْمَالُ ، حَتَّى أَسْأَلَ النُّعْلَ مِنْ قَدَمِي
مَا كَانَ ذَاكَ سِوَى عَارِيَةٍ رَجَعْتُ إِلَيْكَ ، لَوْ لَمْ تَهَبْهَا كُنْتُ لَمْ تُكَلِّمْ

(الأغاني ٩ : ٥٧ ، والمقد الفريد ١ : ١٤٢ ، الأمالى ١ : ٢٠٢ ، وزهر الأديب ٣ : ١٩١)

(١) الحفيظة : الغضب ، وفي رواية الأغاني أن هذه الجملة من قول إبراهيم بن المهدي .

(٢) البعد : النعمة .

(٣) لا لوم .

١١٨ - إبراهيم بن المهدي وبختيشوع الطيب

تنازع إبراهيم بن المهدي هو وبختيشوع الطيب بين يدي أحمد بن دؤاد القاضي ، في مجلس الحكم ، في عقارٍ بناحية السّواد^(١) ، فرزى عليه^(٢) ابن المهدي ، وأغلظ له بين يدي أحمد بن دؤاد ، فأحفظه^(٣) ذلك ، فقال : يا إبراهيم إذا نازعت أحداً في مجلس الحكم ، فلا أعلن أنّك رفعت عليه صوتاً ، ولا أشرت بيد ، وليكن قصدك أمماً^(٤) ، وطريقك نهجاً^(٥) ، وريحك ساكنة ، وكلامك معتدلاً ، ووفّ مجلس الحكومة حقوقها ، من التوقير والتعظيم والاستكانة والتوجه إلى الواجب ، فإن ذلك أشبه بك وأشكل لذهبك في محتدك^(٦) ، وعظيم خطر^(٧) ، ولا تعجل ، قرب بمجلة تهب ريثاً^(٨) ، والله يفضيكم من الزلل ، وخطأ القول والعمل ، ويتم نعمته عليكم كما أتممّا على أبويك من قبل ، إن ربك حكيم عليم .

قال إبراهيم : « أصلحك الله أمرت بسداد ، وحضضت على رشاد ، ولست بعائد إلى ما ينل^(٩) مروءتي عندك ، ويسقطني من عينك ، ويخرجني من مقدار الواجب إلى الاعتذار ، فهأنأ معتز إليك من هذه البادرة ، اعتذار مقر بذنبه ، باخيع مجرمه^(١٠) ، فإن الغضب لا يزال يستفزني بمواده ، فيردني مثلك بحله ، وتلك عادة الله عندنا منك ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وقد وهبت حق من هذا العقار لبختيشوع ، فليت ذلك اليوم يعول^(١١) بأرش^(١٢) الجنائية ، ولم يتأف مال أفاد موعظة ، وبالله التوفيق .

(المقدم الفريد ١ : ٢٧ ، وزهر الآداب ١ : ٢٣٢)

(١) سواد العراق ، والعقار : كل ملك ثابت له أصل كالدّار والنخل ، والجمع عقارات .

(٢) عابه . (٣) أغضبه . (٤) الأثم : القصد الوسط . (٥) واضحاً .

(٦) أصلك . (٧) قدرك . (٨) إبطاء . (٩) يعيب وينقص . (١٠) مقر .

(١١) يزهد ويرجع . (١٢) الأرض : الهدية .

١١٩ — استعطاف إسحاق بن العباس المأمون

وقال المأمون لإسحاق بن العباس : « لَاتَحْسَبْنِي أَغْلَتْ إِجْلَابَكَ مَعَ ابْنِ الْمُهْدَى ، وَتَأْمِيدَكَ لِرَأْيِهِ ، وَإِقَادَكَ لِنَارِهِ ، قَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَرَجِي أَمْسُ مِنْ أَرْحَامِهِمْ وَقَدْ قَالَ لَهُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ : « لَأَنْتَرِبَ ^(١) عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ بِغَفْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » ، وَأَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَحَقُّ وَارِثٍ لِهَذِهِ الْمِنَّةِ ، وَمُمْتَلِئٌ ^(٢) خِلَالِ الْعَفْوِ وَالْفَضْلِ . »

قال : هيهات ! تلك أجرام جاهلية عفا عنها الإسلام ، وجُرمك جرم في إسلامك ، وفي دار خلافتك . قال : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَوَاللَّهِ لَلْمُسْلِمِ أَحَقُّ بِإِقَالَةِ الْعَثْرَةِ ، وَغُفْرَانِ الزَّلَّةِ مِنَ الْكَافِرِ ، هَذَا كِتَابُ اللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِلِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » فَهِيَ لِلنَّاسِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سُنَّةٌ دَخَلَ فِيهَا الْمُسْلِمُ وَالْكَافِرُ ، وَالشَّرِيفُ وَالْمَشْرُوفُ » قال : صدقت ، اجلس ، وَرَيْتُ بِكَ زِنَادِي ، وَلَا بَرَحْتُ أَرَى مِنْ أَهْلِكَ أَمْثَالَكَ .

(العقد الفريد ١ : ١٤٢ ، وزهر الآداب ٢ : ١٩٣)

١٢٠ — أحد وجوه بغداد يمدح المأمون حين دخلها

لما دخل المأمون بغداد ، تلقاه وجوه أهلها ، فقال لهم رجل منهم : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي مَقْدَمِكَ ، وَزَادَ فِي نِعْمَتِكَ ، وَشَكَرَكَ عَنْ رِعِيَّتِكَ ، تَقَدَّمَتْ مِنْ قَبْلِكَ ، وَأَتَعَبْتَ مَنْ بَعْدَكَ ^(٣) ، وَآيَسْتَ أَنْ يُعَايَنَ مِثْلُكَ ، أَمَّا فِيمَا مَضَى فَلَا نَعْرِفُهُ ،

(١) لا لوم . (٢) امتلأ طريقته : تبها فلم يعبها .

(٣) إذ أنه يجهد أن يلحق بك فلا يستطيع .

وأما فيما بقي فلا نَرَجُوه ، فنحن جميعاً ندعو لك ، ونُثْنِي عليك ، خَصِبْ لَنَا جَنَابُكَ ،
وعَذْبُ ثَوَابِكَ ، وحَسُنْتَ نَظْرَتُكَ ، وكَرُمْتَ مَقْدَرَتُكَ ، جَبَرْتَ الْفَقِيرَ ، وفَكَكْتَ
الْأَسِيرَ ، فَإِنَّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

ما زِلْتَ فِي الْبَذْلِ وَالنَّوَالِ وَإِطْلَاقِ إِعَانٍ بِجُرْمِهِ غَلِقَ^(١)
حَتَّى تَمْتَنَى الْإِبْرَاءَ أَنَّهُمْ عِنْدَكَ أُسْرَى فِي الْقَيْدِ وَالْخَلْقِ^(٢)

(المعتمد الفريد ١ : ١٣٧)

١٣١ — أَحَدُ أَهْلِ الْكُوفَةِ يَمْدَحُ الْمَأْمُونِ

وقدم وفد من الكوفة إلى بغداد ، فوقفوا للمأمون فأعرض عنهم ، فقال شيخ
منهم : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : يَدُكَ أَحَقُّ يَدٍ بِتَقْيِيلِ ، لَعْلَوْهَا فِي الْمَكَارِمِ ، وَبُعْدَهَا مِنْ
الْمَآثِمِ ، وَأَنْتَ يَوْسُفِيُّ الْعَفْوِ فِي قَلَّةِ التَّثْرِبِ ، مَنْ أَرَادَكَ بِسُوءٍ جَعَلَهُ اللَّهُ حَصِيدَ سَيْفِكَ ،
وَطَرِيدَ خَوْفِكَ ، وَذَلِيلَ دَوْلَتِكَ » ، فقال ياعمرو : نعم الخطيب خطيبهم ، أقض حوائجهم .
(مروج الذهب ٢ : ٣١٩)

١٣٢ — مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ صَالِحِ بْنِ يَدَى الْمَأْمُونِ

ودخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قبض ضياعهم ، فقال :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بَيْنَ يَدَيْكَ ، رَيْبُ دَوْلَتِكَ ، وَسَلِيلُ نِعْمَتِكَ ،
وَعُصْنٌ مِنْ أَغْصَانِ دَوْلَتِكَ^(٣) ، أَتَأْذَنُ فِي الْكَلَامِ ؟ قَالَ نَعَمْ ، قَالَ : « أَسْتَمْنَحُ اللَّهَ
حَيَاةَ دِينِنَا وَدُنْيَانَا ، وَرِعَايَةَ أَدْنَانَا وَأَقْصَانَا بَبَقَائِكَ ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَزِيدَ فِي عَمْرِكَ مِنْ
أَعْمَارِنَا ، وَفِي أَثَرِكَ مِنْ آثَارِنَا ، وَيَقْبِكَ الْأَذَى بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا ، هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ
بِفَضْلِكَ ، الْهَارِبِ إِلَى كِنْفِكَ وَظِلِّكَ ، الْفَقِيرِ إِلَى رَحْمَتِكَ وَعَدْلِكَ » ، ثُمَّ تَكَلَّمَ فِي حَاجَتِهِ ،
فَقَضَاهَا . (المعتمد الفريد ١ : ١٤٦)

(١) العاني : الأسير ، والغلوق : أصله من غلق للرمز إذا استحققه المرتبة ، وذلك إذا لم يفتكك في الوقت
المفروض . (٢) الإبراء كسكرام جمع برى .
(٣) الدرة : الشجرة العظيمة .

١٢٣ — الحسن بن سهل يمدح المأمون

وقال الحسن بن سهل ^(١) يوماً للمأمون :

« الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما آتاك ، وسنني ما أعطاك ، إذ قسم لك الخلافة ، ووهب لك معها الحجة ، ومكنك بالسلطان ، وحلّاه لك بالعدل ، وأيدك بالظفر ، وشفعه لك بالفر ، وأوجب لك السعادة ، وقرنها بالسيادة ، فمن فسح ^(٢) له في مثل عطية الله لك ؟ أم من ألبسه الله تعالى من زينة المواهب ما ألبسك ؟ أم من ترادفت نعمة الله تعالى عليه ترادفها عليك ؟ أم هل حاولها أحدٌ وارتبّطها بمثل محاولتك ؟ أم أي حاجة بقيت لرعيّتك لم يجدوها عندك ؟ أم أي قيم للإسلام انتهى إلى عنايتك ودَرَجتك ؟ تعالى الله تعالى ، ما أعظم ما حصّ القرون الذي أنت ناصرة ، وسبحان الله ! أيُّ نعمة طبقت ^(٣) الأرض بك إن أدّى شكرها إلى بارئها والنعم على العباد بها ؟ إن الله تعالى خلق السماء في فلّكها ضياءً يستنير بها جميع الخلائق ، فكل جوهر زها حسنه ونوره ، فهل ليست زينته إلا بما اتصل به من نورك ؟ وكذلك كل وليٍّ من أوليائك ، سعد بأفعاله في دولتك ، وحسنت صنائعه عند رعيّتك ، فإنما نالها بما أيّدت به من رأيك وتديريك ، وأسعدته من حسنك وتقويمك . »

(زهر الآداب ٣ : ٢٠٠)

١٢٤ — يحيى بن أكرم يمدح المأمون

وقال المأمون ليحيى بن أكرم ^(١) : صف لي حالي عند الناس ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، قد انقادت لك الأمور بأزمّتها ، وملكتك الأمة فضولاً

(١) وزر المأمون بعد أخيه الفضل بن سهل ، وتزوج المأمون ابنته بوران ؛ وتوفي سنة ٢٣٦ هـ .

(٢) أي وسع . (٣) ملأت وامت ، والاستفهام التعظيم .

(٤) من ولد أكرم بن صفيّ القمي ، وكان فقيها عالماً بالفقه بصيراً بالأحكام ؛ وقد غلب على المأمون ؛

حتى لم يعقد معه أحد من الناس جيماً ؛ وقلده قضاء القضاة ، وتدير أهل مملكته ؛ فكانت الوزراء لا تعمل

في تدبير الملك شيئاً إلا بعد مطالعة يحيى بن أكرم ؛ وتوفي سنة ٢٤٦ هـ ؛ وعمره ٨٢ سنة .

أَعْنَتَهَا ، بِالرَّغْبَةِ إِلَيْكَ ، وَالْهَبَةِ لَكَ ، وَالرَّفْقِ مِنْكَ ، وَالْعِيَاذِ بِكَ ، بِمَذَلِّكَ فِيهِمْ ، وَمَنْكَ عَلَيْهِمْ ، حَتَّى لَقَدْ أَنْسَيْتَهُمْ سَلَفَكَ ، وَأَيَسَّتْهُمْ مِنْ خَلْفِكَ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَمَعَنَا بِكَ بِمَدِّ التَّقَاتِ ، وَوَفَعَنَا فِي دَوْلَتِكَ بِمَدِّ التَّوَاضُعِ .

قَالَ : يَا بَحِي ، أَتَحْبِيراً أَمْ ارْتِجَالاً ؟ قَالَ : قُلْتُ : وَهَلْ يَمْتَنِعُ فِيكَ وَصْفٌ ، أَوْ يَتَعَذَّرُ عَلَى مَا دَحَكَ قَوْلٌ ، أَوْ يُفَحِّمُ فِيكَ شَاعِرٌ ، أَوْ يَتَلَجَّلِجُ فِيكَ خَطِيبٌ ؟
(الصناعتين ص ٤٠)

١٢٥ — أَحَدُ بَنِي هَاشِمٍ وَالْمَأْمُونُ

أَذْنَبَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ذَنْباً ، فَعَنَفَهُ الْمَأْمُونُ ، فَقَالَ :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ كَانَتْ لَهُ مِثْلُ دَالَتِي ، وَلَبِيسَ ثَوْبِ حُرْمَتِي ، وَمَتَّ بِمِثْلِ قِرَابَتِي ، غُفِرَ لَهُ فَوْقَ زَلَّتِي » فَأَعْجَبَ الْمَأْمُونُ كَلَامَهُ وَصَفَحَ عَنْهُ .
(الأمال ٢ : ١٣٦ ؛ وزهر الآداب ٣ : ٨٩)

١٢٦ — رَجُلٌ يَتَظَلَّمُ إِلَى الْمَأْمُونِ

وَتَظَلَّمَ رَجُلٌ إِلَى الْمَأْمُونِ مِنْ عَامِلٍ لَهُ فَقَالَ :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا تَرَكْتُ لِي فِضَةً إِلَّا فَضَّهَا ، وَلَا ذَهَباً إِلَّا ذَهَبَ بِهِ ، وَلَا غَلَّةً إِلَّا غَلَّهَا ^(١) ، وَلَا ضَيْعَةً إِلَّا أَضَاعَهَا ، وَلَا عِلْقاً ^(٢) إِلَّا عَلَقَهُ ، وَلَا عَرَضاً إِلَّا عَرَضَ لَهُ ، وَلَا مَاشِيَةً إِلَّا أَمْتَشَّهَا ^(٣) ، وَلَا جَلِيلاً إِلَّا أَجْلَاهُ ، وَلَا دَقِيقاً إِلَّا دَقَّهُ » ، فَعَجِبَ مِنْ فَصَاحَتِهِ وَقَضَى حَاجَتَهُ .
(زهر الآداب ٢ : ١٣٧)

(١) المراد احتيازها ؛ والأصل فيه غله ؛ أى وضع في عنقه أو يده الغل (بالضم) وهو القيد .

(٢) العلق : اللفيس من كل شيء ؛ وعلق به كفرح أحبه أو هو وعلقه مشدداً ؛ بيباً المجهول ؛ علق امرأة :

أى أحبها . (٣) امتش ما في الضرع : أخذ جميعه .

١٢٧ — عمرو بن سعيد والمأمون

وقال عمرو بن سعيد بن سلم : كانت عليّ نوبةٌ أنوبها في حَرَسِ المأمون ، فكنت في نوبتي ليلةً ، فخرج متفقداً مَنْ حضر ، فعرفته ولم يعرفني ، فقال : من أنت ؟ قلت : عمرو ، عمرك الله ، ابن سعيد ، أسعدك الله ، ابن سلم ، سلمك الله ، فقال : أنت تَكَلُّوْماً منذ الليلة ؟ قات : الله يكلوك قبلي ، وَهُوَ خَيْرُ حَافِظٍ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فقال المأمون :

إِنْ أَخَاكَ الصَّدَقَ مَنْ يَسْعَى مَعَكَ وَمَنْ يَضُرُّ نَفْسَهُ لِيَنْفَعَكَ
وَمَنْ إِذَا صَرَفُ الزَّمَانِ صَدَعَكَ بَدَّدَ شَمْلَ نَفْسِهِ لِيَجْمَعَكَ
(زهر الآداب ٢ : ١٣٧)

١٢٨ — الحسن بن رجاء والمأمون

دخل المأمون بعض الدواوين ، فرأى غلاماً جميلاً على أذنه قلم ، فقال : مَنْ أنت يا غلام ؟ فقال :

« أنا يا أمير المؤمنين ، الناشئ في دولتك ، المتقلب في نعمتك ، المؤمل لخدمتك ، خادِمُك وابن خادِمك : الحسن بن رجاء » ، فقال : أحسنت يا غلام ، وبالإحسان في البديهة تفاضلت العقول ، وأمر برفع مرتبته .
(زهر الآداب ٢ : ١٧٣)

١٢٩ — سعيد بن مسلم والمأمون

وقال سعيد بن مسلم بن قُتَيْبَةَ للمأمون :

« لو لم أشكر الله تعالى إلا على حُسْنِ ما أبلاني من أمير المؤمنين ، مِنْ قَصْدِهِ إِلَى بَحْدِيثِهِ ، وَإِشَارَتِهِ إِلَى بَطْرِفِهِ ، لَقَدْ كَانَ فِي ذَلِكَ أَعْظَمُ الرِّفْعَةِ ، وَأَرْفَعُ مَا تَوَجَّهَ الْحُرْمَةُ » .

قال : « يفعل أمير المؤمنين ذلك ، لأن أمير المؤمنين يجد عندك من حسن الإفهام إذا حدثت ، وحسن الفهم إذا حدثت ، ما لم يجده عند أحد من مضي ، ولا يظن أنه يجد عند أحد ممن بقي ، فإنك لتستقصي حديثي ، وتقف عند مقاطع كلامي ، وتخير بما كنت أغفلته منه » .
(زهر الآداب ١ : ١٧٢)

١٣٠ - أبو زهمان يعظ سعيد بن مسلم

وقال سعيد بن مسلم : كنت والياً بأرمينية ، فغبر^(١) أبو زهمان العلاني على بابي أياماً ، فلما وصل إلى مثل بين يدي قائماً بين السماطين^(٢) وقال :
« والله إنني لأعرف أقواماً لو علموا أن سفء التراب يُقيم من أود^(٣) أصلابهم ، لجعلوه مُسْكَةً^(٤) لازماً فيهم ، إثارة للتزهد عن عيش رقيق الحواشي ، أما والله إنني لبعيد الوثبة ، بطيء العطفة ، إنه والله ما يثني عليك إلا مثل ما يصر في عنك ولأن أكون مُقلاً مقلداً ، أحب إلي من أن أكون مُكثراً مُبتعداً ، والله ما نسأل عملاً لانبسطه ، ولا مالاً إلا نحن أكثر منه ، وهذا الأمر الذي صار إليك في يدك ، كان في يد غيرك ، فأمسوا والله حديثاً ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فتحبب إلى عباد الله بحسن البشر ، ولين الجانب ، فإن حب عباد الله موصول بحب الله ، وبغضهم موصول ببغض الله ، لأنهم شهداء الله على خلقه ، ورؤباؤه على من اعوج عن سبيله » .
(البيان والحيين ٢ : ١٠٥)

١٣١ - وصية طاهر بن الحسين

لابنه عبد الله لما ولّاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما^(٥) سنة ٢٠٦ هـ .
« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له ،

(١) مكث . (٢) السماطان من الناس : الجانيان ؛ يقال : مشى بين السماطين .

(٣) اصوجاج . (٤) المسكة : ما يمسك الأبدان من الغذاء والشراب أو ما يبلغ به منهما .

(٥) أثبتنا هذا الكتاب هنا لأنه في حداد الوصايا .

وخشيته ومراقبته ومزايله سُخْطِهِ وحفظِ رعيته ، والزَمَ ما ألبسك الله من العافية
بِالذِّكْرِ لِعَادِكَ ، وما أنت صائرُ إليه ، وموقوف عليه ، ومستنول عنه ، والعمل في ذلك
كله بما يعصمك الله ، وينجيك يوم القيامة من عذابه ، وأليم عقابه ، فإن الله قد أحسن
إليك ، وأوجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وأزَمَكَ العدلَ عليهم ،
والقيامَ بحقه وحدوده فيهم ، والذب^(١) عنهم ، والدفعَ عن حريمهم وَبَيَضَتَهُمْ^(٢) ،
والحقنَ لدمائهم ، والأمنَ لسيلهم^(٣) ، وإدخال الراحة عليهم في معاشهم ، ومؤاخِذَكَ
بما فَرَضَ عليك من ذلك ، وموقِفَكَ عليه ، ومسائلَكَ عنه ، ومُثِيبَكَ عليه بما قدمت
وأخرت ، ففرِّغْ لذلك فِكرَكَ وعقلَكَ وبصرَكَ ورؤيتَكَ ، ولا يَذْهَبْكَ^(٤) عنه ذاهل ،
ولا يَشْفَكَ^(٥) عنه شاغل ، فإنه رأسُ أمرِكَ ، ومِلاكُ شأنِكَ ، وأول ما يوفِّقَكَ الله به
لرشدِكَ ، وليكن أول ما تُنْزِمُ به نفسك ، وتنسب إليه فعالَكَ ، المواظبةُ على ما افترض
الله عليك من الصلوات الخمس ، والجماعة إليها بالناس قبْلَكَ في مواقيتها على سُنَنِهَا ،
في إسباغ^(٦) الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله فيها ، وترتِّل^(٧) في قراءتِكَ ، وتمكِّنْ
في ركوعِكَ وسجودِكَ وتشهيدِكَ ، وتُصَدِّقْ فيها لربِّكَ نيتَكَ ، واحضُضْ عليها جماعة
من معك وتحت يدِكَ ، وأدأبْ عليها فإنها كما قال الله : تأمر بالمعروف وتنهى عن
الفحشاء والمنكر ، ثم أتبع ذلك الأخذَ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمثابرةَ
على خلائقه ، واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه
بِاسْتِخَارَةِ^(٨) الله وتقواه ، ولزوم ما أنزل الله في كتابه من أمره ونهيهِ ، وحلاله وحرامه
واهتمام ما جاءت به الآثارُ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قم فيه بما يحقُّ لله عليك ،

(١) الدفع . (٢) البيضاء : حوزة كل شيء .

(٣) وفي مقدمة ابن خلدون : لسرهم ؛ والسرب : النفس .

(٤) ذهلت عن الشيء (كفتح) غفلت وقه بصله بنفسه . فيقال ذهلت ؛ والأكثر أن يعطى بالهمزة ؛
فيقال : أذهلت فلان عن الشيء . (٥) شغله من باب فتح وأشغله لغة جيدة أرقيلة أو رديئة .

(٦) أسبغ الوضوء : وفي كل عضو حقه . (٧) تمهل ولا تعجل .

(٨) استخار الله : طلب منه الخيرة .

وَلَا تَمِلْ عَنِ الْعَدْلِ فِيمَا أَحْبَبْتَ أَوْ كَرِهْتَ ، لِقَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ يَعِيدُ ، وَآثِرِ الْفَقْرَ وَأَهْلَهُ ، وَالدِّينَ وَحِمْلَتَهُ ، وَكِتَابَ اللَّهِ وَالْعَامِلِينَ بِهِ ، فَإِنْ أَفْضَلَ مَا تَزَيَّنَّ بِهِ الْمَرْءُ الْفَقْرَ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَالطَّلَبَ لَهُ ، وَالْحَثَّ عَلَيْهِ ، وَالْمَعْرِفَةَ بِمَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ ، فَإِنَّهُ الدَّلِيلُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ ، وَالْقَائِدَ لَهُ ، وَالْأَمْرَ بِهِ ، وَالنَّاهِيَ عَنِ الْمَعَاصِي وَالْمَوْبِقَاتِ كُلِّهَا ، وَبِهَا مَعَ تَوْفِيقِ اللَّهِ تَزْدَادُ الْعِبَادُ مَعْرِفَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَإِنْجِلَالًا لَهُ ، وَدَرَجَاتٍ لِلدَّرَجَاتِ الْعُلَا فِي الْعَمَادِ ، مَعَ مَا فِي ظَهْوَرِهِ لِلنَّاسِ مِنَ التَّوْقِيرِ لِأَمْرِكَ ، وَالْهَيْبَةِ لِسُلْطَانِكَ ، وَالْأَنْسَةِ بِكَ ، وَالثِّقَةِ بِعَدْلِكَ ، وَعَلَيْكَ بِالْاِقْتِصَادِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَبْيَنَ نَفْعًا ، وَلَا أَحْضَرَ أَمْنًا ، وَلَا أَجْمَعَ فَضْلًا مِنَ الْقَصْدِ ، وَالْقَصْدُ دَاعِيَةٌ إِلَى الرِّشْدِ ، وَالرِّشْدُ دَلِيلٌ عَلَى التَّوْفِيقِ ، وَالتَّوْفِيقُ قَائِدٌ إِلَى السَّعَادَةِ ، وَقَوَامُ الدِّينِ وَالسَّنَنِ الْمَهَادِيَةِ بِالْاِقْتِصَادِ ، فَأَثَرُهُ فِي دُنْيَاكَ كُلِّهَا ، وَلَا تَقْصُرْ فِي طَابِ الْآخِرَةِ وَالْأَجْرِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَالسَّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَمَعَالِمِ الرِّشْدِ ، فَلَا غَايَةَ لِلْاِسْتِكْثَارِ مِنَ الْبِرِّ وَالسَّعْيِ لَهُ ، إِذَا كَانَ يُطَلَّبُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ وَمَرْضَاتُهُ وَمِرَافَقَةُ أَوْلِيَائِهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْقَصْدَ فِي شَأْنِ الدُّنْيَا يُورِثُ الْعِزَّ وَيَحْصُنُ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَإِنَّكَ لَنْ تَحُوطَ ^(١) نَفْسَكَ وَمَنْ يَلِيكَ ، وَلَا تَسْتَصْلِحَ أُمُورَكَ بِأَفْضَلِ مِنْهُ ، فَإِنَّهُ وَاهْتَدِ بِهِ تَمَّ أُمُورُكَ ، وَتَزِدَ مَقْدَرَتَكَ ، وَتَصْلِحَ خَاصَّتُكَ وَعَامَّتُكَ ، وَأَحْسَنَ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَسْتَقِمَ لَكَ رَعِيَّتُكَ ، وَالتَّمَسَّ الْوَسِيلَةَ إِلَيْهِ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا ، تَسْتَدِمُ بِهِ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ ، وَلَا تَتَهَمَّنَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ فِيمَا تَوَلَّيَهُ مِنْ عَمَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَكْشِفَ أَمْرَهُ ، فَإِنْ إِيقَاعُ التَّهَمِّ بِالْبِرِّ آءٌ ، وَالظَّنُّونَ السَّيِّئَةَ بِهِمْ مَأْتَمٌ ، وَاجْعَلْ مِنْ شَأْنِكَ حُسْنَ الظَّنِّ بِأَصْحَابِكَ ، وَاطْرُدْ عَنْكَ سُوءَ الظَّنِّ بِهِمْ ، وَارْفُضْهُ فِيهِمْ ، يُعِينُكَ ذَلِكَ عَلَى اصْطِنَاعِهِمْ ^(٢) وَرِيَاظَتِهِمْ ، وَلَا يَجِدَنَّ عَدُوَّ اللَّهِ الشَّيْطَانُ فِي أَمْرِكَ مَفْخَرًا ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَكْتَفِي بِالْقَلِيلِ مِنْ وَهْنِكَ ^(٣) ، فَيُدْخِلُ عَلَيْكَ مِنَ الْغَمِّ فِي سُوءِ الظَّنِّ مَا يَنْفُصُكَ لَدَاذَةِ عَيْشِكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ

(١) تصون . (٢) اصطنتك لنفسى : اغترتلك لخاصة أمر استكفيك إياه .

(٣) الوهن يسكون الماء ، وقصفا ، القصف .

تجدد حُسن الظن قوةً وراحةً ، وتُكفَى به ما أُخِبتَ كفايته من أموركَ ، وتدعو به الناس إلى محبتكَ ، والاستقامة في الأمور كلها لك ، ولا يمتنعُ حُسن الظن بأصحابك والرافة برعيتك ، أن تستعمل المسألة والبحث عن أموركَ ، والمباشرة لأُمور الأولياء ، والحياطة للرعية ، والنظر فيما يُقيمها ويُصلحها ، بل لتكن المباشرة لأُمور الأولياء ، والحياطة للرعية ، والنظر في حوائجهم وحلّ مئوناتهم ، آثرَ عنديكَ مما سوى ذلك ، فإنه أقومُ للدين ، وأحيا للسنة ، وأخلصُ نيتك في جميع هذا ، وتفردَ بتقويم نفسك تفردَ من يعلم أنه مسئول عما صنع ، ومجزى بما أحسن ، ومأخوذ بما أساء ، فإن الله جعل الدين حِرْزاً وعِزاً ، ورفع من اتبعه وعزَّزه ، فاسلك بمن تسوسه وترعاه نهجَ الدين وطريقة الهدى ، وأقيم حدود الله في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ، ولا تعطّل ذلك ولا تهأون به ، ولا تؤخّر عقوبة أهل العقوبة ، فإن في تفريطك في ذلك كما يُفسد عليك حسنَ ظنك ، واعزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب الشبهة والبِدعات ، يَسلم لك دينك ، وتقم لك مروءتك ، وإذا عاهدت عهداً ففِ به ، وإذا وعدت الخير فأنجزه ، واقبل الحسنة وادفع بها ، وأغمض عن عيب كل ذي عيب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وأبغضْ أهله ، وأقصِ أهل النيمة ، فإن أول فساد أمرك في عاجل الأمور وآجلها تقريب الكذوب والجُرأة على الكذب ، لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنيمة خاتمها ، لأن النيمة لا يسلم صاحبها ، وقائلها لا يسلم له صاحب ، ولا يستقيم لمطيعها أمر ، وأحبُّ أهل الصدق والصَّلاح وأعزُّ الأشراف بالحق ، وواصل الضعفاء وصل الرحم ، وابتغ بذلك وجه الله وعزة أمره ، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة ، واجتنب سوء الأهواء والجور ، واصرف عنهما رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك ، وأنعم بالعدل في سياستهم ، وقم بالحق فيهم ، وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى ، واملِك نفسك عند الغضب ، وآثر

الوفار والحلم ، وإياك والحدة والطيشَ والفروز فيما أنت بسبيله ، وإياك أن تقول :
إني مُسَلِّطٌ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ سَرِيعٌ بِكَ إِلَى نَقْصِ الرَّأْيِ ، وَقَلَّةِ الْيَقِينِ بِاللَّهِ وَحَدِّهِ
لِاشْرِيكَ لَهُ ، وَأَخَاصِ اللَّهِ النِّيَّةِ فِيهِ وَالْيَقِينِ بِهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ ، يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ ،
وَيَنْزِعُهُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلَنْ تَجِدَ تَغْيِيرَ النِّعْمَةِ وَحُلُولَ النِّقْمَةِ إِلَى أَحَدٍ ، أَسْرَعَ مِنْهُ إِلَى حَمَلَةِ
النِّعْمَةِ مِنْ أَصْحَابِ السُّلْطَانِ ، وَالْبَسُوطِ لَهُمْ فِي الدَّوْلَةِ ، إِذَا كَفَرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ وَإِحْسَانِهِ ،
وَاسْتَطَالُوا بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَدَعَّ عَنْكَ شَرَّهَ نَفْسِكَ ، وَلِتَكُنْ ذَخَائِرُكَ وَكَنُوزُكَ
الَّتِي تَذْخُرُ وَتَكْنِزُ الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَالْمَعْدِلَةَ ، وَاسْتِصْلَاحَ الرِّعْيَةِ وَعِمَارَةَ بِلَادِهِمْ ، وَالتَّنْقِذَ
لِأُمُورِهِمْ وَالْحِفْظَ لِذِمَّتِهِمْ^(١) وَالْإِغَاثَةَ لِلْمُهِوْضِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَمْوَالَ إِذَا كَثُرَتْ وَذُخِرَتْ
فِي الْخَزَائِنِ لَا تُثْمِرُ ، وَإِذَا كَانَتْ فِي إِصْلَاحِ الرِّعْيَةِ وَإِعْطَاءِ حَقُوقِهِمْ ، وَكَفِّ الثُّنُونَةِ
عَنْهُمْ ، نَمَتْ وَرَبَّتْ وَصَلَحَتْ بِهِ الْعَامَّةُ ، وَتَزِينَتْ بِهِ الْوَلَاةُ ، وَطَابَ بِهِ الزَّمَانُ ، وَاعْتَقَدَ
فِيهِ الْعَزْ وَالْمَنْعَةُ ، فَلْيَكُنْ كَنْزُ خَزَائِنِكَ تَفْرِيقَ الْأَمْوَالَ فِي عِمَارَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، وَوَقْرٌ
مِنْهُ عَلَى أَوْلِيَاءِ أُمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَبْلَكَ حَقُوقِهِمْ ، وَأَوْفِ رِعْيَتِكَ مِنْ ذَلِكَ حِصَصَهُمْ ،
وَتَمَهَّدْ مَا يُصْلِحُ أُمُورَهُمْ وَمَعَايِشَهُمْ ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَرَّتْ النِّعْمَةُ عَلَيْكَ ،
وَاسْتَوْجِبْتَ الْمَزِيدَ مِنَ اللَّهِ ، وَكُنْتَ بِذَلِكَ عَلَى جَبَايَةِ خَرَاكِ ، وَجَمَعَ أَمْوَالَ رِعْيَتِكَ
وَعَمَلَكَ أَقْدَرَ ، وَكَانَ الْجَمْعُ لِمَا شَمِلَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ وَإِحْسَانِكَ أَسَاسَ لَطَاعَتِهِمْ ، وَأَطْيَبَ
نَفْسًا لِكُلِّ مَا أُرِدْتَ ، فَاجْهَدْ نَفْسَكَ فِيمَا حَدَدْتَ لَكَ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَلِتَعَظَّمَ حِسْبَتُكَ فِيهِ
فَإِنَّمَا يَبْقَى مِنَ الْمَالِ مَا أَنْفَقَ فِي سَبِيلِ حَقِّهِ ، وَاعْرِفْ لِلشَّاكِرِينَ شُكْرَهُمْ وَأَثْبِتْهُمْ عَلَيْهِ ،
وَإِيَّاكَ أَنْ تُنْسِيَنَّكَ الدُّنْيَا وَغُرُورَهَا هَوَلَ الْآخِرَةِ ، فَتَهَاوَنَ بِمَا يَحِقُّ عَلَيْكَ ، فَإِنَّ التَّهَاوَنَ
يُوجِبُ التَّفْرِيطَ ، وَالتَّفْرِيطُ يُوْرِثُ الْبُورَ ، وَلَيْكُنْ عَمَلُكَ لِلَّهِ وَفِيهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَارْجُ
الثَّوَابَ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَأَظْهَرَ لَدَيْكَ فَضْلَهُ ، فَاعْتَصِمِ بِالشُّكْرِ
وَعَلَيْهِ فَاعْتَمِدْ ، يَزِدُّكَ اللَّهُ خَيْرًا وَإِحْسَانًا ، فَإِنَّ اللَّهَ يُثِيبُ بِقَدْرِ شُكْرِ الشَّاكِرِينَ ،

وسيرة المحسنين ، وَقَضَى الْحَقَّ فيما حَمَلَ من النعم ، وألبس من العافية والكرامة ،
ولا تَحْمِرَنَّ ذَنْبًا ، ولا تَمْلُئَنَّ حاسداً ، ولا ترحمن فاجراً ، ولا نصِلن كفوراً ، ولا
تداهِنن عدوًّا ، ولا تصدقن نَمَامًا ، ولا تأمنن غداراً ، ولا توالين فاسقاً ، ولا تتبعن
غلوياً ، ولا تحمدن مُرائياً ، ولا تحقرن إنساناً ، ولا تردن سائلاً فقيراً ، ولا تحبين^(١)
باطلاً ، ولا تلاحظن مضحكا ، ولا تُخلفن وعداً ، ولا تزهونَ غفراً ، ولا تُظهِرنَ غضباً ،
ولا تأتين بَذَخاً^(٢) ، ولا تمشين مَرَحاً ، ولا تركبن سَفَهاً^(٣) ، ولا تفرطن في طلب
الآخرة ، ولا ترفع للنام عيناً ، ولا تُغْمِضن عن الظالم رهبة منه أو مخافة ، ولا تطلبن
ثواب الآخرة بالدنيا ، وأكثر مشاورة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلم ، وخذ عن
أهل التجارب ، وذوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تُدْخِلن في مشورتك أهل الدقة^(٤) ،
والبخل ، ولا تسمعن لهم قولاً ، فإن ضررهم أكثر من منفعتهم ، وليس شيء أسرع
فساداً لما استقبلت في أمر رعيتك من الشُّح ، واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت
كثير الأخذ قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلاً ، فإن
رعيتك إنما تعتقد على محبتك ، بالكف عن أموالهم وترك الجور عنهم ، ويدوم صفاء
أوليائك لك ، بالإفضال عليهم وحسن العطية لهم ، فاجتنب الشح . واعلم أنه أول
ماعصى به الإنسان ربه ، وأن العاصي بمنزلة خزي ، وهو قول الله عز وجل :
« وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، فسَّهل طريق الجود بالحق ، واجمل
للمسلمين كلهم من نيتك حظاً ونصيباً ، وأيقن أن الجود من أفضل أعمال العباد ، فأعدِّده
لنفسك خلقاً ، وارضَ به عملاً ومذهباً ، وتفقّد أمور الجند في دواوينهم ومكاتبهم ،
وأدر عليهم أرزاقهم ، ووسّع عليهم في معاشهم ، ليذهب بذلك الله فاقتهم ، ويقوم
لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً ، وحسبُ ذى سلطان

(١) وفي المقدمة : « ولا تحسن باطلا » .

(٢) التلخ : الكبر . (٣) وفي المقدمة : « ولا تركبن سفهاً » .

(٤) وفي المقدمة : « أهل الدقة » .

من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمةً في عدله، وحِيطته^(١) وإنصافه، وعنايته وشفقته، وبره وتوسعته، فزایل مكروه أحد البايين باستشعار تسكلة الباب الآخر، ولزوم العمل به، تلقَ إن شاء الله نجاحاً وصلاحاً وفلاحاً، واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذي ليس به شيء من الأمور، لأنه ميزان الله الذي يعتدل عليه الأحوال في الأرض، وإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح الرعية، وتأمين السبل، وينتصف المظلوم، ويأخذ الناس حقوقهم، وتحسُن المعيشة، ويؤدَّى حق الطاعة، ويرزق الله العافية والسلامة، ويقوم الدين، وتجرى السنن والشرائع، وعلى مجاريها يتنجز الحق والعدل في القضاء، واشتد في أمر الله، وتورع عن النَّطَفِ^(٢)، وامض لإقامة الحدود وأقلل العجلة، وابتعد من الضجر والقلق، واقنع بالقَسَمِ، ولتسكُن ريحك، وبقر جدك وانتفع بتجربتك، وانتبه في صمتك، وأسَدِدْ^(٣) في منطقتك، وَأَنْصِفِ الخَصْمَ، وقف عند الشُّبْهَةِ، وأبلغ في الحجة، ولا يأخذك في أحد من رعيته محاباةً ولا محاماةً^(٤) ولا لوم لأئم، وثبت وتأنَّ وراقِبْ، وانظر وتدبر، وتفكر واعتبر، وتواضع لربك وارأف^(٥) بجميع الرعية، وسلِّط الحق على نفسك، ولا تُسرعن إلى سفك دم (فإن الدماء من الله بمكان عظيم) انتهأ كآ لها بغير حقها، وانظر هذا الخراج الذي قد استقامت عليه الرعية، وجعله الله للاسلام عزاً ورفعة، ولأهله سعةً ومَنَعَةً، ولعدوه وعدوهم كَبْتاً^(٦) وغيطاً، ولأهل الكفر من مُعَادِيهِمْ ذلاً وَصَغَاراً، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه، ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه، ولا عن غنيٍّ لغناه، ولا عن كاتب لك، ولا أحد من خاصتك، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له، ولا تَكَلَّفَنَ أمراً فيه شَطَطٌ، واحمل الناس كلهم على مُرِّ الحق، فإن ذلك أجمع لأقلامهم،

(١) في المقدمة : « وحيطته » .

(٢) النطف : المهب والشر والفساد . (٣) صد يده كضرب : صار سهيداً .

(٤) في المقدمة : « ولا محاملة » . (٥) من باب كرم وقطع وطرب .

(٦) كبت : صرعه وأخزاه ؛ ورد البدو بغيظه وأذله .

وألزم لرضا العامة ، واعلم أنك جُعِلْتَ بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً ، وإنما سُمِّيَ أهل عملك رعيتك ، لأنَّك راعيهم وقيِّمهم ، تأخذ منها ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم وتنفقه في قِوام أمرهم وصلاحيهم وتقويم أودهم ، فاستعمل عليهم في كُورِ عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل ، والعلم بالسياسة والعفاف ، ووسَّع عليهم في الرزق ، فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأُسْنِدَ إليك ، ولا يَسْغَلَنَّك عنه شاغل ، ولا يصرفنك عنه صارف ، فإنك متى آتَمَرْتَه وَقَمْت فيه بالواجب ، استدعيت به زيادة النعمة من ربك وحسن الأحداث في عملك ، واحترزت النَّصْحَة من رعيتك ، وَأُعِنْتَ على الصلاح ، فَدَرَّت الخيرات ببلدك ، وَفَشَت العماره بناحياتك ، وَظَهَرَ الخصب في كُورِكَ ، فَكَثُرَ خَرَاكُ ، وَتَوَفَّرَت أموالك ، وَقَوِيَ بِذَلِكَ على ارتباط جندك ، وَإِرْضَاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك ، وكنت محمود السياسة ، مَرْضَى العدل في ذلك عند عدوك ، وكنت في أمورك كلها ذا عدل وقوة وآلة وَعُدَّة ، خَفَافٍ في هذا ولا تقدم عليه شيئاً ، تَحْمَدُ مَغَبَّةَ أمرك إن شاء الله ، واجعل في كل كُورَةٍ من عملك أميناً يُخْبِرُكَ أخبار عمالك ، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل في عمله ، مُعَايِنٌ لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر ، فانظر في عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصَّنْعَ فَأَمْرُهُ ، وَإِلَّا فَتَوَقَّفْ عنه ، وراجع أهل البَصَرِ والعلم ، ثم خذ فيه عُدَّتَهُ ، فإنه ربما نظر الرجل في أمر من أمره قد واثقه على ما يهوى فَقَوَّاهُ^(١) ذلك وأعجبه ، وإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره ، فاستعمل الحزم في كل ما أردت ، وباشره بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استخارة ربك في جميع أمورك ، وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ، فإن لغد أموراً وحوادث تُلهِيكَ عن عمل يومك الذي أخرت ، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرت عمله

(١) في المقدمة : « وقد آتاه عل ما يهوى فأقواه ذلك » .

اجتمع عليك أمر يومين ، فَشَفَّلَكَ ذلك حتى تُعَرِّضَ عنه ، فإذا أمضيت لكل يوم عمله أَرَحْتَ نفسك وبدنك ، وأحكمت أمور سلطانك ، وانظر أحرار الناس وذوى الشرف منهم ، ثم استيقن صفاء طَوِيَّتِهِمْ ، وتهذيب مودَّتِهِمْ لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك ، فاستخلصهم وأحسن إليهم ، وتعاهدْ أَهْلَ البيوتات ممن دخلت عليهم الحاجة ، فاحتلِ مَنُوتِهِمْ ، وأصلح حالهم ، حتى لا يجلدوا تَخَلَّتِهِمْ ^(١) مَسًّا ، وأفرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مَظْلَمَتِهِ إِلَيْكَ ، والحقَّ الذي لا علم له بطلب حقه ، فاسأل عنه أَحقَّ مسألة ، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيته ، ومُرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إِلَيْكَ ، لتنظر فيها بما يُصْلِحُ الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال ، اقتداءً بأمر المؤمنين - أعزه الله - في العطف عليهم والصلة لهم ، لِيُصْلِحَ الله بذلك عيشتهم ، ويرزقك به بركةً وزيادة ، وَأَجِرِ لِلأَصْرَاءِ من بيت المال ، وَقَدِّمِ حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره في الجراية ^(٢) على غيرهم ، وأنصِبِ لِمَرْضَى المسلمين دُوراً تُؤْوِيهم ، وَقَوِّمِ أَمَّا يَرْفُقُونَ بِهِمْ ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، وَأَسْعِفِهِمْ بشهواتهم ، مالم يؤدَّ ذلك إلى سرف في بيت المال ، واعلم أن الناس إذا أُعْطُوا حقوقهم وأفضل أَمَانِيَتِهِمْ ، لم يُرْضِهِمْ ذلك ، ولم تُطِبْ أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى وُلَاتِهِمْ ، طمعاً في نيل الزيادة وفضل الرفق منهم ، وربما بَرِمَ ^(٣) المتصفح لأمر الناس ، لكثرة ما يرد عليه ، وَيَشْغَلُ فكره وذهنه منها ما يناله به مؤنة ومشقة ، وليس من يرغب في العدل ، وَيَعْرِفُ محاسن أموره في العاجل ، وفضل ثواب الآجل ، كالذى يستقبل ما يقرُّبه إلى الله ، ويلتمس رحمته به وأكثر الإذن للناس عليك ، وَأَبْرِزْ لهم وجهك ، وسكن لهم أحراسك ، وَاخْفِضْ لهم جَنَاحَكَ ، وأظهر لهم بِشْرَكَ ، وَلِنْ لهم في المسألة والمنطق ، واعطِفْ عليهم بجدوك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط بسماحةٍ وطيب نفس ، واتمس الصنيعة والأجر غير مكدر ولا مَقَّان

فإن العطية على ذلك تجارة مربحة. إن شاء الله ، واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة في القرون الخالية والأمم البائدة ، ثم اعتصم في أحوالك كلها بأمر الله ، والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسنته ، وإقامة دينه وكتابه ، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله ، واعرف ما تجمع عمالك من الأموال ، وما ينفقون منها ، ولا تجمع حراماً ، ولا تنفق إسرافاً ، وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ، وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها ، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها ، وليكن أكرم دُخلائك وخاصتك عليك ، من إذا رأى عيباً فيك لم يمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك في سر ، وإعلامك ما فيه من النقص ، فإن أولئك أنصح أوليائك ، ومظاهريك لك ، وانظر عمالك الذين يحضرتك وكتبك ، فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتاً يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامراته وما عنده من حوائج عمالك ، وأمر كورك ورعيتك ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك ، وكرّر النظر إليه والتدبير له ، فما كان موافقاً للحزم والحق فأمنه ، واستخّر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى التثبت فيه والمساءلة عنه ، ولا تمنّ على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تأتيه إليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعون في أمور أمير المؤمنين ، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك وتفهم كتابي إليك ، وأكثر النظر فيه والعمل به ، واستعن بالله على جميع أمورك واستخِرْه فإن الله مع الصلاح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك وأفضل رعيتك ، ما كان لله رضا ، ولدينه نظاماً ، ولأهله عزاً وتمكيناً ، وللذمة والملة عدلاً وصلاحاً ، وأنا أسأل الله أن يُصلح عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءك ، وأن يُنزل عليك فضله ورحمته بتمام فضله عليك وكرامته لك ، حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيباً ، وأوفرهم حظاً ، وأسنانهم ذكراً وأمراً ، وأن يُهلك عدوك ومن ناوأك وبغى عليك ، ويرزقك من

رعيتك العافية ، ويحجز الشيطان عنك ووساوسه ، حتى يستملى أمرك بالمرء والقوة والتوفيق ، إنه قريب مجيب .

وذكروا أن طاهراً لما عهد إلى ابنه عبد الله هذا العهد ، تنازعه الناس وكتبوه وتدارسوه ، وشاع أمره حتى بلغ المأمون ، فدعا به وقرئ عليه ، فقال : ما بقي أبو الطيب (يعني طاهراً) شيئاً من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأى والسياسة ، وإصلاح الملك والرعية ، وحفظ التبتضة ، وطاعة الخلفاء ، وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به وتقدم ، وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال .

(تاريخ الطبري ١٠ : ٢٥٨ ، ومقمة ابن خلدون ص ٢٢٩)

١٣٢ — خطبة عبد الله بن طاهر

خطب عبد الله بن طاهر الناس ، وقد تيسر لقتال الخوارج ^(١) فقال :

« إنكم فئة الله المجاهدون عن حقه ، الذائبون عن دينه ، الذائبون عن محارمه ، الداعون إلى ما أمر به ، من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاه أمره ، الذين جعلهم رعاة الدين ، ونظام ^(٢) المسلمين ، فاستنجزوا موعود الله ونصره ، بمجاهدة عدوه ، وأهل معصيته ، الذين أشرو ^(٣) وتمردوا ، وشقوا العصا ، وفارقوا الجماعة ، ومرقوا من الدين ، وسعوا في الأرض فساداً ، فإنه يقول تبارك وتعالى : « إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ

(١) الوارد في كتاب « الفرق بين الفرق » أن المأمون بعث طاهر بن الحسين لقتال حزة بن أكرح - هكذا فيه ، وفي الملل والنحل حزة بن أدرك بالذال - وهو زعيم فرقة الحمزية إحدى فرق الخوارج المجاراة ، وقد عاث في سجستان وخراسان ومكران وقوهستان وكرمان ، وحزم الجيوش الكفيرة ، وكان ظهوره في أيام هرون الرشيد سنة ١٧٩ ، وبقي الناس في فتنته إلى أن مضى صدر من أيام خلافة المأمون ، فلما تمكن المأمون من الخلافة كتب إليه كتاباً استدعاه فيه إلى طاعته ، فما ازداد إلا عتواً ، فبعث لقتاله طاهر بن الحسين ، فدارت بينه وبين حزة حروب قتل فيها من الفريقين مقدار ثلاثين ألفاً ، أكثرهم من أتباع حزة ، وانهمز حزة إلى كرمان ، ثم استدعى المأمون طاهراً من خراسان ، فطبع فيها حزة ، وأقبل بجيشه من كرمان ، فخرج إليه عبد الرحمن النيسابوري في عشرين ألفاً فهزمه ، وقتلوا الألوف من أصحابه ، وانفلت منهم حزة جريحاً ، ومات في هزيمته - انظر ص ٧٩ -

(٢) النظام : السلك يعظم فيه ، وملاك الأمر . (٣) بطروا .

وُثِّبَتْ أَقْدَامُكُمْ» ، فليكن الصبر مَعْقِلَكُمْ الذى إِلَيْهِ تَلْجَأُونَ^(١) ، وَعُدَّتْكُمْ التى بِهَا تَسْتَظْهِرُونَ ، فَإِنَّهُ الْوَزَرُ الْمَنِيعُ ، الذى دَلَّكُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَالْجَنَّةُ^(٢) الْحَصِينَةُ التى أَمَرَكُمُ اللَّهُ بلباسها . غَضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، وَاخْفَتُوا أَصْوَاتَكُمْ فى مَصَافِّكُمْ ، وَامْضُوا قُدُماً عَلَى بَصَائِرِكُمْ ، فَارْغِبُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ، وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ ، فَإِنَّهُ يَقُولُ : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَأَثْبِتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أَيْدِكُمُ اللَّهُ بِعِزِّ الصَّبْرِ ، وَوَلِيِّكُمْ بِالْحَيَاةِ وَالنَّصْرِ .

(المنه للفرهيد : ١٥٥)

١٣٣ - العباس بن المأمون والمعتمد (المتوفى سنة ٢٢٧ هـ)

قال العباس بن المأمون : لما أَفْضَتْ الْخِلَافَةُ إِلَى الْمُعْتَصِمِ دَخَلْتُ ، فَقَالَ : هَذَا مَجْلِسُ كُنْتُ أَكْرَهُ النَّاسَ لَجُلُوسِي فِيهِ ، فَقُلْتُ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْتَ تَعْفُو عَمَّا تَيْقَنْتَهُ ، فَكَيْفَ تَعَاقِبُ عَلَى مَا تَوْهَمْتَهُ ؟ » ، فَقَالَ : « لَوْ أَرَدْتُ عِقَابَكَ ، لَتَرَكْتُ عِتَابَكَ » .

(زهر الآداب ٣ : ٩١)

١٣٤ - استعطاف تميم بن جميل للمعتصم

كَانَ تَمِيمُ بْنُ جَمِيلٍ السَّدُومِيُّ قَدْ خَرَجَ بِشَاطِئِ الْفُرَاتِ ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْرَابِ ، فَعَظُمَ أَمْرُهُ ، وَبَعُدَ ذِكْرُهُ ، فَكَتَبَ الْمُعْتَصِمُ إِلَى مَالِكِ بْنِ طَوْقٍ فِي النَّهْوِ إِلَى إِلَيْهِ ، فَبَدَّدَ جَمْعَهُ ، فَظَفَّرَ بِهِ ، فَجَعَلَهُ مُوثَقاً إِلَى الْمُعْتَصِمِ ، قَالَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَادٍ : مَا رَأَيْنَا رَجُلًا عَيْنَ الْمَوْتِ ، فَمَا هَالَهُ ، وَلَا أَذْهَلَهُ عَمَّا كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَهُ إِلَّا تَمِيمَ بْنَ جَمِيلٍ ، فَإِنَّهُ أَوْفَى بِهِ الرَّسُولُ بَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُعْتَصِمِ ، فِي يَوْمِ الْمَوْكَبِ ، حِينَ يُجْلِسُ لِلْعَامَةِ ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، دَعَا بِالنَّطْعِ^(٣) وَالسِّيفِ فَأَخْضَرَا ، فَجَعَلَ تَمِيمُ بْنُ جَمِيلٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا وَلَا يَقُولُ شَيْئاً ، وَجَعَلَ الْمُعْتَصِمُ يَصْعَدُ النَّظَرَ فِيهِ وَيَصُوبُهُ ، وَكَانَ جَسِماً

(١) الملجأ والمعتمد ؛ وكذا الوزر . (٢) كل ما يقي .

(٣) النطع كحمل وشمس وسبب وصب : بساط من الأديم .

وسياً^(١) ، ورأى أن يستنطقه لينظر أين جناؤه ولسانه من منظره ، فقال : يا تميم إن كان لك عذرت فأت به ، أو حجة فأدل بها ، فقال : أما إذ قد أذن لي أمير المؤمنين فأني أقول :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ » جبر بك صدع الدين ، ولم بك شعث المسلمين ، وأوضح بك سبل الحق ، وأخذ بك شهاب الباطل ، يا أمير المؤمنين إن الذنوب تُخْرِسُ الألسنة الفصيحة ، وتُغَيِّبُ الأفتدة الصحيحة ، ولقد عظمَت الجريرة ، وانقطعت الحجة ، وكَبُرَ الذنبُ ، وساء الظن ، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك ، وأرجو أن يكون أقربهما مني ، وأسرعهما إليّ ، أولاهما بامتنانك ، وأشبهما بخلافتك ، ثم أنشأ يقول :

أَرَى الْمَوْتَ بَيْنَ السِّيفِ وَالنَّطْعِ كَأَمَّا	يلاحظني من حيثما أتلفتُ
وَأَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّكَ الْيَوْمَ قَاتِلِي	وأى أمرى مما قضى الله يُفْلِتُ ؟
وَمَنْ ذَا الَّذِي يُدْلِي بِعُذْرٍ وَحُجَّةٍ	وسيف المنايا بين عَيْنَيْهِ مُصَلَّتُ ؟ ^(٢)
يَعِزُّ عَلَى الْأَوْسِ بْنِ تَغْلِبَ مَوْفٍ	يُسَلِّ عَلَى السِّيفِ فِيهِ وَأَسْكُتُ
وَمَا جَزَعَى مِنْ أَنْ أَمُوتَ وَإِنِّي	لَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ شَيْءٌ مُوقَّتُ
وَلَكِنْ خَلَقَ صَبِيئَةً قَدْ تَوَكَّهَتْهُمْ	وأكبأهم من حَسْرَةٍ تَنْفَتَّتْ
كَأَنِّي أَرَاهُمْ جِئْتُ إِلَهُهُمْ	وقد خَشَوْا تِلْكَ الْوُجُوهَ وَصَوَّتُوا ^(٣)
فَإِنْ عَشْتُ عَاشُوا خَافِضِينَ بِغِيطَةٍ	أَذُودُ الرَّدَى عَنْهُمْ وَإِنْ مِتَّ مَوْتُوا ^(٤)
فَكَمْ قَائِلٍ لَا يُبْعِدُ اللَّهُ رُوحَهُ	وَأَخَرُ جَدْلَانِ يُسَرُّ وَيَسْتَمُتُ

(١) جملا . (٢) مسلول . (٣) نحش وجهه كنصر وضرب : خدشه ولطمه وضربه .

(٤) كثر فيهم الموت .

فتبسم المعتصم وقال : « كاد والله يا تميم أن يسبق السيفُ المَذَلَّ (١) ، أذهب فقد غفرت لك الصَّوْة (٢) ، وَوَهَبْتُكَ لِلصَّبِيَّةِ » ، ثم أمر بفك قيوده وخلع عليه ، وعقد له بشاطئ الفرات .
(المقد الفريد ١ : ١٤٥ ، زهر الآداب ٣ : ٨٩)

١٣٥ — بين يدي سليمان بن وهب وزير المهتدي بالله

ولما وَلَّى المهتدي بالله (٣) بن الواثق بن المعتصم سليمان بن وهب وزارته ، قام إليه رجل من ذوى حُرْمَتِهِ ، فقال : « أَعَزَّ الله الوزير ، أنا خادمك ، المؤمِّل لدولتك ، السعيد بأيامك ، المنظور القلب على ودك ، المنشور اللسان بمدحك ، المرْتَمَن بشكر نعمتك » .
(زهر الآداب ٣ : ١٩٧)

١٣٦ — أحمد بن أبي دواد والواثق (المتوفى سنة ٢٣٣ هـ)

دخل أحمد بن أبي دواد (٤) على الواثق فقال : ما زال اليوم قومٌ في ثَلْبِكَ ونقصك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لِكُلِّ أَمْرِيٍّ مِنْهُمْ مَا أُكْتَسِبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبَرَهُ (٥) مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ، والله وليُّ جَزَائِهِ ، وعقابُ أمير المؤمنين من ورَّائه ،

(١) المَذَلُّ كشمس وسبب : الوم ؛ وهو مثل ؛ وأول من قاله ضبة بن أد بن طابخة ؛ وكان له ابنٌ يقال لأحدهما سمع ؛ وللآخر سعيد ؛ فنفرت إبل لضبة تحت الليل ؛ فوجه ابنه في طلبها ففترقا ؛ فوجدها سمع فردها ؛ ومضى سعيد في طلبها ؛ فلقى الحرث بن كعب ؛ وكان على الغلام بردان ؛ فسأله الحرث إياهما فأبى عليه فقتله وأخذ برديه ؛ فكان ضبة إذا أمسى فرأى تحت الليل سوادا . قال : أسعد أم سعيد ؟ فكث ضبة بذلك ماشاء الله أن يمكث ؛ ثم إنه حج فوافى عكاظ ؛ فلقى بها الحرث بن كعب ؛ ورأى عليه بردى ابنه سعيد ففرغهما ، فقال له : هل أنت بخير ؟ ما هذان البردان اللذان عليك ؟ قال بل : لقيت غلاما ؛ هما عليه فسألت إياهما ؛ فأبى علي فقتلته ؛ وأخذت برديه هذين ؛ فقال ضبة : بسيفك هذا ؟ قال نعم ؛ فقال : فأعطنيه أنظر إليه فأبى فأظنه صارما ؛ فأعطاه الحرث سيفه ؛ فلما أخذ من يده هزه وقال : الحديث ذو شجون ؛ ثم ضربه به حتى قتله ؛ فقيل له يا ضبة : أفي الشهر الحرام ؟ فقال : سبق السيف المَذَلُّ . (٢) جهلة الفتوة . (٣) تولى الخلافة سنة ٢٥٥ إلى سنة ٢٥٦ هـ

(٤) هو القاضي أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد من كبار أئمة المعتزلة ، ونصره الاعتزال ، كان مقربا من المأمون أثيرا عنده ، ولما ولي المعتصم الخلافة جعله قاضي القضاة ؛ وعزل يحيى بن أكثم ، وخص به أحمد ، حتى كان لا يفعل فعلا باطنا ولا ظاهرا إلا برأيه ، ولما مات المعتصم ، وتولى بعده ابنه الواثق بالله حسنت حال ابن أبي دواد عنده ، ثم فُجِع في أول خلافة المتوكل ، ففقد ولده محمدا القاضي مكانه ، وتوفي سنة ٢٤٠ هـ . (٥) أي معظمه ، وفي قراءة وكبره . بضم الكاف .

وما ذلَّ يا أمير المؤمنين مَنْ أنت ناصِرُهُ ، وما صاق من كنت جاراً له ، فإِ قلتَ لهم
يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت يا أبا عبد الله :

وَسَعَى إِلَى بَعِيْبٍ عَزَّةَ مَعْشَرٍ جَعَلَ الْإِلَهُ خُدُودَهُنِ نِعَاَهَا

(زهر الآداب ٣ : ٢٠٨ ، والمقد الفريد ١ : ١٤١)

١٣٧ — ابن أبي دُواد والوائق أيضاً

وقال الواثق يوماً لابن أبي دُواد تضجُّراً بكثرة حوائجه : قد أخليتُ ييوتَ
الأموالِ بِطَلَبَاتِكَ لِلأُذُنِ بك ، والمتوسلين إليك ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، نتأججُ شكرها متصلةً بك ، وذخائرُها موصولة لك ، ومالِي
من ذلك إلا عِشْقُ اتصالِ الألسنِ بخلود المدح » ، فقال : « والله لا منعناك ما يزيد
في عشقك ، ويقوِّى في هِمَّتِكَ فينا ولنا » ، وأمر فأخرجَ له خمسةً وثلاثين ألفَ درهم .
(زهر الآداب ٢ : ٢١٠)

١٣٨ — ابن أبي دُواد وابن الزيات

وكان بين القاضي أحمد بن أبي دُواد وبين الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ^(١) منافسة
وشحناء ، حتى منع الوزير شخصاً كان يصحب القاضي ، ويختص بقضاء حوائجه ، من
الترداد إليه ، فبلغ ذلك القاضي ، فجا إلى الوزير فقال له :

« والله ما أحيئك متكثرأً بك من قِلَّةٍ ، ولا متعزراً بك من ذِلَّةٍ ، ولكن
أمير المؤمنين ربَّكَ مرتبة أَوْجَبَتْ لقاءك ، فإن لَقِينَاكَ فله ، وإن تأخَّرْنَا عَنْكَ فلك ^(٢) » .
(وفیات الاميان ١ : ٢٥)

(١) وزر للمعتصم ، والوائق من بعده ، ثم تسكبه المتوكل كما سيق .

(٢) وكان الواثق قد أمر ألا يرى أحد من الناس ابن الزيات ، إلا قام له ، فكان ابن أبي دُواد إذا
رآه قام واستقبل القبله يصل .

١٣٩ — الجاحظ وابن أبي دؤاد

وكان الجاحظ مختصاً بمحمد بن عبد الملك الزيات ، منحرفاً عن أحمد بن أبي دؤاد ، فلما نُكِبَ ابن الزيات^(١) ، حُجِلَ الجاحظ مقيداً من البصرة ، وفي عنقه سلسلة ، وعليه قيض سَمَل^(٢) ، فلما دخل على القاضي أحمد قال له : « والله ما أعلك إلا متناسياً للنعمة ، كفوراً للصنعة ، معدّناً للمساوي ، وما فتنتني باستصلاحك لك ، ولكن الأيام لا تُصلِحُ منك ، لفساد طويّتك ، ورداءة دُخِيّاتك ، وسوء اختيارك ، وغالب طباعك » . فقال الجاحظ : « خَفَضَ عليك - أَيْدِكَ الله - فوالله لأن يكون لك الأمر على ، خيرٌ من أن يكون لي عليك ، ولأن أُمِيءَ وَتُحْسِنَ ، أحسنُ في الأُحْدُوثة عليك ، من أن أحسن وتُسيءَ ، وَلَأن تَفُوقَ عني في حال قدرتك ، أجمل بك من الانتقام مني » . فقال أحمد : والله ما علمتُك إلا كثير تزويق الكلام ، فخلَّ عنه الغُلَّ والقيد ، وأحسن إليه ، وصدّره في المجلس . (زهر الآداب ٢ : ١٠٦ ، والمنية والأمل ص ٣٩)

(١) كان في نفس المتوكل من ابن الزيات شيء كثير ، وذلك أنه لما مات الواثق (وهو أخو المتوكل) . أشار ابن الزيات بتولية ولد الواثق ، وأشار ابن أبي دؤاد بتولية المتوكل ، وقام في ذلك وقعد حتى صمّه بيده وألبسه البردة ، وقبله بين عينيه ، وكان المتوكل في أيام الواثق يدخل حل ابن الزيات فيتجهمه ويغلظ له في الكلام - يقترب بذلك إلى الواثق - فحقه المتوكل ذلك عليه ، فلما ولي الخلافة ، أمهله أربعين يوماً حتى يطمئن إليه ، ثم قبض عليه وسجنه ، واستصنى أمواله ، وكان ابن الزيات إبان وزارته قد اتخذ تنوراً من حديد ، وأطراف مساميره إلى داخل ، وهي قائمة مثل رهوس المسال ، يملب فيه من يستحقون العقوبة وكان إذا قال أحدهم ارحمني أيها الوزير . قال له : الرحمة غور في الطبيعة ، فلما اعتقله المتوكل أمر بإدخاله في التنور : وقيدته بخمسة عشر رطلا من الحديد ، فقال : يا أمير المؤمنين ارحمني ، فقال له : الرحمة غور في الطبيعة ، وبقي في المذاب أربعين يوماً حتى مات سنة ٢٣٣ هـ .

(٢) الفصل : الخلق من الشباب .

١٤٠ - أبو العيناء وابن أبي دؤاد

وقال أبو العيناء لابن أبي دؤاد : إن قوماً من أهل البصرة قدِموا إلى « سُرَّ مَنْ رَأَى » يَدَا عَلِيٍّ ، فقال : « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » ، فقلت : إن لهم مكرراً ، فقال : « وَلَا يَحِقُّ الْمَبَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » ، فقلت : إنهم كثير ، قال : « كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » .
(زهر الآداب ٢ : ٣١٠ ، والعقد الفريد ١ : ١٤١)

تم الجزء الثالث

ويليه

ذيل الجمهرة

فهرس

الجزء الثالث

من جمهرة خطب العرب

الباب الرابع

الخطب والوصايا في العصر العباسي الأول

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة أبي العباس السفاح وقد بويع بالخلافة	١	١
» داود بن عليّ	٢	٣
» داود بن عليّ وقد أرتج على السفاح	٣	١١
» أخرى له	٤	١١
» للسفاح بالكوفة	٥	١٢
» السفاح بالشام حين قتل مروان	٦	١٢
» عيسى بن عليّ	٧	١٣
» داود بن عليّ بمكة	٨	١٤
خطبته بالمدينة	٩	١٥
خطبة أخرى له	١٠	١٥
خطبته وقد بلغه أن قوما أظهروا شكاة بني العباس	١١	١٦
» وقد أرتج عليه	١٢	١٧
خطبة صالح بن عليّ	١٣	١٨
» سديف بن ميمون	١٤	١٨
» أبي مسلم الخراسانيّ	١٥	٢٠
خالد بن صفوان وأخوال السفاح	١٦	٢٣
» » » ورجل من بني عبد الدار	١٧	٢٤

الخطبة أو الرخصة	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خالد بن صفوان يرثي صديقا له	٢٥	١٨
» » » يمدح رجلا	٢٥	١٩
كلمات بليغة لخالد بن صفوان	٢٥	٢٠
عمارة بن حمزة والسفاح	٢٦	٢١
خطب أبي جعفر المنصور	٢٧	
خطبته بمكة	٢٧	٢٢
» بعد بناء بغداد	٢٧	٢٣
خطبته بمدينة السلام	٢٨	٢٤
» وقد أخذ عبد الله بن الحسن وأهل بيته	٢٨	٢٥
» حين خروج محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن	٣٠	٢٦
» وقد قتل أبا مسلم الخراساني	٣١	٢٧
خطبة أخرى	٣	٢٨
قوله وقد قوطع في خطبته	٣٢	٢٩
المنصور يصف خلفاء بني أمية	٣٣	٣٠
» عبد الرحمن الداخل	٣٣	٣١
وصايا المنصور لانه المهدي	٣٥	
وصية له	٣٥	٣٢
» أخرى له	٣٦	٣٣
» » »	٣٦	٣٤
خطبة النفس الزكية حين خرج على المنصور	٣٨	٣٥
وصية عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي لابنه	٣٩	٣٦
قوله وقد قتل ابنه محمد	٣٩	٣٧
امراة محمد بن عبد الله والمنصور	٤٠	٣٨
جعفر الصادق والمنصور	٤٠	٣٩
صفح المنصور عن سقيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب	٤٢	٤٠
استعطاف أهل الشام أبا جعفر المنصور	٤٢	٤١

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
استعطاف أهل الشام المنصور أيضاً	٤٣	٤٢
أبو جعفر المنصور والربيع	٤٤	٤٣
مقام عمرو بن عبيد بين يدي المنصور	٤٥	٤٤
« رجل من الزهاد » « »	٤٦	٤٥
« الأوزاعي بين يدي المنصور	٤٩	٤٦
نصيحة يزيد بن عمر بن هبيرة المنصور	٥١	٤٧
معن بن زائدة والمنصور	٥٢	٤٨
« » « وأحد زواره	٥٢	٤٩
المنصور وأحد الأعراب	٥٣	٥٠
أعرابية تعزى المنصور وتهته	٥٣	٥١
خطبة محمد بن ساجان	٥٤	٥٢
وصية مسلم بن قتيبة	٥٤	٥٣
خطبة المهدي	٥٥	٥٤
مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب حراسان	٥٧	
مقال سلام صاحب المظالم	٥٨	٥٥
« الربيع بن يونس	٥٩	٥٦
« الفضل بن العباس	٦٠	٥٧
مقال علي بن المهدي	٦٢	٥٨
« موسى بن المهدي	٦٤	٥٩
« العباس بن محمد	٦٥	٦٠
« هرون بن المهدي	٦٦	٦١
« صالح بن علي	٦٨	٦٢
« محمد بن الليث	٦٩	٦٣
« معاوية بن عبد الله	٧٤	٦٤
« المهدي	٧٢	٦٥
« محمد بن الليث	٧٤	٦٦
« المهدي	٧٥	٦٧

المخطبة أو العريضة	رقم الصفحة	رقم الخطبة
ابن عتبة يعزى المهدي ويهنته	٧٧	٦٨
يعقوب بن داود يستعطف المهدي	٧٧	٦٩
رجل من أهل خراسان يخطب بحضرة المهدي	٧٨	٧٠
مقام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهدي	٧٩	٧١
عظة شبيب بن شيبه للمهدي	٨٠	٧٢
خطبته في تعزية المهدي بآبنته	٨٠	٧٣
خطبة أخرى له في مدح الخليفة	٨٠	٧٤
كلمات لشبيب بن شيبه	٨١	٧٥
خطبة يوسف بن القاسم بن صبيح الكاتب يوم ولي الرشيد بالخلافة	٨١	٧٦
خطبة هرون الرشيد	٨٣	٧٧
وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين	٨٥	٧٨
خطبة لجعفر بن يحيى البرمكي	٨٥	٧٩
استعطاف أم جعفر بن يحيى للرشيد	٨٨	٨٠
خطبة يزيد بن يزيد الشيباني	٩١	٨١
» عبد الملك بن صالح	٩٢	٨٢
عبد الملك بن صالح يعزى الرشيد ويهنته	٩٣	٨٣
غضب الرشيد على عبد الملك بن صالح	٩٣	٨٤
قوله بعد خروجه من السجن	٩٦	٨٥
وصية عبد الملك بن صالح لابنه	٩٧	٨٦
» أخرى له	٩٩	٨٧
كلمات حكيمه لابن السماك	٩٩	٨٨
ابن السماك والرشيد	٩٩	٨٩
الفتنة بين الأمين والمأمون	١٠١	
وفد الأمين إلى المأمون		
خطبة العباس بن موسى	١٠١	٩٠
» عيسى بن جعفر	١٠٢	٩١
» محمد بن عيسى بن نهيك	١٠٢	٩٢

رقم الصفحة	رقم الخطبة	الخطبة أو الوصية
١٠٣	٩٣	خطبة صالح صاحب المصلى
١٠٣	٩٤	المأمون
١٠٤	٩٥	وصية السيدة زبيدة لعلّ بن عيسى بن ماهان
١٠٥	٩٦	« الأمين لابن ماهان
١٠٦	٩٧	استهانة ابن ماهان بأمر طاهر بن الحسين
١٠٧	٩٨	حزم طاهر وقوّة عزمه
١٠٨	٩٩	طاهر يشدّ عزيمته جنده
١٠٩	١٠٠	وصف الفضل بن الربيع غفلة الأمين
١١٠	١٠١	وصية الأمين لأحمد بن مزيد
١١١	١٠٢	مقال عبد الملك بن صالح للأمين
١١٢	١٠٣	الشغب في جيش عبد الملك بن صالح
١١٣	١٠٤	خطبة الحسين بن علّ بن عيسى بن ماهان يدعو إلى خلع الأمين
١١٤	١٠٥	« محمد بن أبي خالد
١١٤	١٠٦	إطلاق الأمين من سجنه ورده إلى مجلس الخلافة
١١٥	١٠٧	خطبة داود بن عيسى يدعو إلى خلع الأمين
١١٧	١٠٨	« الأمين وقد تولى الأمر عنه
١١٨	١٠٩	استعطاف الفضل بن الربيع للمأمون
١١٩	١١٠	خطبة طاهر بن الحسين ببغداد بعد مقتل الأمين
١٢٠		خطب المأمون
١٢٠	١١١	خطبته وقد ورد عليه نعي الرشيد
١٢٠	١١٢	« وقد سلم الناس عليه بالخلافة
١٢١	١١٣	« يوم الجمعة
١٢٢	١١٤	« يوم الأضحى
١٢٣	١١٥	« يوم الفطر
١٢٤	١١٦	خطبة ابن طباطبا العاوى
١٢٦	١١٧	استعطاف إبراهيم بن المهدي المأمون

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
إبراهيم المهدي ومجيشوع الطيب	١٢٨	١١٨
استعطاف إسحاق بن العباس المأمون	١٢٩	١١٩
أحد وجوه بغداد يمدح المأمون حين دخالها	١٢٩	١٢٠
أحد أهل الكوفة يمدح المأمون	١٣٠	١٢١
محمد بن عبد الملك بن صالح بين يدي المأمون	١٣٠	١٢٢
الحسن بن سهل يمدح المأمون	١٣١	١٢٣
يحيى بن أكرم يمدح المأمون	١٣١	١٢٤
أحد بني هاشم والمأمون	١٣٢	١٢٥
رجل يتظلم إلى المأمون	١٣٢	١٢٦
عمرو بن سعيد والمأمون	١٣٣	١٢٧
الحسن بن رجاء والمأمون	١٣٣	١٢٨
سعيد بن مسلم والمأمون	١٣٣	١٢٩
أبو زهيان يعظ سعيد بن مسلم	١٣٤	١٣٠
وصية طاهر بن الحسين لابنه عبد الله لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما	١٣٤	١٣١
خطبة عبد الله بن طاهر	١٤٤	١٣٢
العباس بن المأمون والمعتصم	١٤٥	١٣٣
استعطاف تميم بن جميل للمعتصم	١٤٥	١٣٤
بين يدي سليمان بن وهب وزير المهدي بالله	١٤٧	١٣٥
أحمد بن أبي دواد والوائق	١٤٧	١٣٦
ابن أبي دواد والوائق أيضاً	١٤٨	١٣٧
ابن أبي دواد وابن الزيات	١٤٨	١٣٨
الجاحظ وابن أبي دواد	١٤٩	١٣٩
أبو العيناء وابن أبي دواد	١٥٠	١٤٠

فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

(ح)	(١)
الخارث بن عبد الرحمن : ٤٢	إبراهيم بن المهدي : ١٢٥ - ١٢٧
الحسن بن رجاء : ١٣٣	ابن السماك : ٩٩
الحسن بن سهل : ١٣١	ابن طباطبا العلوي : ١٢٤
الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان : ١١٣	ابن عتبة : ٧٧
(خ)	أبو جعفر المنصور : ٢٧ - ٢٧ - ٣٠ -
خالد بن صفوان : ٢٢ - ٢٤ - ٢٥	٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٣ - ٤٢
(د)	أبو زهمان العلائي : ١٣٤
داود بن علي :	أبو العباس السفاح : ١ - ١٣ - ١٤
٨ - ١١ - ١١ - ١٢ - ١٤ - ١٥ - ١٥	أبو مسلم الخراساني : ٢٠
داود بن عيسى : ١١٥	أحمد بن أبي دواد : ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩
(ر)	إسحاق بن العباس : ١٢٨
الربيع بن بونس : ٤٤ - ٥٩	أم جعفر بن يحيى : ٨٨
(ز)	الأمين : ١١٠ - ١١٠ - ١١٥
السيدة زبيدة : ١٠٤	الأوزاعي : ٤٩
(س)	(ت)
سديف بن ميمون : ٨	نسيم بن جميل : ١٤٥
سعيد بن مسلم : ١٣٣	(ج)
سلام (صاحب المظالم) : ٥٥	الجاحظ : ١٤٩
(ش)	جعفر الصادق : ٤٠
شبيب بن شيبه : ٨٠ - ٨١	جعفر بن يحيى البرمكي : ٨٥

الفضل بن العباس ٦٠

(م)

المأمون : ١٠٣ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢ - ١٢٣

محمد بن أبي خالدة : ١١٤

محمد بن سليمان : ٥٤

محمد بن عبد الملك بن صالح : ١٣٠

محمد بن عيسى بن نهيك : ١٠٢

محمد بن الليث : ٦٩ - ٧٤

مسلم بن قتيبة : ٥٤

معاوية بن عبد الله : ٧٤

معن بن زائدة : ٥٢

المهدي : ٥٥ - ٧٢ - ٧٥

(ن)

النفيس الزكية : ٣٨

(هـ)

الهادي : ٦٤

هرون الرشيد : ٦٦ - ٨٣ - ٨٥

(ي)

يحيى بن أكثم : ١٣١

يزيد بن عمر بن هبيرة : ٥١

يزيد بن مزيد الشيباني : ٩١

يعقوب بن داود : ٧٧

يوسف بن القاسم بن صبيح : ٨١

- تم فهرس أعلام خطب العرب -

(ص)

صالح (صاحب المصلى) : ١٠٣

صالح بن عبد الجليل : ٧٩

صالح بن علي : ١٨ - ٦٨

(ط)

طاهر بن الحسين :

١٠٧ - ١٠٨ - ١١٩ - ١٣٤

(ع)

العباس بن المأمون : ١٤٥

العباس بن محمد : ٦٥

العباس بن موسى : ١٠١

عبد الله بن الحسن : ٣٩

عبد الله بن طاهر : ١٤٤

عبد الملك بن صالح :

٩٢ - ٩٣ - ٩٦ - ٩٧ - ١١١

عثمان بن خريم : ٤٣

علي بن عيسى بن ماهان : ١٠٦

علي بن المهدي : ٦٢

عمارة بن حمزة : ٢٦

عمرو بن سعيد : ١٣٣

عمرو بن عبيد : ٤٥

عيسى بن جعفر : ١٠٢

عيسى بن علي : ١٣

(ف)

الفضل بن الربيع : ١٠٩ - ١١٨

ذِكْرُ
جَمْعِهِ خُطْبُ الْعَرَبِ
فِي عِصْوَرِ الْعَرَبِ فِي الزَّاهِرَةِ

ويحوى خمسة أبواب

- الباب الأول : في خطب الأندلسيين والمغاربة .
- » الثاني : في خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها .
- » الثالث : في نثر الأعراب .
- » الرابع : في خطب النكاح .
- » الخامس : في خطب من أرتج عليهم ونوادير طريفة لبعض الخطباء

فهرس المآخذ

- فتح الطيب ، للمقرئ : الجزء الأول - الثاني - الرابع
- مطمح الأنفس ، للفتح بن خاقان :
- المعجب ، في تلخيص أخبار المغرب :
- لحمي الدين بن علي المراكشي
- الإحاطة : في أخبار غرناطة ، :
- لسان الدين بن الخطيب :
- الأمالى : لأبي علي القالي : الجزء الأول - الثاني - ذيل الأمالى
- الأغانى : لأبي الفرج الأصبهاني : » الثالث عشر - السابع عشر
- صبح الأعشى : لأبي العباس القلقشندي : » الأول
- نهاية الأرب : لشهاب الدين النويري : » السابع
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينوري : المجلد الثاني
- الكامل : لأبي العباس المبرد : الجزء الأول
- العقد الفريد : لابن عبد ربه : » الأول - الثاني - الثالث
- زهر الآداب : لأبي إسحق الحضري : » الأول - الثاني - الثالث
- البيان والتبيين : للجاحظ : » الأول - الثاني - الثالث
- أمالى السيد المرتضى : » الرابع
- مجمع الأمثال : لأبي الفضل الميداني : » الأول - الثاني
- تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبري : » السابع - الثامن
- مروج الذهب : للمسعودي : الجزء الثاني

- : الصناعتين : لأبي هلال المسكري
- : بلاغات النساء : لابن أبي طاهر طيفور
- : شرح العيون : لابن نباتة المصري
- : سيرة عمر بن عبد العزيز : لابن الجوزي
- : مواسم الأدب للسيد جعفر البيهقي العلوي : الجزء الثاني
- : بلوغ الأرب : للسيد محمود شكرى الألوسى : « الثالث
- : مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح

الباب الأول

في

خطب الأندلسيين والمغاربة

١ - خطبة عبد الرحمن الداخل (المتوفى سنة ١٧١ هـ)

يوم حربه مع يوسف الفهري صاحب الأندلس

لما اشتد الكرب بين يدي عبد الرحمن الداخل ^(١) ، يوم حربه مع يوسف الفهري ^(٢) صاحب الأندلس ، ورأى شدة مُقاساة أصحابه قال :

« هذا اليوم هو أَسُّ ما يُبْنَى عليه ، إِمَّا ذلّ الدهر ، وإِمَّا عزّ الدهر ، فاصبرُوا ساعةً فيما لا تشتهون ، تَرْجُوا بها بقيةَ أعماركم فيما تشتهون » .

ولما أُنْحَى أصحابه على أصحاب الفهري بالقتل يوم هزيمتهم على قُرْطُبة قال :

(١) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل ، وذلك أنه لما أصاب دولتهم بالمشرق ما أصابها ، وتبع السفاح من بقي من بني أمية بالقتل والإهلاك ، فرجع عبد الرحمن إلى الأندلس ، واستطاع بهمه أن يؤسس هناك دولة أورثها عقبه حقبة من الدهر ، وهي دولة بني أمية في المغرب من سنة ١٣٨ إلى سنة ٤٢٢ هـ ، وكانت عاصمة ملكها قرطبة ، وهي مدينة على نهر الوادي الكبير .

(٢) يوسف الفهري هو ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع بن أبي القريوان ، وأمير معاوية على أفريقية والمغرب ، وكانت ولاية يوسف الفهري الأندلس سنة ١٢٩ فدانته له تسع سنين وتسعة أشهر ، وعنه انتقل سلطانها إلى بني أمية .

« لا ستأصلوا شأفة^(١) أعداء ترجون صدائهم ، واستبقوهم لأشدّ عداوةً منهم » - يشير إلى استبقائهم ، ليُستعان بهم على أعداء الدين - . (نفع الطيب ٢ : ٧٠)

٢ - عبد الرحمن الداخل ورجل من جند قنسرين

ولما أذعن يوسف صاحب الأندلس لعبد الرحمن ، واستقر ملكه ، استحضر الوفود إلى قرطبة ، فانتالوا^(٢) عليه ، ووالى القعود لهم في قصره عدة أيام ، في مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم ، بكلامٍ سرّهم ، وطيب نفوسهم . وفي بعض مجالسهم هذه مثّل بين يديه رجل من جند قنسرين^(٣) يستجديه ، فقال له :

« يا بن الخلائف الراشدين ، والسادة الأكرمين ، إليك فرّرتُ ، وبك عُدْتُ ، من زمن ظلّوم ، ودهرٍ غشوم ، قلّل المال ، وكثّر العيال ، وشعث^(٤) الحال ، فصيرّ إلى نَدَاك المآلَ ، وأنت وليُّ الحمدِ والمجدِ ، والمرجوُّ للرّفْدِ^(٥) » .
فقال له عبد الرحمن مسرعاً :

« قد سمعنا مقالتك ، وقصينا حاجتك ، وأمرنا بعمونك على دهرك ، على كَرِهنا لسوء مقامك ، فلا تعودنّ ولا سيّواك لمثله ، من إراقة ماء وجهك بتصرّيح المسألة ، والإلحاف في الطلبية^(٦) ، وإذا ألمّ بك خطبٌ ، أو حزَبك^(٧) أمرٌ ، فارفعه إلينا في رُقعة لا تعدّوك ، كيما نستُر عليك خلّتك ، ونكفّ ثمات العدو عنك ، بعد رفعك لها إلى مالِكِك ومالِكنا - - عزّ وجهه - بإخلاص الدعاء ، وصدق النية » .

(١) الشأفة : قرحة تخرج في أسفل القدم فتكوى فتذهب ، أو إذا قطعت مات صاحبها ، والأصل ، واستأصل الله شأفته : أذهب كما تذهب تلك القرحة ، أو معناه أزاله من أصله .

(٢) انتال : انصب ، أى تتابعوا وتوافدوا عليه . (٣) بالشام .

(٤) شعث الأمر : نشره وفقره . (٥) الرّفْد : المعطاء والصفة .

(٦) الطلبية : الطلب . (٧) أى اشتد عليك ، وأخلط الحاجة .

وأمر له بجائزة حسنة ، وخرج الناس يتعجبون من حسن منطقته ، وبراعة أدبه ، وكفّ فيما بعدُ ذوو الحاجات عن مقابلته بها شِفاهاً في مجلسه . (نفع الطيب ٢ : ٦٨)

٣ — عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده يهنئه بفتح سرقسطة

ولما فتح عبد الرحمن الداخل سَرَقُسْطَةَ^(١) ، وَحَصَلَ في يده ثأرُها الحسين الأنصاري ، وانتهى نصرُه فيها إلى غايةِ أَمَلِه ، أقبل خواصُه يهنئونه ، فجرى بينهم أحدٌ من لا يُؤْبَهُ به من الجند ، فهنَّأه بصوت عال ، فقال له عبد الرحمن :

« وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ هَذَا الْيَوْمَ يَوْمٌ أُسْبِغَ عَلَيَّ فِيهِ النِّعْمَةُ مَنْ هُوَ فَوْقِي ، فَأَوْجِبَ عَلَيَّ ذَلِكَ أَنْ أَنْعِمَ فِيهِ عَلَيَّ مَنْ هُوَ دُونِي ، لأَصْلَيْتُكَ مَا تَعَرَّضْتَ لَهُ مِنْ سُوءِ النَّكَالِ ، مَنْ نَكُونُ ؟ حَتَّى تُقْبِلَ مُهْنِئاً رَافِعاً صَوْتَكَ ، غَيْرَ مُتَجَلِّجٍ وَلَا مُتَهَيِّبٍ لِمَكَانِ الْإِمَارَةِ ، وَلَا عَارِفٍ بِقِيَمَتِهَا ، حَتَّى كَأَنَّكَ تَخَاطَبُ أَبَاكَ أَوْ أَخَاكَ ! وَإِنَّ جِهْلَكَ لِيَحْمِلَكَ عَلَى الْعَوْدِ لِمِثْلِهَا ، فَلَا تَجِدْ مِثْلَ هَذَا الشَّافِعِ فِي مِثْلِهَا مِنْ عَقُوبَةٍ . »

فقال : « وَلَعَلَّ فَتُوحَاتِ الْأَمِيرِ يَقْتَرِنُ اتِّصَالُهَا بِاتِّصَالِ جَلِي وَذَنُوبِي ، فَتَشْفَعَ لِي مَقَى أَتَيْتَ بِمِثْلِ هَذِهِ الزَّلَّةِ ، لَا أَعْدِمْنِيهِ اللَّهُ تَعَالَى . »

فبهل وجه الأمير ، وقال : ليس هذا باعتذار جاهل ، ثم قال : نههونا على أنفسكم إذا لم تجدوا من ينهينا عليها ، ورفع مرتبته وزاد في عطائه . (نفع الطيب ٢ : ٧٠)

٤ — تاديب عبد الرحمن الأوسط لابنه المنذر

كان المنذر ابن الأمير عبد الرحمن الأوسط^(٢) سيئ الخلق في أول أمره ، كثير الإصغاء إلى أقوال الوُشَاةِ ، مُفْرِطُ الْفَلَقِ مما يقال في جانبه ، معاقباً على ذلك من يقدر على معاقبته ،

(١) مدينة على نهر إبرة . (٢) هو عبد الرحمن الأوسط (الثاني) ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، حكم الأندلس من سنة ٢٠٦ إلى سنة ٢٣٨ هـ .

مكثر التشكى ممن لا يقدر عليه لوالده الأمير عبد الرحمن ، فطال ذلك على الأمير ، فأمر
ثقةً من ثقاته أن يبنى بجبل منقطع عن العمران بناءً يُسكن فيه ابنه ، وألاً يدع أحداً
من أصحابه يزوره ، فلما استقر المنذر فى ذلك المكان ، وبقي وحده ، ونظر إلى ما سلبه
من الملك ، ضجر وقال للثقة : عسى أن يصلنى غلمانى وأصحابى آنسُ بهم ! فقال له :
إن الأمير أمر ألا يصلك أحد ، وأن تبقى وحدك ، لتستريح مما يرفع لك أصحابك من
الوشاية ، فعلم أن الأمير قصد بذلك محنته وتأديبه ، فكتب إليه يشكو استيحاشه^(١)
بمكانه ، فلما وقف الأمير على رفقته ، وعلم أن الأدب بلغ به حقه استدعاه ، فقال له :
« وصلت رقتك ، تشكو ما أصابك من توحش الانفراد ، فى ذلك الموضع ،
وترغب أن تأنس بحولك^(٢) وعبيدك وأصحابك ، وإن كان لك ذنب يترتب عليه أن
تطول سُكناك فى ذلك المكان ، وما فعلت ذلك عقاباً لك ، وإنما رأيناك تُكثر
الضجر والتشكى من القال والقال ، فأردنا راحتك بأن نَحْجُبْ عنك سماع كلام من
يَرْفَعُ لك وَيَنِمُّ ، حتى تستريح منهم » .

فقال له : « سماعُ ما كنت أضجرُ منه ، أخفُّ علىَّ من التوحد والتوحش ،
والتخلى مما أنا فيه من الرفاهية والأمر والنهى » .

فقال له : « فَإِذَا قد عَرَفْتَ وتَأَدَّبْتَ ، فارجع إلى ما اعتدته ، وَعَوِّلْ على أن تسمع
كأنك لم تسمع ، وترى كأنك لم تَرَ ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لو تكاسفتُم
ما تدافنتم » ، واعلم أنك أقربُ الناس إلىَّ ، وأحبُّهم فىَّ ، وبعد هذا فما يخلو صدرك
فى وقت من الأوقات عن إنكارِ علىَّ ، وسُخْط لما أفعله فى جانبك ، أو جانب غيرك ،

(١) ونص للكتاب : « إني قد توحشت فى هذا الموضع توحشا ما عليه من مزيد ، وهدمت فيه من
كنت آنس إليه ، وأصبحت مسلوب الدر ، فقيد الأدر والنهى ، فإن كان ذلك عقاباً للذنب كبير ارتكبته ،
وعلمه مولاي ولم أعلمه ، فإني صابر على تأديبه ، ضارع إليه فى عفوهِ وصفحه .

وإن أمير المؤمنين وفعله السكاهير ، لا عار بما فعل الدهر »

(٢) الخول : مثال الخدم والحشم وزنا ومعنى .

فمالو أطلعني الله تعالى عليه لسأني ، لكن الحمد لله الذي حَفِظَ ما بين القلوب بِسِرِّ بعضها عن بعض ، فيما يحول فيها ، وإنك لذو هِمَّةٍ وَمَطْمَحٍ ، ومن يكن هكذا يَصِيرُ وَيَقْضِ وَيَحْمِلُ ، وَيُبْدِلُ بالعقاب الثواب ، ويصيرُ الأعداء من قبيل الأصدقاء ، ويصيرُ من الشخص على ما يسوء ، فقد يَرى منه بعد ذلك ما يَسُرُّ ، ولقد يَخِفُّ على اليومَ مَنْ قاسمتُ من فعله وقوله مالو قطعَهم عضواً عضواً لما ارتكبوه مني ، ماشفيتُ منهم غيظي ، ولكن رأيت الإغضاء والاحتمال ، لاسيما عند الاقتدار أولى ، ونظرت إلى جميع مَنْ حولي مِمَّنْ يُحْسِنُ وَيُسِيءُ ، فوجدت القلوب متقاربةً بعضها من بعض ، ونظرت إلى السيء يعود محسناً ، والحسن يعود مسيئاً ، وصرتُ أُنْذِمُ على من سبق له مني عقاب ، ولا أُنْذِمُ على من سبق له مني ثواب ؛ فالزَمَ يا بني معالي الأمور ، وإنَّ جَماعها في التفاضي ، ومن لا يتفاض لا يسلم له صاحب ، ولا يُقَرَّبُ منه جَانِبٌ ، ولا يَنال ما تَرُقُّ إليه هِمَّتُه ، ولا يظفر بأمله ، ولا يجد مُعِيناً حين يَحْتَاجُ إليه .

فَقَبِّلِ المنذر يده وانصرف ، ولم يزل يأخذ نفسه بما أوصاه والده ، حتى تخلَّقَ بالخلق الجميل ، وبلغ ما أوصاه به أبوه ورُفِعَ قدره .
(نفع الطيب ٢ : ٣٢٧)

ه — عبد الرحمن الأوسط وابنه المنذر أيضا

وقال له أبوه يوماً : إن فيك كتيهاً مُفَرِّطاً ، فقال له : حَقٌّ لفرع أنت أصله أن يعلو ، فقال له : يا بني ، إن العيون تَمُجُّ التَّيَّاهُ ، والقلوب تَنْفِرُ عنه ، فقال : يا أبي ، لي من العزِّ والنسب وعلوِّ المكان والسلطان ما يَجِلُّ^(١) عن ذلك ، وإني لم أر العيون إلا مُقْبِلَةً عليّ ، ولا الأسماع إلا مُصْغِيَةً إليّ ، وإن لهذا السلطان رَوْنَقاً يُرِيقُه التبذل ، وعلوُّا يَحْفَظُهُ الانبساط ، ولا يصونه ويشرفه إلا التَّيَّه والانتباض^(٢) ، وإن هؤلاء الأندال ،

(١) في الأصل : « يَجِلُّ » ، وأرى صوابه : « يَجِلُّ »

(٢) جرى وذلك هل سنن أبي مسلم الحراساني ، وكان يقول لقواده إذا أخرجهم : « لا تكلوا الناس إلا رمزاً ، ولا تلاحظوهم إلا شزراً » ، فتمثل صدورهم من هيبته - انظر المقتبة المفيدة ٢ : ٢٩٩ -

لهم ميزان يَسْبُرُونَ^(١) به الرجل منا ، فإن رَأَوْهُ راجعاً ، عَرَفُوا له قدرَ رَجَاحَتِهِ ،
وإن رَأَوْهُ ناقصاً عاملوه بنقصه ، وصَيَّرُوا تواضعه صِغْراً ، وتحَفُّضه خِصَّةً » ، فقال له أبوه :
الله أنت ! فأبَقَ وما رأيتَ .
(نفع الطيب ٢ : ٢٢٩)

٦ - يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط وأحد خدامه

ومدح بعض الشعراء يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط ، فأمر له بـمال جزيل ، فلما
كان مثل ذلك الوقت ، جاءه بمدح آخر ، فقال أحد خُدَّام يعقوب : هذا اللئيم له دَيْنٌ
عندنا يَقْتَضِيهِ ! فقال الأمير :

« يا هذا ، إن كان الله تعالى خلقك مجبولاً على كُرْهِ رَبِّ الصنائع ، فاجرِ على
ما جُبِلْتَ عليه في نفسك ، ولا تكن كالأجرب يُعَدِّي غَيْرَهُ ، وإن هذا رجل قَصَدْنَا
قبلُ ، فكان منا أَشِيرٌ^(٢) به ، وحلّه على العودَة ، وقد ظن فينا خيراً ، فلا تخيِّب
ظَنَّهُ ، والحديث أبداً يحفظ القديم ، وقد جاءنا على جهة التهنئة بالعمر ، ونحن نسأل الله
تعالى أن يُطِيلَ عمرنا ، حتى يَكْثُرَ تَرَدَّاده ، ويُديمَ نَعَمَنا حتى نجد ما نُنْعِمُ به عليه ،
ويحفظ علينا مَرُوءتنا ، حتى يعيننا على التَّجَمُّل معه ، ولا يُبْلِينا بـجلِيس مثلك ، يَقْبِضُ
أَيْدِيَنَا عن إسداء الأيادي » .

وأمر للشاعر بما كان أمرَ له به قبلُ ، وأوصاه بالعود عند حلول ذلك الأوان
ما دام العمر .
(نفع الطيب ٢ : ٢٣٠)

٧ - وفاء الوزير ابن غانم لصديقه الوزير هاشم بن عبد العزيز

واعذاره عنه لدى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط

كان الوزير الوليد بن عبد الرحمن بن غانم صديقاً للوزير هاشم بن عبد العزيز ،
ثابتاً على مودته ، فلما قضى الله على هاشم بالأسر ، أجرى السلطان محمد بن عبد الرحمن
الأموي^(١) ذِكْرَهُ في جماعة من خُدَّامِهِ ، والوليدُ حاضِرٌ ، فنسبه إلى الطيش والعجلة
والاستبداد برأيه ، فلم يكن فيهم من اعتذر عنه غير الوليد ، فقال :

« أصاح الله تعالى الأمير ، إنه لم يكن على هاشم التخثير في الأمور ، ولا الخروج
عن المقدور ، بل قد استعمل جهده ، واستفرغ نصحه ، وقضى حقَّ الإقدام ، ولم يكن
مِلَّاكُ النصر بيده ، فخذله من وثق به ، وَنَكَلَ عنه من كان معه ، فلم يُرحزح قَدَمُهُ
عن موطن حِفَاظِهِ ، حتى مُلِكَ مُقْبِلًا غيرَ مُدِيرٍ ، مُبْتَلِيًا غيرَ فَشِلٍ ، فجوَزَى خيراً
عن نفسه وسلطانهِ ، فإنه لا طريقَ للهِلَامِ عليه ، وليس عليه ما جَنَّتْهُ الحربُ الفُشُومُ .
وأيضاً فإنه ما قصد أن يتجود بنفسه إلا رِضًا للأمير ، واجتناباً لِسُخْطِهِ ، فإذا كان
ما اعْتَمَدَ فيه الرضا جَالِبَ التقصير ، فذلك معدودٌ في سوء الحظ » .

فأعجب الأمير كلامه ، وشكر له وفاءه ، وأقصر عن تفنيد هاشم ، وسعى
في تخليصه .

(نفع الطيب ٢ : ٢٣٠)

(١) هو الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، حكم الأندلس من سنة ٢٣٨ إلى سنة ٢٧٣ هـ ،
وكان غزاه لأهل الشرك والخلاف ، ورجعاً أوغل في بلاد العدو ستة أشهر أو أكثر يحرق ويهسف ،
وله في العدو رقعة وادى سليط ، وهي من أمهات الوقائع لم يعرف مثلها في الأندلس قبلها .

٨ — خطبة منذر بن سعيد البلوطي^(١) المتوفى سنة ٣٥٥ هـ

في الاحتفال بقدم رسل ملك الروم

روى المؤرخون أن الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله^(٢) ، بلغ من عزّة الملك ، ورفعة السلطان بالأندلس ، أن كانت ملك الروم والإفرنجية تزدلف إليه ، تطلب مهادنته ، وتهدى إليه أنفس الذخائر ، ومن جلتهم قسطنطين بن ليون صاحب القسطنطينية ، فقد رغب في موادعته ، وبعث إليه سنة ٣٣٨ هـ وفداً من قبله بهدية له ، فتأهب الناصر لورودهم ، واحتفل بقدمهم احتفالاً رائعاً ، أحب أن يقوم فيه الخطباء والشعراء بين يديه ، لتذكّر جلالة ملكه ، وعظيم سلطانه ، وتصف ما تهباً من توطيد الخلافة في دولته ، وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه ووليّ عهده ، بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء ، فأمر الحكم صنيعة الفقيه محمد بن عبد البر بالتأهب لذلك ، وكان يدعى من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسع غيره ، وحضر المجلس السلطاني ، فلما قام يحاول التكلم ، بهّره هول المقام ، وأبّهة الخلافة ، فلم يهتد إلى لفظة ، بل غشي عليه وسقط إلى الأرض ، فقبل لأبي على القالي — صاحب الأمالى ، وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق — : قم فارقع هذا الوهمي^(٣) ، فقام فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم انقطع به القول ، فوقف ساكناً متفكراً

(١) ولد سنة ٢٦٥ هـ ، وتوفى سنة ٣٥٥ هـ ، وكان خطيباً بليغاً عالماً بالجدل حاذقاً فيه ، شديد العارضة حاضر الجواب عتيده ، ثابت الحجّة ، ولي بقرطبة قضاء الجماعة — المعبر عنه في المشرق بقضاء القضاة — لعبد الرحمن الناصر ، ثم لابنه الحكم المستنصر ، ستة عشر عاماً من سنة ٣٣٩ إلى سنة ٣٥٥ هـ ، لم يحفظ عليه فيها جور في قضية ، ولا قسم بغير سوية ، ولا ميل لهوى .

(٢) هو عبد الرحمن الثالث ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الثاني ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، حكم الأندلس من سنة ٣٠٠ هـ إلى سنة ٣٥٠ هـ ، وهو أول من تسمى من أمراء بني أمية بالأندلس بأمر المؤمنين عندما لاث أمر الخلافة بالمشرق ، وغلب موالى الترك هل بني العباس ، وبلغه أن المقتدر قتله مولاة مؤنس المظفر سنة ٣١٧ هـ . (٣) الرهمي : الشق في الشيء .

في كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه ، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد البلوطي - وكان ممن حضر في زُمرَةِ الفقهاء - قام من ذاته بدرجة من مِرقاته ، فوصل افتتاح أبي عليٍّ لأول خطبته بكلام كان يَسُجُّه سَجًّا ، كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة : فقال :

« أما بعد حمد الله ، والثناء عليه ، وَالتَّعَدَادُ لآلَائِهِ ، والشكر لِتَعْمَائِهِ ، والصلاة والسلام على محمد صَفِيِّهِ وخَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ ، فإن لكل حَادِثَةٍ مَقَامًا ، ولكل مقام مقال ، وليس بعد الحقِّ إِلَّا الضلال ، وإني قد قمتُ في مقام كريم ، بين يَدَيِ مَلِكٍ عَظِيمٍ ، فَأَصْغُوا ^(١) إِلَى مَعَشَرَ الْمَلَأِ بِأَسْمَاعِكُمْ ، وَأَتَقِنُوا عَنِّي ^(٢) بِأَفْئِدَتِكُمْ ، إن من الحق أن يقال لِلْحَقِّ صِدْقٌ ، وَلِلْبُطْلِ كَذِبٌ ، وإن الجليل تعالى في سَمَائِهِ ، وَتَقَدَّسَ في صفاته وَأَسْمَائِهِ ، أَمْرُ كَلِيمَةِ موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أَنْبِيَائِهِ ، أن يذكر قومه بِأَيَّامِ الله جل وعز عندهم ، وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ ، وإني أذكركم بِأَيَّامِ الله عندهم ، وَتَلَاْفِيهِ لَكُمْ بِخَلِيفَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، الَّتِي لَمْتُ شَعْنَكُمْ ، وَأَمَنْتُ سِرْبَكُمْ ^(٣) ، ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلًا فَكَثَّرَكُمْ وَمُسْتَضْعَفِينَ فَقَوَّاهُمْ ، وَمُسْتَذْلِينَ فَنَصَرَكُمْ ، وَلَآهَ اللهُ رِعَايَتَكُمْ ، وَأَسْنَدَ إِلَيْهِ إِمَامَتَكُمْ ، أَيَّامَ ضَرَبَتِ الْفِتْنَةُ سُرَادِقَهَا عَلَى الْآفَاقِ ، وَأَحَاطَتْ بِكُمْ شُعْلُ النِّفَاقِ ، حَتَّى صَرْتُمْ فِي مِثْلِ حَدَقَةِ الْبَعِيرِ ، مِنْ ضَيْقِ الْحَالِ ، وَنَسَكِدُ الْعَيْشَ وَالتَّغْيِيرَ ، فَاسْتَبَدَلْتُمْ بِخِلَافَتِهِ مِنَ الشَّدَةِ الرَّخَاءِ ^(٤) ، وَانْتَقَلْتُمْ بِمُئْنِ سِيَاسَتِهِ إِلَى تَهْمِيدِ كَنْفِ الْعَافِيَةِ بَعْدَ اسْتِطْطَانِ الْبَلَاءِ .

أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ مَعَاشِرَ الْمَلَأِ ، أَلَمْ تَكُنِ الدَّمَاءُ مَسْفُوكَةً فَحَقَّنَهَا ، وَالسُّبُلُ نَحْوَةً فَأَقَمَّنَهَا

(١) الذي وكتب القصة : « أصغى إليه سمعه : أماله ، وأصغى إليه : مال بجمعه نحوه . ولعل زيادة

الهاء في « بأسماعكم » من النسخ لامن الخطوب .

(٢) هكذا في نصح الطيب ، وفي مطبع الأنفس : « ومنوا على بأفئدتكم » .

(٣) السرب : النفس .

(٤) في الأصل « فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء » والصواب ما ذكرنا :

والأموال منتَهبة فأحرزها وحَصَّنْها؟ ألم تكن البلاد خراباً فَعَمَّرْها، وثغور المسلمين مُهْتَضِمةً فحماها ونصرها؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غيظكم، وشق صدركم، وصِرْتُمْ يداً على عدوكم، بعد أن كان بأسكم بينكم.

فأنشدكم الله، ألم تكن خلافته قُفِلَ الفتنة بعد انطلاقها من عقابها؟ ألم يَتَلَفَ صَلَاحُ الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها؟ ولم يَكِلْ ذلك إلى القُوَّاد والأجناد، حتى باشره بالقوَّة والمُهْجَة والأولاد، واعتزل النِّسْوان، وهجر الأوطان، ورَفَضَ الدَّعة، وهي محبوبة، وترك الرُّكون إلى الراحة، وهي مطلوبة بِطَوِيَّةٍ صحيحة، وعزيمة صريحة، وبصيرة ثابتة، نافذة ثاقبة، وريح هابئة غالبة، ونُصرة من الله واقعة واجبة، وسُلطان قاهر، وَجَدَّ ظاهر، وسيف منصور، تحت عدل مشهور، متحملاً للنَّصَب، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة الفتنة عند حَدِّثْها، ولم يبق لها غارِبٌ إِلَّا جَبَّه^(١)، ولا نَجْمٌ^(٢) لأهلها قَرَنٌ إِلَّا جَدَّه، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، ويلمَّ أمير المؤمنين شَعَثَكُمْ على أعدائه أعواناً، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأَفْصَيْنِ والأَذْنَيْنِ مستخدمةً إليه وإليكم، يأتون من كل فجٍّ عميق، وبلد سَحِيق^(٣)، لأخذ حَبْلٍ^(٤) بينه وبينكم جُمْلَةً وتفصيلاً، لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، ولن يُخْلَفَ اللهُ وعده، ولهذا الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدل على أحوال باطنة خافية، دليلها قائم، وَجَفَنُها غير قائم «وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

(١) القارب : السكادل ، أو ما بين السنام والعتق ، وجهه : قطعه .

(٢) في الأصل : «نجح» وهو تحريف ، والصواب «نجم» أي ظهر وطلع ، وجهه : قطعه .

(٣) سحيق : بعيد . (٤) أي معاهدة بينه وبينكم .

فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، ، وليس في تصديق ما وَعَدَ اللَّهُ ارْتِيَابَ ، ولكل نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ ، ولكل أَجَلٍ كِتَابٌ . فاحذوا الله أيها الناس على آلائه ، واسألوه للزبد من نعمائه ، فقد أصبحتم بين ^(١) خلافة أمير المؤمنين - أيده الله بالعصمة والسادات ، وألهمه خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد - أحسن الناس حالاً ، وأنعمهم بالاً ، وأعزهم قراراً ، وأمنهم داراً ، وأكثفهم جمعاً ، وأجلهم صنماً ، لاثهاجون ولا تُدَادُونَ ، وأتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون ، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناسحة لإمامكم والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فإن من نزع يده من الطاعة ، وسعى في تفريق الجماعة ، ومَرَّقَ من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

وقد علمت أن في التعلق ببعضتها ، والتمسك بعُروتها ، حفظ الأموال ، وَحَقْنُ الدماء ، وصلاح الخاصة والدَّهْمَاءِ ^(٢) ، وأن بدوام ^(٣) الطاعة تُقام الحدود ، وتوفى العهود ، وبها وُصِلَتِ الأرحام ، وَوُضِعَتِ الأحكام ، وبها سَدَّ اللَّهُ الْخُلُلَ ، وَأَمِنَ السَّبِيلَ ، وَوُطِّئَ الْأَكْنَافُ ، ورفع الاختلاف ، وبها طاب لكم القرار ، واطمأنت بكم الدار ، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به ، فإنه تبارك وتعالى يقول : « وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ » ، وقد علمت ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين ، وصنوف الملّحين الساعين في شقِّ عصاكم ، وتفريق مَلِكِكُمْ ، الآخذين في مخاذه دينكم ، وَهَتَكَ حَرِيمِكُمْ ، وتوهين دعوة نبيكم ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى جميع النبيين والمرسلين ، أقول قولي هذا وأختم بحمد الله رب العالمين ، مستغفراً الله الغفور والرحيم ، فهو خير الغافرين .

(١) هكذا في نفع الطيب ، ومطمح الأنفس ، ولعل صوابه : « أصبحتم بخلافة أمير المؤمنين » .

(٢) الدَّهْمَاءُ : جماعة الناس . (٣) في الأصل : « بقوام » ، وأظنه : « بقوام » .

وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه ، وثبات جنانه ، وبلاغة لسانه ، وكان الناصر أشدهم تعجباً منه ، فولاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء ، ثم توفى محمد بن عيسى القاضي ، فولاه قضاء الجماعة بقرطبة ، وأقره على الصلاة بالزهراء .
(نفع الطيب ١ : ١٧٢ ، وطلع الأنفس ص ٤٢)

٩ - خطبة أخرى له

وخطب منذر بن سعيد يوماً - وأراد التواضع - فكان من فصول خطبته ، أن قال :

« حتى متى ، وإلى متى ، أعِظْ ولا أَتَعِظْ ، وأزجر ولا أنزجر ، أدلّ الطريق إلى المستدلين ، وأبقي مقيماً مع الخائرين ! كلا ، إن هذا هو البلاء المبين ! إن هي إلا فتنتك نُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ ، وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ . اللهم فرغني لما خلقتني له ، ولا تشغلني بما تكفلت لي به ، ولا تحرمني وأنا أسألك ، ولا تعذّبي وأنا أستغفرك ، يا أرحم الراحمين » .
(نفع الطيب ١ : ٢٧٢)

١٠ - أحد حساد الرمادي الشاعر والمنصور بن أبي عامر

(المتوفى سنة ٣٩٤ هـ)

وقال المنصور بن أبي عامر المعافري^(١) يوماً لأبي عمر يوسف الرمادي الشاعر :

(١) هو المنصور أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري . دخل جده عبد الملك الأندلس مع طارق ، وكان عظيماً في قومه ، وله في الفتح أثر ، وكان الحكم بن الناصر قد استوزر ابن أبي عامر ، وفوض إليه أموره ، وترقت حاله عنده ، ثم توفى الحكم سنة ٣٦٦ هـ ، وولي بعده ابنه هشام ، وكانت له سبع بنين ، فحدث ابن أبي عامر نفسه بالتغلب عليه لمصر سنة وتم له ما أمل ، فتغلب عليه ، وترجع على سرير الملك ، وأمر أن يحيا بعقبة الملوك ، وتسمى

كيف ترى حالك معي ؟ فقال : « فوق قدرى ، ودون قدرك ^(١) » ، فأطرق المنصور كالغضبان ، فأنسلَّ الرمادى وخرج وقد ندِم على ما بدَّر منه ، وجعل يقول : أخطأت ! لا والله ، ما يُفْلِح مع الملوك من يعاملهم بالحق ، ما كان ضَرَرَنى لو قلت له : إني بلغت السماء ، وتمنطتُ بالجوزاء ! وأنشد :

مَتَى يَأْتِ هَذَا الْمَوْتُ لَا يُكْفِ حَاجَةً لِنَفْسِي إِلَّا قَدْ قَضَيْتُ قَضَاءَهَا

وكان فى المجلس من يحسده على مكانه من المنصور ، فوجد فُرصة فقال :

« وَصَلَ اللَّهُ لِمَوْلَانَا الظَّفَرَ وَالسَّعْدَ ، إِنَّ هَذَا الصَّنْفَ صَنَفُ زُورٍ وَهَذَانِ ، لَا يَشْكُرُونَ نِعْمَةً ، وَلَا يَرْعَوْنَ إِلَّا ^(٢) وَلَا ذِمَّةً ، كَلَابُ مِنْ غَلَبَ ، وَأَحْسَابُ مَنْ أَخْصَبَ ، وَأَعْدَاءُ مَنْ أَجْدَبَ ، وَحَسْبُكَ مِنْهُمْ أَنْ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ يَقُولُ فِيهِمْ : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » والابتعاد منهم أولى من الاقتراب ، وقد قيل فيهم : ما ظنك بقومٍ الصدقُ يستحسن إلا منهم ؟ » .

* * *

فرفع المنصور رأسه - وكان مُحَامِي أهل الأدب والشعر - وقد اسودَّ وجهه ، وظهر فيه الغضب المُفْرِط ، ثم قال :

« مَا بَالُ أَقْوَامٍ يُشِيرُونَ فِي شَيْءٍ لَمْ يُسْتَشَارُوا فِيهِ ، وَيَسِيثُونَ الْأَدَبَ بِالْحُكْمِ فِيمَا لَا يَدْرُونَ ، أَيْرِضِي أَمْ يُسَخِّطُ ؟ وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمُبْتَعِثُ لِلشَّرِّ دُونَ أَنْ يُبْعَثَ ، قَدْ عَلِمْنَا غُرَضَكَ ، فِي أَهْلِ الْأَدَبِ وَالشَّعْرِ عَامَّةً ، وَحَسَدُكَ لَهُمْ ، لِأَنَّ النَّاسَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتب والمحاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالعناء له حل المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة ، ولم يبق لهشام من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء له حل المنابر ، وكتابة اسمه فى السكة والطرر ، وهلك المنصور أعظم ما كان ملكا سنة ٣٩٤ هـ لسبع وعشرين سنة من ملكه .

(١) يريد « ودون ما ينبغي أن يعطيه ذلك لئلى » .

(٢) الإل : العهد .

من رأى الناس له فضلاً عليهم حسدوه

وعرفنا غرضك في هذا الرجل خاصة ، ولسنا إن شاء الله نبليغ أحداً غرضه في أحد ، ولو بلغناكم بلغنا في جانبكم ، وإنك ضربت في حديد بارد^(١) ، وأخطأت وجه الصواب ، فزدت بذلك احتقاراً وصفاً ، وإني ما أطرقت من كلام الرمادي إنكاراً عليه ، بل رأيت كلاماً يحل عن الأقدار الجليلة ، وتعجبت من تهديده له بسرعة ، واستنباطه له على قلة من الإحسان الفامر ، مالا يستنبطه غيره بالكثير ، والله لو حكمت في بيوت الأموال ، لرأيت أنها لا ترجح ما تكلم به قلبه ، ذرة . وإياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام في شخص ، قبل أن يؤخذ معه فيه ، ولا تحكموا علينا في أوليائنا ، ولو أبصرتهم منا التغير عليهم ، فإننا لا نتغير عليهم بقضاهم ، وانحرافاً عنهم ، بل تأديباً وإنكاراً ، فإننا من نريد إبعاده لم نظهر له التغير ، بل ننبذ مرة واحدة ، فإن التغير إنما يكون لمن يراد استبقاؤه ، ولو كنت ماثل السمع لكل أحد منكم في صاحبه ، لتفرقتم في أيدي سب^(٢) ، وجونبت أنا مجانبة الأجر ، وإني قد أطلعتكم على مافي ضميري ، فلا تعدلوا عن مرضاتي ، فتجنّبوا سخطي بما جنيتموه على أنفسكم .

* * *

ثم أمر أن يرد الرمادي ، وقال له : أعد على كلامك ، فارتاع ، فقال : الأمر على خلاف ما قدرت ، الثواب أولى بكلامك من العقاب ، فسكن لتأنيسه ، وأعاد ما تكلم به .

فقال المنصور : « بلغنا أن النعمان بن المنذر حشاً فم النابغة بالدّر ، لكلام

(١) من أمثال العرب : « تقرب : في حديد بارد » وهو مثل يضرب لمن طمع في غير مطعم .
(٢) من أمثالهم أيضاً : « ذهبوا أيدي سب ، وتفرقوا أيدي سب ، وأيادي سب » ، واليد : الطريق أي فرقهم طرقهم التي سلكوها كما تفرق أهل سب في مذاهب مختلفة . ضرب المثل بهم ، لأنه لما غرق مكانهم ، وهبت جنتهم ، تيددوا في البلاد — انظر القصة في الجزء الأول صفحة ١٠٨ — وقد بنوا أيدي سب ، وأيادي سب على السكون لكونه مركباً تركب خمسة عشر .

استملحه منه ، وقد أمرنا لك بما لا يَقْصُرُ عن ذلك ، ماهو أنوّه وأحسن عائِدَةً ،
وكتب له ببال وَخِلَعٍ وموضع يعيش منه ، ثم رد رأسه إلى المتكلم في شأن الرمادى
— وقد كان يفوص في الأرض لو وجد ، لشدة ما حَلَّ به مما رأى وسمع — وقال :
« وَالْعَجَبُ مِنْ قَوْمٍ يَقُولُونَ : الابتعاد من الشعراء أولى من الاقتراب ، نعم ، ذلك لمن
ليس له مفاخرٌ ، يريد تخليدَها ، ولا أيادٍ يرغب في نشرها ، فأين الذين قيل فيهم :
على مُكْثَرِهِمْ رَزَقُ مَنْ يَعتَريهِمْ وعند المُقَلِّينَ السَّامَةُ وَالْبَذَلُ^(١) »
وأيّن الذى قيل فيه :

إنما الدنيا أبو دُلْفٍ بين مَبْدَاهِ وَمُحْتَضَرِهِ
فإذا وَلَّى أبو دُلْفٍ وَلَّتْ الدنيا على أثرِهِ^(٢)

أما كان في الجاهلية والإسلام أكرمُ ممن قيل فيه هذا القول ؟ بلى ، ولكن مُحَبَّة
الشعراء والإحسان إليهم ، أَحَيَّتْ غَايِرَ ذِكرهم ، وَخَصَّصَتْهم بمفاخرٍ عَصَرهم ، وغيرهم
لم تَخْلُدِ الأمداحُ^(٣) مَا تَرِهم ، فَدَثَّرَ ذِكرهم ، وَدَرَسَ نَحْوُهم .
(نفع الطيب ٢ : ٢٢٦)

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى من قصيدة في مدح آل هرم بن سنان .

(٢) البيتان لعل بن جبلة الأنبارى الملقب بالملكوك من قصيدة قالها في مدح أبي دلف القاسم بن عيسى
العجل — وكان جواداً مدحاً وفيها يقول :

كل من في الأرض من عرب بين باديه إلى حضره
مستعير منه مكرمة يكتسبها يوم مفخره

وهذا البيتان الإخباران أحفظا عليه المأمون ، فطلبه حتى ظفر به ، فسل لسانه من قفاه ، ويقال : بل هرب
ولم يزل متوارباً منه حتى مات ، قال صاحب الأغاني : « وهذا هو الصحيح من القولين ، والآخر شاذ »

(٣) لم أجد هذا الجمع في كتب اللغة ، وإنما الذى فيها : « المدة بالكسر والمديح والأمدوحة بالفهم :
ما يمدح به ، والجمع مدح كعنب ومدائح وأمديح » .

١١ - ابن اللبانة الشاعر وعز الدولة بن المعتصم بن صمادح

لما مات المعتصم بن صمادح^(١) ملك المَرِيَّة ركب البحر ابنه وولى عهده الوائق عز الدولة ، وفارق الملك كما أوصاه والده المعتصم .

قال أبو بكر بن اللبانة الشاعر : ماعلت حقيقة جور الدهر ، حتى اجتمعت ببجاية^(٢) مع عز الدولة بن المعتصم ، فإني رأيت منه خير من يُجتمع به ، كأنه لم يخلق الله تعالى إلا للملك والرياسة ، وإحياء الفضائل ، ونظرت إلى همته تنيم من تحت مخوله ، كما ينم فرند^(٣) السيف وكرمه من تحت الصدا ، مع حفظه لقنون الأدب والتواريخ ، وحسن استماعه وإسماعه ورقة طباعه ، ولطافة ذهنه ، ولقد ذكرت له لأحد من صحبته من الأدباء في ذلك المكان ، ووصفته بهذه الصفات ، فتشوق إلى الاجتماع به ، ورغب إلى أن أستأذنه في ذلك ، فلما أعلمت عز الدولة قال :

« يا أبا بكر ، إنك لتعلم أننا اليوم في مخول وضيق ، لا يتسع لنا معهما ، ولا يحمل بنا الاجتماع مع أحد ، لا سيما مع ذى أدب ونباهة ، يلقانا بعين الرحمة ، ويزورنا بمنّة التفضل في زيارتنا ، ونكايد من ألفاظ توجّع ، وألحاظ تفجّع ، ما يجدد لنا همّا قد بلى ، ويحجى كمداً قد فنى ، وما لنا قدرة على أن نجود عليه بما يرضى عن همّنا ، فدعنا كأننا في قبر ، نتدرّع لسهام الدهر ، بدرع الصبر ، وأما أنت فقد اختلطت بنا اختلاط اللحم بالدم ، وامتزجت امتزاج الماء بالخر ، فكأننا لم نكشّف حالنا لسوانا ، ولا أظهرنا ما بنا لغيرنا ، فلا نحمل غيرك بحملك » .

(١) هو أحد ملوك الطوائف بالأندلس ، وكان صاحب المرية « بلد بالأندلس على الساحل الجنوبي » ، وكان منافساً للمعتصم بن هبّاد صاحب إشبيلية . ماوثنا له ، وقد سعى به لدى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين وأفسد ما بينهما ، وكان ابن عباد قد استنصر بابن تاشفين لصد غارة الإشبانية ، فمهر بجيشه من مراکش إلى الأندلس ، وأهل بلاد حسناً في قتالهم حتى دارت عليهم الدائرة في وقعة الزلاقة ، ثم مال على ملوك الطوائف ، فاكتمح دولهم ، ودانت له الأندلس . (٢) بجاية : بلد بالمغرب على ساحل بلاد الجزائر . (٣) جوهره .

قال ابن اللبابة : فلأ والله سمى بلاغةً لاتصدُر إلا عن سداد ، ونفسٍ أبية متمكنة من أعنة البيان ، وانصرفت متمثلاً :

لسانُ الفتى نصفٌ ، ونِصفُ فؤاده فلم يبقَ إلا صورةُ اللحم والدمِ
وكانت ترى من صامتٍ لك مُعجِبٍ زيادته أو نقصه في التكلم^(١)
(نفع الغيب ٢ : ٢٢٨)

١٢ — دفاع ابن الفخار عن القاضي الوحيدى

بحضرة ابن تاشفين

لما تألب بنو حسن على القاضي أبى محمد عبد الله الوحيدى قاضى مالقة^(٢) ، انبرى للدفاع عنه العالم الأصولى أبو عبد الله بن الفخار ، فقصده إلى حضرة الإمامة «مراً كش» ، وقام فى مجلس أمير المسلمين ، يوسف بن تاشفين ، وقد غصَّ بأربابه ، فقال :

« إنه لمقام كريم ، نبدأ فيه بحمد الله على الدنوّ منه ، ونصلي على خيرة أنبيائه ، محمد الهادى إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحابة نجوم الليل البهيم^(٣) ، أما بعد ، فإننا نحمد الله الذى اصطفاك للمؤمنين أميراً ، وجعلك للدين الحنيفى نصيراً وظهيراً ، ونفزع إليك مما دهمنا^(٤) فى حماك ، ونبثُ إليك ما لحقنا من الضيم ، ونحن تحت ظلّ علاك ، ويأبى الله أن يدهم من احتنى بأمر المسلمين ، ويصابُ بضمٍ من أدرع بحصنه الحصين ، شكوى قت بها بين يديك ، فى حق أمرك الذى عَصَدَه^(٥) مؤيِّده ، لتسمع منها ما تختيره برأيك وتنقذه ، وإن قاضيك ابن الوحيدى الذى قدّمته فى مالقة للأحكام ، ورضيت

(١) البيتان لزهير بن أبى سلمى من معلقته . (٢) باد بالاندلس على الساحل الجنوبى .

(٣) الأسود . (٤) دمه كسمع ومنع : غشيه .

(٥) عضده كنصره : أصاب عضده ، والمراد بمؤيده بنو حسن ، والمعنى : إن بنى حسن - وكانوا أحق بتأييد أمرك وتوطيده - قد أوهنوه وأوهوه بتمرغهم لأحكام القاضى ، والاطعن فيها ، أو معصه عضده : نصره ، فالمراد بمؤيده القاضى الوحيدى ، والمعنى على ذلك ، إن القاضى للقائم بأمرك يدأب على نصره ، وتلبيت دعائه ، بانتهاجه طريق الحق فى حكمه ، ولو غضب من جراء ذلك فريق من الرعية .

بمدله فيمن بها من الخاصة والعوام ، لم يزل يدُلّ على حسن اختيارك بحسن سيرته ،
وَيُرْضِي الله تعالى وَيُرْضِي الناس بظاهره وسريته ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْكَ مِنْ سُوءٍ ، ولا
دَرَبْنَا له مَوْقِفَ خِزْيٍ ، ولم يزل جارياً على مَا يُرْضِي الله تعالى ويرضيك ويرضيُنَا ، إلى
أن تعرضت بنو حُسُونٍ للطعن في أحكامه ، والهدد من أعلامه ، ولم يعلموا أن احتضام
المقدّم راجع على المقدّم ، بل جَمَحُوا في لجأهم ، فَعَمُوا وَصَمُوا ، وفعلوا وأمضوا ما به
هُمُوا ، وإلى السُّحْبِ يَرْفَعُ الكَفَّ من قد جَفَّ عنه مَسِيلُ عَيْنٍ ونهر .

فلا سمعه بلاغة أعقبت نصره ونصر صاحبه . (نفع الطيب ٢ : ٢٤٠)

١٣ - موعظة ابن أبي رندة الطرطوشي المتوفى سنة ٥٢٠ هـ

للأفضل بن أمير الجيوش

دخل ابن أبي رندة الطرطوشي^(١) مرة على الأفضل^(٢) بن أمير الجيوش
فوعظه ، وقال له :

« إن الأمر الذي أصبحت فيه من الملك ، إنما صار إليك بموت من كان قبلك ،
وهو خارج عن يدك ، بمثل ما صار إليك ، فاتق الله فيما خوّلك من هذه الأمة ، فإن الله
عز وجل سألُك عن التَّغْيِيرِ والتَّطْمِيرِ والْفَتِيلِ^(٣) ، واعلم أن الله عز وجل آتِي سليمان بن داود

(١) هو الفقيه العالم أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الطرطوشي
(بضم الطاءين ، وقد تفتح الطاء الأولى ، نسبة إلى طرطوشة من بلاد الأندلس) ويعرف بابن أبي رندة
وكان زاهداً حابداً متورعاً متقللاً من الدنيا قولاً للحق ، رحل إلى المشرق ، ودخل بغداد والبصرة ،
وسكن الشام مدة ، ودرس بها ، وكان الأفضل بن أمير الجيوش يكرمه ، فلما ولي بعده المأمون بن البطاعي
أكرم الطرطوشي إكراماً كثيراً ، وله ألف الشيخ « سراج الملوك » وتوفى بالاسكندرية سنة ٥٢٠ هـ .

(٢) هو الوزير الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش المشهور ، وكان أبوه بدر الجمالي حاكم حكا ، فأرسل
إليه الخليفة الفاطمي المستنصر يسأله القدوم إلى مصر لإصلاح أحوالها المضطربة إذ ذك ، فقدم إليها ، وتولى
شئونها ، وأقام معوجها ، وصارت له فيها الكلمة النافذة ، ثم لاينه الأفضل .

(٣) التغير : النقرة التي في ظهر النواة ، والتطهير : القشرة الرقيقة التي بين النواة والتمر ، والفتيل :
ما يكون في شق النواة .

مُلْك الدنيا بِحَذَّافِيرِهَا ، فَسَخَّرَ لَهُ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ وَالشَّيَاطِينَ وَالطَّيْرَ وَالْوَحُوشَ وَالْبَهَائِمَ ،
وَسَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ تَجْرَى بِأَمْرِهِ رُخَاءً^(١) حَيْثُ أَصَابَ ، وَرَفَعَ عَنْهُ حِسَابَ ذَلِكَ أَجْمَعَ ،
فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : « هَذَا عَطَاؤُنَا فَأَمْنٌ^(٢) أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ، فَمَاعِذَ ذَلِكَ
نِعْمَةً كَمَا عَدَدْتُمُوهَا ، وَلَا حَسِبَهَا كِرَامَةً كَمَا حَسِبْتُمُوهَا ، بَلْ خَافَ أَنْ يَكُونَ اسْتِدْرَاجًا
مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ : « هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ، لِيَبْلُوَنِي^(٣) أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ » ،
فَافْتَحَ الْبَابَ ، وَسَهَّلَ الْحِجَابَ ، وَانْصَرَّ الْمَظْلُومُ . (نفع الطب ١ : ٢٦٢)

١٤ - خطبة ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين

(المتوفى سنة ٥٣٤ هـ)

استدعى محمد بن عبد الله بن تومرت^(٤) مؤسس دولة الموحدين أصحابه ، قبل
موته بأيام يسيرة ، وقد أراد أن يستخلف عليهم عبد المؤمن بن علي ، فلما حضروا
بين يديه قام :

(١) الرخاء : الريح اللينة . (٢) أي فأعطته من شئت . (٣) بلاء : اختباره .
(٤) هو محمد بن عبد الله بن تومرت من جبل السوس في أقصى بلاد المغرب ، ولد سنة ٤٨٥ هـ ،
ورحل إلى المشرق سنة ٥٠١ هـ في طلب العلم ، وانتهى إلى بغداد ، وقيل إنه لقي أبا حامد الغزالي ، ثم
رجع إلى المغرب ، وقامت دعوته في أول الأمر في صورة أمر بالمعروف ، ناه عن المنكر ، فاتبعه بعض
القوم ، وخرج هو وأصحابه إلى السوس ، وشرع في التدريس والدعاء إلى الخير : وما زال يستميل
القلوب حتى كثرت شيعته ، ثم جعل يذكر المهدي ويشوق إليه ، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه ، فلما قرر
في نفوسهم فضيلة المهدي ، ادعى ذلك لنفسه ، وتسمى بالمهدي ، ورفع نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم
وادعى أنه من نسل الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وصرح بدعوى العصمة لنفسه وأنه المهدي
المعصوم ، وروى في ذلك أحاديث كثيرة حتى استقر عندهم أنه المهدي ، فبايعوه على ذلك ، ولما كانت
سنة ٥١٧ هـ جهز جيشاً عظيماً - وكانت مراکش تحت إمرة المرابطين - فقال : أقصدوا هؤلاء المارقين
المبدلين الذين تسبوا بالمرابطين ، فادعوهم إلى إمامة المنكر ، وإحياء المعروف ، وإزالة البدع ، والإقرار
بالإمام المهدي المعصوم ، فإن أجابوكم فهم إخوانكم ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم
فقد أباحت لكم السنة قتالهم ، وأمر على الجيش عبد المؤمن بن علي ، فخرجوا إلى مراکش فلقبهم المرابطون
قريباً منها بجيش ضخم أميرهم الزبير بن علي بن يوسف بن قاشفين ، فدعوهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت
فردوا عليهم أسوأ رد ، ثم التقت الفتتان ، فانهزم أصحاب ابن تومرت وقتل منهم خلق كثير ، فلما رجع
القوم إلى ابن تومرت جعل يهون عليهم أمر الهزيمة ، ويقرر في نفوسهم أن قتلهم شهادة ، لأنهم ذابون -

فحيد الله وأنتى عليه بما هو أهله ، وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم ، ويذكر ما كانوا عليه من الثبات فى دينهم ، والعزيمة فى أمرهم ، وأن أحدهم كان لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وذكر من حدّ عمر رضى الله عنه ابنه فى الحمر ، وتصميمه على الحق ، فى أشباه هذه الفصول ، ثم قال :

فانقرضت هذه العصاة ، نضر الله وجوهها ، وشكر لها سعيها ، وجزاها خيراً عن أمة نبيها ، وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيران ، والعالم متجاهلاً مدهيناً ، فلم ينتفع العلماء بعلمهم ، بل قصدوا به الملوك ، واجتلبوا به الدنيا ، وأمالوا وجوه الناس إليهم ، فى أشباه لهذا القول ، إلى هلم جراً .

ثم إن الله سبحانه - وله الحمد - منّ عليكم - أيتها الطائفة - بتأييده ، وخصّكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده ، وقبض^(١) لكم من^(٢) ألفاكم ضلّالاً لا تهتدون ، وعُمياً لا تبصرون ، لا تعرفون معروفاً ، ولا تُنكروُن منكراً ، قد فشّت فيكم البدع ، واستهوتكم الأباطيل ، وزين لكم الشيطان أضاليل وترّهات^(٣) ، أنزّه لسانى عن النطق بها ، وأرأباً^(٤) بلفظى عن ذكرها ، فهذا كم الله به بعد الضلالة ، وبصركم بعد العمى ، وجمعكم بعد الفرقة ، وأعزّكم بعد الذلة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين^(٥) ، وسيورثكم أرضهم وديارهم ، ذلك بما كسبتهم أيديهم ، وأضمرت قلوبهم ، وما ربك بظلام للعبيد .

— من دين الله ، فزادهم ذلك بصيرة فى أمرهم ، وحرصاً على لقاء عدوهم ، وجعلوا يشنون الفارات على نواحى مراكنس ويقتلون ويسبون ولا يبقون على أحد من قدروا عليه ، وكثر الداخلون فى طاعتهم ، ولم يزل أصحابه ظاهرين ، وأحوال المرابطين تختل ، وانتقاض دولتهم يتزايد ، إلى أن توفى ابن مومرت سنة ٥٣٤ هـ بعد أن أسس الأمور ، وأحكم التدبير ، وقام بأمر الموحدين من بعده عبد المؤمن بن على . وقد استوثق له الأمر بموت على بن يوسف بن تاشفين ملك المرابطين سنة ٥٣٧ هـ .

- (١) أتاح لكم وسبب وهياً . (٢) يعنى نفسه . (٣) جمع ترمة : وهى الباطل .
(٤) أرتفع . (٥) يريد المرابطين .

لِجَدِّدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ خَالِصَ تَيَّاتِكُمْ ، وَأُرُوهُ مِنَ الشُّكْرِ قَوْلًا وَفِعْلًا مَا يُزَكِّي بِهِ
سَمْعَكُمْ ، وَيَتَعَبَّلُ أَعْمَالَكُمْ ، وَيُنْشِرُ أَمْرَكُمْ ، وَاحْذَرُوا الْفُرْقَةَ وَاخْتَلَفَ الْكَلِمَةَ ، وَشَتَاتِ
الْأَرْاءِ ، وَكُونُوا بَدَأً وَاحِدَةً عَلَى عِلْوِكُمْ ، فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ ، هَابَكُمْ النَّاسُ ،
وَأَسْرَعُوا إِلَى طَاعَتِكُمْ ، وَكَثُرَ أَتْبَاعُكُمْ ، وَأَظْهَرَ اللَّهُ الْحَقَّ عَلَى أَيْدِيكُمْ ، وَإِلَّا تَفْعَلُوا
تَشْتَكِمُكُمُ الدَّلَّةُ ، وَتَعْبِكُمُ الصَّغَارُ (١) وَاحْتَقِرَتْكُمْ الْعَامَّةُ ، فَتُخَفَّفُكُمْ الْخَاصَّةُ ، وَعَلَيْكُمْ
فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ بِمَزْجِ الرَّأْفَةِ بِالْفِلْظَةِ ، وَاللَّيْنِ بِالْعُنْفِ ، وَاعْلَمُوا مَعَ هَذَا أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ
أَمْرُ آخِرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، إِلَّا عَلَى الَّذِي صَلَّحَ عَلَيْهِ أَمْرُ أَوَّلِهَا .

وَقَدْ اخْتَرْنَا لَكُمْ رَجُلًا مِنْكُمْ ، وَجَعَلْنَاهُ أَمِيرًا عَلَيْكُمْ ، هَذَا بَعْدَ أَنْ بَلَّوْنَاهُ (٢) فِي جَمِيعِ
أَحْوَالِهِ ، مِنْ لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ ، وَمُدْخَلِهِ وَمَخْرَجِهِ ، وَاخْتَبَرْنَا سِرِّيَّتَهُ وَعِلَانِيَّتَهُ ، فَرَأَيْنَاهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ
ثَبَاتًا (٣) فِي دِينِهِ ، مُتَبَصِّرًا فِي أَمْرِهِ ، وَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ لَا يُخْلِفَ الظَّنَّ فِيهِ ، وَهَذَا الْمَشَارِ
إِلَيْهِ هُوَ : « عَبْدُ الْمُؤْمِنِ » ، فَاسْمِعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا مَا دَامَ سَامِعًا مُطِيعًا لِرَبِّهِ ، فَإِنْ بَدَّلَ
أَوْ نَكَصَ عَلَى عَقِبِهِ ، أَوْ ارْتَابَ فِي أَمْرِهِ ، ففِي الْمُوَحِّدِينَ - أَعَزَّهُمُ اللَّهُ - بَرَكَةٌ وَخَيْرٌ
كَثِيرٌ ، وَالْأَمْرُ أَمْرُ اللَّهِ يَقْلُدُهُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ .

فَبَايَعَ الْقَوْمُ عَبْدَ الْمُؤْمِنِ ، وَدَعَا لَهُمُ ابْنُ تُوْمَرْتِ .

(المعجب ، في تاريخ أخبار المغرب ص ١٠٨)

١٥ - مقال لسان الدين بن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ)

في الحَضُّ على الجهاد

وقال لسان الدين بن الخطيب^(١) في الحَضُّ عَلَى الجهاد^(٢) :

« أَيُّهَا النَّاسُ - رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى - :

إِخْوَانُكُمْ الْمُسْلِمُونَ بِالْأَنْدَلُسِ قَدْ دَمِمَ الْعِدُوُّ - قَصَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - سَاحَتَهُمْ ،
وَرَامَ الْكُفْرَ - خَذَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى - اسْتَبَاحَتَهُمْ ، وَزَحَفَتِ أَحْزَابُ الطَّوَاغِيتِ إِلَيْهِمْ ،
وَمَدَّ الصَّلِيبُ ذِرَاعَيْهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَيْدِيكُمْ - بِيْزَةِ اللَّهِ تَعَالَى - أَقْوَى ، وَأَنْتُمْ الْمُؤْمِنُونَ
أَهْلُ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَهُوَ دِينُكُمْ فَانصُرُوهُ ، وَجِوَارُكُمْ الْقَرِيبُ فَلَا تُخْفِرُوهُ^(٣) ، وَسَبِيلُ
الرَّشْدِ قَدْ وَضَحَ فَلْتُبْصِرُوهُ ، الْجِهَادَ الْجِهَادَ قَدْ تَعَيَّنَ ، الْجَارَ الْجَارَ قَدْ قَرَّرَ الشَّرْعُ
حَقَّهُ وَبَيَّنَّ ، اللَّهُ اللَّهُ فِي الْإِسْلَامِ ، اللَّهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، اللَّهُ اللَّهُ
فِي الْمَسَاجِدِ الْمَعْمُورَةِ بِذِكْرِ اللَّهِ ، اللَّهُ اللَّهُ فِي وَطَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَدْ اسْتَفَاثَ بِكُمْ
الدِّينَ فَأَغِيثُوهُ ، قَدْ تَأَكَّدَ عَهْدَ اللَّهِ وَحَاشَاكُمْ أَنْ تَنْكُثُوهُ ، أَعْيِنُوا إِخْوَانَكُمْ بِمَا أَمَكَنَ
مِنَ الْإِعَانَةِ ، أَعَانَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ الشَّدَائِدِ ، جَدِّدُوا عَوَائِدَ الْخَيْرِ ، يَصِلِ اللَّهُ تَعَالَى

(١) هو لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد المشهور بابن الخطيب خاتمة أدباء الأندلس ، ولد بقرنطة سنة ٧١٣ هـ ، وكان أول أمره في عداد كتّاب السلطان أبي الحجاج يوسف أحد ملوك بني الأحمر ، ثم اصطفاه وجعله وزيره ، وفوض إليه شؤون مملكته ، ولما مات أبو الحجاج ، وخلفه ابنه محمد أقره عاد للوزارة ، ثم وثب إسماعيل أخو السلطان على مملكته ، فاضطر أن يفادته إلى المغرب مع وزيره لسان الدين ، فلما تحسنت الأحوال عاد محمد إلى مملكته ، وبقى مدة كتب له فيها ابن زمرك أحد تلاميذ لسان الدين ثم عاد لسان الدين إلى قرنطة ، وحل مكانه من سلطانه ، فألغى ذلك نار الحسد في ابن زمرك وأصحابه ، فسعوا به إليه حتى أحفظوه عليه ، فهرب إلى المغرب - وكان في حوزة بني مرين - وهم من البربر . حكموا المغرب بعد الموحدين من سنة ٦٩٨ إلى سنة ٨٩٠ هـ - فأكرمه سلطان المغرب عبد العزيز ، وخطب ابن الأحمر في أهله وولده ، فيمنه إليه إلى أن مات (عبد العزيز) ، وثار أحد أمراء بني مرين على ابن عبد العزيز ، وساعده ملك بني الأحمر بشرط تسليمه ابن الخطيب ، وتم له أمره ، وقبض عليه ، وسجن بفاس ، ونظر في كلماته في كتابه « الحجة » وأفتى الفقهاء بقتله ، فدمس عليه من خنقه في سجنه سنة ٧٧٦ هـ .

(٢) وكان سلطانه محمد بن أبي الحجاج أحفره إلى ملوك بني مرين يستنجدهم على الإسبان .

(٣) أحفره : غدر به ونقض عهده .

لكم جميل العوائد ، صلوا رَحِمَ الْكَلِمَةِ^(١) واسُوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائفِ
المُسَلِّمة ، كتابُ الله بين أيديكم ، وألْسِنَةُ الآياتِ تُنادِيكم ، وسنة رسول الله صلى الله
عليه وسلم قائِمةٌ فيكم ، والله سبحانه يقول فيه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ » ، وما صحَّ عنه قوله : « من أُغْبِرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
حَرَّمَهَا اللَّهُ عَلَى النَّارِ » « لا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ » ، « من جَهَّزَ غَازِيَا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا » أدركوا رَمَقَ الدِّينِ قبل أن يفوت ، بادروا عليلَ الإسلامِ قبل
أن يموت ، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عبادته ، جاهدوا في الله
بالألسن والأقوال حقَّ جِهَادِهِ :

ماذا يكون جوابكمُ لِنَدِيِّكُمْ وطريقُ هذا العذرِ غيرُ مُمَهَّدٍ
إن قال : لمْ فَرَطْتُمْ فِي أَمَّتِي وتركتموهم للعدوِّ المعتدى ؟
تالله لو أن العقوبة لم تُخَفْ لكفى الحياء من وجه ذاك السيِّد

اللهم اعطِ علينا قلوبَ العباد ، اللهم بُثْ لنا الحِمَّةَ في البلاد ، اللهم دافع عن
الجرِّيم والضعيف والأولاد ، اللهم انصرنا على أعدائك ، بأحبائك وأوليائك ،
ياخير الناصرين ، اللهم أفرِّغ علينا صبراً ، وثبَّتْ أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

(نفع للطيب : : ٣)

١٦- ما خاطب به لسان الدين تربة الساطان الكبير أبي الحسن المريني

وخاطب لسان الدين بن الخطيب تربة الساطان الكبير أبي الحسن المريني
لما قصد لها عَقِبَ ما شرع في جواره ، فقال :

« السلام عليك ثم السلام ، أيها المَوْلَى المُنَام ، الذي عرف فضله الإسلامُ ،
وأوجبتْ حقَّ العلماء الأعلام ، وَخَفَقَتْ بِعِزِّ نصره الأعلام ، وتنافست في إنفاذ أمره

(١) أى كلمة التوحيد .

وهبه السيوف والأقلام، السلام عليك أيها المولى الذى قَسَمَ زمانه بين حُكْمٍ فَضْلٍ وإمضاء نَصْلٍ، وإحراز خَصْلٍ^(١)، وعبادة قامت من اليقين على أَصْل، السلام عليك يامقرّر الصدقاتِ الجارية، ومُشيع البطونِ الجائعة، وكاسي الظهورِ العارية، وقادح زنادِ العزائمِ الوازية، ومكتبِ الكتائبِ الغازية، فى سبيلِ الله تعالى والسَّرايا^(٢) السارية، السلام عليك يا حُجَّةَ الصبر والتسليم، ومتلقَى أمرِ الله تعالى بأخلقِ المرضى والقلبِ السليم، ومفوضِ الأمرِ فى الشدائدِ إلى السميعِ العليم، ومُفْعِلِ البَنانِ الطاهر فى اكتتابِ الذكرِ الحكيم، كَرَّمَ اللهُ تعالى تُرْبَتَكَ وَقَدَّسَهَا، وطَيَّبَ رُوحَكَ الزَكِيَّةَ وَأَنَسَهَا، فلقد كنتَ للدهرِ جَمَلاً، وللإسلامِ ثَمَلاً^(٣)، وللمستجيرِ مُجِيراً، وللمظلومِ ولياً ونصيراً، لقد كنتَ للمحاربِ صَدْرًا، وفى المواقبِ بَدْرًا، وللمواهبِ بحرًا، وعلى العبادِ والبلادِ ظِلًّا ظليلاً وَسِتْرًا، لقد فَرَعْتَ^(٤) أعلامَ عِزِّكَ الثنايا، وأَجَزَلْتَ هِمَّتَكَ لملوكِ الأرضِ الهدايا، كأنكَ لم تَعْرِضِ الجنودَ، ولم تَنْشُرِ البُنودَ^(٥)، ولم تَبْسُطِ العدلَ المحدودَ، ولم تُوجِدِ الجودَ، ولم تَزَيِّنِ الرُكْعَ السُّجودَ، فتوسَّدتِ الثرى، وأطَلَّتِ الكَرَى، وشربتِ الكأسَ التى يشربها الورَى، وأصبحتِ ضارِعَ^(٦) الخلدِ، كليلِ الخلدِ، سالِكًا سَنَنِ الأبِّ والجدِّ، لم تَجِدْ بعد انصرامِ أَجَلِكَ، إلا صالحَ عَمَلِكَ، ولا صَحِيحَتَ قَبْرِكَ، إلا رايحَ تَجْرُوكَ^(٧)، وما أسلفتَ من رضاكَ وَصَبْرِكَ، فنسألُ الله تعالى أنْ يُؤَنِّسَ اغترابَكَ، ويَجُودَ بِسحابِ الرحمةِ ثَرابَكَ، وينفعَكَ بِصدقِ اليقين، ويجعلَكَ مِنَ الأئمَّةِ المُتَّقِينَ، وَيُعْلِي دَرَجَتَكَ فى عِلْمِيَّينَ^(٨)، ويجعلَكَ مع الذين أنعم اللهُ عليهم من النبيين والصديقين .

(١) الحاصل: الغلبة فى النضال . (٢) السرايا: جمع سرية وهى من خمسة أنفس إلى ثلثمائة أو أربعمائة .

(٣) الثَمال: الثبات الذى يقوم بأمر قومه .

(٤) فرعت: هلت، والثنايا: جمع ثنية كهدية، وهى العقبة، أو الجبل، أو الطريقة فيه .

(٥) البُنود جمع بند كشمس: وهو العلم الكبير .

(٦) ذليل . (٧) تَجْرُوكَ تَجْرًا وتجارة .

(٨) اسم لأهل الجنة، أو هو كتاب جامع لأعمال الخير .

وَلِيَهْنِكَ أَنْ صَبَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مَلَكَكَ مِنْ بَعْدِكَ ، إِلَى نَيْرِ سَعْدِكَ ، وَبَارِقِ رَعْدِكَ ،
وَمُنْجَزِ وَعْدِكَ ، أَرْضَى وَلَدِكَ ، وَرَيْحَانَةَ خَلْدِكَ ^(١) ، وَشِقَّةَ ^(٢) نَفْسِكَ ، وَالسَّرْحَةَ الْمُبَارَكَةَ
مِنْ غَرْسِكَ ، وَنُورِ شَمْسِكَ ، وَمَوْصِلِ عَمَلِكَ الْبَرِّ إِلَى رَمْسِكَ ، فَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ أَثَرُ دُعَوَاتِكَ
فِي خَلْقَاتِكَ ، وَأَعْقَابِ صَلَوَاتِكَ ، فَكَلِمَتُكَ - وَاللَّيْلَةُ لِلَّهِ تَعَالَى - بَاقِيَةٌ ، وَحَسَنَتُكَ إِلَى مَحَلِّ
الْقَبُولِ رَاقِيَةٌ ، يَرْعَى بِكَ الْوَسِيلَةَ ، وَيَتِمُّ مَقاصِدَكَ الْجَمِيلَةَ ، أَعَانَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِبِرْكَةِ رِضَاكَ
عَلَى مَا قَلَّدَهُ ، وَعَمَّرَ بِتَقْوَاهُ يَوْمَهُ وَغَدَهُ ، وَأَبْعَدَ فِي السَّعْدِ أَمَدَهُ ، وَأَطْلَقَ بِالْخَيْرِ يَدَهُ ،
وَجَعَلَ الْمَلَائِكَةَ أَنْصَارَهُ وَالْأَقْدَارَ عُدَدَهُ .

وإِنِّي أَيُّهَا الْمَوْلَى الْكَرِيمُ ، الْبَرُّ الرَّحِيمُ ، لَمَّا اشْتَرَانِي ، وَرَاشِي ^(٣) وَبَرَّانِي ،
وَتَعَبَّدَنِي بِإِحْسَانِهِ ، وَاسْتَعْمَلَ فِي اسْتِغْلَاصِي خَطَ بَنَانِهِ ، وَوَصِيَّةَ لِسَانِهِ ، لَمْ أَجِدْ مَكافَأَةً
إِلَّا التَّقَرُّبَ إِلَيْكَ وَإِلَيْهِ بَرِّثَانِكَ ، وَإِغْرَاءَ لِسَانِي بِتَخْلِيدِ عَلَيَّانِكَ ، وَتَعْفِيرِ الْوَجْنَةِ
فِي حَرَمِكَ ، وَالْإِشَادَةَ بَعْدَ الْمَاتِ بِمَجْدِكَ وَكَرَمِكَ ، فَفَتَحْتَ الْبَابَ فِي هَذَا الْفَرْضِ ،
إِلَى الْقِيَامِ بِحَقِّكَ الْمَقْتَرَضِ ، الَّذِي لَوْلَاهُ لَانْصَلَّتِ الْغَفْلَةُ عَنْ أَدَائِهِ وَتَمَادَّتْ ، فَمَا يَبَسَتْ
الْأَلْسُنُ وَلَا كَادَتْ ، مُتَحَيِّزًا بِالسَّبْقِ ، إِلَى أَدَاءِ هَذَا الْحَقِّ ، بَادِئًا بِزِيَارَةِ قَبْرِكَ الَّذِي هُوَ
رَحْلَةُ الْغَرْبِ ، مَا نُوْبِتُهُ مِنْ رَحْلَةِ الشَّرْقِ ، وَمَا أَعْرَضْتُ عَنْهُ فَأَقَطَعُهُ أَثَرُ مَوَاقِعِ الْاسْتِحْسَانِ
وَقَدْ جَمَعَ بَيْنَ الشُّكْرِ وَالتَّوْبَةِ وَالْإِحْسَانِ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ يَجْعَلُهُ عَمَلًا مَقْبُولًا ، وَيَبْلُغُ فِيهِ
مِنَ الْقَبُولِ مَأْمُولًا ، وَيَتَغَمَّدُ مِنْ ضَاجِعَتِهِ مَنْ سَلَفَكَ الْكَرَامَ بِالْمَغْفِرَةِ الصَّيِّبَةِ ، وَالتَّحِيَّاتِ
الطَّيِّبَةِ ، فَنَعِمَ الْمُلُوكُ الْكِبَارُ ، وَالْخُلَفَاءُ الْأَبْرَارُ ، وَالْأَئِمَّةُ الْأَخْيَارُ ، الَّذِينَ كَرُمَتْ مِنْهُمْ
السَّيَرُ وَحَسُنَتِ الْأَخْبَارُ ، وَسَعِدَ بَعِزَمَاتِهِمُ الْجِهَادِيَةُ الْمُؤْمِنُونَ وَشَقِيَ الْكُفَّارُ ، وَصَلَوَاتُ
اللَّهِ تَعَالَى عَوْدًا وَبَدَأً عَلَى الرَّسُولِ الَّذِي اصْطَفَاهُ وَاخْتَارَهُ فَهُوَ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارُ ، وَعَلَى آلِهِ
وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ هُمْ السَّادَةُ الْأَبْرَارُ ، وَسَلَامٌ تَسْلِيمًا .

(نفع العلي : ٤ : ١٢٥)

(١) الخلد : النفس والقلب . (٢) الشقة : نصف الشيء إذا شق ، والسرحة : الشجرة العظيمة .

(٣) راض السهم : ألزق عليه الريش ، وراش الصديق : أطعمه وسقاه وكساه وأصلح حاله .

١٧ — وصية لسان الدين بن الخطيب لأولاده

« الحمد لله الذى لا يُرَوَّعُهُ الحِمَامُ المَرْقُوبُ ، إِذَا شِمْ ^(١) نَجْمُهُ المَقْبُوبُ ، وَلَا يَبْغَتْهُ الأَجَلُ المَكْتُوبُ ، وَلَا يَفْجُؤُهُ الفِرَاقُ للعتوب ، مُلْهِمُ الهدى الذى تَطْمَئِنُّ بِهِ القلوب ، وَمُوضِّحُ السبيل المطلوب ، وجاعل النصيحة العريضة من قِسم الوجوب ، لاسِيَّما لِلْوَلِيِّ المحبوب ، والولد المنسوب ، القائل فى الكتاب المُنْجِزِ الأَسْلُوب : « أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبُ ^(٢) » ، « وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ^(٣) » ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ، أكرم من زُرْتُ على نُورِهِ جُيُوبُ الغيوب ، وَأَشْرَفَ مَنْ خُلِعتْ عَلَيْهِ حُلَالُ الهَابَةِ والعِصْمَةِ ، فلا تَقْتَحِمُهُ العيونُ ، ولا تَصِمُهُ العيوبُ ^(٤) ، والرضا عن آله وأصحابه الثابرين على لسان ^(٥) الاستقامة بالهوى المطلوب ، والأملِ المسلوب ، والافتداء الموصِّلِ إلى الرغوب ، والعزِّ والأمن من اللُّغُوب ^(٦) ، وبعد : فَإِنِى لَمُتَاعِلَانِى المَشِيبَ بِقِمَّتِهِ ^(٧) ، وقادى الكِبَرِ بِرُمَّتِهِ ^(٨) ، وَأَدَّ كَرْتَ الشَّبابِ

(١) من شام البرق : نظر إليه أين يقصد ، وأين يطر .

(٢) وتام الآية الكريمة :

« إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » .

(٣) وتام الآية الكريمة : « إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ،

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .

(٤) تزديده وتحدقه ، ووصفه : ماهه . (٥) اللسان : الرسالة .

(٦) اللغوب : أشد الإعياء . (٧) القمة : أعلى كل شيء .

(٨) الرمة بالضم ويكسر : قطعة من حبل .

بعد أمته^(١)، أَسِفْتُ لِمَا أَضَعْتُ ، وَنَدِمْتُ بَعْدَ النِّعَامِ عَلَى مَا رَضَعْتُ ، وَنَاكَدَ
 وَجُوبُ نَصْحِي لِمَنْ لَزِمَنِي رَعِيَهُ ، وَتَعَلَّقَ بِعَيْنِي سَعِيَهُ ، وَأَمَلْتُ أَنْ تَتَعَدَّى إِلَى ثَمَرَةٍ
 اسْتِقَامَتِهِ ، وَأَنَا رَهِينُ فَوَاتٍ ، وَفِي بَرَزَخِ أَمْوَاتٍ ، وَيَأْمَنُ الْعَثُورُ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي اقْتَضَتْ
 عِثَارِي ، إِنْ سَلَكَ - وَعَسَى أَلَّا يَكُونَ ذَلِكَ - عَلَى آثَارِي ، فَقُلْتُ أَخَاطِبُ الثَّلَاثَةَ
 الْوَلَدَ ، وَثَمَرَاتِ الْخَلَدِ^(٢) بَعْدَ الضَّرَاعَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي تَوْفِيقِهِمْ ، وَإِضْاحِ طَرِيقِهِمْ ،
 وَجَمْعِ تَفْرِيقِهِمْ ، وَأَنْ يَمُنَّ عَلَى مَنْهُمْ بِحَسَنِ الْخَلْفِ ، وَالتَّلَافِي مِنْ قَبْلِ التَّلَفِ ، وَأَنْ
 يَرْزُقَ خَلْفَهُمُ التَّمَسُّكَ بِهَدْيِ السَّلَفِ ، فَهُوَ وَلِيُّ ذَلِكَ ، وَاهْدَى إِلَى خَيْرِ الْمَسَالِكِ :
 اعْلَمُوا هَذَا كَمَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى الَّذِي بَأْنَوَارِهِ تَهْتَدِي الضَّلَالُ ، وَبِرِضَاهُ تُرْفَعُ الْأَغْلَالُ ،
 وَبِالْتِمَاسِ قُرْبِهِ يَحْصُلُ الْكَمَالُ ، إِذَا ذَهَبَ الْمَالُ ، وَأَخْلَفَتِ الْأَمَالُ ، وَتَبَرَّأَتْ مِنْ يَمِينِهَا
 الشَّامِلُ ، أَنِي مُودِّعُكُمْ وَإِنْ سَأَلَنِي الرَّدِّي ، وَمُفَارِقُكُمْ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى ، وَمَا عَدَا مِمَّا
 بَدَأَ ، فَكَيْفَ وَأَدَوَاتُ السَّفَرِ تُجْمَعُ ، وَمَنَادَى الرَّحِيلِ يُسْمَعُ ، وَلَا أَقْلٌ لِلْحَبِيبِ الْمُوَدِّعِ ،
 مِنْ وَصِيَّةٍ مُحْتَظَرٍ ، وَغُجَالَةٍ مُقْتَصَرٍ ، وَرَتِيمَةٍ^(٣) تُقْعَدُ فِي خِنْصِرٍ ، وَنَصِيحَةٍ تَكُونُ
 نَشِيدَةً وَإِيْعَ مُبْصِرٍ ، تَتَكَفَّلُ لَكُمْ بِحَسَنِ الْعَوَاقِبِ مِنْ بَعْدِي ، وَتَوْضُّحَ لَكُمْ مِنَ
 الشَّفَقَةِ وَالْحَنَوِ قَصْدِي ، حَسْبَمَا تَضَمَّنَ وَعْدُ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ وَعْدِي ، فَهِيَ أَرْبُكُمْ الَّذِي
 لَا يَتَغَيَّرُ وَقْفُهُ ، وَلَا يَنَالُكُمْ الْمَكْرُوهُ مَارَفًا عَلَيْكُمْ سَقْفُهُ ، وَكَأَنِّي بِشَبَابِكُمْ قَدْ شَاخَ ،
 وَبِرَاحِلِكُمْ قَدْ أَنَاخَ ، وَبِنَاشِطِكُمْ قَدْ كَسِلَ ، وَاسْتَبْدَلَ الصَّابَ^(٤) مِنَ الْعَسَلِ ،
 وَنُصُولَ^(٥) الشَّيْبِ تَرَوُّعَ بَأْسَلٍ ، لَا بِلِ السَّامِ^(٦) مِنْ كُلِّ حَدَبٍ قَدْ نَسَلَ ، وَالْمَعَادُ

(١) الأمة هنا: الحين، اقتبس من قوله تعالى: « وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » .

(٢) الخلد: القلب والنفس .

(٣) الرتيمة: خيط يعقد في الأصبع للتذكير .

(٤) الصاب: عصارة شجر مر . (٥) النصول: جمع نصل : وهو حديدة الرمح والسيف .

والأسل: الرماح . (٦) السام: الموت : والحذب: ما ارتفع من الأرض ، ونسل كضرب : أسرع
 والمعاد : المرجع .

الْحَدُّ وَلَا تَسَلْ ، فَبِالْأَمْسِ كُنْتُمْ فِرَاحَ حِجْرٍ^(١) ، وَالْيَوْمَ أَبْنَاءُ عَسْكَرٍ حَجْرٍ ، وَغَدًا شَيْخُ مَضِيقَةٍ وَهَجْرٍ ، وَالْقُبُورُ قَافِرَةٌ^(٢) ، وَالنَّفُوسُ عَنِ الْمَالُوفَاتِ صَاغِرَةٌ ، وَالدُّنْيَا بِأَهْلِهَا سَاخِرَةٌ ، وَالْأُولَى تَعْقُبُهَا الْآخِرَةُ ، وَالْحَازِمُ مَنْ لَمْ يُتَعَظْ بِهِ فِي أَمْرٍ ، وَقَالَ : « بِيَدِي لَا يَبِيدُ عَمْرُو^(٣) » ، فَاقْتَنَوْهَا مِنْ وَصِيَّةٍ ، وَمَرَامٍ^(٤) فِي النَّصْحِ قَصِيَّةٍ ، خُصُّوا بِهَا أَوْلَادَكُمْ إِذَا عَقَلُوا ، لِيَجِدُوا زَادَهَا إِذَا انْتَقَلُوا ، وَحَسْبِي وَحَسْبُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَخْلُقِ الْخَلْقَ هَمَلًا ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ أَهْلُهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَا رَضِيَ الدُّنْيَا مَنْزِلًا ، وَلَا لَطَفَ مِنْ أَصْبَحَ عَنْ فِتْنَةِ الْخَيْرِ مُنْعَزِلًا ، وَلِتَلْقَنُوا تَلْقِينًا وَتَعْلَمُوا عِلْمًا يَقِينًا ، أَنْكُمْ لَنْ تَجِدُوا بَعْدَ أَنْ أَنْفَرِدَ بِذَنْبِي ، وَيفْتَرِشَ التُّرَابَ جَنْبِي ، وَيَسُحَّ انْسِكَابِي ، وَتَهْرُولَ عَنِ الْمَصَلَّى رِكَابِي ، أُخْرِصَ مِنِّي عَلَى سَعَادَةٍ إِلَيْكُمْ تُجَلِّبُ ، أَوْ غَايَةِ كَمَالٍ بِسَبِّكُمْ تُرْتَادُ وَتُطَلَّبُ ، حَتَّى لَا يَكُونَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا أَوْزَفُ^(٥) مِنْكُمْ ظِلًّا ، وَلَا أَشْرَفُ كَحَلًّا ، وَلَا أَغْبَطُ نَهَلًا وَعَلَا^(٦) ، وَأَقْلَ مَا يَوْجِبُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ أَنْ تُصَيِّخُوا^(٧) إِلَى قَوْلِي الْآذَانَ ، وَتَسْتَلِحُوا

(١) أي كالفرّاح في حِجْر أمها وحضنها ، والمجر : الكثير من كل شيء ، وجيش مجر : كثير جدا .

(٢) أي فائضة أفواها للموت .

(٣) هو مثل قاله الزباء ملكة الجزيرة ، وذلك أنها كانت دعت جذية الأبرش ملك ماعل شاطئ الفرات إلى زواجها . فلما استقر عندها قتله فأرأى بأبيها - وكان جذية قد قتله - فاحتال مولاه قصير لئلا يراها ، فخرج إلى الزباء ، وأظهر أن عمرو بن عدى - ابن أخت جذية - فعل ذلك به ، وأنه زعم أنه مكر بخاله جذية وغره من الزباء ، فلما استرسلت إليه ووثقت به ، زين لها أن تبعته إلى العراق ليحمل إليها من طرائفها وثيابها وطيبها ، وأنها ستصيب في ذلك أربابا عظاما ، فأذنت له وقدم العراق ، وأتى الحيرة متنكرًا ، وزوده عمرو بصنوف البز والأمتعة ، ورجع إلى الزباء ، فأعجبها ما رأت وسرها ، وازدادت به ثقة ، وجهزته ثانية ، فسار حتى قدم على عمرو فجهزه وعاد إليها ، ثم عاد الثالثة وجمع ثقات رجال عمرو ، وحلهم في الغرائر على الجمال ، وسار إلى الزباء ، ودخلت الإبل المدينة وكانت الزباء قد حذرت عمرا ، واتخذت نفقا إلى حصن لها في داخل مدينتها ، وقالت : إن فجأت أمر دخلت النفق إلى حصني - ودل قصير عمرا على باب النفق ، فلما خرجت الرجال من الغرائر صاحروا بأهل المدينة ووضعوا فيهم السلاح ، وقام عمرو على باب النفق ، وأقبلت الزباء تريد النفق ، فأبصرت عمرا فعرفته بالصورة التي صورت لها - فصت خاتمها وكان فيه الدم ، وقالت : « بيدي لا يبد عمرو » فذهبت مثلا ، وتلقاها عمرو فجللها بالسيف وقتلها ، وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلها ، وانكفأ راجعا إلى العراق .

(٤) مرام جمع مرمى ، وقصة بعيدة .

(٥) ووف الظل : اتسع وطال وامتد .

(٦) النهل : الشرب الأول ، والمعل والمعلل : الشرب الثاني أو الشرب بعد الشرب تباها .

(٧) أصاخ له استمع .

صُبْحَ نَضْحَى فَقَدْ بَانَ ، وَسَاعِيدَ عَلَيْكُمْ وَصِيَّةَ لُقْمَانَ ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ :
 « وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ : يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ، إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ -
 يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ
 إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . وَلَا تُصَعِّرْ^(١) خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا
 إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ، وَأَقِصْ فِي مَشْيِكَ ، وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ
 أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » وَأُعِيدَ وَصِيَّةَ خَلِيلِ اللَّهِ وَإِسْرَائِيلَ حُكْمُ^(٢)
 مَا تَضَمَّنَهُ حُكْمُ تَنْزِيلِهِ « يَا بُنَيَّ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ
 مُسْلِمُونَ » والدين الذي ارتضاه واصطفاه ، وأكملَه ووفَّاه ، وقرَّره مُصْطَفَاهُ ، من قبل
 أن يتوفَّاه ، إذا أُعْمِلَ فيه انتقاد ، فهو عمل واعتقاد ، وكلاهما مُقَرَّرٌ ، ومستمدٌّ من
 عقل أو نقل محرر ، والعقل متقدِّمٌ ، وبنائوه مع رَفَضِ أخيه متهدِّمٌ ، فالله واحد أحد ،
 فَرُدَّ صَمَدُ^(٣) ، ليس له والد ولا ولد ، تنزَّه عن الزمان والمكان ، وَسَبَقَ وجودُهُ
 وجودَ الأكوان ، خَالِقُ الخلق وما يعملون ، الذي لا يُسْأَلُ عن شيء وهم يُسْأَلُونَ ، الحَيُّ
 العليمُ المدبِّرُ القدير ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ، أرسل الرسل رحمةً
 لتدعو الناس إلى النجاة من الشقاء ، وتوجَّهَ الْحُجَّةُ في مصيرهم إلى دار البقاء ، مؤيِّدَةً
 بالمعجزات التي لا تُنْصَفُ أنوارها بالاختفاء ، ولا يجوز على تواترِها دعوى الانتفاء ،
 ثم ختم ديوانهم بنبيٍّ ملَّتْنَا الرعية الهَمَلُ ، الشاهدة عَلَى الْمَلَلِ ، فتلخَّصت الطاعة ،
 وَتَعَيَّنَتِ الْإِمْرَةُ الْمُطَاعَةُ ، ولم يَبْقَ بعده إلا ارتقَابُ الساعة ، ثم إن الله تعالى قَبَضَهُ
 إِذْ كَانَ بَشَرًا ، وترك دينه يُضْمُّ من الأمة نَشْرًا^(٤) ، فمن تَبِعَهُ لِحَقِّ به ، ومن تركه
 نُوطُ^(٥) عنه في مَنْسَبِهِ ، وكانت نجاته عَلَى قدر سَبَبِهِ ، رُوِيَ عَنْهُ عليه الصلاة والسلام

(١) صعر خفه : أماله كبراً .

(٢) لإسرائيل : يعقوب عليه السلام ، والحكمة : وهو يدل من وصية .

(٣) الصمد : السيد ، لأنه يصمد أى يقصد فى قضاء الحوائج . (٤) الفشر : المنتشر ، ومنه :

« اللهم اغصم نشرى » . (٥) أى أبعد عنه وطرده ، يقال ناطت الدار : أى بعدت .

أنه قال : « تركتُ فيكم ما إن تمسَّكُم به لم تَضِلُّوا بعدى ، كتابَ الله وسُنَّتِي ، فَمَعْصُوا عليهما بالنواجذ^(١) » .

فاعملوا يا بَنِي بُوَصِيَّةٍ من ناصح جاهد ، وَمُشْفِقٍ شفقةً والد ، واستشعروا حُبَّهُ الذي توافرت دواعيه ، وَعُوا مَرَّاشِدَ هَدْيِهِ ، فَيَا فَوْزَ وَاعِيَهُ ! وَصِلُوا السَّبَبَ بسببه ، وآمِنُوا بكلِّ ما جاء به ، مُجْمَلًا أَوْ مُفَصَّلًا عَلَى حَسَبِهِ ، وَأَوْجِبُوا التَّجَلَّةَ لَصَحْبِهِ ، الذين اختارهم الله تعالى لصحبته ، واجعلوا محبتكم إياهم من توابع محبته ، واشملوهم بالتوقير ، وَفَضِّلُوا مِنْهُمْ أَوْلَى الفضل الشهير ، وتبرَّءوا من العصبية التي لم يدعكم إليها داعٍ ، ولا تَعِ الشَّاجِرَ بينهم أذنُ وَاعٍ ، فهو عنوان السَّداد ، وعلامة سلامة الاعتقاد ، ثم اسحبوا فضل تعظيمهم عَلَى قَهَاءِ الْمِلَّةِ ، وأتمتها الْجَلَّةُ^(٢) ، فهم صَقَلَةٌ نُصُوبُهُمْ ، وفروعٌ ناشئة من أصولهم ، وَوَرَثَتُهُمْ وورثة رسولهم ، واعلموا أنني قَطَعْتُ في البحثِ زَمَانِي ، وجعلتُ النظرَ شَانِي ، منذ براني الله تعالى وأنشائي ، مع نُتْبِلٍ^(٣) يَعْتَرِفُ به الشَّانِي ، وإِدْرَاكِ يَسْلَمُهُ العقلُ الإنساني ، فلم أجد خَاطِئًا وَرَقَ ، ولا مُصَبِّبَ عَرَقَ ، ولا نَارِغَ خِطَامَ ، ولا مُتَكَلِّفَ فِطَامَ ، ولا مُقْتَحِمَ بَحْرِ طَامَ ، إلَّا وَغَايَتُهُ التي يَقْصِدُهَا قد نَضَلَّتْهَا الشَّرِيعَةُ وَسَبَقَتْهَا ، وَفَرَعَتْ^(٤) نَفْيَتَهَا وَارْتَقَتْهَا ، فعليكم بِالْإِزَامِ جَادَّتْهَا^(٥) السَّابِلَةُ ، ومصاحبة رَفُقَتِهَا الكاملة ، والاهتداء بِأَقْمَارِهَا غيرِ الْآفَلَةِ ، والله تعالى يقول ، وهو أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » ، وقد عَكَتْ شَرَائِعُهُ ، وَرَاعَ الشُّكُوكَ رَائِعُهُ ، فلا تستنزلكم الدنيا عن الدين ، وابدلوا دونه النفوسَ فَعَلَ المتهدين ، فلن ينفعَ مَتَاعٌ بعد الخلود في النار أبد الآبدين ، ولا يضرَّ مَفْقُودُ مَعَ الْفُوزِ بالسعادة والله أَصْدَقُ الْوَاْعِدِينَ ، ومَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَحْسَنُ مَا وَرِثَ الْأَوْلَادُ عن الوالدين ، اللهم قد بَلَغْتُ فَأَنْتَ خَيْرُ الشَّاهِدِينَ ، فاحذروا الْمَعَاطِبَ التي توجب في الشقاء الخلود ، وتستدعي شَوْهَ الوجوه وَنُضْجَ الجلود ، واستمعيذوا بِرِضَا الله من سُخْطِهِ ، وَارْتَبُّوا بِنُفُوسِكُمْ عن غَمَطِهِ ، وارضعوا آمالكم عن التفتوحِ بِفُرُورٍ قد خَدَعَ

(١) أقصى الأضراس . (٢) جمع جليل . (٣) النبل : الذكاء والنجابة ، والشانِي : الميغض .

(٤) فرعه : علاه ، والذنية : العقبة ، أو الجبل أو الطريقة فيه أو إليه .

(٥) الجادة : الطريق الواضح ، والسابلة من الطرق المسلوكة .

أسلافكم ، ولا تحمدوا على جيفة العَرَض الرائل ائتلافكم ، واقنعوا منه بما تيسر ، ولا تأسوا^(١) على ما فات وتعدّر ، فإنما هي دُجَنَّة^(٢) ينسخها الصّباح ، وصَفْقَة يتعاقبها الخسار أو الرّباح ، ودونكم عقيدة الإيمان فشدّوا بالنواجذ عليها ، وكفّفكفّوا الشّبه أن تدنّوا إليها ، واعلموا أن الإخلال بشيء من ذلك خرّق لا يرفّقه^(٣) عمل ، وكلّ ماسوى الراعى همل ، وما بعد الرأس في صلاح الجسم أمل ، وتمسّكوا بكتاب الله تعالى حفظًا وتلاوة ، واجعلوا حمله على حمل التكليف علاوة ، وتفكروا في آياته ومعانيه ، وامتلوا أوامره ونواهيه ولا تتأولوه ولا تغفلوا فيه ، وأشربوا قلوبكم حبّ من أنزل على قلبه ، وأكثروا من بواعث حبه ، وصونوا شعائر الله صون المحترّم ، واحفظوا القواعد التي يبنى عليها الإسلام حتى لا ينخرم ، الله الله في الصلاة ذريعة التّجلّية ، وخاصّة المِلَّة ، وحاقنة الدم ، وغنى المستاجر المستخدم ، وأم العبادة ، وحافظة اسم المراقبة لعالم الغيب والشّهادة ، والناحية عن الفحشاء والمنكر ، إن عرّض الشيطان عرّضها ، ووطأ للنفس الأمّارة سماءها وأرضها ، والوسيلة إلى بلّ الجنّات ببرود الذكر ، وإيصال ثمّة الله إلى مريض الفكر ، وضامنة حسن العشرة من الجار ، وداعية للمسألة من الفجّار ، والواسمة بِسْمَةِ السلامة ، والشّاهدة للعبد برفع الملامة ، وغسول^(٤) الطبع إذا شانه طبع ، والخير الذي يكلّ ماسواه له تبع ، فاصبروا النفس على وظائفها ، بين بدء وإعادة ، فالخير عادة ، ولا تفضّلوا عليها الأشغال البدنية ، وتؤثّروا على العليّة الدّنيّة ، فإن أوقات المعينة بالانفلات تنبّس^(٥) ، والفلك بها من أجلكم لا يحبّس ، وإذا قورنت بالشواغل فلها الجاه الأصيل ، والحكم الذي لا يغيّره الغدوّ ولا الأصيل ، والوظائف بعد أدائها لا تقوت ، وأين حقّ من يموت من حقّ الحى الذي لا يموت ؟ وأحكموا أوضاعها إذا أقمتموها ، وأتبعوها النوافل ما أطقتموها ، فبالإتيان تفاضلت الأعمال ، وبالمرعاة

(١) ولا تحزنوا . (٢) الدجّة: الظلمة . (٣) رفا الثوب كنع: لام خرقة، وضم بعضه إلى بعض.

(٤) الغسل كصبور وتنور: الماء يغتسل به، وفي الأصل غاسول وهو تحريف، والطبع الشين والغيث .

(٥) أى تذهب وتضيع ، يقال: انبس الرجل إذا ذهب ، وفي الأصل: تبتس . وأراء محرفا .

استحقت الكمال ، ولا شكرَ مع الإهمال ، ولا ربحَ مع إضاعة رأس المال ، وذلك أحرى بإقامة الفرض ، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض .

والطهارة التي هي في تحصيلها سبب مؤصل ، وشرط لمشروطه محصل ، فاستوفوها ، والأعضاء نظّفوها ، ومياهاها بغير أوصافها الحيدة فلا تصفوها ، والحجول والغُرر^(١) فأطيلوها ، والنيّات في كل ذلك فلا تهملوها ، فالبناء بأساسه ، والسيف بمراسه ، واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور ، وذكر مجبور وغير مجبور ، تستغرق الأوقات ، وتنازع شتى الخواطر المفترقات ، فلا يضبطها إلا مَنْ ضَبَطَ نفسه بِعِقال ، واستعاض صدّاه بصِقال^(٢) ، وإن تراخى قَهَقَر^(٣) الباع ، وسرّقه الطّباع ، وكان لما سواها أضيع . فشِمِلَ الضّياع ، والزكاة أختها الحبيبة . وَلَدَتْهَا الْقَرِيبة . مفتاح السعادة بالعرض الزائل . وشكران المسئول على الضدّ من درجة السائل . وحق الله تعالى في مال من أغناه . لمن أجهده في المعاش وعَنَاه^(٤) من غير استحقاق ملء يده وإخلاء يد أخيه . وَلَا عِلَّةَ إِلَّا الْقَدَرُ الَّذِي يُخْفِيهِ . وَمَا لَمْ يَنْلَهُ حَظَّ اللَّهِ تَعَالَى فَلَا خَيْرَ فِيهِ ، فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها . في اختيار عَرَضِها وَنِتَاجِها . واستحيوا من الله تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل . وَخَالَفُوا الشَّيْطَانَ كُلَّمَا عَذَلَ . وَاذْكُرُوا خُرُوجَكُمْ إِلَى الْوُجُودِ لَا تَمْلِكُونَ ، ولا تدرون أين تسلكون . فوهب وأقدر . وأورد بِفَضْلِهِ

(١) الحجول : جمع حجل بالكسر والفتح وهو الخلخال ، والمراد بها هنا الأطراف ، وبإطالتها استيعاب غسلها ، والغُرر جمع غرة بالضم وهي الوجه ، والمراد بتطويلها في الوضوء : غسل مقدم الرأس مع الوجه ، وغسل صفحة العنق ، وجملة المعنى : أنه يأمر بإسباغ الوضوء ، وفي الحديث الشريف : « أُمِّتِي الْغُرُّ الْمُحَجَّلُونَ » والغُر جمع الأغر من الغرة ، وهي بياض في جبهة الفرس فوق الدبر ، يقال : فرس أغر وغراء ، والمحجل : الفرس الذي يرتفع البياض في قوائمه في موضع القيد ، أي بياض مواضع الوضوء من الوجه الأيمن والأقدام ، استعار أثر الوضوء في الوجه واليدين والرجلين من البياض الذي يكون في وجه الفرس ويديه ورجليه .

(٢) صواب العبارة « واستعاض بصدته صقالا » يقل استبدل الشيء بغيره : إذا أخذه مكانه (ومنه ترى أن الباء داخل على المعرك) واعتاضه منه واستعاضه (والباء كن) .

(٣) قَهَقَر وتقهقر : رجع القهقرى . (٤) أنعبه .

وأصْدَر . ليرتَّب بكرمه الوسائل ، أو يقيم الحجج والدلائل . فاقبضوا إليه الوسيلة بآله
وَأَعْتَمِنُوا رضاه ببعض نواله . وصيام رمضان عبادة السرِّ المُرَبَّة إلى الله زُلْفَى .
المَحْضَةُ^(١) لمن يعلم السرَّ وأخفى . مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام . والقيام
ببرِّ القيام ، والاجتهاد ، وإيثار الشهاد ، على المهاد ، وإن وسَّع الاعتكاف فهو من سُنَّه المَرْعِيَّة ،
ولو اُحِقَّه الشرعية ، فبذلك تَحْسُن الوجوه ، وتحصل من الرِّقَّة على ما ترجوه ، وتذهب
قسوة الطباع ، ويمتد في مَيِّدان الوسائل الباع ، والحج مع الاستطاعة الركن الواجب ،
والفرض على العين لا يحجبه الحاجب ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره فيما
فرض عن ربه وسنَّه ، وقال : « ليس له جزاء عند الله إلا الجنة » ويلحق بذلك الجهاد
في سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوة عليه ، وغنى لديه ، فكونوا ممن يسمع نَفِيره
ويطيعه ، وإن عجزتم فاعينوا من يستطيعه . هذه عُمد الإسلام وفروضة ، وتقود مهزه
وعُرُوضه ، لحافظوا عليها تعيشوا مبرورين ، وعلى من يُناويكم ظاهرين^(٢) ، وتلقوا الله
لامبدلين ولا مغيَّرين ، ولا تضيعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين .

واعلموا أن بالعلم تستعمل وظائف هذه الألقاب ، وتَجَلَّى محاسنها من بعد الانتقاب^(٣)
فعليكم بالعلم النافع دليلاً بين يدي السامع ، فالعلم مفتاح هذا الباب ، والموصل إلى اللباب ،
والله عز وجل يقول : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ،
إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » والعلم وسيلة النفوس الشريفة إلى المطالب المنيعة ،
وشرطه الخشية لله تعالى والخيفة ، وخاصةً للملأ الأعلى ، وصفة الله في كتبه التي تُتلى ،
والسبيل في الآخرة إلى السعادة ، وفي الدنيا إلى النجاة^(٤) عادة ، والدُّخْر الذي قليله
يشفع ، وكثيره ينفع ، لا يغلبه الغاصب ، ولا يسلبه العدو المناصب ، ولا يبتزّه الدهرُ
إذا نال ، ولا يستأثر به البحرُ إذا هال ، من لم ينلْه فهو ذليل ، وإن كثرت آماله ،

(١) الخالص . (٢) معاديك ، وظاهرين : غالين . (٣) أي بعد الاختفاء .
من انتعقت المرأة : لبست النقاب . (٤) نخله : أعطاه ، والاسم النحلة .

وقليل ، وإن جمَّ ماله ، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم ، وَنَحَطَ حِسَابُكُمْ ،
فَالْتَمَسُوهُ لِبَنِيكُمْ ، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم ، وأجلِّوهم على جَمْعِهِ وَدَرْسِهِ ،
واجعلوا طباعهم تَرَى لِعَفْسِهِ ، واستسهلوا ما ينالهم من نَعَبٍ مِنْ جَرَاهُ ^(١) وَسَهَرٍ
يهجر له الجفن كَرَاهٍ ، تَعَقُّدُوا لَهُمْ وَلَايَةَ عَزٍّ لَا تُعْزَلُ ، وَتُحْلُوهُمْ مَثَابَةَ رَفْعَةٍ لَا يُحْطَّ
فَارِعُهَا وَلَا يُسْتَمْتَزَلُ ، واختاروا العلوم التي يَتَعَقَّبُهَا الوقت ، فلا ينالها في غَيْرِهِ ^(٢) المقت ،
وخير العلوم علوم الشريعة ، وما نَجَمَ بِمَنَابَتِهَا الرِّيعَةُ ^(٣) ، من علوم لسان لا تستغرق
الأعمارَ فصولها ، ولا يضايق ثمراتِ المعادِ حصولها ، فإنها هي آلات لِغَيْرٍ ، وأسباب
إلى خير منها وخير ، فمن كان قابلاً للازدياد ، وألنى فهمه ذا انقياد ، فليخصَّ تجويد
القرآن بتقديمه ، ثم حِفْظ الحديث ومعرفة صحيحه من سَقِيمِهِ ، ثم الشروع في أصول الفقه
فهو العلم العظيم الْمِنَّةُ ، المَهْدَى كنوز الكتاب والسُّنَّة ، ثم المسائل المنقولة عن العلماء
الجلَّة ، والتدرج في طرق النظر بصحح الأدلَّة ، وهذه هي الغاية القصوى في المِلَّة ،
ومن قصر إدراكه عن هذا المرعى ، وتقاعدَ عن التي هي أسمى ، فَلْيَزِرْ الحديثَ
بعد تجويد الكتاب وإحكامه ، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه ، وإياكم
والعلوم القديمة ، والفنون المهجورة الذميمة ، فأكثرُها لا يُفيد إلا تشكيكاً ، ورأياً
ركيكاً ، ولا يُثمر في العاجلة إلا اقتحامَ العيون ، وتطريقَ الظنون ، وتطويقَ الاحتقار
وَسِمَةَ الصَّغَارِ ، وُخْمُولِ الأقدار ، والخسْف من بعد الإبدار ، وجادَّة الشريعة أعرق
في الاعتدال ، وأوفق من قطع العمر في الجدال ، هذا ابن رُشد ^(٤) قاضي المصِر ومُفتيه

(١) يقال : فملت ذلك من جراه ومن جرائه بالتشديد ويخففان ، ومن جريرته : أى من أجله ،
والكرى : النيم . (٢) غير الدهر : أحداثه المغيرة ، والضمير فيه يعود على الوقت . (٣) الخصبة .
(٤) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ، أعظم فلاسفة الأندلس وأطبائها ، ولد سنة ٥٢٠ هـ
ودرس علوم الدين والفلسفة والطب ، وانصل ييوسف بن عبد المؤمن زعيم الموحدين ، وشرح له فلسفة
أرسطو ، وقد ولاه قضاء إشبيلية ؛ ثم استدعاه إلى المراكش ، وجعله طبيباً للخاص ، ثم جعله قاضي القضاة
بقرطبة ، ولما ولي بعده ابنه المنصور بالله علت مكانة ابن رشد عنده ، فأثار ذلك حسد خصومه ، فكادوا
له عند السلطان واتهموه أنه يمجّد القرآن ، وينشط الفلسفة وعلوم الأوائل بدلاً من علوم الدين ، وينصر -

وملتَمِسُ الرشدِ ومُؤَلِّيه ، عادت عليه بالسَّخطة الشنيعة ، وهو إمام الشريعة ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، والتورُّط في ازدحامها ، ولا تَحِلُّطوا جامِكُم^(١) بِجامِها ، إلا ما كان من حساب ومِساحة ، وما يعود بِمَجْدَوِي فِلاحة ، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة ، وما سوى ذلك فمَجْجور ، وَضَرَمَ^(٢) مَسْجُور ، ومَمْقوت مَهْجور ، وأَمُرُوا بالمعروف أَمراً رَفِيقاً ، وانْهَوْا عن المنكر نَهياً حَرِيّاً بِالاعتدالِ حَقِيقاً ، وَاعْبِطُوا مَنْ كان مِنْ سِنَةِ الْعَفْلَةِ مُفِيقاً ، واجْتَنِبُوا ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ حَتَّى لا تُسْلِكُوا مِنْهُ طَرِيقاً ، وأَطِيعُوا أَمْرَ مَنْ وَلَّاهُ اللهُ تعالى مِنْ أُمُورِكُمْ أَمراً ، ولا تَقْرَبُوا مِنَ الْفِتْنَةِ جَمْعاً ، ولا تُدْخِلُوا فِي الْخِلَافِ زَيْداً ولا عَمراً ، وَعَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَهُوَ شِعَارُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَمُّ ما أَضْرَى^(٣) عَلَيْهِ الْآبَاءُ أَلْسِنَةُ الْبَنِينَ ، وَأَكْرَمُ مَنْسُوبٍ إِلَى مَذْهَبِهِ ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ ، وَإِلَّا كَمِ بِالْكَذِبِ فَهُوَ الْعَوْرَةُ الَّتِي لَا تُؤَارَى ، وَالسَّوْءَةُ الَّتِي لَا يُرْتَابُ فِي عَارِهَا وَلَا يُتَمَارَى . وَأَقْلَ عَقُوبَاتِ الْكَذَابِ ، بَيْنَ يَدَيِ مَا أَعَدَّ اللهُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ ، أَنْ لا يُقْبَلَ صِدْقُهُ إِذَا صَدَّقَ ، ولا يَعُولُ عَلَيْهِ إِنْ كانَ بِالْحَقِّ نَطَقَ ، وَعَلَيْكُمْ بِالْأَمَانَةِ فَالْخِيَانَةُ لُومٌ ، وَفِي وَجْهِ الدِّيَانَةِ كُلُّومٌ^(٤) ، وَمِنَ الشَّرِيعَةِ الَّتِي لَا يُعْذَرُ بِجَهْلِهَا ، أَدَاءُ الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَحَافِظُوا عَلَى الْحِشْمَةِ وَالصِّيَانَةِ ، ولا تَجْزُوا مَنْ أَقْرَضَكُمْ دِينَ الْخِيَانَةِ ، ولا تَوْجِدُوا لِلْعَذْرِ قَبُولاً ولا تَقْرَئُوا عَلَيْهِ طَبْعاً مَجْبُولاً ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مَسْنُؤلاً ، ولا تَسْتَأْثِرُوا بِكَتْزٍ ولا خَزْنٍ ، ولا تَذْهَبُوا لِغَيْرِ مَنَاصِحَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَسْهَلٍ ولا حَزْنٍ ، ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ فِي كَيْلٍ أَوْ وَزْنٍ ، وَاللَّهُ اللهُ أَنْ تُعِينُوا فِي سَفْكِ الدِّمَاءِ وَلَوْ بِالْإِشَارَةِ أَوْ الْكَلَامِ ، أَوْ ما يَرْجِعُ إِلَى وَظِيفَةِ الْأَقْلَامِ ، واعلموا أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي فُسْحَةٍ مَمْتَدَّةٍ ،

ملهب القدماء في القول بأوهية بعض الكواكب : فنزله المنصور من قضاء قرطبة ، ثم عفا عنه ، واستغفاه إلى مراكش ، ولم يطل مقامه بها ، فات سنة ٥٩٥ هـ ، وقد ترجم أكثر كتبه إلى اللغات الأجنبية ، وعليها عول الأوروبيون في نهضتهم الحديثة .

(١) الجام : إناء من فضة . (٢) جمع ضربة بالتحريك : وهي الجمرة والنار ، وسجر النور : أحياه

(٣) أضرى بالشيء : كتب : اعتاده وأولع به ، ويعدى بالهضم والتضميف ، فيقال : أضريته وضريته :

أي أغريته به . (٤) السكولوم جمع كلم بالفتح وهو الجرح .

وَسُبِّلَ اللَّهُ تَعَالَى غَيْرَ مُنْسَدَّةٍ ، مَا لَمْ يَنْبِذْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِأَمَانِهِ ، وَيَمَسَّ الدَّمَ الْحَرَامَ بِيَدٍ أَوْ لِسَانِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ : الَّذِي هَدَى بِهِ سَنَنًا قَوِيًّا ، وَجَلَّى مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ لَيْلًا بَهِيمًا : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا . وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا » . واجتناب الزنا وما تعلق به ، مِنْ أَخْلَاقٍ مَنْ كَرُمَتْ طِبَاعُهُ ، وامتد في سبيل السعادة باعُهُ ، لو لم تتلق نورَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَهْدِ شِعَاعُهُ ، فَالْحَلَالُ لَمْ تَضِقْ عَنْ الشَّهَوَاتِ أَنْوَاعُهُ ، وَلَا عُدِمَ إِقْنَاعُهُ ، وَمَنْ غَلَبَتْ غَرَائِرُ جَهْلِهِ . فَلْيَنْظُرْ : هَلْ يَحِبُّ أَنْ يُرْتَى بِأَهْلِهِ ؟ وَاللَّهُ قَدْ أَعَدَّ لِلزَّانِي عَذَابًا وَبِيلًا . وَقَالَ : « وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَاهُ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا » . وَالْمُحْرَمُ الْكِبَائِرِ . وَمِفْتَاحُ الْجَرَائِمِ وَالْجَرَائِرِ ^(١) . وَاللَّهُ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهَ فِي الْحَيَاةِ شَرْطًا . وَالْمُحْرَمُ قَدْ أَغْنَى عَنْهُ بِالْحَلَالِ الَّذِي سَوَّغَ وَأَعْطَى . وَقَدْ تَرَكَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَقْوَامٌ لَمْ يَرْضَوْا لِعُقُوبِهِم بِالْفَسَادِ . وَلَا لِنَفْسِهِمْ بِالْمُضَرَّةِ فِي مَرْضَاةِ الْأَجْسَادِ . وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَعَلَهَا رِجْسًا مُحَرَّمًا عَلَى الْعِبَادِ : وَقَرَنَهَا بِالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ فِي مُبَايَنَةِ السَّدَادِ ^(٢) . وَلَا تَقْرَبُوا الرَّبَّ . فَإِنَّهُ مِنْ مَنَاهِي الدِّينِ . وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : « وَذَرُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرَّبِّ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . وَقَالَ : « فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِمَحْرَبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ » فِي الْكِتَابِ الْمُبِينِ . وَلَا تَأْكُلُوا مَالَ أَحَدٍ بِغَيْرِ حَقٍّ يُبَيِّحُهُ . وَانْزِعُوا الطَّعْمَ ^(٣) عَنْ ذَلِكَ حَتَّى تَذْهَبَ رِيحُهُ . وَاتَّمَسُوا الْحَلَالَ يَسْعَى فِيهِ أَحَدُكُمْ عَلَى قَدَمِهِ . وَلَا يَكِلْ خِيَارَهُ إِلَّا لِلنَّفَقَةِ مِنْ خَدَمِهِ . وَلَا تَلْجَأُوا إِلَى الْمُتَشَابِهِ إِلَّا عِنْدَ عَدَمِهِ . فَهُوَ فِي السُّلُوكِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَضْلُ مَشْرُوطٍ . وَالْحَافِظُ عَلَيْهِ مَقْبُوطٌ . وَإِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ . فَالظُّلْمُ مَقُوتٌ بِكُلِّ لِسَانٍ

(١) المحارم جمع جريمة : وهي الجريمة .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

(٣) الطعم : الشهوة .

مُجَاهِدِ اللَّهِ تَعَالَى بِصَرْحِ الْعِصْيَانِ ، « وَالظُّلُمُ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » كما ورد في الصَّحاحِ الْحَسَنِ ، والنِّيمَةُ فسادٌ وشتاتٌ ، لا يَبْقَى عَلَيْهِ مُتَاتٌ ^(١) ، وفي الحديث : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَاتٌ » ^(٢) « وَأَطْرَحُوا الْحَسَدَ ، فَاسَادَ حَسُودٌ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفِيئَةَ فَبَابُ الْخَيْرِ مَعَهَا مَسْدُودٌ ، وَالْبَخْلُ ، فَارْتُئِيَ الْبَخِيلُ وَهُوَ مَوْدُودٌ ، وَإِيَّاكُمْ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ ، فَمَوَاقِعُ الْخَزَى لَا تُسْتَقَالُ عَثَرَاتُهَا ، وَمَطْطِنَاتُ الْفَضَائِحِ لَا تُؤْمَنُ غَمَرَاتُهَا ، وَتَقْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مَعَ السَّاعَاتِ وَأَنْفُسُوا السَّلَامَ فِي الطَّرْفَاتِ وَالْجَمَاعَاتِ ، وَرِقُّوا عَلَى ذَوَى الزَّمَانَاتِ ^(٣) وَالْعَاهَاتِ ، وَتَاجِرُوا مَعَ اللَّهِ بِالصَّدَقَةِ يُرَى بِحُكْمِ الْبُضَاعَاتِ ، وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ وَحْدَهُ فِي الشَّدَائِدِ ، وَاذْكُرُوا الْمُسَاكِينَ إِذَا نَصَبْتُمْ الْمَوَائِدَ ، وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالْيَسِيرِ مِنْ مَالِهِ . وَاعْلَمُوا أَنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ ، وَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيْهِ الْحَتَاطُ لِعِيَالِهِ ، وَارْعَوْا حَقُوقَ الْجَارِ ، وَاذْكُرُوا مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْآثَارِ ، وَتَعَاهَدُوا أَوْلَى الْأَرْحَامِ ، وَالْوَشَائِحِ ^(٤) الْبَادِيَةَ الْإِلْتِحَامَ ، وَاحْذَرُوا شَهَادَةَ الزُّورِ : فَإِنَّهَا تَقْطَعُ الظُّهْرَ ، وَتُقْسِدُ السَّرَّ وَالْجَهْرَ ، وَالرُّشَا ، فَإِنَّهَا تَحْطُّ الْأَقْدَارَ ، وَتَسْتَدْعِي الْمَذَلَّةَ وَالصَّغَارَ ، وَلَا تَسَاحَوْا فِي لُغَبَةِ قَمَرٍ ^(٥) ، وَلَا تَشَارِكُوا أَهْلَ الْبَطَالَةِ فِي أَمْرِ ، وَصُونُوا الْمَوَاعِيدَ مِنَ الْإِخْلَافِ ، وَالْأَيَّامَ مِنْ حِنْثِ الْأَوْغَادِ وَالْأَجْلَافِ ، وَحَقُوقَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْإِزْدِرَاءِ وَالْإِعْتِسَافِ ، وَلَا تَلْهَجُوا بِالْأَمَالِ الْعِجَافِ ^(٦) وَلَا تَكْلَفُوا بِالْكُهَانَةِ وَالْأَرْجَافِ ، وَاجْعَلُوا الْعَمْرَ بَيْنَ مَعَاشٍ وَمَعَادٍ ، وَخُصُوصِيَّةَ وَابْتِعَادٍ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ بِالْمِرْصَادِ ، وَأَنَّ الْخَلْقَ بَيْنَ زَرْعٍ وَحَصَادٍ ، وَأَقْلَوْا بِغَيْرِ الْحَالَةِ الْبَاقِيَةِ الْهَمُومَ ، وَاحْذَرُوا الْقَوَاطِعَ عَنِ السَّعَادَةِ كَمَا تُحْذَرُ السُّؤْمُومَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْخَيْرَ أَوْ الشَّرَّ فِي الدُّنْيَا مُحَالٌ أَنْ يَدُومَ ، وَقَابِلُوا بِالْبَصْرِ أَذِيَّةَ الْمُؤْذِنِ ، وَلَا تَعَارِضُوا مَقَالَاتِ الظَّالِمِينَ ، فَاللهُ لِمَنْ بُنِيَ عَلَيْهِ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ، وَلَا تَسْتَغْظَمُوا

(٢) القَتَاتُ : التَّمَامُ .

(١) الْمَتَاتُ : مَا يَمُتُّ بِهِ أَمَّا يُتَوَسَّلُ .

(٣) الزَّمَانَةُ : الْعَاهَةُ .

(٤) الْوَشَائِحُ جَمْعٌ وَشِيحَةٌ : وَهِيَ ادْتِهَالُكَ الْقَرَابَةَ .

(٥) قَمَرٌ : غَلَبَةٌ فِي لَعِبِ الْقَدَارِ .

(٦) الْعِجَافُ جَمْعٌ عِجْفَاءٌ : وَهِيَ الْمَهْزُولَةُ .

حوادث الأيام كما نزلت ، ولا تَضِجُوا للأمراض إذا أَعْضَلَتْ ، فكلُّ مُنْقَرِضٍ حقير ، وكلُّ مُنْقَضٍ وإن طال قصير ، وانتظروا الفرج ، وانتشقوا من جَنَابِ اللَّهِ تعالى الأَرْجَ (١) ، وأوسعوا بالرجاء الجوانح ، واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فَطُوبَى لِعَبْدٍ إليه جَانِحٌ ، وتضرّعوا إلى الله تعالى بالدعاء ، والَجْنُوا إليه في البأساء والضراء ، وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر الذي يقيّد به الشارد ، وَيَعْدُبُ الوارد ، وَأَسْهِمُوا (٢) منها للساكين وأفضّلوا عليهم ، وعينوا الحظوظ منها لديهم ؛ فمن الآثار : « يا عائشة أحسنى جوار نعم الله ، فإنها قلّةٌ زالت عن قوم فعادت إليهم » ، ولا تطغوا في النعم وتقصّروا عن شكرها ، وتغلبكم (٣) الجهالة بسُكْرِها ، وتوهوا أن سعيكم جلبها ، وَجِدَّكُمْ حَلَبَهَا ، فالله خير الرازقين ، والعاقبة للمتقين ، ولا فعل إلا لله إذا نُظِرَ بعين اليقين ، والله الله لا تنسوا الفضل بينكم ، ولا تذهبوا بذهابه زينكم ، وليلتزم كل منكم لأخيه ، ما يشتد به تواخيه ، بما أمكنه من إخلاص وبرٍّ ، ومراعاة في علانية وسرٍّ ، وللإنسان مزية لا تُجْهَل ، وحق لا يُهْمَل ، وأظهروا التعاضد والتناصر ، وصلوا التّعاهد والتّزاور ، تُرَغِّبُوا بذلك الأعداء ، وتستكثروا الأوداء ، ولا تتنافسوا في الحظوظ السّخيفة ، ولا تتهارشوا تهاوش السباع على الجيفة . واعلموا أن المعروف يَكْدُرُ بالامتنان ، وطاعة النساء شرّ ما أفسد بين الإخوان ، فإذا أسديتم معروفاً فلا تذكروه ، وإذا برز قبيح فاستروه ، وإذا أعظم النساء أمراً فاحقرّوه ، والله الله لا تنسوا مقارضة سَجَلِي (٤) ، وَبَرُّوا أهل مودتي من أجلي ، ومن رزقي منكم مالاً بهذا الوطن القَلِقُ المهّاد ، الذي لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع في العقار ، فيصبح عُرْضةً للمذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه - إن تغلب العدو على بلده -

(١) الأرج : تودج ريح الطيب . (٢) أسهم اه : أعطاه منها .

(٣) في الأصل : • وتغلبكم • ، وأراه محرفاً عن • وتغلبكم • .

(٤) السجل : الغصيب . والمعنى : إنكم مدنيون لي بما قدمت لكم من معروفي ، فلا تنسوا أن تردوه

في الافتضاح والافتقار ، ومعوقاً عن الانتقال ، أمام النوب الثقل ، وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالإجمال في الطلب أولى ، وازهدوا جهدكم في مصاحبة أهل الدنيا فغيرها لا يقوم بشرها ، ونفعها لا يقوم بضرها ، وأعقاب من تقدم شاهدة ، والتواريخ لهذه الدعوى عاضدة ، ومن يلبى بها منكم فليستظهر بسعة الاحتمال ، والتقلل من المال ، وليحذر معاداة الرجال ، ومزلات الإدلال ، وفساد الخيال ، ومداخلة العيال ، وإفشاء السر ، وسكر الاغترار ، فإنه دأب الغر ، وليصن الديانة ، ويؤثر الصمت ويلزم الأمانة ، ويسر من رضا الله على أوضح الطرق ، ومهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحق ، وليقف في التماس أسباب الجلال دون الكمال غير النقصان ، والزعارع تسالم اللدن^(١) اللطيف من الأغصان ، وإياكم وطلب الولايات رغبة واستجلاباً ، واستظهاراً على الخطوب وغلاباً ، فذلك ضرر بالمروءات والأقدار ، دايع إلى الفضيحة والعار ، ومن امتحن بها منكم اختياراً ، أو جبر عليه إكراهاً وإيثاراً ، فليتلق وظائفها بسعة صدره ، ويبدل من الخمر فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره ، فالولايات فننة ومحنة ، وأسر وإحنة ، وهى بين إخطاء سعادة . وإخلال بعبادة وتوقع عزل . وإدالة^(٢) بإزاء بيع جدد بهزل ، ومزلة قدم ، واستتباع ندم . ومآل العمر كله موت ومعاد ، واقتراب من الله وابتعاد . جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير والتنبية ومن لا ينقطع بسببه عمل أبيه . هذه - أسعدكم الله - وصيتى التى أصدرتها . وتجارتى التى لربحكم أدرتها . فتلقوها بالقبول لنصحها . والاهتداء بضوء صبحها . وبقدر ما أمضيت من فروعها . واستغشيت من دروعها . اقتنيت من المناقب الفاخرة . وحصلت على سعادة الدنيا والآخرة . وبقدر ما أضعت لآلها النفيسة القيم . استكثرتم من بواعث الندم . ومهما ستمت إطاعتها . واستغزرت مقالاتها ، فاعلموا أن تقوى الله فذلك^(٣) الحاسب ، وضابط هذا الباب . كان الله خليفتي عليكم فى كل حال . فالدنيا

(١) اللدن : اللبن .

(٢) الإدالة : الغلبة .

(٣) فذلك حاسبه كدحرج : أهواه وفرغ منه ، بحركة من قوله إذا أجل حاسبه : فذلك كذا وكذا .

مُنَاحِ ارْتِحَالٍ ، وَتَأْمِيلِ الْإِقَامَةِ فَرَضُ مُحَالٍ . فَالْوَعْدُ لِلانْتِقَاءِ دَارِ الْبَقَاءِ . جَمَلَ اللَّهُ مِنْ وَرَاءِ خُطَّتِهِ الْبِنَاجَةَ ، وَنَفَقَ بَضَاعَتِهَا الْمُزْجَاةُ ^(١) . بِلَطَائِفِهِ الْمُرْتَجَاةِ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ مِنْ حَبِيبِكُمُ الْمَوْدَعِ . وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يُبَلِّغُهُ ^(٢) حَيْثُ شَاءَ مِنْ شَمْلٍ مُتَصَدِّعٍ . وَاللَّهُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ . (نفع الطيب ٤ : ٤١٩)

١٨ - خطبة وعظية له

وصدر عنه على لسان واعظ :

« الحمد لله الولي الحميد . المبدئ المعيد . البعيد في قربه من العبيد . القريب في بعده وهو أقرب من حبلى الوريد ^(٣) . مُحْيِي رُبُوعِ الْعَارِفِينَ بِتَحِيَّاتِ حَيَاةِ التَّوْحِيدِ . وَمُغْنِي نَفُوسِ الزَّاهِدِينَ بِكَنُوزِ احْتِقَارِ الْاِفْتِقَارِ إِلَى التَّعَرُّضِ الزَّهِيدِ . وَمُخْلَصِ خَوَاطِرِ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ سَجُونِ دُجُونِ ^(٤) التَّقْيِيدِ . إِلَى فُسْحِ التَّجْرِيدِ . نَحْمَدُهُ وَلَهُ الْحَمْدُ الْمُنْتَظِمَةُ دُرَرُهُ فِي سُلُوكِ الدَّوَامِ . وَسُمُوطِ ^(٥) التَّأْيِيدِ . حَمْدٌ مِنْ نَزْوَةِ أَحْكَامِ وَحْدَانِيَّتِهِ . وَأَعْلَامِ فَرْدَانِيَّتِهِ ، عَنْ مَرَابِطِ التَّقْيِيدِ ، وَخَبَاطِ الطَّبْعِ الْبَلِيدِ ، وَنَشْكُرُهُ شُكْرَ مَنْ افْتَتَحَ بِشُكْرِهِ أَبْوَابَ الْمَزِيدِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ شَهَادَةً تَتَخَطَّى بِهَا مَعَالِمَ الْخَلْقِ ، إِلَى حَضْرَةِ الْحَقِّ ، عَلَى كَيْدِ التَّفَرِيدِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ قِلَادَةُ الْجِيدِ الْمَجِيدِ ، وَهَلَالُ الْعِيدِ ، وَفَذَلِكَ الْحَسَابُ وَبَيْتُ الْقَصِيدِ ، الْخُصُوصُ بِمَنْشُورِ الْإِدْلَالِ ^(٦) ، وَإِقْطَاعِ الْكَمَالِ ، بَيْنَ مَقَامِ الْمُرَادِ وَمَقَامِ الْمُرِيدِ ، الَّذِي جَعَلَهُ السَّبَبَ الْأَوْصَلَ فِي نَجَاةِ النَّاجِي وَسَعَادَةِ السَّعِيدِ ، وَخَاطِبِ الْخَلَائِقِ عَلَى لِسَانِهِ الصَّادِقِ بِحُجَّتِي الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، فَكَانَ مِمَّا أَوْحَى بِهِ إِلَيْهِ ، وَأَنْزَلَ الْمَلَكُ بِهِ عَلَيْهِ ، مِنَ الذِّكْرِ الْحَمِيدِ ، لِيَأْخُذَ

(١) بضاعه مزجاة : رديئة أو فلية يردها ويدفعها من رآها رغبة عنها ، ونفق العملة تنقيفاً :

روجها . (٢) لأم الجرح والصدع كقطع ، والألم : سده .

(٣) ورق في المنق . (٤) أي ظلام التقييد ، والدجون جمع دجن بالفتح : وهو إلياس التميم الأرضية

وأقطار السماء . (٥) سموط جمع سوط بالكسر : وهو غيظ النظم . (٦) أدل عليه : وثق بمجمله .

بِالْحَجَرِ^(١) وَالْأَطْوَاقِ مِنَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسُّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ. إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يُلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ. وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ. وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ» ، صلى الله عليه وعلى آله صلاة تقوم ببعض حقه الأكيد ، وتُسرى إلى تَرْبَتِهِ الزَّكِيَّةِ مِنْ ظُهُورِ الْمَوَاجِدِ الْجَائِيَةِ عَلَى الْبَرِيدِ :

قَعَدْتُ لَتَذَكِيرٍ ، وَلَوْ كُنْتُ مُنْصِيفًا لَذَكَّرْتُ نَفْسِي فَهِيَ أَحْوَجُ لِلذِّكْرِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَنِي لِنَفْسِي وَاعْظُ فَيَالَيْتَ شَعْرِي كَيْفَ أَفْعَلُ فِي الْآخِرَى؟
آمِ ، أَيْ وَعْظٌ بَعْدَ وَعْظِ اللَّهِ تَعَالَى يَا أَحِبَّائِنَا يُسْمَعُ ، وَفِي مَاذَا - وَقَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الْغَىِّ - يُطْمَعُ؟ يَأْمَنُ يُعْطَى وَيَمْنَعُ ، إِذَا لَمْ تُقِمِ الصَّنِيعَةَ فَمَاذَا نَصْنَعُ؟ أَجْمَعُنَا بِقُلُوبِنَا يَأْمَنُ يُفَرِّقُ وَيَجْمَعُ ، وَلَكِنَّ حَدِيدَهَا بَنَارَ خَشْيَتِكَ ، فَقَدْ اسْتَعَاذَ نَبِيُّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ عَيْنٍ لَا تَذْمَعُ : اْعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَنَّ الْحِكْمَةَ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ يَأْخُذُهَا مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَحْوَالِ ، وَمِنْ الْجَمَادِ وَالْحَيَوَانِ ، وَمَا أَمْلَاهُ الْمَلَوَانِ^(٢) ، فَإِنَّ الْحَقَّ نُورٌ لَا يَبْضُرُهُ أَنْ صَدَرَ مِنَ الْخَامِلِ ، وَلَا يَقْصُرُ بِمَحْمُولِهِ احْتِقَارُ الْخَامِلِ ، وَأَنْتُمْ تَدْرُونَ أَنَّكُمْ فِي أَطْوَارٍ سَقَرٍ لَا تَسْتَقِرُّ لَهَا دُونَ الْغَايَةِ رِحْلَةً ، وَلَا تَتَأَتَّى مَعَهَا إِقَامَةً وَلَا مُهْلَةً ، مِنَ الْأَصْلَابِ إِلَى الْأَرْحَامِ إِلَى الْوُجُودِ ، إِلَى الْقُبُورِ إِلَى الشُّورِ إِلَى إِحْدَى دَارَيِ الْبَقَاءِ ، أَفَى اللَّهِ شَكٌّ؟ فَلَوْ أَبْصَرْتُمْ مَسَافِرًا فِي الْبَرِّيَّةِ بَيْنِي وَبَيْنَ رِشٍّ ، وَيُمَهِّدُ وَيَعْرِشُ ، أَلَمْ تَكُونُوا تَضْعَكُونَ مِنْ جَهْلِهِ ، وَتَعْجَبُونَ مِنْ رَكَاكَةِ عَقْلِهِ؟ وَوَاللَّهِ مَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ، وَشَوَاعِلُكُمْ عَنِ اللَّهِ ، الَّتِي فِيهَا اجْتِهَادُكُمْ ، إِلَّا بَقَاءُ سَفَرٍ^(٣) فِي قَفَرٍ ، أَوْ إِعْرَاسٌ

(١) الحجيز جمع حجة كفرصة : وفي معقده الإزار ، ومن المراءيل موضع المشكة .

(٢) الملوآن : الليل والنهار .

(٣) السفر : جماعة المسافرين .

في ليلة نَفَر^(١) ، كأنكم بها مُطَرَّحَةً تَمُوبُ فيها المواشي ، وتنبو العيونُ عن خبرها للتلاشي « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » ما بعد المَقِيلِ إِلَّا الرَّحِيلَ ، ولا بعد الرحيل إِلَّا المنزِلُ الكريمُ ، أو المنزل الوَبِيلُ ، وإنكم تَسْتَقْبِلُونَ أهوالاً ، سَكَرَاتُ الموتِ بَوَاكِرُ حسابها ، وَعَتَبُ أبوابها ، فلو كَشَفَ النِّظَاءُ عن ذَرَّةٍ منها لَذَهَلَتِ العقولُ وطاشتِ الألبابُ ، وما كلُّ حقيقةٍ يشرحها الكلامُ ، « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ » أفلا أعددتُم لهذه الوَرُطَةِ حِيلَةً ، وأظهرتُم للاهتمام بها حِيلَةً^(٢) ! أتعوّيلاً على عفوه مع المقاطعة ؟ وهو القائل في مقام التهديد : « إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » ، أأمننا من مكروه المنابذة ؟ « وَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » أطمعنا في رحمته مع المخالفة ؟ وهو يقول : « فَسَاءَ كِتَابُهَا لِلَّذِينَ يَنْتَقُونَ » ، أُمشاقةً ومعاندةً ؟ « وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » ، أشكنا في الله ؟ فتعالوا نُعِيدِ الحسابَ ، وَنُقَرِّرِ الْعَقْدَ ، وَنَتَصِفَ بدعوة الحقِّ (أَوْ غَيْرَهَا) من اليوم ، يُفْقَدُ عَقْدُ الْعُقَاذِ عند التساهل بالوعيد^(٣) ، فالعائى يَدْمِي الأصبع الوَجِعةَ ، والعارف يضمّد لها مبدأ العَصَبِ :

هكذا هكذا يكون التّعامى هكذا هكذا يكون الفرور

« يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » وما عدا ما بدا ، ورسولكم الحريص عليكم الرؤوف الرحيم يقول لكم : « الْكَيْسُ مِنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ؛ وَالْأَحْمَقُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِ » فعلام بعد هذا المَعْوَلِ ، وماذا يتأوّل ؟ اتقوا الله تعالى في نفوسكم وانصَحُواها واغْتَنِمُوا فُرْصَ الْحَيَاةِ وارْتَجِّوها ، « أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ

(١) أعرس القوم وعرسوا : نزلوا في آخر الليل للاستراحة ، ونفر الحاج من منى كضرب نفرأ ونفورا .

(٢) الخيلة : اللان . (٣) أى أن المرء إذا لم يحسب لوعيد الله حساباً ، واستعمل في اقتراف المعاصي والموبقات ، أفنى به ذلك إلى زلزلة العقيدة ، ولو أنه كان خالص الإيمان لارعى عما نهى عنه .

فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّاحِرِينَ ، وتنادى أخرى : « هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ » ، وتستغيث أخرى : « يَا لَيْدَنَا نُرُدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » ، وتقول أخرى : « رَبِّ ارْجِعُونِ » ، فَرَجِمَ اللَّهُ مِنْ نَظَرِ لِنَفْسِهِ ، قَبْلَ غُرُوبِ شَمْسِهِ وَقَدَّمَ لِفَدِهِ مِنْ أَمْسِهِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الْحَيَاةَ تَجْرُؤُ إِلَى الْمَوْتِ ، وَالْغَفْلَةَ تَقُودُ إِلَى الْقَوْتِ ، وَالصَّحَّةَ مَرْكَبَ الْأَلَمِ ، وَالشَّبِيهَةَ سَفِينَةً تَقْطَعُ إِلَى سَاحِلِ الْمَرَمِ .

وإن شاء قال بعد الخطبة :

« إِخْوَانِي ، مَا هَذَا التَّوَانِي ؟ وَالْكَلْفُ بِالْوُجُودِ الْغَانِي ، عَنِ الدَّائِمِ الْبَاقِ ، وَالْأَمْرِ يَقْطَعُ الْأَمَانِي ، وَهَادِمُ اللَّذَاتِ قَدْ شَرَعَ فِي نَقْضِ الْمَبَانِي ، أَلَا مَعْتَبَرٌ فِي عَالَمِ هَذِهِ الْمَعَانِي ، أَلَا مَرْتَحِلٌ عَنْ مَعَانِي هَذِهِ الْمَعَانِي ^(١) ؟

أَلَا أُذُنٌ تُصْنَعِي إِلَيَّ سَمِيعَةً أَحَدْتُهَا بِالصَّدْقِ مَا صَنَعَ الْمَوْتُ
مَدَدْتُ لَكُمْ صَوْتِي فَأَوَّاهَ حَسْرَةً عَلَى مَا بَدَأَ مِنْكُمْ فَلَمْ يُسْمَعْ الصَّوْتُ
هُوَ الْقَدَرُ الْآتِي عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ فَتَوَبُوا سِرَّاعًا قَبْلَ أَنْ يَقَعَ الْفَوْتُ

يَا كَلِفًا بِمَا لَا يَدُومُ ، يَا مَفْتُونًا بِغُرُورِ الْوُجُودِ الْمَدُومِ ، يَا صَرِيحَ جِدَارِ الْأَجْلِ الْمَهْدُومِ ، يَا مُشْتَفِلًا بَيْنِيَانِ الطَّرِيقِ قَدْ ظَهَرَ الْمُنَاخُ وَقَرُبَ الْقُدُومُ ، يَا غَرِيقًا فِي بَحَارِ الْأَمَلِ بِأَعْسَاكَ تَعُومُ ! يَا مُعَلَّلَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَلَمَعَ السَّرَابِ ^(٢) ، لَا بَدَّ أَنْ تَهْجُرَ الْمَشْرُوبَ وَتَتْرَكَ الْمَطْعُومَ ، دَخَلَ سَارِقُ الْأَجْلِ بَيْتَ عَمْرٍكَ فَسَلَبَ النِّشَاطَ وَأَنْتَ تَنْظُرُ ، وَطَوَى الْبَسَاطَ وَأَنْتَ تُكَرَّبُ ^(٣) ، وَاقْتَلَعَ جَوَاهِرَ الْجَوَارِحِ ، وَقَدْ وَقَعَ بِكَ النَّهْبُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ الْوَسَادَةَ عَلَى أَنْفِكَ وَيَقْعَدُ :

لَوْ خُفِّفَ الْوَجْدُ عَنِّي دَعَوْتُ طَالِبَ ثَارِي

« كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا » ، كَيْفَ التَّرَاخِي وَالْفَوْتُ مَعَ الْأَنْفَاسِ يُنْتَظَرُ ،

(١) المعاني : جمع معنى وهو المنزل .

(٢) السراب : ما يرى وسط النهار كأنه ماء . (٣) كربه الدم كنصر : اشتد عليه .

كيف الأمان وهاجم الموت لا يُبقي ولا يذر ، كيف الركون إلى الطمع الفاضح وقد صَحَّ الخبر ؟ من فكر في كَرْب الخمار^(١) تنفَّست عنده لذة البئذ ، من أحسَّ بِلَفْظِ^(٢) الحريق فوق جِدَّاره ، لم يُصغِر بصوته لِنَفْمة العود ، من تَيَقَّنَ بِذُلِّ العُرلة ، هان عليه ترك الولاية .

ما قامَ خيرُكَ يا زمانُ بشرِّه أُولَى لنا ما قَلَّ منك وما كَفَى
أوحى الله سبحانه إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه : أَنْ ضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ
فَبَعْدَ ما حَازَتْهُ مِنْ شَعْرِهِ تعيش سنين ، فقال: يارب وبعد ذلك ؟ قال : تموت ، قال :
يارب فالآن .

رأى الأمرَ يُفْضَى إلى آخرِ فَصِيرٍ آخِرِهِ أَوَّلَا
إذا شَعَرْتَ نَفْسَكَ بِالْمِيلِ إلى شَيْءٍ فَأَعْرِضْ عَلَيْهَا غُصَّةً فِرَاقِهِ « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ
عَنْ بَيْتِنَا ، وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْتِنَا » فالفروح به هو المحزون عليه ، أين الأحباب
مَرُّوا ؟ فياليت شعري أين استقروا ؟ استكانوا والله واضطُّروا ، واستغاثوا مَنْ
سَبَقَكَ^(٣) بأوليائِهِمْ فقرُّوا ، وليتهم إذ لم ينفعوا ما ضَرُّوا ، فالنازل من بعدهم خالية
خاوية ، والعروش ذابلة ذاوية ، والعظام من بعد التفاصيل متشابهة متساوية ، والمساكن
تَنَدَّبُ في أطلالها الذئابُ العاوية .

صَحْتُ بِالرَّبْعِ فلم يستجيبوا ليتِ شِعْرى أين يَمْضَى الغريبُ ؟
وَيَجْنُبُ الدَّارَ قَبْرٌ جَدِيدٌ منه يستسقى المَكَانُ الْجَدِيبُ
غَاضَ قَلْبِي فِيهِ عِنْدَ التَّامَحَى قلت : هذا القبر فيه الحبيبُ^(٤)
لَا تَسَلْ عَنْ رَجَعَتِي كَيْفَ كَانَتْ إِنَّ يَوْمَ الْبَيْنِ يَوْمَ عَصِيبُ

(١) الخمار : سماع الخمر وأذاها . (٢) أى برمه . (٣) هكذا في الأصل ، وكان يمكن أن يقول : « واستغاث من سبقك بأوليائهم » إلا أن يخرج حل أن « من » مبتدأ مؤخر كما في قوله تعالى : « ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ » وقوله : « وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » أو « من » بدل من وار الجماعة . (٤) نحوه والله والتمه : إذا أبصره بنظر خفيف .

باقتراب الموت علَّتْ نفسى بعد إلفى ، كلُّ آتٍ قريبُ

أين المعمّر الخالد ، أين الولد أين الوالد ، أين الطارف أين التالد ، أين المجادل
أين المجالِد ؟ « هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ؟ » ^(١) وجوه علاهِنَّ
الترى ، وصحائفُ تفضّ ، وأعمال على الله تُعرَض ، بَحَثَ الزُّهَّاد والعُبَّاد ، والعارفون
والأوتاد ، والأنبياء الذين يُهْدَى بهم العباد ، عن سبب الشقاء الذى لا سعادة بعده ،
فلم يجدوا إلا البعدَ عن الله تعالى ، وسببه حُبُّ الدنيا ، « لن تجتمع أمتى
على ضلالة » .

هَجَرْتُ حبايى من أجل لىلى فما لى بعد لىلى من حبيب

وماذا أرتجى من وصل لىلى ستَجْزى بالقطيعة عن قريب

وقالوا : ما أوردَ النفسَ الموارِد ، وَفَتَحَ عليها بابَ الحُتْفِ إلا الأمل ، كما
قَوَّمتُها مثاقِفُ الحدود ، فتح لها أركانَ الرُّخَصِ . كلما عَقَدْتُ صَوْمَ العزِمة ،
أهداها طُرفُ الغُرُورِ فى أطباق « حَتَّى وَإِذَا وَلَكِنْ وَرُبَّمَا » فأفرط القلبُ فى تقلبيها
حتى أَفْطَرَ :

ما أُوْبِقَ الأنفَسَ إلا الأملُ وَهُوَ غُرُورٌ ما عليه عَمَلُ

يُفَرِّضُ مِنْهُ الشَّخْصُ وَهَمًّا مَالَهُ حَالٌ ، ولا ماضٍ ، ولا مستقبلُ

ما فوق وَجْهَ الأرضِ نفسٌ حَيَّةٌ إلا قد انقَضَّ عليها الأَجَلُ

لَوْ أَنَّهُمْ مِنْ غَيْرِهَا قَدْ كَوَّنُوا لَأُمْتَلَأَ السَّهْلُ بِهِمِ وَالْجَبَلُ

ما نَمَّ إِلَّا لَقَمٌ قَدْ هُمِيتَ للموت ، وَهُوَ الأَكِلُ المُسْتَعِجِلُ

وَالوَعْدُ حَقٌّ ، وَالوَرَى فى غَفْلَةٍ قَدْ خُودِعُوا بِعَاجِلِ وَضَلُّوا

أَيْنَ الَّذِينَ شَيَّدُوا واغترسوا وَمَهَّدُوا وافتروشوا وَظَلَّلُوا ؟

أين ذوو الراحة زادت حسرة إذ جُنِبُوا إلى الثرى وانقلوا^(١)
 لم تدفع الأحبابُ عنهم غيرَ أن بَكَوْا على فراقهم وأغولوا
 الله في نفسك أولى من له ذخرتَ نصْحًا وَعِتَابًا يُقْبَلُ^(٢)
 لا تتركْنَهَا في عَمَى وَحَيْرَةٍ عن هول ما بين يديها تفعل
 حَقَّرْ لها الفاني، وحاول زُهدَهَا وشوقَهَا إلى الذي تستقبل
 وَفِدِ إلى الله بها مضطرةً حتى ترى السَّيْرَ عليها يسهلُ^(٣)
 هو الفناء ، والبقاء بعده والله عن حِكْمَتِهِ لَا يُسْأَلُ
 يَا قُرَّةَ العَيْنِ ويا حسرتها يوم يُوقَى النَّاسُ ما قد عملُوا

يا طُرْدُ^(٤) المخالفة ، إنكم مُدْرَكُونَ ، قاستبقُوا باب التوبة ، فإن رَبَّ تلك الدار
 يُجِير ولا يُجَار عليه « فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا هَذَا كُمْ » ، ياطْفئُليةُ الهمة ،
 دُسُّوا أنفسكم بزُمرِ التائبين ، وقد دُعُوا إلى الله دعوة الحبيب ، فإن لم يكن أكلٌ فلا
 أَقَلَّ من طيب الولية ، قال بعض العارفين : إِذَا عَقَدَ التَّائِبُونَ الصَّلَحَ مع الله تعالى ،
 انتشرت رعايا الطاعة في عمالة الأعمال ، « وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا . وَوُضِعَ
 الْكِتَابُ » معاني هذا المجلس والله تَسِيمُ سَحَرٍ ، إذ استنشقه غُهور الغفلة أفاق ،
 سَعُوطُ^(٥) هذا الوعظ يَنْقُضُ^(٦) إن شاء الله زَكَمَةَ البطالة ، إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ،
 إِكْسِيرُ^(٧) هذا الكتاب يَلْقَبُ بِحِكْمَةِ جَابِر^(٨) ، القلوب المنكسرة عين من كان له قلب

(١) جنبه : دفعه . (٢) أى اتق الله في نفسك التى هى أولى . . . الخ .

(٣) فد : أمر من وفد أى اقدم . (٤) الطريدة : ما طردت من صيد أو غيره .

(٥) فى الأصل « سوط » وأراه محرفاً من « سعوط » كما يدل عليه سياق الكلام ، والصعوط : الدواء .
 يصب فى الأنف . (٦) فى الأصل « يبخض » وأراه « ينقض » أى يذهب .

(٧) الإكسير : الكيمياء .

(٨) يريد جابر بن حيان . قال ابن القفطى فى تاريخ الحكماء فى ترجمته « هو جابر بن حيان الصوفى
 الكوفى ، وكان متقدماً فى العلوم الطبيعية ، وفى صناعة الكيمياء . . . الخ » وذكره ابن زيدون فى
 رسالته الهزلية ، فقال : « وأظهرت جابر بن حيان حل سر الكيمياء » قال ابن نباتة فى شرح العميون :
 « وأما جابر بن حيان المذكور فلا أعرف له ترجمة صحيحة فى كتاب يعتمد عليه ، وهذا دليل على قول =

« إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ » إلهي دُلْنَا من حَيْرَةٍ يَضِلُّ فيها - إلا إن هَدَيْتَ - الدليلُ ، وَأَجْرِنَا من غَمْرَةٍ ^(١) وكيف - إلا بِإِغَاثَتِكَ - السبيلُ ، نفوسٌ صَدِئٌ من مَرِّ الْأَزْمَانِ منها الصَّقِيلُ ، وَنَبَأٌ يَجْنُوبُهَا عن الحقِّ الْقَلِيلُ - وآذَانٌ أَنهَضَهَا القول الثقيل ، وَعَثَرَاتٌ لَا يَقْبَلُهَا إِلَّا أَنْتَ يَا مُقِيلَ الْعَثَرَاتِ يَا مُقِيلَ ، أَنْتَ حَسْبُنَا ونعم ^(٢) الوكيل . (نفع الطيب ٤ : ٨٥)

١٩ - وصية موسى بن سعيد العنسى ^(٣) لابنه

قال أبو الحسن عليّ بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسى :
لما أردت النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة ، أول وصولي إلى الإسكندرية رأى أبي أن يكتب لي وصية أجعلها إماماً في الغربة ، فبقى فيها أياماً إلى أن كتبتها عنه ، وهي هذه :

أودِعَكَ الرَّحْمَنَ فِي غُرْبَتِكَ مُرْتَقِباً رُحْمَاهُ فِي أَوْبَتِكَ

= أكثر الناس إنه اسم موضوع وضمه المصنفون في هذا الفن : وزعموا أنه كان في زمن جعفر الصادق ، وأنه إذا قل في كتبه : قال لي سيدي ، وسمعت من سيدي ، فإنه يعني به جعفر الصادق . وقد قدمنا أن جعفر الصادق توفي سنة ١٤٨ هـ .

(١) الغمرة : الشدة . (٢) أورد المقرئ في نفع الطيب لسان الدين عقب ذلك كلاماً آخر في الوعظ وهو على نمط ما أوردناه لك فانظره هناك إن شئت .

(٣) هو الكاتب الشهير أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد العنسى ، من سلالة عمار بن ياسر رضى الله تعالى عنه ، وقد نوه به ابن هود ملك الأندلس ، وولاد الجزيرة الخضراء ، وهو ممن رحل من علماء الأندلس إلى المشرق ، وتوفي بالإسكندرية سنة ٦٤٠ هـ عن ٩٧ عاماً . وكان أبوه محمد وزيراً جليلاً بعيد الصيت ، عالي الذكر ، رفيع الهمة ، كثير الأموال ، وكان ذا حظوة لدى الموحدين ، وولى لهم أعمالاً كثيرة بمراكش وإشبيلية وغرناطة ، واتصلت ولايته على أعمال غرناطة ، وكان من شيوخها وأعيانها .

وكان جده عبد الملك بن سعيد صاحب قلعة بني سعيد تحت طاعة علي بن يوسف بن تاشفين ملك البربر ، وإلى أن استبد بها سنة ٥٣٩ هـ .

وابنه أبو الحسن علي هو مقيم كتاب : « المغرب في أخبار المغرب » ، وكان السبب في تأليفه هو جده عبد الملك بن سعيد ، ثم قمه ابنه محمد بن عبد الملك ، ثم تمم ما بقى منه ابنه موسى بن محمد ، ثم أرفق كل الجميع في إتمامه علي بن موسى ، وقد ذكر في خطبته أنه بلى فيه من سنة ٥٣٠ هـ ، ومنتهاه إلى غرة سنة ٦٤١ هـ ، وكان مولد أبي الحسن بغرناطة سنة ٦١٠ هـ ، ووفاته بطنس سنة ٦٨٥ هـ .

وما اختياري كان طَوَّعَ النَّوَى لكنني أَجْرِي عَلَى بُغْيَتِكَ^(١)
فلا تُطِلْ حَبْلَ النوى ، إِنِّي واللهِ أَشْتاقُ إِلَى طَلْعَتِكَ
من كان مفتوناً بأبنائه فَإِنِّي أُمَعِّنْتُ فِي خَيْرَتِكَ
فاختصِرِ التوديعَ أَخْذاً ، فما لِي نَاطِرٌ يَقْوَى عَلَى فُرْقَتِكَ
واجعل وصاتي نُصْبَ عَيْنٍ ، ولا تَبْرَحْ مَدَى الأَيامِ مِنْ فِكْرَتِكَ
خُلَاصَةَ العَمرِ التي حُنَّكَتْ فِي سَاعَةٍ زُفَّتْ إِلَى فِطْنَتِكَ^(٢)
فللتجاربِ أمورٌ إِذَا طَالَعْتَهَا تَشَحَّدُ مِنْ غَفْلَتِكَ
فلا تَنَمَّ عَنْ وَعْيِهَا سَاعَةً فَإِنهَا عَوْنٌ إِلَى يَقْظَتِكَ^(٣)
وكلٌ ما كابدته فِي النَّوَى إِيَّاكَ أَنْ يَكْسِرَ مِنْ هِمَّتِكَ
فليس يُدْرَى أَصْلُ ذِي غُرْبَةٍ وَإِنَّمَا تُعْرِفُ مِنْ شَيْمَتِكَ
وكل ما يُفْضِي لِمَذَرٍ فلا تَجْعَلُهُ فِي الغَرَبَةِ مِنْ إِرْبَتِكَ^(٤)
ولا تجالِسْ مَنْ فَشَأَ جَهْلُهُ وَأَقْصِدْ لِمَنْ يَرْغَبُ فِي صَنَعَتِكَ
ولا تجادلْ أَبَداً حَاسِداً فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى هَيْبَتِكَ
وامشِ المُوَبِّئِي مُظْهِراً عِفَّةً وَأَبْغِ رِضا الأَعْيُنِ عَنْ هَيْبَتِكَ
أَفْشِ التَّحِيَّاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَنَبِّ النَّاسَ عَلَى رُبَّتِكَ
وأنطِقْ بِحَيْثُ الْعِيُ مُسْتَقْبَحٌ وَأَصْمُتْ بِحَيْثُ الْخَيْرُ فِي سَكْتِكَ
ولا تَزَلْ مُجْتَمِعاً طَالِباً مِنْ دَهْرِكَ الْفُرْصَةَ فِي وَثْبَتِكَ
وكلما أَبْصَرْتَهَا أُمَكَّنْتُ ثَبِّ وَاثِقاً بِاللَّهِ فِي مَكْنَتِكَ^(٥)
وَلِجْ عَلَى رِزْقِكَ مِنْ بَابِهِ وَأَقْصِدْ لَهُ مَاعِشَتَ فِي بُكْرَتِكَ

(١) النوى : اللبنة . (٢) حنكت : أحكت . (٣) اللقطة بالحريك وسكنه الشعر .

(٤) الإربة : الحاجة .

(٥) المكنة بفتح فكسر : التمكن والقدرة ، وسكنه الشعر .

وَأَيَّاسٌ مِنَ الْوَدِّ لَدَيَّ حَاسِدٌ . وَوَقِّرَ الْجَهْدَ ، فَمَنْ قَصَدُهُ
وَوَفَّ كَلًّا حَقَّهُ ، وَلَتَكُنْ
وَلَا تَكُنْ تَحْقِرُ ذَا رُبِّيَّةٍ
وَجِيئًا خِيَمْتَ فَأَقْصِدْ إِلَى
وَلِلرَّزَايَا وَثْبَةً ، مَا لَهَا
وَلَا تَقُلْ : (أَسْلَمَ لِي وَحَدَّثَنِي)
وَالْتَزِمِ الْأَحْوَالَ وَزَنًّا وَلَا
وَلتَجْعَلِ الْعَقْلَ مُحْكَمًا ، وَخُذْ
وَاعْتَبِرِ النَّاسَ بِالْفَاطِمِ
بَعْدَ اخْتِبَارٍ مِنْكَ يَقْضِي بِمَا
كَمْ مِنْ صَدِيقٍ مُظْهِرٍ نُصْحَهُ
إِيَّاكَ أَنْ تَقْرَبَهُ ، إِنْهُ
وَاقْنَعْ إِذَا مَا لَمْ تَجِدْ مَطْمَعًا
وَأَنْتُمْ نَمُوَ النَّبْتُ قَدْ زَارَهُ
وَإِنْ نَبَاً دَهْرٌ فَوْطَنُ لَهُ
فَكُلْ ذِي أَمْرٍ لَهُ دَوْلَةٌ
وَلَا تُضَيِّعْ زَمَنًا مُمَكِّنًا
وَالشَّرَّ مَهْمَا أُسْطَعْتَ لَا تَأْنِهِ

ضِدُّ ، وَنَافِسُهُ عَلَى خُطَّتِكَ ^(١)
قَصْدُكَ لَا تَعْتَبِهِ فِي بَغْضَتِكَ
تَكْسِيرٌ عِنْدَ الْفَخْرِ مِنْ حَدَّثِكَ
فَإِنَّهُ أَنْفَعُ فِي غُرْبَتِكَ
صُحْبَةٍ مِنْ تَرْجُوهُ فِي نُصْرَتِكَ
إِلَّا الَّذِي تَذْخَرُ مِنْ عُدَّتِكَ
فَقَدْ تَقَاسَى الذَّلَّ فِي وَحْدَتِكَ
تَرْجِعْ إِلَى مَا قَامَ فِي شَهْوَتِكَ
كُلًّا بَمَا يَظْهَرُ فِي نَقْدَتِكَ
وَأَصْحَبَ أَخِيرَ غُبٍ فِي صُحْبَتِكَ
يَحْسُنُ فِي الْآخِذِ مِنْ خِلْطَتِكَ ^(٢)
وَفِكْرُهُ وَقَفَّ عَلَى عَثَرَتِكَ
عَوْنٌ مَعَ الدَّهْرِ عَلَى كُرْبَتِكَ
وَأَطْمَعْ إِذَا أَنْعَشْتَ مِنْ عُسْرَتِكَ
غِيبُ النَّدَى ، وَأَسْمُ إِلَى قَدْرَتِكَ
جَاشَكَ ، وَانْظُرْهُ إِلَى مُدَّتِكَ
قَوِّفْ مَا وَافَاكَ فِي دَوْلَتِكَ
تَذْكَارُهُ يَذْ كَيْ لَطَى حَسْرَتِكَ
فَإِنَّهُ حَوَزٌ عَلَى مُهْجَتِكَ ^(٣)

* * *

(١) في الأصل « وأيس من الود لذي حاسد » وقد أصلحته وإيَّاس « وبه يستقيم المعنى .

(٢) الخلطة مثل العشرة وزنا ومعنى ، والخلطة بالضم : اسم من الاختلاط ، مثل الفارقة من الافتراق .

(٣) حازه حوزا : جمعه وضمه وامتلكه كاحتازه احتيازاً ، والمعنى : أنك إن أتيت الشر استحوذ على

يَا بُنَيَّ الَّذِي لَا نَاصِحَ لَهُ مِثْلِي ، وَلَا مَنصُوحَ لِي مِثْلُهُ ، قَدْ قَدِمْتُ لَكَ فِي هَذَا النِّظَامِ مَا إِنْ أَخْطَرْتَهُ بِخَاطِرِكَ فِي كُلِّ أَوَانٍ ، رَجَوْتُ لَكَ حَسَنَ الْعَاقِبَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَإِنْ أَخَفَّ مِنْهُ لِلْحَفْظِ ، وَأَعْلَقَ بِالْفِكْرِ ، وَأَحَقَّ بِالتَّقَدُّمِ قَوْلُ الْأَوَّلِ :

يَزِينُ الْغَرِيبَ إِذَا مَا اغْتَرَبَ ثَلَاثٌ ، فَهِنَّ : حُسْنُ الْأَدَبِ

وِثَانِيَّةٌ : حُسْنُ أَخْلَاقِهِ وَثَالِثَةٌ : اجْتِنَابُ الرِّيبِ

وَإِذَا اعْتَبَرْتَ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ ، وَلَزِمْتَهَا فِي الْغُرْبَةِ ، رَأَيْتَهَا جَامِعَةً نَافِعَةً ، لَا يَلْحَقُكَ

إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَعَ اسْتِعْمَالِهَا نَدَمٌ ، وَلَا يَفَارِقُكَ بَرٌّ وَلَا كَرَمٌ ، وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ :

يَعُدُّ رَفِيعَ الْقَوْمِ مَنْ كَانَ عَاقِلًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي قَوْمِهِ بِحَسِبِ

إِذَا حَلَّ أَرْضًا عَاشَ فِيهَا بِعَقْلِهِ وَمَا عَاقِلٌ فِي بِلَدَةٍ بِغَرِيبٍ

وَمَا قَصَرَ الْقَائِلُ حَيْثُ قَالَ :

وَأَصْبِرْ عَلَى خَلْقٍ مِنْ تُعَاشِرُهُ وَدَارِهِ ، فَالْيَبِ مَنْ دَارَى

وَاتَّخَذَ النَّاسَ كُلَّهُمْ سَكَنًا وَمِثْلُ الْأَرْضِ كُلِّهَا دَارًا

وَأَضْعُ يَا بُنَيَّ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ يَتِيمَةُ الدَّهْرِ^(١) ، وَسَلِّمَ الْكِرْمَ وَالصَّبْرَ :

وَلَوْ أَنَّ أَوْطَانَ الدِّيَارِ نَبَتْ بِكُمْ لَسَكَنْتُمُ الْأَخْلَاقَ وَالْآدَابَ^(٢)

إِذَا حُسْنُ الْخُلُقِ أَكْرَمُ نَزِيلٍ ، وَالْأَدَبُ أَرْحَبُ مَنْزِلٍ ، وَلِتَسْكُنْ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ

فِي أَدِيبٍ مُتَغَرِّبٍ : « وَكَانَ كَمَا طَرَأَ^(٣) عَلَى مَلِكٍ ، فَكَأَنَّهُ مَعَهُ وَلَدٌ ، وَإِلَيْهِ قَصَدَ ،

غَيْرَ مُسْتَتَرِبٍ بِدَهْرِهِ ، وَلَا مُنْكَرٍ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ » ، وَإِذَا دَعَاكَ قَلْبُكَ إِلَى صَحْبَةِ مَنْ

أَخَذَ بِجَمَاعِعِ هَوَاهُ^(٤) ، فَاجْعَلِ التَّكَلُّفَ لَهُ سُلْمًا ، وَهُبَّ فِي رَوْضِ أَخْلَاقِهِ هُبُوبَ النِّسِيمِ ،

وَحُلَّ بِطَرَفِهِ حُلُولَ الْوَسَنِ^(٥) وَأَنْزِلْ بِقَلْبِهِ نَزُولَ الْمَسْرَةِ ، حَتَّى يَتِمَّ لَكَ وَدَادُهُ ،

وَيَخْلُصَ فَيْكَ اعْتِقَادُهُ ، وَطَهَّرْ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهِ لِسَانَكَ ، وَأَغْلِقْ سَمْعَكَ ، وَلَا تُرَخِّصْ

(١) يُقَالُ : دُرَّةٌ يَتِيمَةٌ : أَيْ لَا نَظِيرَ لَهَا ، وَكُلُّ شَيْءٍ مُفْرَدٍ يَفُزُ نَظِيرُهُ فَهُوَ يَتِيمٌ .

(٢) نَبَاهُ مَنْزِلُهُ : إِذَا لَمْ يَرِافَقَهُ . (٣) طَرَأَ عَلَيْهِمْ كُنْغٌ : أَتَاهُمْ مِنْ مَكَانٍ ، أَوْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ مِنْهُ فُجَاءَةً .

(٤) الْغَضِيرُ فِيهِ يَمُودُ عَلَى قَلْبِكَ . (٥) الْمَوْسَنُ : الْفُتَاتُ .

في جانبه لحسودٍ لك منه ، يريد إبعادك عنه لمنفعته ، أو حسود له يَفَارُ لتجمله بصحبته
وَمَعَ هذا فلا تَغْتَرَّ بطول صحبته ، ولا تتمهذ بدوام رَقَدته ، فقد ينهيه الزمان ، ويُغَيِّرُ
منه القلبَ واللِّسانَ ، ولذا قيل : « إذا أُحِبِّتَ فَأَحْبِبْ هَوْنًا مَّا ، ففي الممكن أن ينقلب
الصديق عدوًّا ، والعدو صديقًا » وإنما العاقل من جعل عقله مِغْيَارًا ، وكان كالمرآة
يَلْقَى كُلَّ وجه بمثاله ، وجعل نُصب ناظره قول أبي الطَّيِّب :

ولما صار ودَّ الناس خِيًّا جَزِيْتُ على ابتسام بابتسام^(١)

وفي أمثال العامة : « من سَبَقَكَ بيوم فقد سبقك بعقل » ، فَاخْتَذِ بِأَمْثَلِهِ من جَرَّبَ ،
واستمع إلى ما خَلَدَ الماضون بعد جَهْدِهِم وتَعَبِهِم من الأقوال ، فإنها خلاصة عمرهم ،
وزُبْدَةُ تجاربهم ، ولا تتسكَّلْ على عقلك ، فإن النظر فيما تَعِبَ فيه الناس طول أعمارهم ،
وابتناعوه غالبًا بتجاربهم ، يُرْحَكُ ويقع عليك رخيصةً ، وإن رأيت مَنْ له مِرْوَةٌ
وعقل وتجربة ، فاستفد منه ، ولا تضيع قوله ولا فعله ، فإن فيما تلقاه تلقيحًا لعقلك ،
وحنًا لك واهتداء .

وإياك أن تعمل بهذا البيت في كلِّ موضع : وَالْحُرُّ يُخَدِّعُ بالكلام الطَّيِّبُ :
فقد قال أحدهم : ما قيل أضرُّ من هذا البيت على أهل التجمل ، وليس كل ما تسمع من
أقوال الشعراء يحسنُ بك أن تتبعه حتى تتدبره ، فإن كان موافقًا لعقلك ، مُصْلِحًا
لحالِكَ ، فراع ذلك عندك : وإلا قَانِئْ بِهِ نَبَذَ النِّوَاةَ ، فليس لكل أحد يُتَبَسَّمُ ، ولا كل
شخص يُكَلِّمُ ، ولا الجود مما يُعْمُ به ، ولا حُسْنُ الظنِّ وطيب النفس مما يعامل به كل
أحد ، والله درِّ القائل :

ومالٍ لا أوفى البرية قِسْطَهَا على قدرٍ ما يُعْطَى وَعَقْلِي مِيزَانُ

وإياك أن تُعْطِيَ من نفسك إلا بِقَدَرٍ ، فلا تعاملِ الدُّونَ بمعاملة الكفاء ، ولا

السكفة بمعاملة الأعلى ، ولانضيق عرك فيمن يمالك بالمطامع ، وَيُنِيك على مصلحة حاضرة عاجلة ، بغائبة آجلة ، واسمع قول الأول :

وَبِيعْ أَجْلاً مِنْكَ بِالْعَاجِلِ : وَأَقِلْ مِنْ زِيَارَةِ النَّاسِ مَا اسْتَطَعْتَ ، وَلَا تَجْفُمْ بِالْجَلَّةِ ، وَالْكَنْ يَكُونُ ذَلِكَ بِحَيْثُ لَا يَلْحَقُ مِنْهُ مَالٌ وَلَا ضَجَرٌ وَلَا جَفَاءٌ ، وَلَا تَقُلْ أَيْضًا : أَقْعُدْ فِي كِسْرِ يَدِي ، وَلَا أَرَى أَحَدًا ، وَأُسْتَرِيحُ مِنَ النَّاسِ ، فَإِنْ ذَلِكَ كَسَلَ دَايِعَ إِلَى الذِّلِّ وَالْمَهَانَةِ ، وَإِذَا عَلِمَ عَدُوُّكَ أَوْ صَدِيقُكَ ذَلِكَ ، عَامِلًا بِحَسَبِهِ ، فَازْدِرَاكَ الصَّدِيقَ ، وَجَسَرَ عَلَيْكَ الْعَدُوَّ ، وَإِيَّاكَ أَنْ يَفُتِكَ صَاحِبُكَ أَنْ تَدْخُرَ غَيْرَهُ لِلزَّمَانِ ، وَتَطِيعَهُ فِي عِدَاوَةٍ سِوَاهُ ، فَنِي الْمُمْكِنِ أَنْ يَتَغَيَّرَ عَلَيْكَ ، فَتَطْلُبُ إِعَانَةَ غَيْرِهِ ، أَوْ اسْتِغْنَاءَ عَنْهُ ، فَلَا تَجِدْ ذَخِيرَةً قَدَمْتَهَا ، وَكَانَ هُوَ فِي أَوْسَعِ حَالٍ ، وَأَعْلَى رَأْيٍ ، بِمَا دَبَّرَهُ بِحِيلَتِهِ فِي انْقِطَاعِكَ عَنْ غَيْرِهِ ، فَلَوْ اتَّفَقَ لَكَ أَنْ تَصْحَبَ مِنْ كُلِّ صِنَاعَةٍ وَرِيَاةٍ ، مَنْ يَكُونُ لَكَ عُدَّةٌ ، لَكَانَ ذَلِكَ أَوْلَى وَأَصُوبَ ، وَسَلْنِي فَإِنِّي خَيْرٌ ، طَال - وَاللَّهِ - مَا صَحِبْتُ الشَّخْصَ أَكْثَرَ عَمْرَى ، لَا أَعْتَمِدُ عَلَى سِوَاهُ ، وَلَا أَعْتَدُ إِلَّا إِيَّاهُ ، مِنْخَدَعًا بِسِرَابِهِ ، مُوْتَوِقًا فِي جِبَائِلِ خِطَابِهِ ، إِلَى أَنْ لَا يَحْصُلَ لِي مِنْهُ غَيْرُ الْعَضِّ عَلَى الْبَنَانِ ، وَقَوْلٌ : لَوْ كَانَ وَلَوْ كَانَ ! وَلَا يَحْمِلَنَّكَ أَيْضًا هَذَا الْقَوْلُ أَنْ تَظُنَّ فِي كُلِّ أَحَدٍ ، وَتَعَجَّلَ الْمَكَافَاةَ ، وَلَيْسَ حَسَنُ الظَّنِّ بِمَقْدَارٍ مَا ، وَالْفُطَانُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مَخَابِلُ الْأَحْوَالِ ، وَفِي الْوُجُوهِ دَلَالَاتٌ وَعَلَامَاتٌ ، وَأَصْفَرُ إِلَى الْقَائِلِ :

لَيْسَ ذَا وَجْهِ مَنْ يَضِيفُ وَلَا يَقْدِرُ سَرِي وَلَا يَدْفَعُ الْأَذَى عَنْ حَرِيمٍ ^(١)
فَمَنْ يَكُنْ لَهُ وَجْهٌ مِثْلُ هَذَا الْوَجْهِ قَوْلٌ وَجْهَكَ عَنْهُ قِبَلَةٌ تَرْضَاهَا ، وَلْتَحْرَصْ جِهْدَكَ عَلَى أَنْ لَا تَصْحَبَ أَوْ تَخْدُمَ إِلَّا رَبَّ حِشْمَةٍ وَنِعْمَةٍ ، وَمَنْ نَشَأَ فِي رِفَاقِيَةٍ وَمُرُوءَةٍ ، فَإِنَّكَ تَنَامُ مَعَهُ فِي مِهَادِ الْعَافِيَةِ ، وَإِنْ الْجِيَادُ عَلَى أَعْرَاقِهَا ^(٢) تَجْرَى ، وَأَهْلُ الْأَحْسَابِ

(١) ضافه يضيفه : نزل به ضيفاً ، وقرئ للضيف كرم : أحسن إليه .

(٢) الأعراق : جمع عرق بالكسر وهو الأصل .

والمروءات يتركون منافعهم متى كانت عليهم فيها وَصْبَةٌ ، وقد قيل في مجلس عبد الملك ابن مروان: أَشْرَبَ مُصْعَبُ الْخَمْرِ؟ فقال عبد الملك - وهو عدو له محارب له عَلَى الْمَلِكِ - : لو عَلِمَ مُصْعَبُ أَنَّ الْمَاءَ يُفْسِدُ مُرْوَعَتَهُ مَا شَرِبَهُ ؛ وَالْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ .

يا بنى ، وقد علمت أن الدنيا دار مفارقة وَتَغْيِيرَ ، وقد قيل : « أَصْحَبَ مِنْ شئتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ » فتى فارقت أحداً فَعَلَيْ حُسْنِي فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي : هَلْ أَنْتَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ ؟ فَلِذَلِكَ قَالَ الْأَوَّلُ :

« وَلَمَّا مَضَى سَلَمٌ بِكَيْتٍ عَلَى سَلَمٍ » ، وَإِيَّاكَ وَالْبَيْتَ السَّائِرَ :

وَكُنْتَ إِذَا حَلَلْتَ بَدَارَ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِخَزِيئَةٍ وَتَرَكْتَ عَارَا
وَاحْرَصْ عَلَى مَا جَمَعَ قَوْلُ الْقَائِلِ : « ثَلَاثَةٌ تُبْقِي لَكَ الْوَدَّ فِي صَدْرِ أَخِيكَ : أَنْ تَبْدَأَهُ بِالسَّلَامِ ، وَتَوْسِعَ لَهُ فِي الْجُلُوسِ ، وَتَدْعُوهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ » ، وَاحْذَرِ كُلَّ مَا بَيْنَهُ لَكَ الْقَائِلُ : « كُلُّ مَا تَغْرِسْهُ تَجْنِيهِ إِلَّا ابْنَ آدَمَ ، فَإِنَّكَ إِذَا غَرَسْتَهُ يَقْلَعُكَ » وَقَوْلُ الْآخَرِ : « ابْنُ آدَمَ يَتَمَسَّكُنْ حَتَّى يَتِمَّ كَنْ » وَقَوْلُ الْآخَرِ : « ابْنُ آدَمَ ذَنْبٌ مَعَ الضَّعْفِ ، أَسَدٌ مَعَ الْقُوَّةِ » .

وإِيَّاكَ أَنْ تُثَبَّتَ عَلَى صُحْبَةِ أَحَدٍ قَبْلَ أَنْ تُطِيلَ اخْتِبَارَهُ ، فَيَحْكِيَ أَنَّ ابْنَ الْمُقْعَمِ خَطَبَ مِنَ الْخَلِيلِ صُحْبَتَهُ ، فَجَاوَبَهُ : « إِنْ الصُّحْبَةُ رِقٌّ ، وَلَا أَضْعُ رِقٌّ فِي يَدِكَ حَتَّى أَعْرِفَ كَيْفَ مَلَكَتُكَ ^(١) » ، وَأَسْتَمِلَ ^(٢) مِنْ عَيْنٍ مَنْ تَعَاشَرَهُ ، وَتَفَقَّدَ فِي فَلَتَاتِ الْأَلْسُنِ وَصَفَحَاتِ الْأَوْجِهَةِ ، وَلَا يَحْمِلُكَ الْحَيَاءُ عَلَى السَّكُوتِ عَمَّا يَضُرُّكَ أَنْ لَا تَبَيِّنَهُ ، فَإِنْ الْكَلَامُ سِلَاحُ السَّلَمِ ، وَبِالْأَنِينِ يُعْرَفُ أَلَمُ الْجُرُوحِ ، وَاجْعَلِ الْكُلَّ أَمْرًا أَخَذْتَ فِيهِ غَايَةً تَجْعَلُهَا نِهَايَةً لَكَ .

(١) مَلَكَهُ مَلَكَهُ بِالْتَحْرِيكِ ، وَمَلَكَهُ مَلَكَهُ الْمِمْ ، وَمَلَكَهُ مَلَكَهُ اللَّامِ : احْتَوَاهُ قَادِرًا عَلَى الْإِسْتِغَادَةِ بِهِ .

(٢) مِنْ اسْتَمَلَيْتَهُ الْكِتَابَ : سَأَلْتَهُ أَنْ يَمْلِكَهُ عَلَى ، وَالْمَعْنَى : اسْتَرْشَدَ وَتَبَيَّنَ مِنْ نَظَرَاتٍ عَلَيْهِ أَحَبِّيبَ

وَأَكْذُبْ مَا أَوْصِيكَ بِهِ أَنْ تَطْرَحَ الْأَفْكَارَ ، وَتَسْلَمْ لِلْأَقْدَارِ .

وَأَقْبَلْ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ مَنْ قَرَّرَ عَيْنًا بَعِيشَهُ نَفْعَهُ

إِذَا الْأَفْكَارَ تَجَلَّبَبَ الِهْمُومُ ، وَتَضَاعَفَ الْغُمُومُ ، وَمِلَازِمَةُ الْقُطُوبِ ، عُنْوَانُ لِلْمَصَائِبِ
وَالْخُطُوبِ ، يَسْتَرِيبُ بِهِ الصَّاحِبُ ، وَيَسْمَتُ الْعَدُوَّ الْمُجَانِبَ ، وَلَا تَضُرُّ بِالْوَسَاوِسِ إِلَّا
نَفْسُكَ ، لِأَنَّكَ تَنْصَرِبُهَا الدَّهْرُ عَلَيْكَ ، وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ :

إِذَا مَا كُنْتَ لِلْأَحْزَانِ عَوْنًا عَلَيْكَ مَعَ الزَّمَانِ فَمَنْ تَلُومُ

مَعَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْفَائِتَ الْحَزَنُ ، وَلَا يَرْعَى بِطُولِ عَتَبِكَ الزَّمَنُ ، وَلَقَدْ
شَاهَدْتُ بِفَرْطَانَةِ شَخْصًا قَدْ أَلْفَتَهُ الْهَمُومُ ، وَعَشِقَتْهُ الْغُمُومُ ، مِنْ صَفَرِهِ إِلَى كَبَرِهِ ، لَا تَرَاهُ
أَبَدًا خَلِيًّا مِنْ فِكْرِهِ ، حَتَّى لُقِبَ بِصَدْرِ الْهَمِّ ، وَمِنْ أَعْجَبَ مَا رَأَيْتُهُ مِنْهُ أَنَّهُ يَتَنَكَّدُ
فِي الشَّدَةِ ، وَلَا يَتَعَلَّلُ بِأَنْ يَكُونَ بَعْدَهَا فَرْجٌ ، وَيَتَنَكَّدُ فِي الرِّخَاءِ خَوْفًا مِنْ أَنْ لَا يَدُومَ .
وَيُنْشِدُ : تَوَقَّعْ زَوَالًا إِذَا قِيلَ تَمَّ ، وَيُنْشِدُ : وَعِنْدَ التَّنَاهَى يَقْضُرُ الْمُتَطَاوِلُ .

وَلَهُ مِنَ الْحِكَايَاتِ فِي هَذَا الشَّأْنِ عَجَائِبُ ، وَمِثْلُ هَذَا عُمرُهُ مَحْشُورٌ يَرَى ضِيَاعًا .

وَمَتَى رَفَعْتَ الزَّمَانَ إِلَى قَوْمٍ يَذُمُّونَ مِنَ الْعِلْمِ مَا يُحْسِنُهُ حَسَدًا لَكَ ، وَقَصْدًا لِتَصْغِيرِ
قُدْرِكَ عِنْدَكَ ، وَتَزْهِيدًا لَكَ فِيهِ ، فَلَا يَحْمِلُكَ ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَزْهَدَ فِي عِلْمِكَ ، وَتَرْتَضَى كُنْ إِلَى
الْعِلْمِ الَّذِي مَدَحُوهُ ، فَتَكُونَ مِثْلَ الْغَرَابِ الَّذِي أَعْجَبَهُ مَشْيُ الْحَجَلَةِ^(١) فَرَامَ أَنْ يَتَعَلَّمَ
فَصَعُبَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَشْيِهِ فَذَنَسِيهِ ، فَبَقِيَ مُحْبِلًا لِلْمَشْيِ ، كَمَا قِيلَ :

إِنَّ الْغَرَابَ (وَكَانَ يَمْشِي مِشْيَةً) فِيمَا مَضَى مِنْ سَالِفِ الْأَجْيَالِ^(٢)

حَسَدَ الْقَطَا ، وَأَرَادَ يَمْشِي مِشْيَهَا فَأَصَابَهُ ضَرْبٌ مِنَ الْعُقَالِ^(٣)

(١) الحجل بالتحريك : طائر على قدر الحمام كالقطا ، أحر المنقار والرجلين ، والواحدة حجلة واسم جمعه
حجل بكسر فسكون ففتح ولا نظير له سوى ظربي (ومفرده ظربان بفتح فكسر وهو دويبة منتنة الريح)
(٢) هذا البيت ليس مثبتاً في الأصل ، وقد أوردته الدهري مع البيهقي بعده في حياة الحيوان
الكبرى ٢ : ٢٤٤ . (٣) العقال : داء في رجل الدابة إذا مشى ظلع ساعة ثم انبسط .

فَاضِلٌ مِثْلَتَهُ ، وَأَخْطَأَ مِثْلَهَا فَلِذَاكَ سَمَّوهُ أَبَا مِرْقَالٍ^(١)
وَلَا يُفْسِدُ خَاطِرُكَ مَنْ جَعَلَ يَدُومَ الزَّمَانِ وَأَهْلَهُ ، وَيَقُولُ : « مَا بَقِيَ فِي الدُّنْيَا
كَرِيمٌ وَلَا فَاضِلٌ ، وَلَا مَكَانٌ يُرْتَاحُ فِيهِ » ، فَإِنَّ الَّذِينَ تَرَاهُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ ، أَكْثَرُ
مَا يَكُونُونَ مِنْ صَحْبِهِ الْحَرَمَانِ ، وَاسْتَحَقَّتْ طَلْعَتُهُ لِلْهَوَانِ ، وَأَبْرَمُوا^(٢) عَلَى النَّاسِ
بِالسُّؤَالِ فَفَقَتُوهُمْ ، وَعَجَزُوا عَنْ طَلَبِ الْأُمُورِ مِنْ وَجْهِهَا ، فَاسْتَرَاخُوا إِلَى الْوُقُوعِ
فِي النَّاسِ ، وَإِقَامَةِ الْأَعْذَارِ لَأَنْفُسِهِمْ بِقَطْعِ أَسْبَابِهِمْ ، وَتَعْذِيرِ أُمُورِهِمْ ، وَلَا تُزِلُّ هَذِينَ
الْبَيْتَيْنِ مِنْ فِكْرِكَ :

لِنْ إِذَا مَا نِلْتَ عِزًّا فَأَخُو الْعِزِّ يَلِينُ
فَإِذَا نَابَكَ دَهْرٌ فَكَمَا كُنْتَ تَكُونُ

وَقَوْلِ الْآخِرِ :

تِهْ وَارْتَفَعْ إِنْ قِيلَ أَقْتَرُ ، وَانْخَفِضْ إِنْ قِيلَ أَثْرَى^(٣)
كَالْفَصْرِ يَسْفُلُ مَا أَكْتَسَى ثَمَرًا ، وَيَعْلُو مَا تَعَرَّى

وَلَا قَوْلِ الْآخِرِ :

الْخَيْرُ يَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادٍ
وَاعْتَقِدْ فِي النَّاسِ مَا قَالَهُ الْقَائِلُ :

وَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ وَمَنْ يَفْوَ لَا يَمْدُمُ عَلَى الْفَيْ لَأَنَّمَا
وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُ الْقَائِلِ :

بِقَدْرِ الصُّعُودِ يَكُونُ الْمَبْطُوطُ فَإِيَّاكَ وَالرُّتَبَ الْعَالِيَةَ
وَكَنْ فِي مَكَانٍ إِذَا مَا سَقَطَتْ تَقُومُ وَرِجْلَاكَ فِي عَافِيَةٍ
وَتَحْفَظُ بِمَا تَضَمَّنَهُ قَوْلُ الْآخِرِ :

(١) مَنْ أَرَقَّتِ الدَّابَّةُ : إِذَا أَسْرَعَتْ . (٢) أَوْرَدَ لِلْعَمَلِ لِأَنَّهُ لَا زَمَانَ وَهُوَ مُصَدِّ ، جَاءَ فِي كِتَابِ الْقَفَّةِ :
« أَمْرُهُ قَبْرٌ كَفَرَحٍ وَتَبْرَمُ : أَمْلُهُ قُلُ » . (٣) أَقْتَرُ : الْفَقْرُ .

ومن دعا الناس إلى ذمِّه دَمُّوه بالحقِّ وبالباطل
وللهِ حَرُّ القائل :

ما كلُّ ما فوق البسيطة كافياً فإذا قَنِيتَ فكلَّ شيءٍ كافٍ
والأمثال يَضْرِبُهَا لَدَى اللَّبِّ الحَكِيمِ ، وذو الْبَصَرِ يَمْشِي عَلَى الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ،
وَالْفِطْنُ يَقْنَعُ بِالْقَلِيلِ ، وَيَسْتَدِلُّ بِالْيَسِيرِ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ ، لَا رَبَّ سِوَاهُ .
(نفع الطيب ١ : ٤٩٣)

٢٠ - خطبة ابن الزيات المنزوعة الألف (توفي سنة ٧٢٨ هـ)

وخطب أحمد بن الحسن بن عليّ بن الزيات^(١) خطبة ألفيت الألف من حروفها على
كثرة تردها في الكلام ، وهي :

« حِدَّتْ رَبِّي جَلَّ مِنْ كَرِيمٍ مَحْمُودٍ ، وَشَكَرْتُهُ عَزَّ مِنْ عَظِيمٍ مَعْبُودٍ ، وَزَرَّهَتْهُ
عَنْ جَهْلٍ كُلِّ مُلْحِدٍ كَفُورٍ ، وَقَدَّسَتْهُ عَنْ قَوْلِ كُلِّ مُفْسِدٍ غَرُورٍ . كَبِيرٌ لَوْ تَقَوَّمَ
فِي فَهْمٍ لُحْدٌ^(١) ، قَدِيرٌ لَوْ تَصَوَّرَ فِي رَسْمٍ لُحْدٌ^(٢) ، لَوْ عَرَّتْهُ^(٣) فِكْرَةٌ تَصَوَّرَ لَتَصَوَّرَ
وَلَوْ حَدَّتْهُ فِكْرَةٌ لَتَقَدَّرَ^(٤) ، وَلَوْ فَهِمَتْ لَهُ كَيْفِيَّةٌ لَبْطَلَ قِدْمُهُ ، وَلَوْ عَلِمَتْ لَهُ كَيْفِيَّةٌ
لَحْصَلَ عَدْمُهُ ، وَلَوْ حَصِرَ فِي ظَرْفٍ لَقُطِعَ بَتَجَسُّمِهِ ، وَلَوْ قَهَرَ وَصَفَ لَصُدِعَ^(٥)
بَتَقْسُّمِهِ ، وَلَوْ فُرِضَ لَهُ شَبَحٌ لَرَهَقَهُ^(٦) كَيْفٌ . عَظِيمٌ مِنْ غَيْرِ تَرْكِيبٍ قَطْرٌ ، عَلِيمٌ مِنْ

(١) هو أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات الخطيب المتصوف ، من أهل بلش ما لقة وله سنة ٦٤٩ هـ ،
وتوفي سنة ٧٢٨ هـ . قال فيه لسان الدين بن الخطيب : « كان يفتح مجاله أكثر الأحيان بخطب غريبة ،
يطبق بها مفاسل الأغراض التي يشرح فيها ، وينظم الشعر دائماً في مراجعته ومخاطبته وإيجازاته من خبر
فأن ولا روية ، حتى اعتاده ملكة ، واستعمل في السفارات بين الملوك لدخول السخام ، وإصلاح الأمور ،
فكانوا يوجبون حقه ، ويلتمسون بركته ودعاه » وله تصانيف كثيرة ذكرها ابن الخطيب .

(١) أي لعرف ، من الحد : وهو التعريف . (٢) من التحديه ، أي لصارت له ذات محدودة ،
ولو أنه قال : « قديم » بدل « قدبر » لناسب أن يقول بعده : « لجد » بالجميم المفتوحة أي لصار
جديداً حادثاً . (٣) عرته : أي احترته وتناولته ، وفي الأصل « عدته » بالذال وأراه محرفاً ،
وتصور أي تمثل في صورة ، يقال : صورته فتصور . (٤) لتقدر : أي صار له قدر مجسم ، وفي
الأصل « لتذر » وأراه محرفاً . (٥) صدح به : جهر . (٦) رهقه : خشيته ولحقه .

غير ترتيب فكر، موجود من غير شيء يُنسكه، معبود من غير وهم يدركه، كريم من غير عوض يلحقه، حكيم من غير عرض يلحقه^(١)، قوى من غير سبب يجمعه، على من غير سبب يرفعه، لو وجد له جنس لعرض في قِيُومِيَّتِهِ^(٢)، ولو ثبت له حس لنُوزع في دِيُومِيَّتِهِ^(٣).

ومنها: تقدس وعز فعله، وتنزه عز اسمه وفضله، جل قاهر قدرته، وعز باهر عزته، وعظمت صفته، وكثرت منته، فتق ورتق، وصور وخلق، وقطع ووصل، ونصر وخذل، حذته حد من عرف ربه، ورهب ذنبه، وصفت حقيقة يقينه قلبه، وزكت^(٤) بصيرة دينه لبه، ربط سلك سلوكه وشده^(٥)، وهدم صرح عتوه وهده، وحرس معقل عقله وحد، وطرده غرور غرته^(٦) ورذله^(٧)، علم علم تحقيق فنحناموه، نقر له عز وجل بثبوت ربوبيته وقدمه، ونعتقد صدور كل جوهر وعرض عن جوده وكرمه، ونشهد بتبليغ محمد صلى ربه وسلم عليه، رسوله وخير خاقه، ونعلن بنهوضه في تبين فرضه، وتبليغ شرعه، ضرب قبة شرعه فنسخت كل شرع، وجدد عزيمته فقمع عدوه خير قمع، قوم كل مقوم بقويم سنته، وكريم هديه، وبين لقومه كيف ير كنون^(٨)، ففازوا بقصده وسديد سعيه، بشر مطيعه فطفر برحمته، وحذر عاصيه فشق بنقمته.

وبعد: فقد نصحتكم لو كنتم تعقلون، وهديتكم لو كنتم تعلمون، نصرتكم لو كنتم تبصرون، وذكرتم لو كنتم تدكرون، ظهرت لكم حقيقة نشركم،

(١) يلحقه الأول: أي يناله ويأخذه، ويلحقه الثاني بمعنى يتصف به.

(٢) القيوم: من أسمائه تعالى، أي الذي لا نلده. (٣) الديمومة: الدوام.

(٤) زكت: طهرت.

(٥) في الأصل «وشيد» وأراه محرفاً عن «شد» إذ هي التي تلائم قوله قبلها «وربط».

(٦) الغرة: الغفلة. (٧) رذله وأرذله: هده رذلاً.

(٨) ركن إلى الشيء: ركنا: مال إليه وأطمأن، أي بين لهم كيف يركنون إلى الحق والصواب،

وقد كانوا من قبله يمهون في ضلالهم ويخطون.

وَبَرَزَتْ لَكُمْ حَقِيقَةُ حَشْرِكُمْ ، فَمَنْ تَرَكَضُونَ فِي طَلَقِ^(١) غَفْلَتِكُمْ ، وَتَعْمَلُونَ عَنْ يَوْمَ بَعْثِكُمْ ، وَلِلْمَوْتِ عَلَيَكُمْ سَيْفٌ مُسَلُّولٌ ، وَحُكْمٌ عَزِيزٌ غَيْرٌ مُعْلُولٌ ، فَكَيْفَ بِكُمْ يَوْمَ يُؤْخَذُ كُلُّ بَذْنَبَةٍ ، وَيُخْبَرُ بِجَمِيعِ كَسْبِهِ ، وَيُفَرَّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَحْبِهِ ، وَيَعْدَمُ نُصْرَةَ حِزْبِهِ ، وَيَشْتَغِلُ بِهِمْ وَكَرْبِهِ ، عَنْ صَدِيقِهِ وَتَرْبِهِ ، وَتُنْشَرُ لَهُ رُقْعَةٌ ، وَتَعَيَّنُ لَهُ بُقْعَةٌ ؟ فَارْجِعْ عَبْدُ نَظَرٍ وَهُوَ فِي مَهَلٍ لِنَفْسِهِ ، وَتُرْسَلْ فِي رَضِيٍّ عَمَلٍ جَنَّةٍ لِحُلُولِ رَمْسِهِ^(٢) وَكَسَّرَ صَنَمَ شَهْوَتِهِ ، لِيَقَرَّ فِي بُحْبُوحَةٍ^(٣) قُدْسِهِ .

ومنها : فَتَلَبَّهْ - وَيَحْكُ - مِنْ سِنَتِكَ وَنَوْمِكَ ، وَتَفَكَّرْ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ نُحْبَتِكَ وَقَوْمِكَ ، هَتَفَ بِهِمْ مَنْ تَعَلَّمَ ، وَشَبَّ عَلَيْهِمْ مَنْهُ حَرَقٌ^(٤) مُظْلِمٌ ، فَخَرِبَتْ بِصِيَحَّتِهِ رِبْوَعُهُمْ ، وَتَفَرَّقَتْ لَهْوَلُهُ جُمُوعُهُمْ ، وَذَلَّ عَزِيزُهُمْ ، وَخَسِيَ رَفِيعُهُمْ ، وَصَمَّ سَمِيعُهُمْ ، فَفَرَجَ كُلَّ مِنْهُمْ عَنْ قَصْرِهِ ، وَرُمِيَ غَيْرَ مُؤَسَّدٍ فِي قَبْرِهِ ، فَهُمْ بَيْنَ سَعِيدٍ فِي رَوْضَةٍ مُقَرَّبٍ ، وَبَيْنَ شَقِيٍّ فِي حُفْرَةٍ مُعَذَّبٍ ، فَلَسْتُ وَهَبُ مِنْهُ عِزًّا وَجَلًّا عِصْمَةً مِنْ كُلِّ خَطِيئَةٍ ، وَخُصُوصِيَّةً تَقِي مِنْ كُلِّ نَفْسٍ جَرِيئَةً^(٥) .

(الإحاطة ، في أخبار غرناطة ١ : ١٥٤)

٢١ - خطبة القاضي عياض التي ضمنها سور القرآن

وخطب القاضي أبو الفضل عياض^(٦) خطبة ضمنها سور القرآن ، فقال :
« الحمد لله الذي افْتَتَحَ بالحمد كلامه ، وَبَيَّنَ في سورة البقرة أحكامه ، وَمَدَّ

(١) يقال : جرى الفرس طلقاً أو طلقين : أي شوطاً أو شوطين . (٢) الرمس : القبر .

(٣) بحبوحة المكان : وسطه . (٤) الحرق : النار ولهبا .

(٥) يلاحظ أن في الخطبة خمس كلمات فيها ألف وهي : قاهر . باهر . عاصيه . ففازوا . فنحا

(٦) هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض ولد سنة ٤٧٦ هـ ، بسبته - بلد بمراكش على الساحل الشمالي ودخل الأندلس طالباً للعلم ، فأخذ بقرطبة عن جماعة ، وجمع من الحديث كثيراً ، وكان له به كبير عناية ، وكان إمام وقته فيه ، وفي النحو واللغة ، واستنقى ببلده سبته ، ثم نقل منها إلى قضاء غرناطة ، وتوفي بمراكش سنة ٥٤٤ هـ ، قال المصنف بعد أن أورد هذه الخطبة : « وفي نفس من نسبها له شيء ، لأن نفس القاضي في البلاغة أهل من هذه الخطبة ، والله تعالى أعلم . »

فِي آلِ عِمْرَانَ وَالنِّسَاءِ مَائِدَةَ الْأَنْعَامِ لِيُتِمَّ بِإِنْعَامِهِ ، وَجَعَلَ فِي الْأَعْرَافِ أَنْفَالَ تَوْبَةِ
يُونُسَ وَالرَّ كِتَابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ، بِمَجَاوِرَةِ يَوْسُفَ الصَّدِّيقِ فِي دَارِ الْكَرَامَةِ ،
وَسَبَّحَ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، وَجَعَلَ النَّارَ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، لِيُؤْمِنَ أَهْلُ الْحِجْرِ^(١)
أَنَّهُ إِذَا أَمَرُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فَلَا كَهْفَ وَلَا مَلْجَأَ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَلَا يُظْلَمُونَ قَلَامَةً ، وَجَعَلَ
فِي حُرُوفِ كَهَيْصَعٍ سِرًّا مَكْنُونًا ، قَدَّمَ بِسَبِيهِ طَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ
لِيُظْهِرَ إِجْلَالَهُ وَإِعْظَامَهُ ، وَأَوْضَحَ الْأَمْرَ حَتَّى حَاجَّ الْمُؤْمِنُونَ بِنُورِ الْفُرْقَانِ ، وَالشُّعْرَاءُ
صَارُوا كَالنَّحْلِ ذُلًّا وَصَفَارًا لِعِظَامَتِهِ ، وَظَهَرَتْ قَصَصَ الْعَنْكَبُوتِ فَآمَنَ بِهِ الرُّومُ ،
وَأَيُّقُنُوا أَنَّهُ كَلَامُ الْحَيِّ الْقَيُّومِ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى زَيْنٍ مِّنْ وَآئِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ،
وَأَوْضَحَ لِقَامَ الْحِكْمَةِ بِالْأَمْرِ بِالسُّجُودِ لِرَبِّ الْأَحْزَابِ ، فَسَبَّأَ فَاطِمَةُ السَّمَوَاتِ أَهْلَ
الطَّاغُوتِ ، وَأَكْسَبَهُمْ ذُلًّا وَخِزْيًا وَحَسْرَةً وَنَدَامَةً ، وَأَمَدَّ إِيْسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِتَأْيِيدِ الصَّافَّاتِ^(٢) ، فَصَادَ الزُّمَرُ يَوْمَ بَدْرِهِ ، وَأَوْقَعَ بِهِمْ مَا أَوْقَعَ صُنَادِيدُهُمْ فِي الْقَلْبِ^(٣)
مَكْدُوسٌ وَمَكْبُوبٌ ، حِينَ شَالَتْ بِهِمُ النَّعَامَةُ^(٤) ، وَغَفَرَ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ
لِلْبَدْرِيِّينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ حِينَ فُصِّلَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ، فَذَلَّ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ
كَلِمَةُ الْعَذَابِ وَأَيَّسَ مِنَ السَّلَامَةِ ، ذَلِكَ بِأَنَّ أَمْرَهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ، وَشَغَلَهُمْ زُخْرُفُ
الْآخِرَةِ عَنْ دُخَانِ الدُّنْيَا ، فَخَنُوا أَمَامَ الْأَحْقَافِ^(٥) لِقِتَالِ أَعْدَاءِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يَمِينَهُ وَشِمَالَهُ وَخَلْفَهُ وَأَمَامَهُ ، فَأَعْطُوا الْفَتْحَ وَبَوَّؤُوا حُجْرَاتِ الْجَنَانِ ، وَحِينَ تَلَّوْا :
قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ، وَتَدَبَّرُوا جَوَابَ قَسَمِ الذَّارِيَاتِ^(٦) وَالطُّورِ ، لَاحَ لَهُمْ نَجْمُ الْحَقِيقَةِ
وَانشَقَّ لَهُمْ قَرِ الْيَقِينِ ، فَنَافَرُوا السَّامَةَ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَمَّنْهُمْ الرَّحْمَنُ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ،

(١) واد بين المهينة والاشمام ، وهو منازل نمرود .

(٢) الملائكة تصف نفوسها لعبادة . (٣) القلب : البئر .

(٤) شالت نعماتهم : خفت منازلهم منهم ، أو تفرقت كلمتهم ، أو ذهب مزهم .

(٥) واد باليمن به منازل عاد . (٦) الذاريات : للرياح تذر والتراب وغيره .

واعترف بالضعف لهم الحديد ، وهُزِمَ المجادلون ، وأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْخُسْرِ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ، حين نافروا السلامة .

أحمدَه حمدًا من امتحنته صفوفُ الجموع في نَقَقِ التغابُنِ ، فطَلَقَ الحُرُمَاتِ حين اعتَبَرَ الْمَلِكُ وعامَه ، وَقَدْ سَمِعَ صَرِيْفَ الْقَلَمِ وكأَنَّهُ بِالْحَاقَّةِ ^(١) والمعارج يمينه وَشِمَاله وخلفه وأمامه ، وقد ناح نوح الجن قَتْمَل ^(٢) وتَدَثَّرَ فَرَقًا من يوم القيامة ، وَأَنَسَ بُرْسَلَاتِ النَّبَا ، فَنَزَعَ الْعُبُوسَ من تحت كُورِ العامة ، وظهر له بالانفطار التطفيفُ ، فانشَقَّتْ بُرُوجُ الطارق بتسبيح الملك الأعلى . وَغَشِيَتْهُ الشَّهَامَةُ ، فَوَرَبُّ الْفَجْرِ والبلد والشمس والليل والضحى ، لقد انشِرت صدور المتقين ، حين تَلَّوْا سورة التين ، وَعَلِقَ الْإِيمَانُ بقلوبهم ، فكلُّ على قدر مقامه يُبين ، ولم يكونوا بمنفكين دهرهم ، ليله ونهاره وصيامه وقيامه ، إذا ذكروا الزَّلْزَلَةَ رَكَبُوا الْعَادِيَاتِ ^(٣) ليطفئوا نور القارعة ، ولم يُلْهِهِمُ التَّكَاثُرُ حين تلووا سورة العصر والمُعْزَةَ ، وتمثلوا بأصحاب الفيل فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ . أَرَأَيْتَهُمْ كَيْفَ جَعَلُوا عَلَى رِءُوسِهِمُ مِنَ الْكُورِ عِمَامَةً ؟ فَالْكُورُ ^(٤) مكتوب لهم ، وَالْكَافِرُونَ خَذِلُوا ، وَهُمْ نَصِرُوا ، وَعَدِلَ بِهِمْ عَنْ لَهَبِ الطَّامَةِ ، وبسورة الإخلاص قَرُّوا وَسَعِدُوا ، وَبَرَبِ الْفَلَقِ ^(٥) وَالنَّاسِ ، استعاذوا فَأَعْيِذُوا من كل حُزْنٍ وَهَمٍّ وَغَمٍّ وَندامة ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وحده لاشريك له ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، شَهَادَةً تُنَالُ بِهَا مَنَازِلُ الْكَرَامَةِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ مَا غَرَّدَتْ فِي الْأَيْكِ حَمَامَةٌ .

(نفع الطيب ٤ : ٣٩١)

(١) الحاقّة : القيامة التي فيها يحق ما أنكر من البعث والجزاء .

(٢) تزل بيشابه : تلفف بها ، وكذا تدثر .

(٣) الخيل تمُدُّ في الغزو ، والقارعة التي تفرع للقلوب بأهوالها .

(٤) الكور : نهر في الجنة . (٥) الفلق : الصبح .

٢٢ — خطبة سعيد بن أحمد المقرئ التي ضمنها سور القرآن

وخطب سعيد بن أحمد المقرئ^(١) خطبة على هذا النمط نصها :

« الحمد لله الذي افتتح بفاتحة الكتاب سورة البقرة ، ليصطفى من آل عمران رجالا ونساء ، وفضلهم تفضيلا ، ومدَّ مائدة إنعامه ورزقه ، ليعرف أعراف أنفال كرمه حقَّه على أهل التوبة ، وجعل ليونسَ في بطن الحوت سبيلا ، ونجَّى هوداً من كَرْبه وحزنه ، كما خلَّص يوسف من جُبِّه وسجنه ، وسبَّح الرعدُ بحمده ويُمْنه ، واتَّخذَ اللهُ إبراهيمَ خليلا ، الذي جعل في حجر الحجر من النحل شراباً نوع باختلاف ألوانه ، وأوحى إليه بحنّى لطفه سبحانه ، واتخذ منه كهفًا قد شيدَ بنيانه ، وأرسل رُوحه إلى مريم فتَمَثَّلَ لها تمثيلا ، وفضَّلَ طه على جميع الأنبياء ، فأتى بالحج والكتاب المكنون ، حيثُ دعا إلى الإسلام قد أفلح المؤمنون ، إذ جعل نور الفرقان دليلا ، وصدَّقَ محمداً صلى الله عليه وسلم الذي تجرَّت الشعراء في صدق نفعه ، وشهدت النملُ بصدق بعثه ، وبَيَّنَ قصص الأنبياء في مدَّة مُكثِّه ، ونسج العنكبوت عليه في الغار سِتْرًا مسدُولا ، ومُلِئَتْ قلوب الروم رُعباً من هيئته ، وتعلَّم لُقمان الحكمة من حكيمه ، وهَدَى أهل السَّجدة للإيمان بدعوته ، وهَزَمَ الأحزاب وسبَّاهم وأخذهم أخذاً وببلا ، فألقبهُ فاطرُ السموات والأرض بيس ، كما نفَّذَ حكمه في الصَّافَّاتِ وبَيَّنَ صِدْقَهُ بإظهار المعجزات ، وفرَّقَ زُمرَ المشركين ، وصَبَرَ على أقوالهم وهجرهم هجراً جميلا ، فغفر له غافر الذنب ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وفُصِّلَتْ رقابُ المشركين إذ لم يكن أمرهم شُورى بينهم ، وزخرف منار الإسلام ، وخَفِيَ دخان الشُّرك ، وخرَّتِ المشركون جاثيةً ، كما أنذر أهل الأحقاف فلا يهتدون سبيلا ، وأذلَّ الذين كفروا شدة القتال ،

(١) هو سعيد بن أحمد المقرئ صاحب نفع الطيب .

وجاء الفتح للمؤمنين والنصر العزيز، وحجر الحُجرات الحريز، وبقي القدرة قُتِلَ
 الخراصون^(١) تقتيلاً، كلم موسى على جبل الطُور، فارتقى نجم محمد صلى الله عليه وسلم،
 فاقتربت بطاعته مبادئ السرور، وأوقع الرحمن واقعة الصبح على بساط النور،
 فتمجّب الحديد من قوته، وكثرة المجادلة في أمته، إلى أن أُعيد في الحشر بأحسن مقيلاً
 أمتحنه في صفّ الأنبياء وصلى بهم إماماً، وفي تلك الجمعة مُلئت قلوبُ المنافقين من
 التغايب خُسراً وإرغاماً، فطلق وحرّم، تبارك الذي أعطاه الملك، وعلم بالقلم، ورتّل
 القرآن ترتيلاً، وعن علم الحاقّة كم سأل سائل فسأل الإيمان، ودعا به نوح فنجاه الله تعالى
 من الطوفان، وأتت إليه طائفة الجن يستمعون القرآن، فأُنزل عليه: «يَأَيُّهَا الْمُزْمَلُ
 قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا»، فكم من مدّثر يوم القيامة شفقةً على الإنسان إذا أرسل
 مُرسّلات الدمع، فعمّ يتساءلون أهل الكتاب، وما تقبل من نازعات الشركين
 إذا عبّس عليهم مالك وتولّاهم بالعذاب، وكوّرت الشمس وانفطرت السماء،
 وكانت الجبال كَثِيبًا مَهِيلاً، فَوَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ» إذا انشقت السماء بالغمام، وطويت
 ذات البروج، وطرق طارق الصُّور بالنفخ للقيام، وعزّ اسم ربك الأعلى لغاشية الفجر،
 فيومئذ لا بلد ولا شمس ولا ليل طويلاً، فطوبى للمصاين الضحى عند انشراح
 صدورهم، إذا عاينوا التين والزيتون وأشجار الجنة، فسجدوا بإقرأ اسم ربك الذي
 خلق هذا النعم الأَكْبَر لأهل هذه الدار ما أحيوا ليلة القدر، وتبتّلوا بتبتيلاً، ولم يكن
 للذين كفروا من أهل الكتاب من أهل الزلزلة من صديق ولا حميم، وتسوقهم
 كالعاديات إلى سواء^(٢) الجحيم، وزلزلت بهم قارعة العقاب، وقيل لهم: أَلْهَاكُمْ
 التَّكَاثُرُ، هذا عصر العقاب الأليم، وحُشِرَ الهُمَزَةُ وأصحاب الفيل إلى النار فلا يظلمون
 قَتِيلًا، وقالت قريش ما أمتن من هول الحشر، أَرَأَيْتَ الذي يكذّب بالدين كيف

طُرِدَ عن الكوثر؟ وَسِيقَ الكافرون إلى النار، وجاء نصر الله والفتح، فَتَبَّتْ بَدَا
أَبَى كَلْبٍ : إِذْ لَا يَجِدُ إِلَى سِوَةِ الْإِخْلَاصِ سَبِيلًا ، فَنَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ،
وَنَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي فَسَقَ ،
وَتَتُوبُ إِلَيْهِ وَتَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا .
(نفع الطيب ٤ : ٢٩٢)

٢٣ — خطبة الكفعمي التي ضمنها سور القرآن أيضا

وخطب الكفعمي^(١) خطبة على هذا النمط أيضا نصها :

« الحمد لله الذي شَرَّفَ النبي العربي بالسمع المثاني وخواتيم البقرة من بين الأنعام ،
وفضَّلَ آل عمران على الرجال والنساء ، بما وهب لهم من مائدة الأنعام ، ومنحهم
بأعراف الأنفال ، وكتب لهم بَرَاءَةً من الآثام ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له ، الذي نَجَّى يونس وهو دأً ويوسف من قومهم ، برَّعَدَ الانتقام ، وغَدَّى
إبراهيم في الحجر بأعاب الفحل ذات الإسرار ، فضاهاى كهف مريم عليها السلام ،
وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي هو طه الأنبياء ، وحج المؤمنين ، ونور فرقان
الملك العلّام ، فالشعراء والنمل بفضلُه تُخْبِر ، ولقصص العنكبوت الروم تذْكَر ،
ولقمان في سجده يَشْكُر ، والأحزاب كأيدى سباً تُقَهَّر ، وفاطرس لصفاته يُنْصَر ،
وصاد مقلّة زُمَرَه تنظر الأعلام ، فآل حمّ بقتال فتحه في حُجُرَات قافه قد ظَهَرَتْ ،
وذاريات طُورَه ونجمه وقره قد عَطِرَتْ ، وبالرحمن واقعة حديده يوم المجادلة قد نُصِرَتْ
وأبصار معانديه في الحشر يوم الامتحان حَسَرَتْ^(٢) ، وَصَفَّ جَعَمته فائزٍ إِذْ أجساد
المنافقين بالتغابن استعرت ، وله الطلاق والتحريم وَمَقَامُ الْمَلِكِ والقلم ، فناهيك به من

(١) قال صاحب نفع الطيب في ترجمته : « هو إبراهيم بن علي بن حسن بن محمد بن صالح نسبة إلى كفر
حنّا قرية من قرى أعمال صفد كما نقول في النسبة إلى بني عبد الدار عبادي ، وإلى حصن كيفا : حصن .
(٢) حشر البصر كحشر : كل فهو حسير .

مقام ، وفي الحاقة ، أَعْلَى الله له المعارج نوح المطهر ، وخصه من بين الإنس والجن بِبَيَّأَتِهَا الزَّمْلُ ، وَيَأْيُهَا الْمَدَّثُ ، وَشَفَعَهُ فِي الْقِيَامَةِ إِذَا دُمُوعُ الْإِنْسَانِ مُرْسَلَاتٌ كَالْمَاءِ الْمُتَفَجَّرِ ، وَوَجْهُهُ عِنْدَ نَبَا النَّازِعَاتِ وَقَدْ عَبَسَ الْوَجْهَ كَالْهَلَالِ الْمُتَنَوِّرِ ، وَيَوْمَ التَّكْوِيرِ وَالْإِنْفِطَارِ وَهَلَاكَ الْمُطَفِّينَ وَانْشِقَاقِ ذَاتِ الْبُرُوجِ بِشَفَاعَتِهِ غَيْرِ مُتَضَجِّرٍ ، وَقَدْ حُرِسَتْ لِمَوْلَدِهِ السَّمَاءُ بِالطَّارِقِ الْأَعْلَى ، وَتَمَّتْ غَاشِيَةُ الْعَذَابِ إِلَى الْفَجْرِ عَلَى الْمَرْدَةِ اللَّثَامِ ، فَهُوَ الْبَلَدُ الْأَمِينُ ، وَشَمْسُ اللَّيْلِ وَالضُّحَى الْخُصُوصِ بِإِنْشِرَاحِ الصَّدْرِ ، وَالْمُفَضَّلُ بِالْتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ، الْمُسْتَخْرَجُ مِنْ أَمْشَاجٍ ^(١) الْعَلَقِ ، الطَّاهِرُ الْعَلِيِّ الْقَدَرِ ، شَجَاعُ الْبَرِيَّةِ يَوْمَ الزَّلْزَالِ ، إِذْ عَادِيَاتُ الْقَارَعَةِ تَدُوسُ أَهْلَ التَّكَاثُرِ وَمَشْرُكِي الْعَصْرِ ، أَهْلُكَ اللَّهُ بِهِ الْهَمْزَةَ وَأَصْحَابُ الْفِيلِ إِذْ مَكَرُوا بِقُرَيْشٍ وَلَمْ يَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَلَمْ يَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ، الْخُصُوصُ بِالْأَدِينِ الْحَنِيفِ وَالْكُوثَرِ السَّلْسَالِ ، وَالْمُؤَيَّدِ عَلَى أَهْلِ الْجَحْدِ بِالنَّصْرِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ مَا تَبَتَّ يَدَا مُعَادِيهِ ، وَنَعَمَ بِالتَّوْحِيدِ مُوَالِيهِ ، وَمَا أَفْصَحَ فَلَقُ الصُّبْحِ بَيْنَ النَّاسِ وَامْتَدَّ الظَّلَامُ .

(فتح الطيب ٤ : ٢٩٥)

(١) مشج بينهما كضرب : خلط ، والنش مشيج ، والجمع أمشاج كيتيم وأيتام .

الباب الثاني

في

خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها

١ - خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدينة

لما وَلِيَ أبو بكر بن عبد الله المدينة^(١) وطال مُكثُهُ عليها ، كان يبلغُهُ عن قوم من أهلها أنهم ينالون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإِسْعَافٌ من آخرين لهم على ذلك ، فأمر أهل البيوتاتِ ووجوه الناس في يوم جمعة أن يقرَّبوا من المنبر ، فلما فرغ من خطبة الجمعة قال :

« أيها الناس : إني قائلٌ قولاً ، فمن وعاه وأدَّاه فعلى الله جزاؤه ، ومن لم يعه فلا

(١) لا أعرف صاحب هذا الاسم والياً على المدينة، وإنما الذي قرأته في تاريخ الطبري أن أبا بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم الأنصاري ولي المدينة من سنة ٩٦ إلى سنة ١٠٠ في خلافة سليمان بن عبد الملك وحمز بن عبد العزيز « انظر تاريخ الطبري ، الجزء الثامن ، حوادث السنين من ٩٦ إلى ١٠٠ » وذكر أيضاً القلقشندي في صبح الأمشى « ج ٤ : ص ٢٩٦ » أن أبا بكر بن محمد هذا ولي المدينة أيام سليمان بن عبد الملك ، وظاهر أنه صاحب هذه الخطبة ، وإني لأستأنس في ذلك بقوله : « وطال مكثه عليها » فقد تولاهما خمس سنين ، وبالفرض الذي قبلت فيه الخطبة ، وأنت تذكر ما كان في العهد الأموي من اتساع دائرة الاختلاف الحزبي ، والفضال السيامي البعيد المدى ، وربما كان « عبد الله » اسماً آخر لأبيه محمد ، تسمى به قواصم ، وكان ذلك من عادة السلف الصالح رضوان الله عليهم كثيراً ، انظر مثلاً كتاب عمر في صلح أهل إيليا « هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان » . (الطبري ٤ : ١٥٩) .

يَعُدُّ مِنْ ذِمَامِهَا^(١) إِنْ قَصَّرْتُمْ عَنْ تَفْصِيلِهِ ، فَلَنْ تَعْجَزُوا عَنْ تَحْصِيلِهِ ، فَأَرْعُوهُ أَبْصَارَكُمْ ، وَأَوْعُوهُ أَسْمَاعَكُمْ ، وَأَشْعِرُوهُ^(٢) قُلُوبَكُمْ ، فَالْمَوْعِظَةُ حَيَاةٌ ، وَالْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ « وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ^(٣) السَّبِيلِ » ، « وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ » فَأَتُوا الْهَدَى تَهْتَدُوا ، وَاجْتَنِبُوا الْغَى تَرْشُدُوا ، « وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ، وَاللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ ، أَمْرُكُمْ بِالْجَمَاعَةِ ، وَرَضِيهَا لَكُمْ ، وَنَهَاكُمْ عَنِ الْفُرْقَةِ ، وَسَخَطَهَا مِنْكُمْ ، فِ « لَاتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ^(٤) وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَتْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ، فَاصْبِرْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا^(٥) حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » ، جَعَلْنَا اللَّهَ وَإِبْرَاهِيمَ مِنْ تَبِعِ رِضْوَانِهِ ، وَتَجَنَّبِ سَخَطَهُ ، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِهِ وَلَهُ .

وَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْدِّينِ ، وَاخْتَارَهُ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَاخْتَارَ لَهُ أَصْحَابًا عَلَى الْحَقِّ ، وَوُزَرَءَ دُونَ الْخَلْقِ اخْتَصَمَهُمْ بِهِ ، وَانْتَخَبَهُمْ لَهُ ، فَصَدَّقُوهُ وَنَصَرُوهُ ، وَعَزَّرُوهُ^(٦) وَوَقَّرُوهُ ، فَلَمْ يُقَدِّمُوا إِلَّا بِأَمْرِهِ ، وَلَمْ يُخْجِعُوا إِلَّا عَنْ رَأْيِهِ ، وَكَانُوا أَعْوَانَهُ بَعْدَهُ ، وَخُلَفَاءَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، فَوْصَفَهُمْ فَأَحْسَنَ صِفَتِهِمْ ، وَذَكَرَهُمْ فَأَتْنَى عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ - وَقَوْلُهُ الْحَقُّ - : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ، يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سِيَاهُ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ . ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ^(٧) ، كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ

(١) أى فلا يخرج عن حرمتها ، وتأنيت الضمير في « ذمامها » باعتبار الموعظة أو المفاظة .

(٢) أى الزقوه به . (٣) المقصد : استقامة الطريق ، أى بيان الطريق المستقيم الموصول إلى الحق .

(٤) التقاة : التقوى ، وجمعها تقى كرتبة ورتب ، وأصلها وقية قلبت واوها المضمومة تاء كما في وثودة وتخمّة ، والياء ألفاً . (٥) الشفا : حرف كل شيء .

(٦) التقزير : التفتيح والتنظيم وهو أيضاً أشد الضرب . ضد .

(٧) أى ذلك مثلهم في الكتاب ، والشط : فراخ الزرع ، فأزره أى فقواه ، فاستوى على سوقه : أى فاستقام على أسوأه وسبقاته .

فَازَرَهُ ، فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ ، يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ ، لِيَغْنِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا » ، فمن غاظه كفر وخاب ، وفجر وخسر ، وقال الله عز وجل : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ^(١) ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » فمن خالف شريطة الله عليه لهم ، وأمره بإياه فيهم ، فلا حق له في الثناء ولا سهم له في الإسلام ، في آي كثيرة من القرآن .

فمرقت مارقة من الدين ، وفارقوا المسلمين ، وجعلوهم عِصِينَ ^(٢) ، وتشعبوا أحزابا ، أشابات وأوشابا ^(٣) ، فخالفوا كتاب الله فيهم ، وثناه عليهم ، وآذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ، فخابوا وخسروا الدنيا والآخرة « ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » . « أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ؟ » مالى أرى عيوننا خُزْرًا ^(٤) ، ورقابا صُعْرًا ^(٥) وبطنونا بُجْرًا ^(٦) شَجًّا لَا يُسِيغُهُ الْمَاءُ ^(٧) ، وداء لا يُشْرَبُ فِيهِ الدَّوَاءُ « أَفَنْضِرُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ؟ » كلا والله ، بل هو الهناء ^(٨) والطلاء ، حتى يظهر العُذر ، وَيَبُوحُ السِّرُّ ، وَيَضْحَكُ الْغَيْبُ ،

(١) يؤثرون : يفضلون ويقدمون والخصاصة : الحاجة والفقر .

(٢) جمع عضة كعدة : وهى الفقرة والقطعة . (٣) أشابات جمع أشابة : وهى الأخطا ، وأشبه كضربه : خطئه ، والأوشاب جمع وشب كحمل ، والأوباش جمع وبش كسب : الأخطا والسفلة .

(٤) جمع خزره مؤنث أخزر وصف من الخزر بالتحريك ، وهو النظر فى أحد الشقين

(٥) الصعر بالتحريك : ميل فى الوجه ، أو فى أحد الشقين ، أو داء فى البعير يلوى عنقه منه ، صعر

كفرح فهو أصعر . (٦) بجر بطنه كفرح أيضا فهو أبحر : عظم ، والجمع بجر كبحر .

(٧) الشجا : ما اعترض فى الخلق من عظم ونحوه ، لا يسيغه أى لا يجعله سائغا سهل المدخل فى الخلق .

(٨) الهناء : القطران ، يراه أنه يعالجهم كما تطفى الإبل الجربى بالقطران لمدائها .

وَيُسَوِّسَ الْجُنُبَ^(١) ، فَإِنَّكُمْ لَمْ تُخْلَقُوا عَبِيدًا ، وَلَمْ تُتْرَكُوا سُدَى ، وَيُحْكَمْ ! إِنْ لَسْتُ أَتَاوِيًا^(٢) أَعْلَمُ ، وَلَا بَدَوِيًّا أَفْهَمُ ، قَدْ حَلَبْتُكُمْ أَشْطَرًا^(٣) ، وَقَلَبْتُكُمْ أَبْطَنًا وَأَظْهَرًا ، فَعَرَفْتُ أَنْحَاءَكُمْ وَأَهْوَاءَكُمْ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ قَوْمًا أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ بِالسُّنَنِمْ ، وَأَسْرَوْا الْكُفْرَ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَضَرَبُوا بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضُ ، وَوَلَدُوا الرِّوَايَاتِ فِيهِمْ ، وَضَرَبُوا الْأَمْثَالَ ، وَوَجَدُوا عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْجَهْلِ مِنْ أَبْنَائِهِمْ أَعْوَانًا يَأْذُنُونَ لَهُمْ^(٤) ، وَيُصْغَوْنَ إِلَيْهِمْ ، مَهْلًا مَهْلًا قَبْلَ وَقُوعِ الْقَوَارِعِ^(٥) ، وَطُولِ الرِّوَايَةِ ، هَذَا لِهَذَا وَمَعَ هَذَا^(٦) ، فَلَسْتُ أَعْتَنُ^(٧) آتِيًا وَلَا تَائِبًا ، « عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَكَفَ وَمَنْ عَادَ قَيْنَتْقُمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ » ، فَأَسِرُّوا خَيْرًا وَأَظْهَرُوهُ ، وَأَجْهَرُوا بِهِ وَأَخْلِصُوهُ ، فَطَالَا مَشَيْتُمُ الْقَهْقَرَى نَاكِصِينَ ، وَلَيْعَلَّ مِنْ أَدْبَرٍ وَأَصَرَ أَنَّهَا مَوْعِظَةٌ بَيْنَ يَدَيِ نِقْمَةٍ ، وَلَسْتُ أَدْعُوَكُمْ إِلَى أَهْوَاءِ تَتَّبَعُ ، وَلَا إِلَى رَأْيٍ يُبْتَدَعُ ، إِنَّمَا أَدْعُوَكُمْ إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى ، الَّتِي فِيهَا خَيْرُ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ، فَمَنْ أَجَابَ فَإِلَى رَشْدِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَنِ قَصْدِهِ ، فَهَلُمَّ إِلَى الشَّرَائِعِ الْجَدَائِعِ^(٨) ، وَلَا تُؤَلُّوا عَنْ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَسْتَبْدِلُوا

(١) إباح السر : ظهر ، وإباح سره : أظهره ووضع يضح وانفتح واحد ، ويسوس : أى يروض ويذل : مضعت ساسه يسوسه . يقال : سوست له أمرًا إذا روضته وذلكه ، والجنب : الصعب الذى لا يتقاد . (٢) الأتاوى : الغريب عن القوم . (٣) اقتبسه من المثل المشهور : « حلب الدهر أشطره » والناقة شطران ، قدامان وآخران ، فكل خلفين شطر بفتح الشين — والحلف للناقة كالانصرع للبقرة — وأشطره منصوب على البدل ، فكأنه قال : حلب أشطر الدهر ، والمعنى : اختر الدهر وعرف خيره وشره . (٤) أذن له وإليه كفرح : استمع . (٥) القوارع جمع قازعة : وهى الداهية المفاجئة ، والروائع جمع رائعة ، وهى المفزعة . (٦) أى هذا الذى أتهدكم به من القوارع والروائع ، لهذا الذى تخوضون فيه ، ومقرون به . (٧) اعتنشه : ظلله .

(٨) الذى فى كتب اللغة : « جداع كسحاب وقطام : السنة الشديدة تجدد بالمال وتذهب به » وهذه الكلمة هى التى يسوغ أن تجمع على جدائع ، ولكنها لا تناسب المقام هنا ، فلعل الأصل « الجوادع » جمع جادة : وهى الفاطمة ، يريد الشرائع الصحيحة الحق لأنها تقطع الباطل وتزهقه كأنه يقول : اتبعوا الخطة الحسنة ، أو الجدائع جمع جدوع كعجوز صيغة مبالغة من جادة ، وفى التعلوق على نهاية الأرب « ولعله الجوامع : أى التى تجمع الناس على اتباعها ، كما يدل عليه ما بعده » .

الذى هو أدنى^(١) بالذى هو خير « بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا » .

إياكم وُبنِيَّاتٍ^(٢) الطريق ، فعندها التزنيق والرَّهَقُ^(٣) ، وعليكم بالجادة ، فهي أسد^(٤) وأورد ، ودعوا الأمانى فقد أزدت من كان قبلكم ، وليس للإنسان إلا ماسعى ، والله الآخرة والأولى ، و « لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ »^(٥) بعداب وقد خاب من أفتري . « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٥٦ ؛ وصحح الأضنى ١ : ٢٢٠)

٢ - وصية أعمى من الأزدي لشاب يقوده

عن هشام بن محمد بن السائب عن أبيه قال : رأيت ببيشة^(٦) رجلاً من أزدي السراة أعمى ، يقوده شاب جميل ، وهو يقول له : « يَا أَعْمَى ، لَا يَفْرُغُكَ أَنْ فَسَحَ الشَّبَابُ خَطُوكَ ، وَخَلَّى سَرَبَكَ ، وَأَرْفَعَهُ وَرَدَكَ »^(٧) ، فكأنك بالكبر قد أرب ظوفاك ، وأثقل أوقاك ، وأوهن طوقك^(٨) ، وأتعب سؤوك ، فهدجت بعد الهملجة ، ودججت بعد الدعلجة^(٩) ، نخذ من أيام الترفيه لآيام الانزعاج ، ومن ساعات المهمة لساعة

(١) أى أغس وأدون قدرا ، وأصل لدنو : القرب فى المكافاة استعير للخصه كما استعير البعد للشرف والرفعة ، أو هو مهمل من أدنا من اللدناة ، وقد قرئ فى الآية الكريمة : « أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ » . (٢) بنات الطريق : الترهات (جمع ترهة كقبرة وهى الطريق

الصغيرة المشبهة من الجادة ، أى اسلكوا الطريق العام طريق الجماعة ، ولا تعرجوا فى سواه .

(٣) التزنيق : الضعف فى الأمر « وفى البصر والبدن أيضاً » ، والرَّهَق : السفه والحمق والخفة ، وركوب الشر والظلم ، وغشيان المحارم . (٤) أفعل ، من السداد . (٥) أسحته : استأصله .

(٦) ببيشة : واد بطريق الحيامة . (٧) العرب : الطريق والوجه ، ورفعت الإبل كنع : وردت

للماء متى شامت ، وقد أرفقتها ورفعتها بالتشديد . (٨) أرب المقعد : شدة ، والأربة بالضم : العقدة ،

موظاف للبعير يظوفه : إذا دافى بين قينيه ، والقينان بفتح القاف موضعاً القيد من الوظيف ، والأرق :

الثقل ، والطروق : الوسع والفاقة . (٩) الهدجان كحفنجان وغراب : مشية الشيخ ، هذج كضرب ،

والهملجة : سرعة فى المشى ، وذج كضرب دجيجاً ، مرمرأ ضيفاً ، والدعلجة : ضرب من المشى ،

والتردد فى الدعاب والنجىء ، والدحرجة .

الإعجال^(١)، يابن أخى : إني اغترارك بالشباب ، كالتذاذك بِسَمادير^(٢) الأحلام ، ثم تنقشع فلا تتمسك منها إلا بالحسرة عليها ، ثم تُعرَى راحلة الصبا ، وتشرب سلوة^(٣) عن الهوى . واعلم أن أغنى الناس يوم الفقر من قَدَم ذخيرة ، وأشدّهم اغتباطاً يوم الحسرة من أحسن سريرة^(٤) .
(الأمل : ٢ : ٢١٦)

٣ - وصية رجل لآخر وقد أراد سفراً

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت رجلاً يوصي آخر وأراد سفراً ، فقال :
« آثر بعملك معادك ، ولا تدع لشهوتك رشادك ، وليكن عقلك وزيرك الذى يدعوك إلى الهدى ، ويعصمك من الردى ، ألجم هواك عن الفواحش ، وأطلقه في المكارم ، فإنك تبرّ بذلك سلفك ، وتشيد شرفك » .
(الأمل : ١ : ٢٠٠)

٤ - وصية رجل لابنه وقد أراد الزواج

وقال بعضهم لولده وقد أراد الزواج :
« يا بني : لا تتخذها حنانة^(١) ، ولا أنانة^(٢) ، ولا منانة^(٣) ، ولا عشب الدار^(٤) ،

(١) ربه عيشه ككرم فهو رفيه ورافه : مستريح متنعم ، وأرفهه الله ورفهه ترفها ، ومن ساعات المهمة أى الدنيا المهمة : أى التى ستهملها وتغادرها ، وربما كانت « المهمة »
(٢) السمادير : ما يترامى للإنسان فى نومه من الأباطيل ، وما يتراماه للسكران فى سكره .
(٣) السلوة : اسم السلوان . قال الأصمعى : يقول الرجل لصاحبه : « سقينى سلوة (بالفتح) وسلوانا (بالضم) أى طيب نفسى منك ، وذكروا أيضاً أن السلوة والسلوانة : خرزة شفافة تطفئ فى الرمل فتسود فيبحث عنها ، ويسقاها الإنسان فتسليه .

(٤) الحنانة : التى لها ولد من سواء فهى تحن عليهم . والأنانة : التى مات عنها زوجها ، فهى إذا رأت الزوج الثانى أنت ، وقالت : رحم الله فلانا ، أزوجها الأول . والمنانة : التى لها مال ، فهى تمن على زوجها ، كلما أهوى إلى شئ من ماله . (٥) عشب الدار : يريد المهجينة ، وعشب الدار : التى تلبث فى دمنة الدار ، وحوطها عشب فى بياض الأرض ، فهى أفخم منه وأضخم ، لأنها غذتها الدمنة ، وذلك (أى العشب) أطيب للأكل رطباً وبيساً ، لأنه نبت فى أرض طيبة ، وهذه نبتت فى دمنة ، فهى مبتنة رطبة ، وإذا يبست صارت حناناً (بالضم) وذهب قفها فى الدمنة فلم يمكن جمعه ، وذلك يجمع قفه لأنه فى أرض طيبة (والقف بالضم : ما ييس من البقل ، وسقط على الأرض فى موضع نباته) .

وَلَا كُتِبَ الْقَتْلُ^(١) . (الامال ٢ : ٢٦)

٥ - وصية بعض العلماء لابنه

وأوصى بعض العلماء ابنه فقال :

« أوصيك بتقوى الله ، وَلْيَسَعَكَ يَتُّكَ ، وَاْمَلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ ، وَابْكْ

على خطيئتك » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦١)

٦ - وصية لبعض الحكماء

وقال بعض الحكماء :

« لَا يَكُونَنَّ مِنْكُمْ الْحَدَّثُ وَلَا يُنْصَتْ لَهُ ، وَالِدَاخِلُ فِي سِرِّ اثْنَيْنِ لَمْ يُدْخِلَاهُ ، وَلَا آتَى الدَّعْوَةَ لَمْ يُدْعَ إِلَيْهَا ، وَلَا الْجَالِسُ الْمَجْلِسَ لَا يَسْتَحِقُّهُ ، وَلَا الطَّالِبُ الْفَضْلَ مِنْ أَيْدِي اللَّثَامِ ، وَلَا الْمُتَعَرِّضُ لِلْخَيْرِ مِنْ عِنْدِ عَدُوِّهِ ، وَلَا الْمُتَحَمِّقُ فِي الدَّالَّةِ^(٢) » .

(البيان والمعين ٢ : ٥٨)

٧ - وصية أخرى

وقال بعض الحكماء :

« إِيَّاكَ وَالْعَجَلَةَ ، فَإِنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَكْنِيهَا : أُمُّ النَّدَامَةِ » لِأَنَّ صَاحِبَهَا يَقُولُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ ، وَيُجِيبُ قَبْلَ أَنْ يَفْهَمَ ، وَيَعْزِمُ قَبْلَ أَنْ يَفْكُرَ ، وَيَقْطَعَ قَبْلَ أَنْ يُقَدَّرَ ، وَيَحْمَدُ قَبْلَ أَنْ يُجَرَّبَ ، وَيَذُمَّ قَبْلَ أَنْ يُخْبَرَ ، وَلَنْ يَصْحَبَ هَذِهِ الصِّفَةَ أَحَدٌ إِلَّا صَحِبَ النَّدَامَةَ ، وَاعْتَزَلَ السَّلَامَةَ » . (زهر الآداب ٣ : ١٩٧)

(١) كُتِبَ الْقَتْلُ : هُوَ الَّذِي يَأْتِي زَوْجَهَا أَوْ ابْنَهَا الْقَوْمَ ، فَإِذَا انْصَرَفَ مِنْ عِنْدِهِمْ ، قَالَ رَجُلٌ مِنْ جِنَاءِ الْقَوْمِ : قَدِ ارْتَدَّ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ امْرَأَةِ هَذَا الْمَوْلَى أَوْ أُمِّهِ أَمْرٌ .
(٢) الدَّالَّةُ : مَا تَدُلُّ بِهِ عَلَى حَيْوَتِكَ .

٨ - وصية أخرى

وقال ابن دُرَيْد : أوصى بعض الحكماء رجلاً ، فقال :

« أَمْرُكَ بِمُجَاهِدَةِ هَوَاكَ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : إِنَّ الْهَوَى مِفْتَاحُ السَّيِّئَاتِ ، وَخَصِيمُ الْحَسَنَاتِ وَكُلُّ أَهْوَاكَ لَكَ عَدُوٌّ ، وَأَهْوَاها ^(١) هَوَى يَكْتُمُكَ فِي نَفْسِهِ ، وَأَعْدَاها هَوَى يَمُتُّ لَكَ الْإِثْمَ فِي صُورَةِ التَّقْوَى ، وَلَنْ تَفْصَلَ بَيْنَ هَذِهِ الْخُصُومِ إِذَا تَنَاظَرْتَ لَدَيْكَ إِلَّا بِحُزْمٍ لَا يَشُوبُهُ وَهْنٌ ، وَصِدْقٍ لَا يَطْمَعُ فِيهِ تَكْذِيبٌ ، وَمَضَاءٌ لَا يَقَارِبُهُ التَّثَبُّطُ ^(٢) ، وَصَبْرٍ لَا يَغْتَالُهُ جَزَعٌ ، وَثَبَّةٌ لَا يَتَقَسَّمُهَا التَّضْيِيعُ » .

(زهر الآداب ٣ : ١٢٩)

٩ - عظة لبعض الحكماء

عن الأصمعي قال : بلغني أن بعض الحكماء كان يقول :

« إِنِّي لَأَعْظِمُكُمْ ، وَإِنِّي لَكثيرُ الذُّنُوبِ مُسْرِفٌ عَلَى نَفْسِي ، غَيْرُ حَامِدٍ لَهَا ، وَلَا حَامِلٍ لَهَا عَلَى الْمَكْرُوهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، قَدْ بَلَوْتُهَا فَلَمْ أَجِدْ لَهَا شُكْرًا فِي الرَّخَاءِ وَلَا صَبْرًا عَلَى الْبَلَاءِ ، وَلَوْ أَنَّ الْمَرْءَ لَا يَعْظُ أَخَاهُ حَتَّى يُحْكِمَ أَمْرَ نَفْسِهِ ، لَتَرِكَ الْأَمْرَ بِالْخَيْرِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَكِنْ مُحَادَثَةُ الْإِخْوَانِ حَيَاةٌ لِلْقُلُوبِ ، وَجَلَاءٌ لِلنَّفُوسِ ، وَتَذَكِيرٌ مِنَ النَّسِيَانِ . وَاعْلَمُوا أَنَّ الدُّنْيَا سُرُورُهَا أَحْزَانُ ، وَإِقْبَالُهَا إِدْبَارُ ، وَآخِرُ حَيَاتِهَا الْمَوْتُ ، فَكُمْ مِنْ مُسْتَقْبَلِ يَوْمٍ لَا يَسْتَكْمِلُهُ ، وَمُنْتَظَرٍ غَدًا لَا يَبْتَلُغُهُ ، وَلَوْ تَنْظُرُونَ إِلَى الْأَجَلِ وَمَسِيرِهِ ، لَا بُغْضَ لَكُمْ الْأَمَلِ وَغُرُورِهِ » .

(الأمل ٢ : ٥٧)

١٠ — نصيحة لبعض الحكماء

وَحَذَّرَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ صَدِيقًا لَهُ صَاحِبَهُ رَجُلًا فَقَالَ :

« اخْذَرِ فَلَانًا ، فَإِنَّهُ كَثِيرُ الْمَسْأَلَةِ ، حَسَنُ الْبَحْثِ ، لَطِيفُ الْاسْتِدْرَاجِ ، يَحْفَظُ أَوَّلَ كَلَامِكَ عَلَى آخِرِهِ ، وَيَعْتَبِرُ مَا أَخَّرْتَ بِمَا قَدِمْتَ ، فَلَا تُظْهِرَنَّ لَهُ الْخُفَاةَ ، فَيَرَى أَنَّكَ قَدْ تَحَرَّزْتَ . وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ يَقِظَةِ الْفِطْنَةِ إِظْهَارَ الْغَفْلَةِ مَعَ شِدَّةِ الْحَذَرِ ، فَبِائِهِ مِبَاثَةُ الْأَمْنِ ، وَتَحْفَظُ مِنْهُ تَحْفَظُ الْخَائِفُ ، فَإِنَّ الْبَحْثَ يُظْهِرُ الْخِيفَ الْبَاطِنَ ، وَيُبْدِي الْمُسْتَكِنَ الْكَامِنَ » .

(زمر الآداب ٣ : ١٦٤)

١١ — كلمات شتى لبعض الحكماء

عَنِ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ : قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ :

« مَنْ كَانَتْ فِيهِ سَبْعُ خِصَالٍ لَمْ يَعْدَمْ سَبْعًا : مَنْ كَانَ جَوَادًا لَمْ يَعْدَمْ الشَّرَفَ ، وَمَنْ كَانَ ذَا وِفَاءٍ لَمْ يَعْدَمْ الْمُقَّةَ ، وَمَنْ كُنَّ صِدْقًا لَمْ يَعْدَمْ الْقَبُولَ ، وَمَنْ كَانَ شَكُورًا لَمْ يَعْدَمْ الزِّيَادَةَ ، وَمَنْ كَانَ ذَا رِعَايَةٍ لِلْحَقُوقِ لَمْ يَعْدَمْ السُّؤْدُودَ ، وَمَنْ كَانَ مُنْصِفًا لَمْ يَعْدَمْ الْعَافِيَةَ ، وَمَنْ كَانَ مُتَوَاضِعًا لَمْ يَعْدَمْ الْكِرَامَةَ » .

(الأمال ٢ : ٣٩)

وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ : كَيْفَ تَرَى الدَّهْرَ ؟ قَالَ : يُخْلِقُ الْأَبْدَانَ ، وَيُجَدِّدُ الْأَمَالَ ، وَيُقَرِّبُ الْأَجَالَ ، قِيلَ لَهُ : فَمَا حَالُ أَهْلِهِ ؟ قَالَ : مِنْ ظَفَرٍ بِهِ نَصَبٌ ، وَمِنْ فَاتِهِ حَزَنٌ ، قِيلَ : فَأَيُّ الْأَصْحَابِ أَبْرَءُ ؟ قَالَ : الْعَمَلُ الصَّالِحُ ، قِيلَ : فَأَيُّهُمْ أَضَرُّ ؟ قَالَ : النَّفْسُ وَالْهَوَى ، قِيلَ : فَعِيمُ الْمَخْرُجِ ، قَالَ : فِي قَطْعِ الرَّاحَةِ وَبِذْلِ الْمَجْهُودِ .

(الأمال ٢ : ٥٩)

وأخبر عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت رجلاً يقول :

« الحسد ماحقُ الحُسنات ، والزَّهْوُ جالبٌ لِمَقْتِ اللَّهِ ومقتِ الصالحين ، والعُجبُ صَافٍ عن الازدياد من العلم ، داعٍ إلى التَّخَمُّطِ^(١) والجهل ، والبخلُ أذمُّ الأخلاق ، وأجلبُها لِسُوءِ الأُخْدُوثة » .
(الأمال ١ : ٢٠٠)

وقال : قال بعض العرب :

« أَوْلَى الناسِ بِالْفَضْلِ أَعْوَدُهُمْ بِفَضْلِهِ ، وَأَعْوَنُ الْأَشْيَاءِ عَلَى تَذْكِةِ الْعَقْلِ التَّعَلُّمُ ، وَأَدْلُ الْأَشْيَاءِ عَلَى عَقْلِ الْعَاقِلِ حَسَنُ التَّدْيِيرِ » .
(الأمال ١ : ٢١٧)

وقال الأصمى : العرب تقول :

« لَا ثَنَاءَ مَعَ الْكِبَرِ ، وَلَا صَدِيقَ لَذَى الْحَسَدِ ، وَلَا شَرَفَ لِسَيِّئِ الْأَدَبِ » .
قال : وكان يقال : « شَرَّ خِصَالِ الْمُلُوكِ الْجُبْنَ عَنِ الْأَعْدَاءِ ، وَالْقَسْوَةَ عَلَى الضَّعْفَاءِ ، وَالْبَخْلَ عِنْدَ الْإِعْطَاءِ » .
(الأمال ١ : ٢٠١)

وقال أبو عليّ القالى ، وأملى علينا أبو عبد الله قال : من كلام العرب ووصاياها :
« جَالِسُ أَهْلِ الْعِلْمِ ، فَإِنْ جَهِلْتَ عِلْمُوكَ ، وَإِنْ زَلَلْتَ قَوْمُوكَ ، وَإِنْ أَخْطَأْتَ لَمْ يُفَنِّدُوكَ^(١) ، وَإِنْ صَحَبْتَ زَانُوكَ ، وَإِنْ غِيَتْ تَفَقَّدُوكَ . وَلَا تَجَالِسْ أَهْلَ الْجَهْلِ ، فَإِنَّكَ إِنْ جَهِلْتَ عَنَّفُوكَ ، وَإِنْ زَلَلْتَ لَمْ يَقُومُوكَ ، وَإِنْ أَخْطَأْتَ لَمْ يَثْبُتُوكَ » .
(الأمال ٢ : ٧٢)

١٢ — رجل من العرب والحجاج

سأل الحجاج رجلاً من العرب عن عَشِيرَتِهِ قال : أَيْ عَشِيرَتِكَ أَفْضَلُ ؟ قال : أَتَقَامُ لِلَّهِ ، بِالرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، قال : فَأَيُّهُمْ أَسْوَدُ ؟ قال : أَرَزَنُهُمْ حِلْمًا حِينَ يُسْتَجْهَلُ ، وَأَسْخَاهُمْ حِينَ يُسْأَلُ ، قال : فَأَيُّهُمْ أَدْهَى ؟ قال : مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ

(١) لُخْمَط : تَكْبَرُ وَغَضَبَ . (٢) فَنَدَى : ضَمَمَ رَأْيَهُ وَخَطَأَهُ .

من أحبَّ ، مخافة أن يُسارَّه يوماً ، قال : فأيهم أكيس ؟ قال : من يُصلِّح ماله
ويقتصد في معيشته ، قال : فأيهم أرفق ؟ قال : من يعطى بِشَرِّ وجهه أصدقاءه ،
ويتلطف في مسألته ، ويتعاهد حقوق إخوانه ، في إجابة دَعَوَاتِهِمْ ، وعبادة مَرْضَاهُمْ ،
والتسليم عليهم ، والمشى مع جنازتهم ، والنصح لهم بالغيب ، قال : فأيهم أفطن ؟ قال :
من عَرَف ما يوافق الرجال من الحديث حين يحالسه ، قال : فأيهم أصْلَب ؟ قال : من اشتدت
عارضته ^(١) في اليقين ، وَحَزُم في التوكل ، ومنع جاره من الظلم . (مجمع الأمثال ٢ : ١٧٨)

١٣ — أحد الوافدين على عمر بن عبد العزيز

ووفد وافد على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فقال له : كيف تركت الناس ؟
فقال :

« تركت غنيهم موفوراً ، وفقيرهم محبوراً ، وظالمهم مقهوراً ، ومظلومهم منصوراً »
فقال : « الحمد لله ، لو لم تتم واحدة من هذه الخصال إلا بعضو من أعضائي ،
لكان يسيراً » . (الأمال ٢ : ٣٩)

١٤ — كاتب وأمير

ودخل بعض الكتاب على أمير بعد نكبة نابتة ، فرأى من الأمير بعض الازدراء
فقال له :

« لا يصغنى عندك خُمول النَّبْوة ، وزوال الثروة ، فإن السيف العتيق إذا مَسَّه
كثيرُ الصَّدَا استغنى بقليل الجلاء ، حتى يعود حدُّه ، ويظهر فِرْنْدُه ، ولم أصف نفسي
عُجْباً ، لكن شكراً ، قال صلى الله عليه وسلم : أنا أشرف ولد آدم ولا فخر » .
(زهر الآداب ٣ : ٩١)

١٥ - وصف الهلباجة

من أمثال العرب : « أعجز من هلباجة » وهو التَّئوم الكسلان العُطل^(١) الجافى ، وقد سار في وصف الهلباجة فصل لبعض الأعراب المتفصّحين ، وفصل آخر لبعض الحضريين ، فأما وصف الأعرابي ، فقد سئل ابن أبي كَبْشَةَ بن القَبَعَتَرَى عنه فقال : « الهلباجة : الضعيف العاجز ، الأخرق الأحمق ، الجلف^(٢) الكسلان ، الساقط لامعنى فيه ، ولا غناء^(٣) عنده ، ولا كفاية معه ، ولا عمل لديه » .

وأما وصف الحضري فإن بعض بُلغَاء الأمصار سئل عن الهلباجة فقال :

« هو الذى لَا يَرْعَوِي لِمَذَلِّ العاذل ، وَلَا يُصْنَعِي إِلَى وعظ الواعظ ، ينظر بعين حَسُود ، وَيُعْرِضُ إِعْرَاضَ حَقُود ، إِنْ سَأَلَ أَخْلَف^(٤) ، وَإِنْ سُئِلَ سَوَّفَ ، وَإِنْ حَدَّثَ حَلَفَ ، وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِنْ زَجَرَ عَنَّفَ ، وَإِنْ قَدَّرَ عَسَفَ^(٥) ، وَإِنْ اِحْتَمَلَ أَسَفَ^(٦) ، وَإِنْ اسْتَفْنَى بَطِرَ ، وَإِنْ افْتَقَرَ قَنِطَ ، وَإِنْ فَرِحَ أَشِيرَ^(٧) ، وَإِنْ حَزَنَ يَثْسَ ، وَإِنْ ضَحِكَ زَارَ ، وَإِنْ بَكَى جَارَ^(٨) ، وَإِنْ حَكَمَ جَارَ ، وَإِنْ قَدَّمْتَهُ تَأَخَّرَ ، وَإِنْ أَخَّرْتَهُ تَقَدَّمَ ، وَإِنْ أَعْطَاكَ مَنَّ عَلَيْكَ ، وَإِنْ أَعْطَيْتَهُ لَمْ يَشْكُرْكَ ، وَإِنْ أَسْرَرْتَ إِلَيْهِ خَانَكَ ، وَإِنْ أَسَرَّ إِلَيْكَ اتَّهَمَكَ ، وَإِنْ صَارَ فَوْقَكَ قَهَرَكَ ، وَإِنْ صَارَ دُونَكَ حَسَدَكَ ، وَإِنْ وَثِقْتَ بِهِ خَانَكَ ، وَإِنْ انْبَسَطَتْ إِلَيْهِ شَانُكَ ، وَإِنْ أَكْرَمْتَهُ أَهَانَكَ ، وَإِنْ غَابَ عَنْهُ الصَّدِيقَ سَلَّاهُ ، وَإِنْ حَضَرَهُ قَلَّاهُ^(٩) ، وَإِنْ فَاتَحَهُ لَمْ يُجِبْهُ ، وَإِنْ أَمْسَكَ عَنْهُ لَمْ يَبْدَأْهُ ، وَإِنْ بَدَأَ بِالْوَدِّ هَجَرَ ، وَإِنْ بَدَأَ بِالْبَرِّ جَفَا ، وَإِنْ تَكَلَّمَ فَضَحَّه الْعِيْءُ ، وَإِنْ عَمِلَ قَصَّرَ بِهِ

(١) عطل كفرج : عظم بدنه ، ومن المال والأدب : خلا فهو عطل كقفل وعتق .

(٢) الجافى . (٣) لا غناء : لا كفاية .

(٤) أخ . (٥) ظلم . (٦) من أسف الطائر : دنا من الأرض في طيرانه ، أى لم يستطع

القبول بما حل . (٧) أشير : مرع . (٨) صاح واستغاث .

(٩) أبغضه وكرهه غاية الكراهة .

الجهل ، وإن أوْثَمِنَ غَدْرَ ، وإن أْجَارَ أَخْفَرُ^(١) ، وإن عَاهَدَ نَكَثَ ، وإن حَلَفَ حَنَثَ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ الْآمِلُ إِلَّا بَخِيْبَةٍ ، وَلَا يَضْطَرُّ إِلَيْهِ حُرٌّ إِلَّا بِمِخْنَةٍ .

قال خلف الأحمر : سألت أعرابياً عن الهلباجة ، فقال : « هو الأحمق الضخم القدم^(٢) » الأْكُولُ الذي والذي . . . ثم جعل يلقاني بعد ذلك ، ويزيد في التفسير كل مرة شيئاً ، ثم قال لي بعد حين - وأراد الخروج - هو الذي جمع كل شر .
(مجمع الأمثال ١ : ٢٣٦)

١٦ - بعض البلغاء يصف رجلاً

ووصف بعض البلغاء رجلاً فقال :

« إنه بَسِيطُ^(٣) الكف ، رَحْبُ الصدر ، مُوْطَأُ الأَكْناف ، سَهْلُ الخلق ، كَرِيمُ الطَّبَاع ، غِيْثُ مُغَوِّثٍ^(٤) ، وَبَحْرُ زُخُور ، ضَحُوكُ السن ، بَشِيرُ الوجه ، بَادِي الْقَبُولِ^(٥) غير عبوس ، يَسْتَقْبَلُكَ بِطَلَاَقَةٍ ، وَيَحْيِيْكَ بِبِشْرٍ ، وَيَسْتَدْبِرُكَ بِكْرَمٍ غِيْثٍ ، وَجَمِيْلٍ بِشْرٍ ، تُبْهَجُكَ طَلَاَقَتُهُ ، وَيَرْضِيْكَ بِشْرُهُ ، ضَحَّاكٌ عَلَى مَائِدَتِهِ ، عَبْدٌ لَضِيْفَانِهِ ، غير ملاحظ لَأَكِيْلِهِ ، بَطِيْنٌ^(٦) من العقل ، خَمِيْصٌ^(٧) من الجهل ، راجع الحلم ، ثاقب الرأى ، طَيِّبُ الخلق ، مُحْصَنُ الضَّرِيْبَةِ^(٨) مِعْطَاةٍ غير سَأَلٍ ، كَاسٍ^(٩) من كل مَسْكُورَةٍ ، عار من كل مَلَأْمَةٍ ، إن سئِلَ بِذَلِ ، وإن قَالَ فَعَلَ .
(زهر الآداب ٢ : ٢٠٥)

-
- (١) أخفّره وخفّره به : نقض عهدّه وغدره . (٢) القدم : الدبى عن السكّلام في ثقل ورخاوة ، وقلة فهم ، والغايظ : الأحمق الجاف .
(٣) أى ببسوط الكف سخي . (٤) غوث تغويثاً : قال واغوثاه .
(٥) لقبول بالفتح وقد يضم : الحسن . (٦) أى متلى وأصله : عظيم البطن .
(٧) خميص : خال ، وأصله : الجائع . (٨) الضريبة : الطبيعة ، ومحسن : صف .
(٩) أى مكسو .

١٧ - خمس جوار من العرب يصفن خيل آبائهن

عن ابن الكلبي عن أبيه قال :

اجتمع خمسُ جَوَارٍ من العرب ، فقلن : هَلُمْنِ نَصِفِ خَيْلَ آبَائِنَا .
فَقَالَتِ الْأُولَى :

« فَرَسُ أَبِي وَرْدَةَ ، وما وردة ؟ ذات كَفَلٍ مُزَخَلَقٍ ، وَمَتْنٍ أَخْلَقٍ ، وَجَوْفٍ
أَخْوَقٍ ^(١) ، وَنَفْسٍ مَرُوحٍ ، وَعَيْنٍ طَرُوحٍ ، وَرَجْلٍ ضَرُوحٍ ، وَيَدٍ سَبُوحٍ ^(٢) ،
بُذَاهَتَهَا إِهْذَابٌ ، وَعَقَبُهَا غِلَابٌ ^(٣) » .

وقالت الثانية :

« فَرَسُ أَبِي اللَّعَابِ ، وما اللَّعَابُ ؟ غَبِيَّةٌ سَحَابٍ ، واضطرامُّ غَابٍ ، مُتْرَصٌ
الأوصال ، أَشْمُ الْقَذَالِ ، مُلَاحِكُ الْمَحَالِ ^(٤) ، فَارَسُهُ مُجِيدٌ ، وَصَيْدُهُ عَتِيدٌ ، إِنْ أَقْبَلَ
فَظَلَّيْنِ مَعَاجٍ ، وَإِنْ أَدْبَرَ فَظَلَّيْنِ هَدَاجٍ ، وَإِنْ أَحْضَرَ فَعَلِجٌ هَرَّاجٌ ^(٥) » .

وقالت الثالثة :

« فَرَسُ أُمِّي حُدَمَةٌ ، وما حُدَمَةٌ ؟ إِنْ أَقْبَلَتْ فَقَنَازٌ مُقَوَّمَةٌ ، وَإِنْ أَدْبَرَتْ فَأَنْفِيَّةٌ

(١) المزخلق : الملمس الذي كأنه زحلوقة (بالضم) وهي آثار تزيج الصبيان من فوق إلى أسفل ،
والأخلق : الأملس ، وأخوق : واسع . (٢) مروح : كثيرة المرح ، طروح بعيدة موقع النظر ،
ضروح : دفع ، يريد أنها تضرح الحجارة برجليها إذا عدت ، سبوح : كأنها تسيح في عدوها
من سرعتها . (٣) يذاهتها : فجاءتها ، واليداهة واليديهة واحد ، والإهذاب : السرعة ، والعقب :
جرى بعد جرى ، وغلاب مصدر ، غالبته مقابلة وغلابا ، كأنها تغالب الجرى .

(٤) الغيبة : الدفعة من المطر . والغاب جمع غابة : وهي الأجمة ، مترص : محكم ، أترصت الشيء : أحكمته .
أشم : مرفقع ، القذال : معقد المذار (والمذار من اللجام ككفاب : ما سأل على خد الفرس) . ملاحك
مداخل (بفتح الخاء) كأنه دوخل بعضه في بعض ، والمحال جمع محالة : وهي فقار الظهر (كسحاب) جمع
فقارة وذكر الأصمى أنه رأى فقار فرس ميت ، فإذا ثلاث فقر من عظم واحد ، وكذا تكون العرب
فيما ذكروا . (٥) مجيد : صاحب جواد . عتيد : حاضر ، معج في سيره ومعج : إذا أسرع ،
والهدج كشمس : المثلث المرويد ويكون المربع . والعلج : حمار الوحش السمين القوي ، وهرج الفرس :
كضرب إذا كان كثير الجري .

مُملَئمةً ، وإنْ أَعْرَضَتْ فَذَنْبُهُ مُعْجَرَمَةٌ ^(١) ، أُرْسَاغُهَا مُتْرَصَةٌ ، وَفُصُصُهَا مُمَحَّصَةٌ ، جَرِيئُهَا أَنْتِرَارٌ ، وَتَقَرُّبُهَا انْكِدَارٌ ^(٢) .

وقالت الرابعة :

« فرسُ أبي خَفِيقٍ ، وما خَفِيقٌ ؟ ذاتُ نَاهِقٍ مُعَرِّقٍ ، وَشِدْقٍ أَشْدَقٍ ، وَأَدِيمٍ مُمَلَّقٍ ^(٣) ، لها خَلْقٌ أَشْدَفٌ ، وَدَسِيعٌ مُنْفَنَفٌ ، وَتَلِيلٌ مُسَيِّفٌ ^(٤) وَثَّابَةٌ زَلُوجٌ ، خَفِيفَانَةٌ رَهْجٌ ، تَقَرُّبُهَا إِهْجَاجٌ ، وَحُضْرُهَا ارْتِعَاجٌ ^(٥) . »

وقالت الخامسة :

« فرسُ أبي هُذْلُولٍ ، وما هُذْلُولٌ ؟ طَرِيدُهُ مَحْبُولٌ ، وَطَالِيلُهُ مَشْكُولٌ ، رَتِيقُ الْمَلَاغِمِ ، أَمِينُ الْمَعَاقِمِ ^(٦) ، عَبِلُ الْمَحْزَمِ ، نَحْدٌ مِرْجَمٌ ^(٧) ، مُنِفُ الْحَارِكِ ، أَشْمٌ

(١) حلقة : فصلة من الحلق وهو السرعة أو القطع ، فقتاة مقومة تريد أنها دقيقة المتقدم ، وهو مدح في الإثبات ، والألفية : الحجر توضع عليه القدر ، ملمعة : مجتمعة ، تريد أنها مدورة المؤخر ، لأن الأثافي تختار مدورة ، معجزة بكسر الراء اسم فاعل من المعجزة ، وهي إسراع في مقاربة خطأ . قال الشاعر :

أَمَّا إِذَا يَعْدُو فَتُعَلَبُ جَرِيَّةٌ أَوْ ذَنْبٌ عَادِيَةٌ يَعْجِزُ عَجْرُهُ

ويقال ناقة معجزة بفتح الراء : أي شديدة . (٢) محصنة : قليلة اللحم قليلة الشعر ! محص الحلة كفرج ، إذا سقط شعره والباس . انترار : انصباب ، كأنه يثر ثرا ، والتقريب : ضرب من العدو أو أن يرفع يديه مما يضمهما معاً ، وانكدر : أسرع وانقض . وانكدر عليه القوم : انصبوا .

(٣) خيفق : فيعمل من الخفق كشمس : وهو السرعة . للناهقان : العظمان الشاخصان في خدي الفرس معرق : قليل اللحم . أشدق : واسع الشدق . ملق : ملس . (٤) الأشدق : العظيم للشخص . والأشدق : الحركة : الشخص . الدسيغ : مغرز المتق في الكاهل . منفن : واسع من النفن كجعفر : وهو الهواء بين السماء والأرض . التليل : المسيف : كأنه سيف .

(٥) زلوج : سريعة . الزليج والزلحان بالتحريك : السرعة . الخيفانة : الجراة التي فيها نقط سود تخالف سائر لونها . وإنما قيل للفرس : خيفانة لسرعتها لأن الجراة إذا ظهر فيها تلك النقط كان أسرع لطيرانها . رهج : كثيرة الريح . (الرهج بالتحريك : القفار) أميج الفرس إهماجا : إذا اجتهد في عدوه . والحضر : ارتفاع الفرس في عدوه . الارتعاج : كثرة البروق وتتابعه .

(٦) محبول : في حباله . مشكول : موثق في شكل (الشكال ككتاب : الحبل تشد به قوائم العاية) الملاغم من الإنسان : ماحول الفهم . أرادت هاهنا الجحافل (والجحافل جمع جحافة بالفتح بمغزلة الشفة للغيل البغال والحمير) والمعاقم ، المفاصل . (٧) عبيل غليظ . والمحزم موضع الحزام . نحد : يحد الأرض أي يحمل فيها أخايد (والأخايد : الشقوق جمع أخدود) . مرجم : يرمي الحجر بالحجر . أو يرمي الأرض بحوافره .

السَّابِك ، مَجْدُولُ الْخَصَائِل ، سَبَطُ الْفَلَائِل^(١) ، غَوْجُ التَّلِيل ، صَلَصالُ الصَّهِيل ،
أَدِيمُهُ صَافٍ ، وَسَيِّبُهُ ضَافٍ^(٢) ، وَعَفْوُهُ كَافٍ . (الأمال : ١٩٠)

١٨ — رجل من العرب يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال :

سئل رجل من العرب عن مطر كان بعد جَدَبٍ فقال :

« نَشَأَ حَمَلًا^(٣) سُدًّا مَتَقَازِفَ الْأَحْضَانِ ، مَحْمُومِي الْأَرْكَانِ ، لَمَّاعِ الْأَقْرَابِ ،
مُكْفَهَرِ الرَّبَابِ ، تَحْنِ رُعُودُهُ حَنِينَ اضْطِرَابِ ، وَتَرْجُزُجِرَةُ زَجْرَةِ اللَّيْثِ الْفِضَابِ ،
لِبُورِقِهِ التَّهَابِ ، وَلِرِوَاعِهِ اضْطِرَابِ ، فَجَاحَتَ^(٤) صَدُورُهُ الشَّعَافِ ، وَرَكِبَتْ
أَعْجَازُهُ الْغِصَافَ ، ثُمَّ أَلْقَى أَعْبَاءَهُ ، وَحَطَّ أَثْقَالَهُ ، فَتَأَلَّقَ وَأَصْعَقَ^(٥) ، وَانْبَجَسَ وَانْبَعَقَ ،
ثُمَّ انْجَمَّ فَاَنْطَاقَ ، فَغَادَرَ النَّهَاءَ^(٦) مُتْرَعَةً ، وَالْغَيْطَانَ مُمْرَعَةً ، حَبَاءَ لِلْبِلَادِ ، وَرِزْقًا لِلْعِبَادِ » .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٠)

(١) منيف : مرتفع ، والحارك : منبت أدنى العرف إلى الظاهر الذي يأخذ به من يركبه ، والسابك :
أطراف الحوافر جمع سبك كقنفذ : مجدول : مفتول ، الخصائل : جمع غصيلة وهي كل قطعة من اللحم
مستطيلة أو مجتمعة ، القليل : الشمر المجتمع ، ويقال للقطعة من الشمر : القليلة ، سبط : مسترسل .
(٢) اللعوج : اللين المطف ، والصلصلة صوت الحديد ، وكل صوت حاد ، والسبيب : شمر
الناصية : ضاف : صاغ .

(٣) الحمل : السحاب الكثير الماء ، والسد : الذي قد سد الأفق ، احوى : اسود ، والأقرب جمع
قرب كقف وعق وهو الخاصرة ، والرهاب : السحاب الأبيض . (٤) جاحفه : زاحه وداناه ،
والشعاف جمع شعة كرقبة : وهي رأس الجبل ، والتفاف جمع قف بالضم وهو ما غلظ من الأرض وارتفع
لم يبلغ أن يكون جبلا . (٥) صهقهم السماء وأصمعتهم : ألقت عليهم صاعقة ، وانجس : انفجر بلاه
وانبعق السحاب : انبعج بالمطر واندفع ، والانهاق : أن يتدفع عليك انتهى فجأة وأنت لا تشمر ، وانجمت
السماء : أسرع مطرها . (٦) النهاء جمع نهى بالكسر والفتح : القدير ، ومترعة : ملوثة ، والغيطان
جمع غائط : وهو المظلمن الواسع من الأرض ، ممرعة : غصبة ، حباء : عطاء .

الباب الثالث

في

نثر الأعراب

قولهم في الوعظ والتوصية

١ — مقام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك

قام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك ، فقال :

« إني مُكَلَّمُكَ يا أمير المؤمنين بكلامٍ فيه بعض الغِلظة ، فاحتمله إن كرهته ، فإن وراءه ما تُحِبُّهُ إن قَبِلْتَهُ » ، قال : هاتِ يا أعرابي : إنا نجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نُصْحَهُ ، ولا نأمن غِشَّهُ ، وأرجو أن تكون الناصحَ جَيِّبًا ، المأمونَ غَيِّبًا ، قال : « يا أمير المؤمنين أما إذ أمنت بادرَةَ غضبك ، فإني سأطلق لساني بما خَرِسْتُ عنه الألسُن من عِظَتِكَ ، تأديةً لحقِّ الله وحقِّ إمامتك . إنه قد اكتَنَفَكَ رجالٌ أساءوا الاختيار لأنفسهم ، فابتاعوا دينك بدينهم ، ورضاك بسُخْطِ ربهم ، خافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك ، فهم حربٌ للآخرة ، سِلْمٌ للدنيا ، فلا تأتمنهم على ما ائتمنتك الله عليه ، فإنهم لا يَأْلُونكَ ^(١) خَبَالًا ، والأمانة تضييعًا ، والأمة عَسْفًا وَخَسْفًا ^(٢) ، وأنت مسئول عما اجتروا ^(٣) ، وليسوا مسئولين عما اجترحْتَ ، فلا تُصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أخسر الناس صَفْقَةً يوم القيامة ، وأعظمهم غَبْنًا من باع آخرته بدنيا غيره »

(١) ألا يَأْلُو : قصر وأبطأ ، والخيال : الفساد . (٢) العسف : الظلم ، والخسف : الذل .

(٣) اكتسبوا ، وفي رواية : اجتروا .

قال سليمان : « أَمَا أَنْتَ يَا أَعْرَابِي ، فَقَدْ سَلَّتَ لِسَانَكَ ، وَهُوَ أَقْطَعَ سَيْفِيكَ » ، فقال : « أَجَلٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَ لَا عَلَيْكَ » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٧ ، والمعقد الفريد ١ : ٣٠٧ ، ومروج الذهب ٢ : ١٦٤ ، وزهر الآداب ١ : ٢٧٧)

٢ — أعرابي يعظ هشام بن عبد الملك

ودخل أعرابي على هشام بن عبد الملك ، فقال له : عِظْنِي يَا أَعْرَابِي ، فقال : « كَفَى بِالْقُرْآنِ وَاعِظًا ، أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : « وَيَلِلُ اللَّطْفَيْنِ ^(١) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » ، ثم قال « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَذَا جِزَاءُ مَنْ يُطْلَفُ فِي السَّكِيلِ وَالْمِيزَانِ ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ أَخَذَهُ كَلَهُ ^(٢) ؟ » . (والمعقد الفريد ٢ : ٨٤)

٣ — خطبة أعرابي ^(٣)

وَوَلَّى جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ ^(٤) أَعْرَابِيًّا بَعْضَ مِيَاهِهِمْ ^(٥) فَخَطَبَهُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَقَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، أَمَا بَعْدُ : فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلَاغٍ ^(٦) ، وَالْآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ ، نَخْذُوا لِمَقَرِّكُمْ مِنْ تَمَرِّكُمْ ، وَلَا تَهْتَسِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ ، وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ ،

(١) طُفَفَ : نَقَصَ الْحِكْمَالُ . (٢) وَرَوَى صَاحِبُ الْعَقْدِ أَيْضًا هَذِهِ الْعِظَةَ (ج ١ ص ٣٠٦) وَذَكَرَ أَنَّهَا لِابْنِ الْمُبَارَكِ وَعِظَ بِهَا الرَّشِيدُ .

(٣) قَدِمْنَا فِي الْجُزْءِ الثَّانِي ص ٤٨٢ أَنَّ هَذِهِ الْخُطْبَةَ مُتَنَازِعٌ فِيهَا ، فَهِيَ تَعْرِى تَارَةً إِلَى الْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ ، وَكَانَ وَالِيًّا عَلَى الْمَدِينَةِ سَنَةَ ١٤٦ - ١٥٠ هـ . (٤) هُوَ ابْنُ عَمِّ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ : حَدَّثَنِي شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ قَالَ : شَهِدْتُ الْجُمُعَةَ بِالضَّرِيرَةِ « ضَرِيرَةٌ كُفَيْتِي : قَرْيَةٌ بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَمَكَّةَ » وَأَمِيرُهَا رَجُلٌ مِنَ الْأَعْرَابِ ، فَخَرَجَ وَخَطَبَ ، وَلَفَّ ثِيَابَهُ عَلَى رَأْسِهِ ، وَبِيَدِهِ قَوْسٌ فَقَالَ . . . وَأَوْرَدَ هَذِهِ الْخُطْبَةَ » ، وَفِي السَّكَامِلِ الْبَرْدُ : « قَالَ الْأَصْمَعِيُّ فِيمَا بَلَغَنِي خُطْبَتَا أَعْرَابِيٍّ بِالْبَادِيَةِ فَحَمِدَ اللَّهُ . . . » . (٦) وَفِي رِوَايَةِ الْمِيدَانِيِّ ، وَ« عَيْوَنُ الْأَخْبَارِ » بِلَاءُ « وَفِي رِوَايَةِ الْعَقْدِ » دَارُ عَمْرِو وَالْآخِرَةُ دَارُ مَقَرِّ

قبل أن تخرج منها أبدانكم ، فيها حَيِّيتُمْ ، ولغيرها خَلِيتُمْ ، اليوم عملٌ بلا حساب ، وغداً حسابٌ بلا عمل ، إن الرجل إذا هَلَكَ ، قال الناس ما ترك ؟ وقالت الملائكة : ما قَدَّم ؟ فله آباؤكم ا قَدَّمُوا بفضاً ، يكون لكم قَرْضاً ، ولا تخلفوا كُلاً ، يكون عليكم كُلاً^(١) ، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ، والحمد لله ، والمصلَّى عليه محمد ، والمدعوُّ له الخليفة ، ثم إمامكم جعفر بن سليمان ، قوموا إلى صلاتكم .

(الأما : ١ : ٧٤٨ ، والعقد الفريد : ٢ : ١٦٤ ، وتهذيب الكمال : ١ : ٢٨ ، وجمع الأمثال : ١ : ٢١٨ ، وميون الأخبار م ٢ : ص ٢٥٣ ، وزهر الآداب ٢ : ٤) .

٤ — خطبة أخرى

وخطب أعرابي فقال :

« الحمد لله الحميد المستحمد ، وصلى الله على النبي محمد .

أما بعد : فإن التعمُّق في ارتجال الخطب لمُمكن ، والكلام لا يَنْشِئُ حتى يُنْشِئَ عنه ، والله تبارك وتعالى لا يَذْرِكُ واصفٌ كُنَّ صفته ، ولا يَبْلُغُ خطيبٌ مُنْتَهَى مدحته ، له الحمدُ كما مدح نفسه ، فانهضوا إلى صلاتكم » ثم نزل فصلٌ . (العقد الفريد ٢ : ١٦٤)

٥ — خطبة أخرى

وخطب أعرابي قومه فقال :

« الحمد لله ، وصلى الله على النبي المصطفى وعلى جميع الأنبياء ، ما أَقْبَحَ بِمَثَلِي أَنْ يَنْهَى عن أمرٍ ويرتكبهُ ، ويأمرُ بشيءٍ ويحتنِبُهُ ، وقد قال الأول :

وَدَعَّ مَا لُمْتَ صَاحِبَهُ عَلَيْهِ قَدَّمَ أَنْ يَلُومَكَ مَنْ تَلُومُ

ألهمنا الله وإياكم تقواه ، والعملَ برضاه . (العقد الفريد ٢ : ١٦٤)

٦ — أعرابية توصي ابنها وقد أراد السفر

قال أَبَانُ بْنُ تَغْلِبٍ — وكان عابداً من عبَاد أهل البصرة توفي سنة ١٤١ هـ — شَهِدَتْ أعرابية وهي تُوصي ولداً لها يريد سفرأ وهي تقول له :

« أَيْ بُنَى اجاس أَمْنَحْكَ وصيتي ، وبالله توفيقك ، فإن الوصية أَجْدَى ^(١) عليك من كثير عقلك ، أَيْ بُنَى . إياك والنميمة فإنها تزرع الضغينة ، وتفرق بين المحبين ، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً ^(٢) ، وخليق أن لا يثبت الغرض على كثرة السهام ، ولما اعتورت ^(٣) السهام غرضاً إلا كَلَمَتَهُ ^(٤) حتى يهَى ^(٥) ما اشتد من قوته ، وإياك والجلود بدينك ، والبخل بمالك ، وإذا هزرت فأهز زكريماً يابن لهزرتك ، ولا تهزز اللثيم فإنه صخرة لا يتفجر ماؤها ، ومثل لنفسك مثلك ما استحسنت من غيرك فأعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه ، فإن المرء لا يرى عيب نفسه ، ومن كانت مودته بشرة ، وخالف ذلك منه فعله ، كان صديقه منه على مثل الرّيح في تصرفها » ثم أمسكت ، فدنوت منها ، فقلت : بالله يا أعرابية ! لا زدته في الوصية ، فقلت : أَوَدَّ أعجبك كلام العرب يا عراقى ؟ قلت : نعم ، قالت : والفذر أقبح ما تعامل به الناس بينهم ، ومن جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحلة ^(٦) : رَبطَها وسرَّ بالها .

(١) الأما : ٢ : ٨١ ، والمقد للفريد ٢ : ٨٥ ، وبلاغات النساء ص ٥٧ ، والبيان والتبيين ٢ : ٢٢١) .

٧ - أعرابية توصي ابنها

وقالت أعرابية لابنها :

« يَا بُنَى ، إن سؤَالَك الناسَ مافي أيديهم من أشدّ الافتقار إليهم ، ومن افتقرت إليه هُنتَ عليه ، ولا تزال تُحفظ وتُكرم ، حتى تسأل وترغب ، فإذا ألحَّت عليك الحاجة ، ولزِمك سؤهُ الحال ، فاجعل سؤَالَك إلى من إليه حاجةُ السائل والمسئول ، فإنه يُعطى السائل » .

(المقفد للفريد ٢ : ٨٥)

(١) أنفع (٢) هدفا . (٣) تداولت . (٤) جرحه . وحطته .

(٥) ومى بهى : خفف .

(٦) الحلة لا تكون إلا من ثوبين إذا ورداء ، والربطة : الملاحة كلها فنج واحد وقطعة واحدة ،

والسر بال : القميص .

٨ — أعرابي يوصي ابنه

ووصى أعرابي ابنه فقال :

« ابذل المودةَ الصادقةَ تستفدُ إخواناً ، وتتخذُ أعواناً ، فإن العداوة موجودة عتيقة ، والصدقة مُستعِرزة^(١) بعيدة ، جنب كرامتك اللثام ، فإنهم إن أحسنت إليهم لم يشكروا ، وإن نزلت شديدة لم يصبروا » .
(الأمال ١ : ٢٠١)

٩ — أعرابي ينصح لابنه

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول لابنه :

« لَا يَفْرَنْكَ مَا تَرَى مِنْ خَفْضِ الْعِشِّ ، وَلَيْنَ الرَّيَاشِ^(٢) ، وَلَكِنْ فَانْظُرْ إِلَى سُوءِ الظَّنِّ ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ » .
(الأمال ٢ : ٥٩)

١٠ — أعرابي ينصح لابنه

وقال : سمعت أعرابياً يقول لابنه :

« كُنْ لِلْعَاقِلِ الْمُدِيرِ أَرْجَى مِنْكَ لِلْأَحْمَقِ الْمُقْبِلِ » ، ثُمَّ أَنْشَدَ :
عَدُوُّكَ ذُو الْحِلْمِ أَبْقَى عَلَيْكَ وَأَرْعَى مِنَ الْوَامِقِ الْأَحْمَقِ^(٣)
(ذيل الأمال ص ٣٤)

١١ — أعرابي ينصح لأخيه

ونصح أعرابي لأخيه ، فقال :

« اعْلَمْ أَنَّ النَّاصِحَ لَكَ ، الْمَشْفِقَ عَلَيْكَ ، مَنْ طَالَعَ لَكَ مَا وَرَاءَ الْعَوَاقِبِ بِرُؤْيَيْهِ وَنَظَرِهِ ، وَمَثَلَ لَكَ الْأَحْوَالِ الْمَخُوفَةَ عَلَيْكَ ، وَحَاطَ الْوَعْرَ بِالسَّهْلِ مِنْ كَلَامِهِ وَمَشُورَتِهِ لِيَكُونَ خَوْفُكَ كِفَاءً^(٤) رَجَائِكَ ، وَشُكْرُكَ إِزَاءَ النِّعَةِ عَلَيْكَ ، وَأَنَّ الْغَاشَّ لَكَ ،

(١) مستعِرزة : منقبضة شديدة . (٢) الرّيش : الحصب والمعاش .

(٣) الوامق : المحب .

(٤) مكافئاً .

والخاطب^(١) عليك، مَنْ مَدَّ لَكَ فِي الْاِغْتِرَارِ ، وَوُطَّأَ لَكَ مِهَادُ^(٢) الظُّلْمِ، تَابِعاً لِمَرْضَاتِكَ
مُنْقَاداً لِهَوَاكَ .

(الامال ١ : ١٩٨)

١٢ — أعرابي يعظ أخاه

ووعظ أعرابي أخاه أفسد ماله في الشراب، فقال :

« لَا الدَّهْرُ يَعْظُكَ ، وَلَا الْأَيْلَمُ تُنْذِرُكَ ، وَلَا الشَّيْبُ يَزْجُرُكَ ، وَالسَّاعَاتُ تَحْصِي
عَلَيْكَ ، وَالْأَنْفَاسُ تُعَدُّ مِنْكَ ، وَالْمَنَايَا تُقَادُ إِلَيْكَ ، أَحَبُّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ ، أَعُودُهَا
بِالْمُضَرَّةِ عَلَيْكَ . »

(العقد الفريد ٢ : ٨٥ ، الامال ١ : ١٩٨ ، وزهر الآداب ٣ : ١١٥)

١٣ — أعرابي يعظ صاحبه

وقال أعرابي لصاحبه :

« وَاللَّهِ لَنْ هَمَلَجْتَ^(٣) إِلَى الْبَاطِلِ ، إِنَّكَ لَقَطُوفٌ^(٤) عَنِ الْحَقِّ ، وَلَنْ أَبْطَأَ
لَيْسُرَ عَنِّ بَكَ ، وَقَدْ خَسِرَ أَقْوَامٌ وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ رَاجِحُونَ ، فَلَا تَفِرَنَّكَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ
الْآخِرَةَ مِنْ وَرَائِكَ . »

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٦)

١٤ — أعرابي يعظ أخاه

وقال أعرابي لأخيه :

« يَا أَخِي : أَنْتَ طَالِبٌ وَمَطْلُوبٌ ، يَطْلُبُكَ مَا لَا تَقْوَتُهُ ، وَتَطْلُبُ مَا قَدْ كُفِّتَهُ ،
فَكَأَنَّ مَا غَابَ عَنْكَ ، قَدْ كُشِفَ لَكَ ، وَمَا أَنْتَ فِيهِ قَدْ نُقِلْتَ عَنْهُ ، فَاْمَهْدُ^(٥) لِنَفْسِكَ ،
وَأَعِدْ ذَلِكَ ، وَخِذْ فِي جَهَازِكَ . »

(العقد الفريد ٢ : ٨٤)

(١) هو مخاطب ليل : أى مخاطب في كلامه . (٢) المهاد : الفرائس .

(٣) من هجاج البرذون : مشى مشية سهلة في سرعة .

(٤) من قطفت الدابة كنصر وخرب : ضاق مشياً ، فهي قطوف .

(٥) أى مهد وإعبد .

١٥ — أعرابي يعظ رجلاً

وقال أعرابي لرجل :

« أَيْ أَخِي : إِنْ يَسَّارَ النَّفْسِ أَفْضَلُ مِنْ يَسَّارِ الْمَالِ ، فَإِنْ لَمْ تُرْزَقْ غِنًى فَلَا تُحَرِّمْ تَقْوَى ، فَرُبَّ شَبْعَانَ مِنَ النَّعَمِ ، عُرْيَانٌ مِنَ الْكِرَمِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُؤْمِنَ عَلَى خَيْرٍ : تُرَحَّبُ بِهِ الْأَرْضُ ، وَتُسْتَبْشَرُ بِهِ السَّمَاءُ ، وَلَنْ يُسَاءَ إِلَيْهِ فِي بَطْنِهَا ، وَقَدْ أَحْسَنَ عَلَى ظَهْرِهَا . »
(المعقذ الفريد ٢ : ٨٥)

١٦ — أعرابي يعظ رجلاً

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يعظ رجلاً وهو يقول :

« وَيَحْكُ ! إِنْ فَلَانًا وَإِنْ ضَحِكَ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ يَضْحَكُ مِنْكَ ، وَلَئِنْ أَظْهَرَ الشَّفَقَةَ عَلَيْكَ ، إِنْ عَقَّارِهِ لَتَسْرِي إِلَيْكَ ، فَإِنْ لَمْ تَتَّخِذْهُ عَدُوًّا فِي عِلَانِيَتِكَ ، فَلَا تَجْعَلْهُ صَدِيقًا فِي سِرِّيَّتِكَ . »
(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

١٧ — أعرابي يعظ رجلاً

وسمع أعرابي رجلاً يقع في السلطان ، فقال :

« إِنَّكَ غُفْلٌ لَمْ تَسْمَعْ التَّجَارِبُ ، وَفِي النَّصِيحِ لَسَعُ الْعُقَارِبُ ، كَأَنِّي بِالضَّاحِكِ إِلَيْكَ ، وَهُوَ بَالِكٌ عَلَيْكَ . »
(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

١٨ — كلام أعرابي لابن عمه

وشاور أعرابي ابنَ عَمِّ له ، فأشار عليه برأى ، فقال :

« قَدْ قُلْتُ بَمَا يَقُولُ بِهِ النَّاصِحُ الشَّفِيقُ الَّذِي يَخْلُطُ حُلُوْ كَلَامِهِ بِمُرَّةٍ ، وَحَزَنَتُهُ بِسَمْنِهِ ، وَيَنْعَرُّكَ الْإِشْفَاقُ مِنْهُ مَا هُوَ سَاكِنٌ مِنْ غَيْرِهِ ، وَقَدْ وَعَيْتُ النَّصِيحَ مِنْهُ وَقَبِلْتُهُ ، إِذْ كَانَ مَصْدَرُهُ مِنْ عِنْدِ مَنْ لَا شَكَّ فِي مَوَدَّتِهِ ، وَصَافِي غَيْبِهِ ، وَمَا زِلْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ إِلَى الْخَيْرِ مَتَّهِجًا وَاضِحًا ، وَطَرِيقًا مَهِيئًا ^(١) . »
(الأمل ٢ : ٨٢)

١٩ - كلمات حكيمة للأعرابي

قيل لأعرابي : مَالَك لا تشرب النَّبِيذ ؟ قال : « لثلاثِ خِلَالٍ فِيهِ : لَأَنَّهُ مُتَلَفٌ لِلْمَالِ ، مُذْهَبٌ لِلْعَقْلِ ، مُسْتَقِطٌ لِلْمُرُوءَةِ » .

وقال أعرابي : « الدِّراهِمُ مِيَّاسِمٌ ^(١) ، تَسِيمٌ حَدًّا وَذِمًّا ، فَمَنْ حَبَسَهَا كَانَ لَهَا ، وَمَنْ أَنْفَقَهَا كَانَتْ لَهُ ، وَمَا كُلُّ مَنْ أُعْطِيَ مَالًا أُعْطِيَ حَدًّا ، وَلَا كُلُّ عَدِيمٍ ذَمِيمٌ » .

وقال أعرابي لأخ له : « يَا أَخِي إِنَّ مَالَك إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ كُنْتَ لَهُ ، وَإِنْ لَمْ تُفْنِهِ أَنْفَاكَ ، فَكُلُّهُ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَكَ » .

وقال أعرابي : « إِنْ الْمَوْفَّقُ مَنْ تَرَكَ أَرْقَى الْحَالَاتِ بِهِ ، لِأَصَاحِبِهَا لَدِينَهُ ، نَظَرًا لِنَفْسِهِ ، إِذَا لَمْ تَنْظُرْ نَفْسُهُ لَهَا » .

وقال أعرابي : « إِنْ اللَّهَ تُخْلِفُ مَا أَتْلَفَ النَّاسُ ، وَالْدَّهْرُ مُتَلِفٌ مَا أُخْلِفُوا ، وَكَمْ مِنْ مَيِّتَةٍ عَلَيْهَا طَلَبَ الْحَيَاةِ ، وَكَمْ مِنْ حَيَاةٍ سَبَبَتْهَا التَّعَرُّضُ لِلْمَوْتِ » .

وقال أعرابي : « إِنْ الْأَمَالَ قَطَعْتَ أَعْنَاقَ الرَّجَالِ ، كَالسَّرَابِ غَرَّ مَنْ رَأَاهُ ، وَأَخْلَفَ مِنْ رَجَاهُ » .

وقال أعرابي لصاحب له : « أَصْحَبَ مَنْ يَتَنَاسَى مَعْرُوفَهُ عَلَيْكَ ، وَيَتَذَكَّرُ حَقُوقَكَ عَلَيْهِ » .

وقال أعرابي : « لَا تَسْأَلْ مَنْ يَفِرُّ مِنْ أَنْ تَسْأَلَهُ ، وَلَكِنْ سَلْ مَنْ أَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ ، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى » .

وقال أعرابي : « مَا بَقَاءُ عُمرٍ تَقْطَعُهُ السَّاعَاتُ ، وَسَلَامَةُ بَدَنِ مُعَرَّضٍ لِلْآفَاتِ ؟ وَلَقَدْ عَجِبْتُ مِنَ الْمُؤْمِنِ ! كَيْفَ يَكْرَهُ الْمَوْتَ ؟ وَهُوَ يَنْقُلُهُ إِلَى الثَّوَابِ الَّذِي أَحْيَا لَهُ لَيْلَهُ وَأَظْلَمَ لَهُ نَهَارَهُ » .

(١) مياسم جمع ميسم بالكسر : وهو المكروء .

وذكر أهلُ السلطان عند أعرابي فقال: «أما والله لئن عَزَّوا في الدنيا بالجور ، لقد ذَلَّوا في الآخرة بالعدل ، ولقد رضُّوا بقليلٍ فانٍ ، عِوَضًا عن كثيرٍ باقٍ ، وإنما تَزِلُّ القدمُ حيث لا يَنفَعُ الندمُ » .

وقال أعرابي : « من كانت مطيئته الليل والنهار ، سارا به وإن لم يَسِرْ ، وبلغا به وإن لم يبلغ » .

وقال أعرابي : « الزهادة في الدنيا مفتاح الرغبة في الآخرة ، والزهادة في الآخرة مفتاح الرغبة في الدنيا » .

وقيل لأعرابي وقد مرض : إنك تموت ! قال : « وإذا مُتُّ فإلى أين يُذهَبُ بي ؟ » قالوا : « إلى الله تعالى » ، قال : « فما كراحتي أن يُذهَبَ بي إلى من لم أو الخير إلا منه ؟ » .

وقال أعرابي : « من خاف الموتَ بادر الموتَ ، ومن لم يُنَحِّ النفسَ عن الشهوات ، أسرعت به إلى الهلكات ، والجنة والنار أمامك » .

وقال أعرابي : « خيرٌ لك من الحياة ما إذا فقدته أبغضتَ له الحياة ، وشرٌّ من الموت ما إذا نزل بك أحبتَ له الموت » .

وقيل لأعرابي : من أحقُّ الناس بالرحمة ؟ قال : « الكريمُ يُسلِّطَ عليه اللئيمُ ، والعاقلُ يسلِّطَ عليه الجاهلُ » .

وقيل له : أيُّ الداعين أحقُّ بالإجابة ؟ قال : المظلوم ، وقيل له : فأى الناس أغنى عن الناس ؟ قال : « من أفرد الله بحاجته » .

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « إذا أشكل عليك أمران ، فانظر أيهما أقرب من هوائك نخالفة ، فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى » .

وقال أعرابي : « الشرُّ عاجله لذيد ، وآجله وخيم » .

وقال أعرابي : « من ولد الخير أنتج له فراخاً تطير بأجنحة السرور ، ومن غرس الشر أنبت له نباتاً مرّاً مذاقه ، وقضبانُه الغيظُ ، وثمرته الندم » .

وقال أعرابي : « من كساهُ الحياءُ ثوبه ، حَفِيَ على الناس عيبه » وقال : « بُسِ الزاد ، التَّعَدَّى على العباد » ، وقال : « التَّاطُّفُ بالحيلة ، أنفع من الوسيلة » ، وقال : « من نَقَلَ على صديقه ، خَفَّ على عدوّه » ، ومن أسرع إلى الناس بما يكرهون ، قالوا فيه مالا يعلمون » .

وقال أعرابي : « أعجزُ الناس مَنْ قَصَّرَ في طلب الإخوان ، وأعجزُ منه مَنْ ضَيَّعَ من ظَفِرٍ به منهم » .

وقال أعرابي لابنه : « لا يسرك أن تغلب بالشرِّ ، فإن الغالب بالشرِّ هو المغلوب » .
وقال أعرابي لأخ له : « قد نهيتك أن تُريقَ ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه ، فإن حَظَّكَ من عطيتِه السؤالُ » .

وقال أعرابي : « إن حبَّ الخير خير وإن عجزتُ عنه المقدرة ، وبغض الشرِّ خير وإن فعلتُ أكثره » .

وقال أعرابي : « والله لولا أن البروءةَ ثَقِيلٌ مَحْمِلُهَا ^(١) ، شديدة مؤثتها ، ما ترك النائم للسكرام شيئاً » .

واحتضر أعرابي ، فقال له بنوه : عِظْنَا يَا أَبَتِ ، فقال : « عاشروا الناس معاشرَةً ، إن غبتم حَنُّوا إليكم ، وإن مَتَّمْ بَكَوْا عليكم » .

ودخل أعرابي على بعض الملوك في شَمْلَةٍ ^(٢) شعر ، فلما رآه أعرض عنه ، فقال له : « إن الشَّمْلَةَ لا تكلمك ، وإنما يكلمك مَنْ هو فيها » .

وقال أعرابي : « رَبُّ رجلٍ سرُّه منشور على لسانه ، وآخر قد التحفَ عليه قلبه التحافَ الجَنَاحَ على الخَوَافِ » .

(١) الحمل في الأصل : شقان على البعير يحمل فيهما المديلان . (٢) كساء دون التغطية وشغل به .

وقيل لأعرابي : كيف كتبناك للسرّ ؟ قال : « ما جوفى له إلا قَبْرٌ » .
ومرّ أعرابيان برجل صلبه بعض الخلفاء ، فقال أحدهما : أثبتتُه الطاعة ، وحصدته
المعصية ، وقال الآخر : « من طلق الدنيا فالآخرة صاحِبته ، ومن فارق الحق
فالجُدْعُ راحلته » .

وقال أعرابي : « إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ، ودوامَ عهده ، فانظر إلى حنينه
إلى أوطانه ، وشوقه إلى إخوانه ، وبكائه على ما مضى من زمانه » .

وقال أعرابي : « إذا كان الرأى عند من لا يقبل منه ، والسلاح عند من لا يستعمله ،
والمال عند من لا ينفقه ، ضاعت الأمور » . (العقد الفريد ٢ : ٨٥ - ٨٧)

وقال أعرابي : « إن الدنيا تنطق بغير لسان ، فتخبر عما يكون بما قد كان » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٥)

وقال الأصمى : سمعت أعرابياً يقول : « غفلنا ولم يفُك الدهر عنا ، فلم نتعظ
بغيرنا ، حتى وعظَ غيرُنا بنا ، فقد أدركت السعادة مَنْ تَبَّه ، وأدركت الشقاوة من
غفل ، وكفى بالتجربة واعظاً » . (زهر الآداب ٢ : ٥)

وقال أعرابي لرجل : « اشكر للمنعيم عليك ، وأنعم على الشاكر لك ، تستوجب
من ربك زيادته ، ومن أخيك مُناصحتَه » . (زهر الآداب ٢ : ٦)

وتذاكر قوم صلّة الرّحيم ، وأعرابيٌّ جالس ، فقال : « مَنْسَأَةٌ ^(١) في العمر ، مرّضَاةٌ
للربّ ، محبّة في الأهل » . (الأمال ١ : ٢١٧)

وقال أعرابي : « لا أعرف ضُرّاً أوْصل إلى نياط القلب ، من الحاجة إلى من لم
تثِقْ بإسعافه ، ولا تأمن رَدّه ، وأكلم المصائب فقد خيل لا عِوضَ منه » .

وقيل لأعرابي : أى شيء أمتع ؟ فقال : « مُمازحة المُحبِّ ، ومحادثة الصديق ،
وأمانى تقطع بها أيامك » .

وقال أعرابي : « من لم يرضَ عن صديقه إلا بإيثاره على نفسه ، دام سَخَطُهُ ،
وَمَنْ عَاتَبَ عَلَى كُلِّ ذَنْبٍ كَثُرَ عَدُوُّهُ ، وَمَنْ لَمْ يُوَاخِرْ مِنَ الْإِخْوَانِ إِلَّا مَنْ لَا عَيْبَ
فِيهِ قَلَّ صَدِيقُهُ » . (الأمال ١ : ٢١٨)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : قلت لأعرابي ما تقول في المراء ؟ قال : « ما عسى
أن أقول في شيء يُفْسِدُ الصداقة القديمة ، وَيَحُلُّ الْعُقْدَةَ الوثيقة ، أَقْلُ ما فيه أن يكون
دُرْبَةً للمغالبة ، والمغالبة من أمتن أسباب الفتنة » . (الأمال ١ : ٢٥٨)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول : « لا يوجد العَجُولُ محموداً ،
ولا الغَضُوبُ مَسْروراً ، ولا المَلُولُ ذا إخوان ، ولا الحرُّ حريصاً ، ولا الشرُّ غنياً » .
وقال : سمعت أعرابياً يقول : « صُنْ عقلك بالحلم ، ومُرُوءتك بالعفاف ، ونجدتك
بتجانبة الخيلاء ، واخلتكَ^(١) بالإجمال في الطلب » (الأمال ٢ : ٣٢)

وقال : سمعت أعرابياً يقول : « أقبحُ أعمالِ المتقدرين الانتقام ، وما استُنْبِطَ
الصوابُ بمثل المشاورة ، ولا حُصِّلَتِ النعم بمثل المواساة ، ولا اكتسبتُ البغضاء
بمثل الكبر » . (الأمال ٢ : ٣٢ ، وزمر الآداب ٢ : ٣)

وقال أعرابي : « خير الإخوان من يُنِيلُ عُرفاً ، أو يدفعُ ضراً » .
(الأمال ٢ : ٤١)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يقول : « العاقل حقيقٌ أن يُسَخِّيَ
بنفسه عن الدنيا ، لعله أن لا ينال أحد فيها شيئاً إلا قَلَّ إمتاعُهُ به ، أو كَثُرَ عَنَاؤُهُ
فيه ، واشتدت مرزئته^(٢) عليه عند فراقه ، وَعَظُمَتِ التَّبِعَةُ فيه بعده » .
(الأمال ٢ : ٤١)

وقال أعرابي : « خَصَلْتان من الكرم : إنصاف الناس من نفسك ، ومواساة
الإخوان » . (الأمال ٢ : ٧٣)

وقال أعرابي : « ما غُبِنتُ قَطُّ حَتَّى يُغَيَّبَنَ قَوْمِي » ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال :
« لا أَفْعَلُ شَيْئًا حَتَّى أَشَاوِرَهُمْ » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦١)

وقال أعرابي لرجل مَطَّلَه في حاجة : « إِنْ مِثْلُ الظَّفَرِ بِالحَاجَةِ تَعَجِيلُ اليَأْسِ مِنْهَا ،
إِذَا عَسِرَ قَضَاؤُهَا ، وَإِنْ الطَّابُ وَإِنْ قَلَّ ، أَعْظَمُ قَدْرًا مِنَ الحَاجَةِ وَإِنْ عَظُمَتْ ، وَالْمَطْلُ
مِنْ غَيْرِ عُسْرِ آفَةُ الجُودِ » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢١)

وقال أعرابي : « وَعَدَ السَّكْرِمِ نَقْدٌ وَتَعَجِيلٌ ، وَوَعَدَ اللِّثِمِ مَطْلٌ وَتَعْلِيلٌ » ..
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١)

وقال أعرابي : « اعْتَذَارٌ مِنْ مَنَعٍ ، أَجَلٌ مِنْ وَعْدٍ مَطْوَلٌ » .
(الأمال ٢ : ١٩٨)

وقال أعرابي : « عَوْدٌ لِسَانَكَ الخَيْرَ ، تَسْلَمُ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ » .
(ذيل الأمال ص ٢٩)

وقال أعرابي : « خَرَجْتَ لَيْلَةً حِينَ انْحَدَرَتْ أَيْدَى النُّجُومِ ، وَشَالَتْ^(١) أَرْجُلُهَا ،
فَازَلْتُ أَصْدَعُ اللَّيْلَ حَتَّى انْصَدَعَ الفَجْرُ ، فَإِذَا بِجَارِيَةٍ كَانَتْهَا عِلْمٌ ، فَعَلَتْ أَغَاظَهَا ، فَقَالَتْ :
يَا هَذَا : أَمَّا لَكَ نَاهٍ مِنْ كَرَمٍ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ زَاجِرٌ مِنْ عَقْلِ ؟ قَالَ : وَاللَّهِ مَا يَرَانِي إِلَّا
الْكُورَاكِبُ ! قَالَتْ : فَأَيْنَ مُكُونُكِهَا ؟ » .

(المعقد المفريد ٢ : ٩٤ ، والبيان والتبيين ٢ : ٥١ ، وزهر الأداب ٢ : ٦)

أجوبة الأعراب

٢٠ — مجاوبة أعرابي للحجاج

خرج الحجاج ذات يوم فَأَصْحَرَ^(٢) ، وحضر غداؤه ، فقال : اطلبوا من يتغدى
مَعِيَ ، فطلبوا ، فَإِذَا أَعْرَابِي فِي سَبِيلَةٍ : فَأَتَى بِهِ ، فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، قَالَ : هَلُمَّ أَيُّهَا
الأعرابي ، قَالَ : قَدْ دَعَانِي مَنْ هُوَ أَكْرَمُ مِنْكَ فَأَجَبْتُهُ ، قَالَ : وَمَنْ هُوَ ؟ قَالَ : دَعَانِي

(١) ارتفعت : من شالت الناقة بذنها وأشالته : رفعته ، فشال هو .

(٢) أصعر : برز في الصحراء .

الله ربي إلى الصوم ، فأنا صائم ، قال : وصوم في مثل هذا اليوم الحار ؟ قال : صمت ليوم هو أحر منه ، قال : فأفطر اليوم وصم غدًا ، قال : ويضمن لي الأمير أني أعيش إلى غد ؟ قال : ليس ذاك إليه ، قال : فكيف تسألني عاجلاً بأجل ، ليس إليه سبيل ؟ قال : إنه طعام طيب ، قال : والله ما طيبه خبازك ولا طبّاخك ، قال : فمن طيبه ؟ قال : العافية ، قال الحجاج : تالله إن رأيت كاليوم ! أخرجوه عني .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٤ ، والمقد الفريد ٢ : ٨٧)

٢١ — مسألة الحجاج أعرابياً فصيحاً

وقال الحجاج لأعرابي كلمه فوجده فصيحاً : كيف تركت الناس وراءك ؟ فقال : « تركتهم — أصلح الله الأمير — حين تفرقوا في الغيطان ، وأخذوا النيران ، وتشكّت النساء ، وعرض الشاء ، ومات الكلب » ، فقال الحجاج لجلسائه : « أخصباً نعت أم جذباً ؟ قالوا : بل جذباً ، قال : بل خصباً ، قوله : تفرقوا في الغيطان ^(١) ، معناه : أنها أعشبت ، فإبلهم وغنمهم ترعى ، وأخذوا النيران ، معناه : استغنوا باللبن عن أن يشتروا لحوم إبلهم وغنمهم يأكلوها ، وتشكّت النساء أعضاءهن ، من كثرة ما يمتخضن ^(٢) الألبان ، وعرض الشاء : استن ^(٣) من كثرة العشب والمرعى ، ومات الكلب : لم تمت أغنامهم وإبلهم فإكل جيفها » . (ذيل الامال ص ٨٧)

٢٢ — مجاوبة أعرابي لعبد الملك بن مروان

ودخل أعرابي على عبد الملك بن مروان ، فقال له : يا أعرابي صف الخمر ، فقال : شمول إذا شجّت ، وفي الكأس مزة لها في عظام الشاربين ديب ^(٤)

(١) جمع غائط : وهو المطنن الواسع من الأرض . (٢) غنض اللبن من باب قطع ونصر وضرب أخط زبده . (٣) استن : سمن ، من الإبل كنصر : إذا رعاها فأصغها . (٤) الشمول : الخمر أو الباردة منها ، لأنها تشمل بريحها للناس ، أو لأن لها مصفة كمصفة الشبال ، وشيح الشراب : مزجه .

ثُرِيكَ الْقَدَى مِنْ دُونِهَا وَهِيَ دُونَهُ لَوْجُهُ أَخِيهَا فِي الْإِنَاءِ قُطُوبٌ^(١)
 فقال : ويحك يا أعرابي ! لقد أتهمك عندي حُسْنُ صَفَتِكَ لَهَا ، قال : « يا أمير
 المؤمنين ، وأتهمك عندي معرفتك بحسن صفتي لها » .
 (صيون الأخبار ٢ م : ص ٢١٥)

٢٣ — مجاوبة أعرابي لخالد بن عبد الله القسري

وخطب خالد بن عبد الله القسري فقال :
 « يَا هَلْ الْبَادِيَةِ : مَا أَخْسَنَ بِلَدِكُمْ ، وَأَغْلَظَ مَعَاشِكُمْ ، وَأَجْقَى أَخْلَاقَكُمْ ،
 لَا تَشْهَدُونَ جُمُعَةً ، وَلَا تَجَالِسُونَ عَالِمًا ، قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْهُمْ دَمِيمٌ ، فَقَالَ :
 « أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ خُسُوفَةِ بِلَدِنَا ، وَغِلَظِ طَعَامِنَا ، فَهُوَ كَذَلِكَ ، وَلَسَكُمْ مَعَشَرُ
 أَهْلِ الْحَضَرِ ، فَيْكُمْ ثَلَاثُ خِصَالٍ ، هِيَ شَرٌّ مِنْ كُلِّ مَا ذَكَرْتَ » ، قَالَ لَهُ خَالِدٌ :
 وَمَا هِيَ ؟ قَالَ : « تَنْقُبُونَ الدُّورَ ، وَتَنْبُشُونَ الْقُبُورَ ، وَتَسْكِحُونَ الذِّكُورَ » ، قَالَ :
 « قَبَّحَكَ اللَّهُ ، وَقَبِّحَ مَا جِئْتَ بِهِ » .
 (المقدم الفريد ٢ : ١٢٧)

٢٤ — أجوبة شتى

وَقَدَّمَ أَعْرَابِي إِلَى السُّلْطَانِ ، فَقَالَ لَهُ : قُلِ الْحَقَّ ، وَإِلَّا أَوْجَعْتُكَ ضَرْبًا ،
 قَالَ لَهُ : « وَأَنْتَ فَاعْمَلْ بِهِ ، فَوَاللَّهِ مَا أَوْعَدَكَ اللَّهُ عَلَى تَرْكِهِ ، أَعْظَمَ مِمَّا تُوعِدُنِي بِهِ » .
 وَنَظَرَ عُمَانٌ إِلَى أَعْرَابِي فِي كَمَلَةٍ ، غَاثِرِ الْعَيْنَيْنِ ، مُشْرِفِ الْحَاجِبَيْنِ ، نَاقِيِ الْجُبَّةِ ،
 فَقَالَ لَهُ : أَيْنَ رَبُّكَ ؟ قَالَ : بِالْمِرْصَادِ !
 وَقِيلَ لِأَعْرَابِي : إِنَّكَ تُحْسِنُ الشَّارَةَ^(٢) ، قَالَ : « ذَلِكَ عُنوانُ نِعْمَةِ اللَّهِ عِنْدِي » .

(١) القلى : ما يقع في الشراب ، قليب كضرب قليباً وقطوبا : زوى ما بين عينيه وكلج ، وأخوها :
 هو نبيذ الزبيب ، والمعنى : أن الشاربين يفضلونها عليه فحشرونها دونه ، فهو يقطب من أجل ذلك ، وفي
 أخوها يقول للشاعر :

دع الخمر يشربها الغواة فإنني رأيت أخاها مغنياً بمكانها
 فلا يكتنها أو تسكت فإنه أخوها غداة أمه بلبانها
 (٢) الشارة : اللباس والهيئة والزينة .

وقيل لأعرابي : « كيف أنت في دينك ؟ قال : أخرقه بالمعاصي ، وأرقعه بالاستغفار » .

وسئل أعرابي عن القدر فقال : « الناظر في قدر الله كالناظر في عين الشمس ، يعرف ضوءها ، ولا يقف على حدودها » .

وسئل آخر عن القدر ، فقال : « علم اختصمت فيه العقول ، وتناول فيه المختلفون ، وحق علينا أن يرد إلينا ما التبس علينا من حكمه ، إلى ما سبق علينا من علمه » .
(العقد الفرید ٢ : ٨٦ - ٨٧)

وقيل لأعرابي : من أبلغُ الناس ؟ قال : « أحسنهم لفظاً وأسرعهم بديهة » .
وقيل لأعرابي : مالك لا تطيل الهجاء ؟ قال : « يكفيك من القلادة ما أحاط بالعتق » .

وقال معاوية لأعرابية : هل من قرى ؟ قالت : نعم ، قال : وما هو ؟ قالت : « خبزٌ خَمِير ، ولبنٌ فَطِير ، وماءٌ نَمِير ^(١) » .

وقيل لأعرابي : فيم كنتم ؟ قال : « كنا بين قدر تفور ، وكأس تدور ، وحديث لا يحور ^(٢) » .

وقيل لأعرابي : ما أعددت للبرد ؟ قال : « شدة الرعدة ، وقرفصاء القعدة ، وذرب المعدة ^(٣) » .

وقيل لأعرابي : « ما لك من الولد ؟ قال : قليلٌ خبيثٌ » قيل له : ما معناه ؟ قال : « إنه لا أقل من واحد ، ولا أخبث من أُنثى » .

وقيل لأعرابي - وقد أدخل ناقته في السوق لبيعها - صف لنا ناقتك ، قال :

(١) الخمير : الذي اختمر ، وماء نَمِير : ناعم ، عذبا كان أو غير عذب .
(٢) أي لا ينقص ، وربما كان لا يحور بالجم . (٣) القرفصاء : أن يجلس على أليتيه ، ويلصق فخذه بهبطه ، ويحتجى بيديه يضمهما على ساقيه ، أو يجلس على ركبتيه منكبا ، ويلصق بهبطه بفخذه ، ويأبط كفيه ، والذرب : الحدة ، والمعدة ككلمة وكسرة .

مَا طَلَبْتُ عَلَيْهَا قَطُّ إِلَّا أَدْرَكْتُ ، وَلَا طُلِبْتُ إِلَّا فُتُّ ، وَقِيلَ لَهُ : فَلِمَ تَبِعَ بِهَا ؟
قال : لقول الشاعر :

وقد تُخْرِجُ الحاجاتُ يَا أُمَّ عَامِرٍ كَرَامًا مِنْ رَبِّ بَهَنَ ضَيْنِ
وقيل لأعرابي : ما عندكم في البادية طيب ؟ قال : « حُرُّ الوحش لا يحتاج
إلى بَيْطَارٍ » .

وقيل لِشَرِيحِ القاضى : هل كلمك أحد قطُّ فلم تُطِقْ له جواباً ؟ قال : ما أعلمه
إلا أن يكون أعرابياً ، خاصم عندى وهو يشير بيديه ، فقلت له : أُمْسِكْ ، فَإِنْ
لسانك أطولُ من يدك ، قال : « أَسَامِرِي أَنْتَ لَا تَمْسُ ؟ ^(١) » .

(المعقد الفريد ٢ : ٩٧)

وقيل لأعرابي : أى الألوان أحسن ؟ قال : « قصورٌ بِيضٌ » ، فى حدائق
خُضْرٍ .

وقيل لآخر : أى الألوان أحسن ؟ قال : « بَيْضَةٌ ^(٢) » ، فى رَوْضَةٍ ، عن غِيبِ
سَارِيَةٍ ، والشمس مُكَبَّدَةٌ .

(١) يشير إلى قوله تعالى : « قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ » ، قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ
يَبْصُرُوا بِهِ ، فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ، وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ،
قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ .

والسامري : هو موسى بن ظفر السامري نسبة إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها : السامرة ، وكان
من قوم يعبدون البقر ، وقع في مصر ، فدخل في بني إسرائيل ، وآمن بموسى ، وكان منافقاً لا يزال في قلبه
عبادة البقر ، فلما ذهب موسى لمناجاة ربه فتن بني إسرائيل ، وكانوا حين خرجوا من مصر حملوا معهم من
حل القبط التي أخذوها منهم رهائن على ما يقرضونهم من المال - فأتخذ لهم منها سجلاً له خوار . . .
إلى آخر ما هو معروف في القصة ، من أثر الرسول : أى من أثر حافر الرسول وهو جبريل ، والأثر :
التراب الذي تحت حافره ، والماس مصدر ماس ، وهو نفى أريه به النهى ، أى لا تمسني ولا أمسك .

(٢) البَيْضَةُ : ساحة القوم ومجتمعهم ، والسارية : السحابة تسمى ليلاً ، وكبدت الشمس السياء : صارت
في كبدها أى وسطها ، وفي الأصل « مكيدة » بالياء وهو تصحيف .

وخطب أعرابي إلى قوم فقالوا : ما تبذل من الصداق ؟ وارتفع السَّجَفُ^(١)
فرأى شيئاً كرهه فقال : « والله ما عندي نقد ، وإني لأكره أن يكون عليّ دين » .
(عيون الأخبار ٢ : ص ٢٠٠)

وقيل لأعرابية مات ابنها : « ما أحسن عزاءك عن ابنك ! » ، قالت :
« إن مصيبتَه آمَنَتْنِي مِنَ المصائب بعده » .

وقال محمد بن حرب الهاللي : قلت لأعرابي : « إني لك كَوَادٌّ » ، قال : « وإن لك
من قلبي لرائدًا » . (البيان والتبيين ١ : ١٤٦ ، والبيان والتبيين ٢ : ٩٢)

وقال الأصمعي : رأيت أعرابياً أمامه شاةٌ ، فقلت لِمَنْ هذه الشاة ؟ قال :
« هي لله عندي » . (المقد الفريه ٢ : ٨٦ ، وعيون الأخبار ٢ ص ٢٠٩)

قولهم في الاستمناح والاستجداء

٢٥ — أعرابي يجتدي عتبة بن أبي سفيان

اعترض أعرابي لعُتْبَةَ بن أبي سفيان ، وهو على مكة ، فقال : أيها الخليفة ، فقال :
لستُ به ، ولم تُبْعِدْ ، قال : يا أخاه ، قال : أَسَمَعْتَ قتل ، قال :

« شيخ من بني عامر يتقرب إليك بالعمومة ، ويختص بالخشوة ، ويشكو إليك
كثرة العيال ، ووطأة الزمان ، وشدة فقر ، وترادف ضرر ، وعندك ما يسعه ويصرف
عنه بؤسه » قال : « أستغفر الله منك ، وأستعينه عليك ، قد أمرت لك بغناك ،
فليت إسراعنا إليك ، يقوم بإبطائنا عنك » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٠ ، والمقد الفريه ٢ : ٨١)

٢٦ — أعرابي يجتدى عمر بن عبد العزيز

وأتى أعرابي عمر بن عبد العزيز ، فقال :

« رجل من أهل البادية ، ساقته إليك الحاجة ، وبلغت به الغاية ، والله سائلك عن مقامي غداً ، فقال عمر : « والله ما سمعتُ كلمة أبلغ من قائل ، ولا أوعظ لمقُول له منها » .
(المعتمد للفريد ٢ : ٨٣ ، والأمال ٢ : ١٧٤ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣١) .

٢٧ — خطبة أعرابي بين يدي هشام بن عبد الملك

وكانت الأعراب تنتجع هشام بن عبد الملك بألحطَب كل عام ، فتقدم إليهم الحاجب يأمرهم بالإيجاز ، فقام أعرابي ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
يا أمير المؤمنين ، إن الله تبارك وتعالى جعل العطاء حَبَّةً ، والمنع مَبْغَضَةً ،
فَلَا نَحْبُكَ خَيْرَ مِنْ أَنْ تُبْغِضَكَ ^(١) ، فأعطاه وأجزل له . (المعتمد للفريد ٢ : ٨٣)

٢٨ — مقام أعرابي بين يدي هشام

وقام أعرابي بين يدي هشام فقال :

« يا أمير المؤمنين ، أتت على الناس ثلاث سِنِينَ ، أمَّا الأولى : فَلَجَّتِ ^(٢) اللحم ،
وأما الثانية : فَأَكَلَتِ الشَّحْمَ ، وأما الثالثة : فِهَاضَتِ ^(٣) العَظْمَ ، وعندكم فُضُولُ
أموالٍ ، فَإِنْ كَانَتْ لِلَّهِ فَاقْسِمُوهَا بَيْنَ عِبَادِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ فَفِيمَ تَحْطَرُ ^(٤) عنهم ؟
وإن كانت لكم فتصدقوا عليهم بها ، إن الله يجزى المتصدقين ، قال هشام : هل من
حاجة غير هذه يا أعرابي ؟ قال : « ما ضربتُ إليك أكبادَ الإبل ، أدْرِعُ الهَجِيرَ ،
وأخوضُ الدُّجَى نَاحِصًا دُونَ عَامٍ » ، فأمر هشام بمال ، فَقَسَّمْ بَيْنَ النَّاسِ ، وأمر

(١) يروى هذا لعمدة بن أبي الجهم المدنى ، قاله في حضرة هشام أيضاً . انظر الجزء الثاني ص ٤٢٢ .

(٢) من لحا الشجرة : أكل لحاءها (بالكسر) وهو قشرها . (٣) هاض العظم : كمره بعد

الجبور فهو مهيض ، وفي رواية : « وعام أنق العظم » أى وصل إلى نقيه (بالكسر) وهو مخ العظم .

(٤) تحجب وتمنع .

للأعرابي ببال ، فقال « أكلُّ المسلمين له مثل هذا ؟ » قالوا : « لا ، ولا يقوم بذلك بيتُ مال المسلمين » ، قال : « فلا حاجة لى فيما يَبْعَثُ لأئمةَ الناس على أمير المؤمنين »
(عيون الأخبار م ٢ : ص ٣٣٨ والمقد الفريد ٢ : ٨٢)

٢٩ — أعرابي يستجدى عبيد الله بن زياد

وقال الثعبيّ : وقف أعرابي بباب عُبيدِ الله بن زياد فقال :
« يَا هَلِ الْغَضَارَةُ ^(١) ، حَقَبَ ^(٢) السَّحَابُ ، وَاَنْشَغَ الرَّبَابُ ، وَاسْتَأْسَدَتِ الذَّنَابُ
وَرُودِمَ التَّمَدُّ ^(٣) ، وَقَلَّ الْخَفْدُ ^(٤) ، وَمَاتَ الْوَلَدُ ، وَكُنْتُ كَثِيرَ الْعَفَاةِ ^(٥) ، صَخَبَ ^(٦)
الشَّقَاةِ ، عَظِيمَ الدَّلَاةِ ^(٧) لَا تَصَالُ الزَّمَانُ ، وَغَفَلَ ^(٨) الْخِدْنَانُ ، حَتَّى حَلَالَ ^(٩) ، وَعَدَدَ
وَمَالَ ، فَتَفَرَّقْنَا أَيْدَى سَبَا ^(١٠) ، بَيْنَ فَقْدِ الْأَبْنَاءِ وَالْآبَاءِ وَكُنْتُ حَسَنَ الشَّارَةِ ^(١١) ،
خَصِيبَ الدَّارَةِ ^(١٢) سَلِيمَ الْجَارَةِ ^(١٣) ، وَكَانَ مَحَلِّي حَمَى ، وَقَوْمِي أُسَى ^(١٤) ، وَعَزَى جَدًّا ^(١٥)

(١) الغضارة : النعمة والسعة والخصب ، وفي الأصل : « الغضاضة » وهو تحريف — والغضاضة
للذلة والمنقصة — . (٢) حقب المطر وغيره : احتبس ، والرباب : السحاب الأبيض .
(٣) التمدكشمس وسبب : الماء القليل لامادة له . (٤) الخفد : الأعوان جمع حافد .
(٥) العفاة جمع عاف : وهو الوارد والضيف ، وكل طالب فضل أو رزق .
(٦) وصف من الصخب بالتحريك وهو شدة الصوت ، والعفاة جمع ساق كقاض ، وفي الأصل « صخب
السفاه » وأراه محرفا . (٧) في الأصل : « عظيم للزلات » وأراه محرفا عن « الدلاة » ، والدلاة
كقضاة جمع دال كقاض ، وهو النازع في الدلو المستقى به الماء من البئر . يقال : أدليت الدلو ودليتها :
إذا أرسلتها في البئر . ودلوها أدلوها فأنا دال ، إذا أخرجتها . (٨) الغفل بالتحريك : الغفلة ،
والخدنان : ثوب الدهر وحوادثه ، وفي الأصل : « ولا أعقل الخدنان » وأراه محرفا ، وربما كان الأصل
« ولا غفال الخدنان » بتكرير لام الجر . (٩) الحلة بالسكسر : التقوم النالون ، والجمع حلال وحلل
ككتاب وعنب ، وتطلق الحلة على البيوت مجازاً تسمية للمحل باسم الحال ، وهي مائة بيت فافوقها .
(١٠) يقال : ذهبوا أيدي سبا ، وتفرقوا أيدي سبا ، وأيادي سبا : أى تبددوا ، شهبوا بأهل سبا لما
مزقهم الله في الأرض كل مرق ، فأخذ كل طائفة منهم طريقاً على حدة ، واليد : الطريق . يقال ، أخذ
للقوم يد بحر ، فقتل القوم إذا تفرقوا في جهات مختلفة : ذهبوا أيدي سبا : أى فرقتهم طرقهم التي
سلكوها كما تفرق أهل سبأ في مذاهب شتى والعرب شتى لا تهذب سبأ في هذا الموضع ، لأنه كثير في كلامهم
فاستنقلوا فيه الهمة وإن كان أصله مهموزا ، وقد بنوا أيدي سبا ، وأيادي سبا على السكون لسكونه
مركباً تركيب خمسة عشر .

(١١) للشارة : الهيئة والملابس والزينة والجمال . (١٢) الدارة : الدار .

(١٣) الجارة ، من معانيها : للزوجة . (١٤) الأمى جمع أسوة : وهي القدوة .

(١٥) الجدا : العطية ، والمطر الذي لا يعرف أقصاه .

قضى الله - ولا رُجْعَانَ لما قَضَى - بِسَوَافٍ^(١) المال ، وَشَتَاتِ الرجال ، وتغيّر الحال
فأَعِينُوا مَنْ شَخَّصَهُ شَاهِدُهُ ، وَلِسَانُهُ وَافِدُهُ ، وفقرُهُ سَائِقُهُ وَقَائِدُهُ .
(زهر الآداب ٣ : ٢٠٧)

٣٠ - أعرابية تستجدي عبد الله بن أبي بكرة

ودخلت أعرابية على عبد الله بن أبي بكرة بالبصرة ، فوفقت بين السّماطين^(٢)
فقال :

« أصلح الله الأمير وأمتّع به ، حَدَرْنَا إِلَيْكَ سَنَةً اشْتَدَّ بِلَاؤُهَا ، وانكشف
غِطَاؤُهَا ، أَقْوَدُ صَبِيَّةً صَغَارًا ، وَآخِرِينَ كِبَارًا ، فِي بِلْدَةِ شَاسِعَةٍ ، تَخْفِضُنَا خَافِضَةً ،
وَتَرْفَعُنَا رَافِعَةً ، لِمَمَاتٍ مِنَ الدَّهْرِ ، بَرَيْنَ عَظْمِي ، وَأَذْهَبِينَ لِحْي ، وَتَرْكَبْنِي وَالِهَةً ،
أَدُورُ بِالْحَضِيضِ ، وَقَدْ ضَاقَ بِي الْبَلَدُ الْعَرِيضُ ، فَسَأَلْتُ فِي أَحْيَاءِ الْعَرَبِ : مَنْ الْكَامِلَةُ
فَضَائِلُهُ ، الْمُعْطَى سَائِلُهُ ، الْمَكْفَى نَائِلُهُ ؟ فَدَلَّلْتُ عَلَيْكَ - أَصَاحِبُكَ اللَّهُ تَعَالَى - وَأَنَا امْرَأَةٌ
مِنْ هَوَازِنَ ، قَدْ مَاتَ الْوَالِدُ ، وَغَابَ الرَّافِدُ ، وَأَنْتَ بَعْدَ اللَّهِ غِيَاثِي ، وَمُنْتَهَى أَمَلِي ، فَافْعَلْ
بِي إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ : إِمَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى بَلَدِي ، أَوْ تُحَسِّنَ صَفْدِي^(٣) ، أَوْ تَقِيمَ أَوْدِي
فَقَالَ : بَلْ أَجْمَعُهُنَّ لَكَ ، فَلَمْ يَزَلْ يُجْرِي عَلَيْهَا كُلَّ يُجْرَى عَلَى عِيَالِهِ حَتَّى مَاتَتْ .
(زهر الآداب ٣ : ٣٠٦)

* * *

وروى صاحب العقد قال :

قال الأصمعي : وقفت أعرابية على عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى
عنه فقالت :

« إِنِّي أَتَيْتُ مِنْ أَرْضٍ شَاسِعَةٍ ، تَخْفِضُنِي خَافِضَةً ، وَتَرْفَعُنِي رَافِعَةً ، فِي بَوَادِي

(١) السّواف بالضم وبفتح : مرض الإبل ، وساف المال يسوف ويساف : هلك ، أو وقع فيه السّواف .

(٢) السّماطين من اللّسان : الجانيبان .

(٣) الصّد : العطاء .

بَرَّيْنِ لِحْمِي ، وَهَضُنْ^(١) عَظْمِي ، وَتَرَكْنِي وَآلِهَةً ، قَدْ ضَاقَ بِي الْبَلَدُ ، بَعْدَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ ،
وَكثْرَةِ مِنَ الْعَدَدِ ، لَا قَرَابَةَ تُؤْوِيْنِي ، وَلَا عَشِيرَةَ تَحْمِيْنِي ، فَسَأَلْتُ أَحْيَاءَ الْعَرَبِ ،
مَنْ الْمُرْتَجَى سَيِّئُهُ^(٢) ، الْمَأْمُونُ عَيْبُهُ ، الْكَثِيرُ نَائِلُهُ ، الْمَكْفِيُّ سَائِلُهُ ، فَدَلَّلْتُ عَلَيْكَ ،
وَأَنَا امْرَأَةٌ مِنْ هَوَازِنَ ، فَقَدْتُ الْوَلَدَ وَالْوَالِدَ ، فَاصْنَعْ فِي أَمْرِي وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثَ : إِمَّا أَنْ
تُحْسِنَ صَفَدِي ، وَإِمَّا أَنْ تَقِيمَ أَوْدِي ، وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى بَلَدِي « : قَالَ : بَلْ أَجْمَعُن
لَكَ ، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهَا . (المقد الفريد ٢ : ٨٢)

٣١ — أعرابي يستجدي خالد بن عبد الله القسري

وَدَخَلَ أَعْرَابِي عَلَى خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ ، فَقَالَ :
« أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ : شَيْخٌ كَبِيرٌ ، حَدَّثَنِي إِيْلِكَ بَارِيَةُ الْعِظَامِ^(٣) ، وَمُورَثَةُ
الْأَسْقَامِ ، وَمُطَوَّلَةُ الْأَعْوَامِ ، فَذَهَبَتْ أَمْوَالُهُ ، وَذُعِدَعَتْ^(٤) آبَالُهُ ، وَتَغَيَّرَتْ أَحْوَالُهُ ،
فَإِنْ رَأَى الْأَمِيرُ أَنْ يَجْزِيَهُ بِفَضْلِهِ ، وَيَنْعَشُهُ بِسَجْلِهِ^(٥) ، وَيُرِدَّهُ إِلَى أَهْلِهِ ! » فَقَالَ :
كُلَّ ذَلِكَ ، وَأَمْرُهُ بِعَشْرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ . (الأمال ٢ : ٤٩)

٣٢ — أعرابي يستجدي معن بن زائدة

وَقَدِمَ أَعْرَابِي مِنْ بَنِي كِنَانَةَ عَلَى مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ وَهُوَ بِالْمِمْسِ فَقَالَ :
« يَا وَاللَّهِ مَا أَعْرِفُ سَبَبًا بَعْدَ الْإِسْلَامِ وَالرَّحِمِ ، أَقْوَى مِنْ رِحْلَةٍ مِثْلِي مِنْ أَهْلِ
السَّنِّ وَالْحَسَبِ إِلَيْكَ مِنْ بِلَادِهِ ، بِلَا سَبَبٍ وَلَا وَسِيلَةٍ ، إِلَّا دَعَاكَ إِلَى الْمَكَارِمِ ،
وَرَغَبَتِكَ فِي الْمَعْرُوفِ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَضَعَنِي مِنْ نَفْسِكَ بِحَيْثُ وَضَعْتَ نَفْسِي مِنْ رَجَائِكَ
فَافْعَلْ » فَوَصَلَهُ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ . (المقد الفريد ٢ : ٨٠)

(١) هاضن العظم : كسره بعد الجوز . (٢) السبب : العطاء .
(٣) حدته : سافته ، وبارية العظام : أي النكبات التي تبرى العظام ، مورثة : مهيبة ، من التاروث
وهو إيقاد النار .
(٤) ذعذعت : فرقت ، وآبال جمع إبل . (٥) السجل في الأصل : الدلو العظيمة مأوأة .

٣٣ - خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام

عن أبي زيد قال : بَيْنَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِذْ وَقَفَ عَلَيْنَا أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ :

« يَا مُسْلِمُونَ ، إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ ، وَالصَّلَاةَ عَلَى نَبِيِّهِ ، إِنِّي أَسْأَلُ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْمَلْطَاطِ الشَّرِيفِ الْمَوَاصِي أَسْيَافَ تِهَامَةٍ ^(١) ، عَكَفَتْ عَلَى سِنُونُوحٍ ^(٢) ، فَاجْتَبَتْ الذَّرَى ، وَهَشَمَتِ الْعُرَى ^(٣) ، وَجَحَشَتِ النَّجْمَ ، وَأَعْجَبَتِ الْبَهْمَ ^(٤) ، وَهَمَّتِ الشَّحْمَ ، وَالتَّحَبَّتِ اللَّحْمَ ، وَأَحْجَنَتِ الْعَظْمَ ^(٥) ، وَغَادَرَتِ التَّرَابَ مَوْرًا ، وَالْمَاءَ غَوْرًا ، وَالنَّاسَ أَوْزَاعًا ^(٦) ، وَالنَّبْطَ قُوعًا ، وَالضَّهْلَ جُزَاعًا ، وَالْمَقَامَ جَعَجَاعًا ^(٧) ، يُصَبِّحُنَا الْهَآوَى ، وَيَطْرُقُنَا الْعَاوَى ^(٨) ، نَخْرَجُ لَا أَتْلَفُ بَوْصِيدَةٍ ، وَلَا أَتَفَوْتُ هَبِيدَةٍ ^(٩) ، فَالْبَخْصَاتُ وَقِعَةٌ ، وَالرُّكْبَاتُ زَلْعَةٌ ، وَالْأَطْرَافُ قَفْعَةٌ ^(١٠) ، وَالْجِسْمُ مُسْلَهٌ ، وَالنَّظَرُ مُذْرَهٌ ^(١١) ، أَعْشُو فَاغْطِشْ ، وَأَضْحَى فَاخْفِشْ ^(١٢) ، أَسْهَلُ ظَالِمًا ، وَأَحْزَنُ رَاكِعًا ^(١٣) فَهَلْ مِنْ أَمْرٍ

(١) المَلْطَاط : كل شفير نهر أو واد ، والموَاصِي والمواصل واحد ، يقال تواصى التبت : إذا اتصل بعضه ببعض ، وأسْيَاف جمع سيف بالكسر : وهو ساحل البحر . (٢) عَكَفَتْ : أقامت ، والسِنُونُوحُ الجُدُوب ، وعَجَش جمع عَجَش كصَبُور ، وهى التى تمش (بضم الخاء) السكلا أى تحرقه .
(٣) اجْتَبَتْ : قطعت واستأصلت ، وهَشَمَتْ : كسرت ، والعُرَى جمع عُرَّة ، والعُرَّة : القطعة من الشجر لا يزال باقيا على الجذع ترعاها أمواليه . (٤) جَحَشَتْ : احتلقت ، والنَّجْم : ما نجم ولم يستقل على ساق ، وأعْجَبَتْ : أى جعلها عجايبا ، والعَجَى : السيء للقاء المهزول .
(٥) هَمَتْ : أذابت ، والعرب تقول : هَمَكَ ما أَهَمَكَ ، أى أذابك ما أَهَزَكَ ، والتَّحَبَّتِ اللحم : أى عرقته عن العظم ، وأَحْجَنَتِ العظم : أى عوجته فصيرته كالحنجن . (٦) مَوْرًا : اضطرب وماج ، والغور : الفائر ، أَوْزَاع : فرق . (٧) النَبْط : الماء الذى يستخرج من البئر أول ما تحفر ، والقوعاء الماء الملح المر : والفصل : القليل من الماء ، والجَزَاع : أشد المياه مرارة ، والجَعَجَاع : المكان الذى لا يطمئن من قعد عليه . (٨) الْهَآوَى : الجراد ، وَالْعَاوَى : الذئب .

(٩) التَّلْفَع : الاشتغال ، واللَّوْصِيدَةُ : كل نسيجة ، والهِبِيدَةُ : حب الحنظل يعالج حتى يطيب فيختبز .
(١٠) الْبَخْصَاتُ جمع بَخْصَةٍ ، وهى لحم باطن القدم ، ووقعة : من قولهم : وقع الرجل كفروح إذا اشتكى لحم باطن قدمه ، وزلعه : متشقة ، وقعدة ومقعدة واحد : وهى التى قد تقبضت وببست .

(١١) الْمُسْلَه : للضام المتغير ، والمدرهم : الضعيف البصر الذى قد ضعف بصره من جوع أو مرض .
(١٢) أَعْشُو : أنظر ، فَاغْطِشْ : أصغر غطشا (بكسر الطاء) والغطش محركة : ضعف فى البصر ، وضحى للشمس كفروح وسى : برز لها ، والْخَفْشُ بالتحريك : ضعف البصر خلقه ، أو فساد فى الجفون بلا وجع أو أن يبصر بالليل دون النهار . (١٣) أَسْهَلُ ظَالِمًا : أى إذا مشيت فى السهول ظلمت ، وظلع كنع : غمز فى مشيه ، وَأَحْزَنُ رَاكِعًا : أى إذا حلوت الجزن ركعت أى كبوت لوجهى .

يَمِيرُ^(١) ، أو دافع بخير ؟ وقاكم الله سَطَوَةَ القادر ، وَمَلَكَ الكاهِر^(٢) ، وسوء الموارِد ، وَفُضُوحَ المَصادر ، قال : فأعطيته ديناراً وكتبت كلامه ، واستفسرته ما لم أعرفه . (الأمالي ١ : ١١٣)

٣٤ — خطبة الأعرابي السائل في المسجد الجامع بالبصرة

وروى الجاحظ قال :

قال أبو الحسن : سمعت أعرابياً في المسجد الجامع بالبصرة بعد العصر سنة ثلاث وخمسين ومائة : وهو يقول :

« أما بعد : فإننا أبناء سبيل ، وأنضاء^(٣) طريق ، وفَلَّ^(٤) سَنَةٍ ، تصدَّقوا علينا ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت ، أما والله إننا لنقوم هذا المقام ، وفي الصدر حَزَازَةٌ^(٥) ، وفي القلب غُصَّةٌ » . (البيان والتبيين ٢ : ٤٦)

٣٥ — صورة أخرى

وروى أبو عليّ القالي هذه الخطبة بصورة أخرى ، وهما كهما :

عن يونس قال : وقف أعرابي في المسجد الجامع في البصرة فقال :

« قَلَّ النَّيْلُ ، وَنَقَصَ الْكَيْلُ ، وَعَجِفَتِ^(٦) الخيَلُ ، والله ما أصبحنا ننفخ في وَضَحِ^(٧) ، وما لنا في الديوان وَشْمَةٌ^(٨) ، وإنا لِعِيَالٌ جَرَبَةٌ^(٩) ، فهل من مُعِين ، أعانه الله ، يُعِين ابن سبيل ، وَنِضْوَ طريق ، وفَلَّ سَنَةٍ ؟ فلا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت » . (الأمالي ٢ : ١٩٧)

(١) المير : العطية ، من قولهم : مارهم يعبرهم ميراً . (٢) السكاكير والقاهر : واحد ، وقد قرأ بعضهم (فَأَمَّا الَّتِي تَمَّ فَلَا تَكْهَرُ) .

(٣) أنضاء جمع نضو كقرد : وهو المهزول ، أي قد هزلنا وأصنانا ساوك الماريق .

(٤) السنة : الجلبد والقحط ، وقوم قل : منهزمون ، واجمع فلول وأفلال ، أي هزلنا والقحط .

(٥) الحزازة : وجع في القلب من غيظ ونحوه . (٦) هزلت . (٧) للوضوح : اللبن ، سمى

وضحاً لبياضه . (٨) اللوشمة : مثل الوشم في الذراع ، يريد الخط .

(٩) الجربة : الكثير ، أو العيال يأكلون ولا ينفعون .

٣٦ - صورة أخرى

ورواها صاحب العقد فقال : وقف أعرابي على حلقة يؤنس فقال :

« الحمد لله ، وأعوذ بالله ، أن أذكر به وأنساه ، إنا أناس قديمنا المدينة ثلاثون رجلاً لا ندفن ميتاً ولا نتحول من منزل وإن كرهناه ، فرحم الله عبداً تصدق على ابن سبيل ، ونضو طريق ، وفلّ سنة ، فإنه لا قليل من الأجر ، ولا غنى عن الله ، ولا عمل بعد الموت ، يقول الله عز وجل : (مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ الله قرضاً حسناً) إِنْ الله لا يستقرض من عوزٍ ، ولكن ليبلو خيار عباده » . (العقد الفريد ٢ : ٨٢)

٣٧ - أعرابي يستجدي

وقال المدائني : سمعت أعرابياً يسأل وهو يقول :

« رحم الله اسراً لم تَمِجْ أذناه كلامي ، وقَدَّم لنفسه معاذة^(١) من سوء مقامي ، فإن البلاد مُجْدبة ، والدار مُضَيَّعة ، والحال سيئة^(٢) ، والحياء زاجر ينهي عن كلامكم ، والعُدْم عاذرٌ يحملني على إخباركم ، والدعاة إحدى الصدقتين ، فرحم الله امرأ أمرَ بِمَيْمِرٍ^(٣) ، أو دعا بخير » ، فقال له بعض القوم : مِمَّن الرجل ؟ فقال : « مِمَّن لا تنفعكم معرفته ، ولا تضرّكم جهالته ، ذلُّ الاكتساب ، يمنع من عزِّ الانتساب » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢١٧ ، والعقد الفريد ٢ : ٨١ ، والأمال ١ : ١٣٨)

٣٨ - أعرابي يستجدي

وقال الأصمعي : أصابت الأعراب أعوام جذبة وشدة وجهد ، فدخلت طائفة منهم البصرة وبين يديهم أعرابي وهو يقول :

« أيها الناس ، إخوانكم في الدين ، وشركاؤكم في الإسلام ، عَابِرُو سبيل ،

(١) المعاذة والمعاذ والعياذ : الالتجاء . (٢) وفي الأمال : « والحال مسغبة ، أي مجيبة .

(٣) مار عياله ميراً : جلب لهم الميرة (بالكسر) وهي الطعام ، وفي المعتمد : « فرحم الله امرأ ميمير ،

وداعياً ميمير » .

وأَفْلالُ بُؤْسٍ ، وَصَرَعِي جَدْبٍ ، تَنَابَعَتِ عَلَيْنَا سِنُونُ ثَلَاثَةٌ ، غَبَرَتْ^(١) النَّعَمُ ، وَأَهْلَكَتِ النَّعَمُ ، فَأَكَلْنَا مَا بَقِيَ مِنْ جُلُودِهَا فَوْقَ عِظَامِهَا ، فَلَمْ نَزَلْ نَعْلَلُ بِذَلِكَ أَنْفُسَنَا ، وَنَمْتَنَّى بِالْفَيْثِ قُلُوبَنَا ، حَتَّى عَادَ مُخْنَأَ عِظَامًا ، وَعَادَ إِشْرَاقَنَا ظِلَامًا ، وَأَقْبَلْنَا إِلَيْكُمْ يَصْرَعُنَا الْوَعْرُ ، وَيُكِنِّنَا^(٢) السَّهْلُ ، وَهَذِهِ آثَارُ مَصَائِبِنَا لِأَمْحَةٍ فِي سِمَاتِنَا ، فَرَحِمَ اللَّهُ مُتَصَدِّقًا مِنْ كَثِيرٍ ، وَمُوَاسِيًّا مِنْ قَلِيلٍ ، فَلَقَدْ عَظُمَتِ الْحَاجَةُ ، وَكَسَفَ الْبَالُ ، وَبَلَغَ الْجُهْدُ ، وَاللَّهُ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ .

٣٩ - أعرابي يستجدي

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : كُنْتُ فِي حَلَقَةٍ بِالْبَصْرَةِ إِذْ وَقَفَ عَلَيْنَا أَعْرَابِي سَائِلًا ، فَقَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ الْفَقْرَ يَهْتِكُ الْحِجَابَ ، وَيُبْرِزُ الْكَعَابَ^(٣) ، وَقَدْ حَمَلَتْنَا سِنُونُ الْمَصَائِبِ ، وَنَسَكَبَتِ الدَّهْورُ ، عَلَى مَرْكَبِهَا الْوَعْرُ ، فَوَاسُوا أَبَا أَيْتَامٍ ، وَنِضْوَ زَمَانٍ ، وَطَرِيدَ فَاقَةٍ ، وَطَرِيحَ هَلَكَةٍ ، رَحِمَكُمُ اللَّهُ . »

٤٠ - أعرابي يستجدي

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : وَقَفَ أَعْرَابِي عَلَيْنَا فَقَالَ : « يَا قَوْمُ : تَنَابَعَتِ عَلَيْنَا سِنُونُ بِتَغْيِيرٍ وَانْتِقَاصٍ ، فَمَا تَرَكْتُ لَنَا هُبْعًا وَلَا رُبْعًا^(٤) ، وَلَا عَافِطَةً ، وَلَا نَافِطَةً^(٥) ، وَلَا نَائِغِيَّةً وَلَا رَاغِبَةً ، فَأَمَاتَتِ الزَّرْعُ ، وَقَتَلَتِ الصَّرْعُ ، وَعِنْدَكُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ فَضْلُ نِعْمَةٍ ، فَأَعِينُونِي مِنْ عَطِيَّةٍ مَا آتَاكُمْ اللَّهُ ، وَارْحَمُوا أَبَا أَيْتَامٍ ، وَنِضْوَ زَمَانٍ ، فَلَقَدْ خَلَقْتُ أَقْوَامًا يَمْرَضُونَ وَلَا يَكْفَنُونَ مَيِّتَهُمْ ، وَلَا يَنْتَقِلُونَ مِنْ مَنْزِلٍ ، وَإِنْ كَرِهَوْهُ ، وَلَقَدْ مَشَيْتُ حَتَّى انْتَعَلْتُ الدَّمَاءَ ، وَجُعْتُ حَتَّى أَكَلْتُ التَّرَى . »

(١) غَبَرَهُ لَطِخُهُ بِالْغُبَارِ : أَوْ هِيَ « غَبَرَتْ » بِالْيَاءِ . (٢) أَيْ يَسْتَرِنَا . (٣) جَارِيَةُ كَعَابٍ : نَهْدُ ثَدْيِهَا .

(٤) الْهَبِيعُ : الْفَصِيلُ يَنْتِجُ فِي آخِرِ الشَّجَارِ ، وَالرَّبِيعُ : الْفَصِيلُ يَنْتِجُ فِي الرَّبِيعِ ، وَهُوَ أَوَّلُ النَّتِاجِ .

(٥) النَّافِطَةُ : النَّعْجَةُ ، مِنْ الْغَفْطِ : وَهُوَ الضَّرْطُ ، فَطَلَتْ كَضَرْبٍ : ضَرَطَتْ فَهِيَ عَافِطَةٌ ، وَالْعَفْطُ

أَيْضًا : نَثِيرُ الصَّغَانِ تَنْثَرُ بِأَفْوَاهِهَا يَنْثَرُ الْخَمَارُ ، وَالنَّافِطَةُ : الْعِزْزُ ، مِنْ النَّفْطِ ، نَفَطْتُ الْعِزْزَ كَضَرْبٍ : نَثَرْتُ بِأَنْفِهَا أَوْ عَطَسَتْ فَهِيَ نَافِطَةٌ ، أَوْ لِأَنَّهَا تَنْفُطُ بِيُولِهَا : أَيْ تَدْفَعُهُ دَفْعًا ، أَوْ النَّافِطَةُ إِنِّجَاعٌ لِلْعَافِطَةِ ، أَوْ

الْعَافِطَةُ : الْأُمَةُ الرَّاعِيَةُ ، وَالنَّافِطَةُ : الشَّاةُ .

٤١ - أعرابية تستجدي

وقال الأصمى : وقفت أعرابية فقالت :

« يا قوم سَنَّة جَرَدَتْ ، وأَيْدٍ جُمِدَتْ ، وحال جَهَدَتْ ^(١) ، فهل من فاعِلٍ لخير ،
وَأَمْرٍ بِمَيْرٍ ؟ رَحِمَ اللهُ مَنْ رَحِمَ ، فَأَقْرَضَ مِنْ لَا يَظْلَمُ . »

(المقد الفريد ٢ : ٨٠ - ٨٤)

٤٢ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي بقوم فقال :

« أَشْكُو إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمَلَأُ زَمَانًا ، كَلَّحَ فِي وَجْهِهِ ، وَأَنَاخَ عَلَى بِكَاكِلِهِ ، بعد
نعمة من المال ، وَثَرَوَةَ مِنْ الْمَالِ ، وَغَبِطَةَ مِنْ الْحَالِ ، اعْتَوَرْتَنِي جَدَائِدُهُ ^(٢) ، بَنَبِلَ
مِصَابِيهِ ، عَنْ قِسِيَّ نَوَائِبِهِ ، فَمَا تَرَكَ لِي ثَاغِيَةً ^(٣) أُجْتَدِي ضَرْعَهَا ، وَلَا رَاغِيَةً أُرْتَجَى
نَفْعُهَا ، فهل فيكم مِنْ مُعِينٍ عَلَى صَرْفِهِ ، أَوْ مُعَدٍّ ^(٤) عَلَى حَتْفِهِ ؟ » ، فرد القوم عليه ،
ولم يُنِيلُوهُ شَيْئًا ، فَأَنْشَأَ يَقُول :

قد ضاع من يأكل من أمثالكم جوداً ، وليس الجود من فعالكم
لا بارك الله لكم في مالكم ولا أزاح السوء عن عيالكم
فالفقر خيرٌ من صلاح حالكم

٤٣ - أعرابي يستجدي

وَسَمِعَ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ وَهُوَ يَقُول :

« يَا قَوْمَ تَصَدَّقُوا عَلَى شَيْخٍ مُعِيلٍ ، وَعَابِرٍ سَبِيلٍ ، شَهِدَ لَهُ ظَاهِرُهُ ، وَسَمِعَ شَكْوَاهُ

(١) جهده المرض كنع : هزله .

(٢) سنة جداء : محلة مجذبة ، والجداء من كل حلوبة : الذاهبة اللبن من هيب ، والجدودة :
القليلة اللبن من غير هيب ، والجمع جدائد وجداد . (٣) الثاغية : الشاة من الثغاء بالضم ، وهي صوت
الغنم ، والراغية : الناقة ، من الرغاء ، وهو صوت الإبل .

(٤) مدين ، أعداه عليه : نصره وأعلنه وقواه .

خالقه ، بَدَنُهُ مطلوب ، وثوبه مسلوب » ، فقال له : من أنت ؟ قال : رجل من بني سعد في دِيْقَةٍ لَزِمَتْنِي ، قال : فكم هي ؟ قال : مائة بعير ، قال : دُونَكُمَا في بطن الوادي .
(العقد الفريد ٢ : ٨٢ - ٨٣)

٤٤ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي على قوم فقال :
« إِنَّا - رَحِمَكُمُ اللهُ - أبناء سبيل ، وأنضَاء طريق وقاسية^(١) ، رحم الله امرأاً أعطى من سعة ، ووَاسَى من كفاف » .
فأعطاه رجل درهما فقال : « آجَرَكَ اللهُ من غير أن يَبْتَلِيكَ » .

٤٥ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي بقوم فقال :
« يا قوم : تتابعت علينا سِنُونُ جَمَادٍ^(٢) شِدَاد ، لم يكن للسماء فيها رَجْعٌ^(٣) ، ولا للأرض فيها صَدْعٌ^(٤) ، فَنَضَبَ الْعِدُّ^(٥) ، وَنَشِفَ الْوَشْلُ ، وَأَخْلَ الْخِصْبُ ، وَكَلَحَ الْجَذْبُ ، وَشَفَّ^(٦) الْمَالُ ، وَكَسَفَ الْبَالُ ، وَشَطَفَ الْمَعَاشُ ، وَذَهَبَ الرِّيشُ ، وطرحتني الأيام إليكم غريبَ الدار ، نَأَى الْحُلَى ، ليس لي مالٌ أَرْجِعُ إليه ، ولا عشيرة أُلْحِقُ بها ، فَارْحَمِ اللهُ امرأاً رَحِمَ اغترابي ، وجعل المعروف جوابي » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٠)

(١) أي وحال قاسية ، وربما كان الأصل « وقل سنة » . (٢) الجُمَاد : السنة التي لا مطر فيها .
(٣) الرجوع : المطر ، لعوده كل حين . (٤) أي انشقاق عن النبات ، اقتبسه من الآية الكريمة :
(وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّدْعِ)

(٥) العِد : الماء الجاري الذي له مادة لا تنقطع كما العين ، ونضب الماء : غار ، والوشل : الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ، ولا يتصل قطره ، ونشف الماء في الأرض : ذهب . ونشف الخوض الماء شربه . وأخل : أجاب .

(٦) شف : رق ، والشطف بالتحريك : يمس العيش وشده ، والرياش : المال والخصب والمعاش

٤٦ — أعرابية تستجدى

وخرج المهدي يطوف بعد هداة^(١) من الليل ، فَسَمِعَ أعرابية من جانب المسجد ، وهي تقول :

« قوم متظلمون ، نَبَتَ^(٢) عنهم العيونُ ، وَفَدَحَتَهُمُ الديونُ ، وَعَضَّتَهُمُ السَّنُونُ ،
بادت رجالهم ، وزهبت أموالهم ، وكثر عيالهم ، أبناء سبيل ، وأنضاء طريق ، وَصِيَّةُ الله
وَوَصِيَّةُ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فهل من امرئٍ يجير ؟ كَلَّاهُ الله في سَفَرِهِ ،
وَحَلَفَهُ في أهله » .

فأمر نُصَيْرًا الخادم ، فدفع إليها خمسمائة درهم .

(العقد الفريد ٢ : ٨٠ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

٤٧ — أعرابي يستجدى

ووقف أعرابي في شهر رمضان على قوم فقال :

« يا قوم : لقد خَتَمَتْ هذه الفريضةُ على أفواهنا من صُبْحِ أمس ، ومعى بُتْنان لي ،
والله ما عَلِمْتُهما تَحَلَّتَا بِحِلَالٍ ، فهل رجل كريم يَرْحَمُ اليومَ مَقَامَنَا ، ويرد حُشَاشَتَنَا^(٣) ؟
مَنَعَهُ الله أن يقوم مَقَامَهُ ، فَإِنَّهُ مقام ذُلٍ وعار وَصَغَارٍ » .

فافترق القوم ولم يعطوه شيئاً ، فالتفت إليهم حتى تأملهم جميعاً ، ثم قال :

« أَشَدُّ والله عَلَى من سُوءِ حَالِي وفاقتي ، توهُمِي فيكم المَوَاسَاةَ ، أَنْتَعَلُوا الطريق ،

(العقد الفريد ٢ : ٨٢)

لا صَحْبَكُمْ الله ! » .

(١) أى حين هدا الليل ، أو هو أول الليل إلى ثلثه .

(٢) اقتحمهم وازدوتهم ، وفدحتهم : أثقلتهم .

(٣) الحشاشة : بقية الروح في المريض ، والصغار : الذل .

٤٨ - أعرابي يستجدي

وقام أعرابي ليسأل فقال :

« أين الوجوه الصُّباح^(١) ، والعقول الصُّحاح ، والألسُنُ الفِصاح ، والأنساب

الصُّراح^(٢) ، والمكارم الرِّياح ، والصدور الفِصاح ؟ تُعيذني من مَقَامِي هذا » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٢)

٤٩ - أعرابي يستجدي

ودعا أعرابي في طريق مكة فقال :

« هل من عائدٍ بفضْل ، أو مؤاسٍ من كفاف؟^(٣) » ، فأُمسِكَ عنه فقال :

« اللهم لا تَكِلْنَا إلى أنفسنا فنعجزَ ، ولا إلى الناس فنَضِيع » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٤)

٥٠ - أعرابي يستجدي

وقف أعرابي فسأل قوماً فقالوا له : عليك بالصَّيارفة ، قال : هُنَاكَ وَاللَّهِ قَرَارَةُ اللُّؤْم !

(البيان والتبيين ٢ : ٤٨)

٥١ - أعرابي يستجدي

وسأل أعرابي ناساً فقال : « جعل الله حَظَّكُمْ في الخير ، ولا جعل حَظَّ السَّائِل

منكم عِذْرَةً^(٤) صادقة » .

(البيان والتبيين ١ : ٢١٥)

٥٢ - أعرابي يستجدي

وسأل أعرابي ، فقال له صبي من جوف الدار : « بُورِكَ فَيْكَ » ، فقال : قَبَّحَ اللهُ

هذا الْقَمَمَ ، لقد تعلمَ الشرَّ صغيراً » .

(البيان والتبيين ٣ : ١٢٦)

(١) جمع صبيحة: وهي الجميلة من الصبابة كفضاحة أى الجمال . (٢) جمع صريحة: وهي الحصة الخالصة.

(٣) الكفاف من الرزق : ما كف عن الناس وأغنى . (٤) العذرة : اسم من العذر .

٥٣ - أعرابي يستجدي

ووقف أعرابي على قوم فنمعه ، فقال :

« اللهم اشغلنا بذكرك ، وأعِزنا من سُخْطِكَ ، وأولِجنا إلى عفوك ، فقد ضَنَّ
خَلْقُكَ برزقك ، فلا تَشْغَلْنَا بما عندهم عن طلب ما عندك ، وآتِنَا من الدنيَةِ
القُنْمان^(١) ، وإن كان كثيرها يُسْخِطُكَ ، فلا خيرَ فيما يُسْخِطُكَ » .

(البيان والعيان ٣ : ٢٢٤)

٥٤ - أعرابي يستجدي

وقال أبو الحسن : وقف علينا أعرابي فقال :

« أخ في كتاب الله ، وجار في بلاد الله ، وطالبُ خيرٍ من رزق الله ، فهل فيكم
من مؤاسٍ في الله » .

وسأل أعرابي رجلا ، فاعتلّ عليه فقال : « إن كنت كاذبًا ، فجعلك الله صادقًا » .

(المقد الفريد ٢ : ٨٤)

٥٥ - أعرابي يسأل رجلا حاجة له

أتى أعرابي رجلا (لم تكن بينه وبينه حرمة) في حاجة له ، فقال :

« إني امتطيتُ إليك الرجاء ، وسِرْتُ على الأمل ، ووفدْتُ بالشكر ، وتوسَّلْتُ
بحسن الظن ، فحقَّقَ الأمل ، وأَحْسِنِ المُنُوبَةَ ، وأَكْرِمِ القَصْدَ ، وأَتِمِّمِ الودَّ ،

وَعَجِّلِ المُرَادَ » . (المقد الفريد ٢ : ٨٢ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦٥)

قولهم في بكاء الموتي

٥٦ — أعرابية نبكى ابنها

وَحَجَّتْ أَعْرَابِيَّةٌ وَمَعَهَا ابْنٌ لَهَا فَأَصِيبَتْ بِهِ ، فَلَمَّا دُفِنَ قَامَتْ عَلَى قَبْرِهِ وَهِيَ وَجِعَةٌ فَقَالَتْ :

« وَاللَّهِ يَا بُنَيَّ لَقَدْ غَذَوْتُكَ رَضِيعًا ، وَقَفَدْتُكَ سَرِيعًا ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَالَيْنِ مَدَّةٌ أَلْتَدُّ بِمِيشِكَ فِيهَا ، فَأَصْبَحْتَ بَعْدَ النَّضَارَةِ وَالْفَضَارَةِ ^(١) ، وَرَوْنَقِ الْحَيَاةِ ، وَالتَّنَشُّمِ فِي طِيبِ رَوَائِحِهَا ، تَحْتَ أَطْبَاقِ الثَّرَى جَسَدًا هَامِدًا ، وَرُفَاتًا سَحِيقًا ، وَصَعِيدًا جُرْزًا ^(٢) .

أَيُّ بُنَيَّ لَقَدْ سَحَبْتَ الدُّنْيَا عَلَيْكَ أَذْيَالَ الْفَنَاءِ ، وَأَسْكَنْتَكَ دَارَ الْبَلَى ، وَرَمَنْتَنِي بِعَدْلِكَ نَكْبَةَ الرَّدَى ، أَيُّ بُنَيَّ لَقَدْ أَسْفَرَ لِي عَنْ وَجْهِ الدُّنْيَا صَبَاحُ دَاجٍ ظَلَامُهُ ^(٣) ، ثُمَّ قَالَتْ :

أَيُّ رَبِّ ، وَمِنْكَ الْعَدْلُ ، وَمِنْ خَلْقِكَ الْجَوْرُ ، وَهَبْتَنِي لِي قُرَّةَ عَيْنٍ ، فَلَمْ تَمْتَنِعْنِي بِهِ كَثِيرًا ، بَلْ سَلَبْتَنِيهِ وَشَيْكًا ^(٤) ، ثُمَّ أَمَرْتَنِي بِالصَّبْرِ ، وَوَعَدْتَنِي عَلَيْهِ الْأَجْرَ ، فَصَدَقْتُ وَعْدَكَ ، وَرَضِيتُ قَضَاءَكَ ، فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ تَرَحَّمَ عَلَيَّ مِنْ أَسْتَوْدَعْتُهُ الرَّدْمَ ^(٥) ، وَوَسَدْتُهُ الثَّرَى ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ غُرْبَتَهُ ، وَآلِسْ وَحْشَتَهُ ، وَأَسْتَرْعِزْ رَتَهُ ، يَوْمَ تَنْكَشِفُ الْهَنَاتُ ^(٦) وَالسَّوْءَاتُ .

(١) النضارة : النعمة والحسن والنفى ، والفضارة أيضاً : النعمة والسعة والخصب :

(٢) أطباق جمع طبق : وهو وجه الأرض ، والرفات : الحطام ، وسحيقاً : مسحوقاً ، والصعيد : التراب ، أو وجه الأرض وأرض جرز : لاتنبت ، أو أكل نباتها ، أو لم يصيبها مطر .

(٣) أسفر الصبح وسفر كضرب : أضاء وأشرف ، داج : قال الأصمعي : دجا الليل ، إنما هو ألبس كل شيء ، وليس هو من الظلمة ، قال : ومنه قولهم : دجا الإسلام أى قوى ، وألبس كل شيء .

(٤) سريعاً . (٥) الردم ، السد ، وما يسقط من الجدار المنهدم . (٦) السيئات .

فلما أرادت الرجوع إلى أهلها وقفت على قبره فقالت :

أى بنى : إني قد تزودت لسفري ، فليت شعري ، ما زادك لبعُد طريقك ،
ويوم معادك ! اللهم إني أسألك له الرضا برضاى عنه ، ثم قالت :

استودعتك من استودعتك في أحشائي جنيئاً ، وائكل الوالدات !
ما أَمْضَ^(١) حرارة قلوبهن ، وأقلق مضاجعهن ، وأطول ليلهن ، وأقصر نهارهن ،
وأقل أنسهن ، وأشدَّ وحشتهن ، وأبعدهن من السرور ، وأقربهن من الأحزان .
فلم تزل تقول هذا ونحوه ، حتى أبكت كل من سمعها ، وحديث الله عز وجل ،
وأسترجعت وصات ركعات عند قبره وانطلقت . (زمر الآداب : ٢ : ٧)

٥٧ — حديث امرأة سكنت البادية قريباً من قبور أهلها

وروى أبو علي القالى : عن عبد الرحمن عن عمه قال :

« دَفَعْتُ يوماً في تَهْشِي بالبادية إلى وادٍ خَلَاءَ لَا أُنِيسَ بِهِ إِلَّا بَيْتَ مُعْتَبِرٍ^(٢) ،
بِفَنَائِهِ أَعْزُ ، وقد ظَمِئْتُ فَيَمَّمْتُهُ ، فسَلَّمْتُ فإذا عجوزٌ قد بَرَزَتْ ، كأنها نَعَامَةٌ
رَاحِمٌ^(٣) ، فقالت : هل من ماء ؟ فقالت : أَوْ لَبَنٌ ، فقلت : ما كانت بُعِثِي إِلَّا للماء ،
فإذا يَسَّرَ اللهُ اللَّبَنَ فَإِنِّي إِلَيْهِ فَقِيرٌ ، فقامت إلى قَعْبٍ^(٤) فأفرغت فيه ماءً ، وَنَظَّفَتْ
غَسَلَهُ ، ثم جاءت إلى الأَعْزُ ، فتَغَبَّرَ^(٥) حتى احتلبت قُرَابَ^(٦) مِلءِ القَعْبِ ،
ثم أفرغت عليه ماء حتى رغا وَطَفَّتْ مِمَّا لَعَهُ^(٧) ، كأنها غَمَامَةٌ بِيضَاءَ ، ثم ناولتني إِيَّاهُ ،
فشربت حتى تَجَبَّيْتُ^(٨) رِيًّا واطْمَأْنَنْتُ ، فقالت :

(١) مضى الشيء : بلغ من قلبه الحزن به كأنضه .

(٢) منفرد . (٣) الراحم : التي تحضن بيضها ، أرخت الدجاجة على بيضها ورخته ، ورخت عليه

فهي سرع وراحم . (٤) القعب : قدح إلى الصفر ، ويشبه به الحافر .

(٥) أى احتلبت القبر (كقفل) : وهى بقية اللبن في الضرع ، وجمعه أغبار .

(٦) قراب وقریب واحد ، مثل كبار وكبير وجمام وجسيم .

(٧) المثالة : للزوجة وهى مثلة الرأه . (٨) امتلأت . (٢) امتلأت .

إني أراك معتزة في هذا الوادي الموحش ، والحلة^(١) منك قريب ، فلو انضمت
إلى جنابهم فأنست بهم ! فقالت :

« يابن أخي ، إني لآنس بالوحشة ، وأستريح إلى الوحدة ، ويطمن قلبي إلى هذا
الوادي الموحش ، فأتذكر من عهدت ، فكأنني أخاطب أعيانهم ، وأترأى أشباحهم^(٢)
وتتخيل لي أندية رجالهم ، وملاعب ولدانهم ، ومندى أموالهم ، والله يابن أخي
لقد رأيت هذا الوادي بشع اللديدين^(٣) بأهل أدواح وقباب ، ونعم كاهضاب ،
وخيل كالذئاب ، وفتيان كالرماح ، يبارون الرياح ، ويحمون الصباح^(٤) فأحال عليهم
الجللاء قسا بغرفة^(٥) فأصبحت الآثار دارة ، والمحال طامسة ، وكذلك سيرة
الدهر فيمن وثق به » .

ثم قالت : ارم بعينك في هذا الملا المتباطن^(٦) ، فنظرت فإذا قبور نحو أربعين
أو خمسين ، فقالت : ألا ترى تلك الأجداث ؟ قالت نعم ، قالت : ما انطوت إلا على
أخ أو ابن أخ ، أو عم أو ابن عم ، فأصبحوا قد ألتأت^(٧) عليهم الأرض ،
وأنا أترقب ما غلهم ، انصرف راشداً راحك الله . (الامال ٢ : ٧)

٥٨ — حديث امرأة مات ابنها بين يديها

عن عبد الرحمن عن عمه قال : دخلت على امرأة من العرب بأعلى الأرض
في خيأها لها ، وبين يديها بُنى لها ، قد نزل به الموت ، فقامت إليه فأغضته وعصبتة
وسجته^(٨) ، ثم قالت :

-
- (١) الحلة : جماعة بيوت الناس والجمع حلال ككتاب . (٢) أشخاصهم جمع شبح كشمس وسهب .
(٣) الغنية : أن يورد الرجل إبله ، ثم يرعاها ، ثم يوردها ، ثم يرعاها ، والمندى : المكان الذي
يندى فيه المال . (٤) بشع : ملائكة ، اللديدان : الحائبان ، والدوحة : الشجرة العظيمة .
(٥) الصباح جمع صبيحة : وهي الجميلة من الصباحة كحابة : الجمال .
(٦) قم البيت قا : كنمه والمقمة : المكينة ، والقامة : الكناية ، والغرفة الواحدة من
الغرف : وهي ضرب من الشجر . (٧) الملا : الفضاء ، والمتباطن : المتطامن .
(٨) أي احتوت عايجهم ، وغالهم : أهلكتهم . (٩) تسجية الميت : قنطية .

« يا ابن أخي ، قلت : ما تشائين ؟ قالت : ما أحقَّ من ألبس النعمة ، وأطيلت له النظرة ^(١) ، أن لا يدع التوثق من نفسه ، قبل حل عُقدته ^(٢) ، والحلول بمقوته ^(٣) ، وللحال بينه وبين نفسه » ، قال : وما يقطر من عينها قطرة صبراً واحتساباً ، ثم نظرت إليه فقالت : والله ما كان مالك لبطنك ، ولا أمرك لمرزبك ^(٤) ، ثم أنشدت تقول :
 رَحِيبُ الذراعِ بالتي لا تشينهُ وإن كانت الفحشاء ضاقَ بها ذرعاً ^(٥)
 (الأمال ٢ : ٢٨٢ ، والبيان والتهيين ٣ : ٢٣١)

قولهم في الشكوى

٥٩ - أعرابي يشكو حاله

عن عبد الرحمن عن عمه قال :

« قَدِمَ علينا البصرة رجل من أهل البادية شيخ كبير ، فقصدته فوجدته يخضب لحيته ، فقال : ما حاجتك ؟ فقلت : بلغني ما خصك الله به ، فجتتك أفتيس من علمك ، فقال : أتيتني وأنا أخضب ، وإن الخضاب لمن علامات الكبر ، وطال والله ما غدتُ على صيد الوحوش ، ومشيتُ أمام الجيوش ، واختلتُ بالرداء ، وهوتُ ^(٦) بالنساء ، وقريت الضيف ، وأرويت السيف ، وشربت الرّاح ، ونادمت الجحجّاح ^(٧) ، فاليوم قد حنّاني الكبر ، وضعف مني البصر ، وجاء بعد الصفو الكدر ، ثم قبض على لحيته ، وأنشأ يقول :

شَيْبٌ تُغَيِّبُهُ كَيْمَا تَقْرَأُ بِهِ كَبَيْعُكَ الثَّوْبَ مَطْوِيًّا عَلَى حَرَقٍ
 قَدْ كُنْتُ كَالْفُصْنِ تَرْتَاحُ الرِّيحُ لَهُ فَصِرْتُ عُوْدًا بِلَا مَاءٍ وَلَا وَرَقٍ

(١) النظرة : الإهمال . (٢) كناية عن الموت .

(٣) المقوة : الحلة ، أي بقبه . (٤) العرس : امرأة الرجل .

(٥) ضاق بالأمر ذرعاً : ضعفت طاقته ، ولم يجد من المكره فيه مخلصاً .

(٦) هوت به : فرحت به . (٧) الجحجّاح : السيد .

صبراً على الدهر ، إن الدهر ذو غَيْرٍ وأهلُه منه بين الصفو والرتق^(١)
(الأمال ٢ : ٩٤)

٦- كلمات شتى في الشكوى

قيل لأعرابية أصيبت بابنها : ما أحسنَ عَزَاءكِ ! قالت : « إن فَقْدِي إِيَاهُ أَمْنِي
كلَّ فَقْدٍ سِوَاهُ ، وإن مصيبتِي به هَوْنَتْ عَلَى المصَائِبِ بعده » ، ثم أنشأت تقول :
مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلْيَمُتْ فَعَلَيْكَ كُنْتُ أَحَازِرُ
لَيْتَ الْمَنَازِلَ وَالْدِّيَا رَ حَفَاثَرُ وَمَقَابِرُ

* * *

وقيل لأعرابي : كيف حزنك على ولدك ؟ قال « ماتركَ هُمُ الغَدَاءَ والعِشَاءَ
لِي حُزْنًا » .

* * *

وقيل لأعرابي : ما أَنَحَلَ جِسْمَكَ ؟ قال : « سِوَهُ الغِدَاءِ ، وَجُدُوبَةُ المُرْعَى ،
واختلاف المموم في صَدْرِي » ، ثم أنشأ يقول :
الهُمُّ مَالِمَ تَمُضِ لَسِيلُهُ دَالِمَ تَضَمَّنَهُ الضُلُوعُ عَظِيمُ
وَلَرُبَّمَا اسْتِيَأَسْتُ ثُمَّ أَقُولُ : لَا إِنِ الذِّي صَمِنَ النِّجَاحَ كَرِيمُ

* * *

وقيل لأعرابي قد أخذ به السِّنُّ : كيف أصبحت ؟ قال : « أَصْبَحْتُ تَقِيدُنِي
الشَّعْرَةُ ، وَأَعَثُرُنِي البُعْرَةُ ، قد أقام الدهر صَعْرِي ، بعد أن أَقَمْتُ صَعْرَهُ » .

* * *

وقال أعرابي : « لقد كنتُ أنكرُ البيضاء ، فصيرتُ أنكرُ السوداء ، فيا خير مبدول ، ويا شرَّ بَدَل ! » .

* * *

وذكر أعرابي منزلاً بَادَ أَهْلُهُ فقال : « مَنَزِلٌ وَاللَّهِ رَحِلَتْ عَنْهُ رَبَّاتُ الْخُدُورِ ، وَأَقَامَتْ فِيهِ رَوَاحِلُ^(١) الْقُدُورِ ، وَقَدْ اكْتَسَى بِالنَّبَاتِ كَأَنَّمَا أَلْبَسَ الْخُلَلِ ، وَكَانَ أَهْلُهُ يَعْفُونَ^(٢) فِيهِ آثَارَ الرِّيحِ ، وَأَصْبَحَتْ الرِّيحُ تَعْفُو آثَارَهُمْ ، فَالْعَهْدُ قَرِيبٌ ، وَالْمُلْتَقَى بَعِيدٌ » .

* * *

وذكر أعرابي قوماً تغيرت أحوالهم فقال : « أَعْيُنُ وَاللَّهِ كُحِلَتْ بِالْعَبْرَةِ بَعْدَ الْحَبْرَةِ^(٣) ، وَأَنْفُسٌ لَبِسَتْ الْحَزْنَ بَعْدَ السُّرُورِ » .

* * *

وذكر أعرابي قوماً تغيرت حالهم فقال : « كَانُوا وَاللَّهِ فِي عَيْشٍ رَقِيقِ الْحَوَاشِي ، فَطَوَاهُ الدَّهْرُ بَعْدَ سَعَةٍ ، حَتَّى لَبَسُوا أَيْدِيَهُمْ مِنَ الْقُرْ^(٤) ، وَلَمْ أَرَّ صَاحِبًا أَغْرَّ مِنَ الدُّنْيَا ، وَلَا ظَالِمًا أَغْشَمَ^(٥) مِنَ الْمَوْتِ ، وَمَنْ عَصَفَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَرْذَايَاهُ^(٦) ، وَمَنْ وَكَّلَ بِهِ الْمَوْتَ أَفْنَاهُ » .

* * *

ووقف أعرابي على دار قد بادَ أَهْلُهَا فقال : « دَارٌ وَاللَّهِ مُعْتَصِرَةٌ لِلدَّمُوعِ ، حَطَّتْ بِهَا السَّحَابُ أَثْقَالَهَا ، وَجَرَّتْ بِهَا الرِّيحُ أَذْيَالَهَا » .

* * *

(١) الرِّوَا حِلُّ جَمْعُ رَاحِلَةٍ : وَهِيَ فِي الْأَصْلِ : النَّاقَةُ لِلصَّاحَةِ لِأَن تَرَحَّلَ ، وَالْمُرَادُ هُنَا الْحَوَامِلُ الَّتِي تَحْمِلُ الْقُدُورَ ، أَيْ الْأَثَافِي . (٢) عَفَا الْمَنْزِلُ : دَرَسَ ، وَعَفَتْهُ الرِّيحُ ، يَعْنِي وَيَلْزَمُ ، وَيَايَهُمَا عَدَا ، وَعَفَتْهُ الرِّيحُ أَيْضًا بِالتَّشْدِيدِ لِلْمُبَالَغَةِ . (٣) الْحَبْرَةُ : السُّرُورُ . (٤) الْقُرْ مَثَلُ الْقَافِ : الْبَرْدُ . (٥) أَظْلَمَ . (٦) أَهْلَكَاهُ .

وذكر أعرابي رجلاً تغيرت حاله فقال : « طُوِيَتْ صِحْفَتُهُ ، وَذَهَبَ رِزْقُهُ ، فَالْبَلَاءُ مُسْرِعٌ إِلَيْهِ ، وَالْعَيْشُ عَنْهُ قَابِضٌ كَفِيَّةٌ » .

وذكر أعرابي رجلاً ضاق عيشه بعد سعة فقال : « كَانَ وَاللَّهِ فِي خِلِّ عَيْشٍ مَمْدُودٍ ، فَقَدِحَتْ عَلَيْهِ مِنَ الدَّهْرِ زَنْدٌ غَيْرُ كَابِيَّةٍ ^(١) » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ - ٨٠)

وذكر أعرابي مصيبة نالته ، فقال : « مُصِيبَةٌ وَاللَّهِ تَرَكْتُ سُودَ الرُّؤُوسِ بَيْضًا ، وَبَيْضَ الْوُجُوهِ سُودًا ، وَهَوَّنَتِ الْمَصَائِبَ بَعْدَهَا » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٥)

وذكر أعرابي قطيعة بعض إخوانه فقال : « صَفِرَتْ عِيَابٌ ^(٢) الْوُدَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ بَعْدَ امْتِلَائِهَا ، وَأَقْفَرَتْ وَجُوهُ كَانَتْ بِمَائِهَا ، فَأَذْبَرُ مَا كَانَ مُقْبِلًا ، وَأَقْبَلَ مَا كَانَ مَدْبِرًا » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٤)

وقيل لأعرابي : ما أذهب شبابك ؟ قال : « مِنْ طَالَ أَمَدُهُ ، وَكَثُرَ وَلَدُهُ ، وَدَفَّ عَدَدُهُ ، وَذَهَبَ جَلَدُهُ ذَهَبَ شَبَابُهُ » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٩ ، والبيان والعبين ٢ : ٥٧)

وسئل أعرابي عن سفر أكْدَى ^(٣) فيه ، فقال : « مَا غَنِمْنَا إِلَّا مَا قَصَرْنَا فِي صَلَاتِنَا ، فَأَمَّا مَا أَكَلْتَهُ الْهَوَاجِرُ ^(٤) ، وَلَقِيْتَهُ مِنَ الْأَبَاعِرِ ، فَأَمَرْتُ اسْتَخْفَفْنَاهُ لِمَا أَمْلَنَاهُ » .

(١) الزند : الدود الذي يقذف به النار ، وكبنا الزند : لم يخرج ناره ، وفي الأصل « زند عين كابية » وهو تحريف . (٢) صفرت : خلت ، وعياب جمع « حبة بالفتح » ما يجعل فيه العياب . (٣) أصله من « حفر فأكدى » أى صادف السكدية - والسكدية كفوصة : الأرض المليظة ، و« أملة العظيمة الشديدة » . (٤) الهواجر جمع هاجرة ، وهى شدة الحر .

وقالت امرأة من الأعراب : « أصبحنا ما يرقد لنا فرس ، وما ينام لنا حرس » .
(البيان والبيان ٢ : ٨٢)

* * *

وقال أعرابي « مضى لنا سلفٌ أهل تَوَاصُل ، اعتقدوا^(١) مِنَّا ، واتخذوا الأيادي
ذخيرةً لمن بعدهم ، يَرَوْنَ اصطناعَ المعروف عليهم فرضاً لازماً ، وإظهارَ البرِّ واجباً ، ثم
جاء الزمان بينين ، اتخذوا مِنّهم بضاعة ، وبرّهم مُرابحة^(٢) ، وأياديهم تجارة ، واصطناعَ
المعروف مُقَارضةً ، كنقديّ ، خذُ مني وهاتِ » .

* * *

وقيل لأعرابي في مرضه : ما تشكى ؟ قال : « تمام العِدَّة ، وانقضاء المدة » .

* * *

ونظر أعرابي إلى رجل يشكو ما هو فيه من الضيق والضرّ فقال : « يا هذا :
أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ؟ » .
(العقد الفريد ٢ : ٨٥)

* * *

ووصف أعرابي الدنيا فقال : « هي رَنَقَة^(٣) المشارب ، جَمَّة المصائب ، لا تُمتَّعك
الدهرَ بصاحب » .

* * *

وقال أعرابي :- « حَسْبُكَ من فساد الدنيا أنك ترى أَسِنَّةً^(٤) تُوضَع ، وأخفافاً
تُزْفَع ، والخير يُطلَب عند غير أهله ، والفقير قد حلّ غير محله » .

(العقد الفريد ٢ : ٨٦)

* * *

(١) من اعتقد مالا ؛ اقتناه . (٢) رابحه على الملحة : أعطاه رجلاً .

(٣) كدرة . (٤) جمع سنام ، والمراد ما كان عالياً .

وقيل لأعرابي : كيف ابنك - وكان به عاقاً - قال : « عذابٌ لا يقاومه الصبر »
وقائدة لا يجب فيها الشكر ، فليفتي قد استودعته القبر^(١) . (المقد الفريد ٢ : ٩٧)

* * *

عن الأصمعي قال : قيل لأعرابي قديم الحضرة^(٢) ، ما أقدمك ؟ قال : « الحنين^(٣) ،
الذي يغطي العين » . (الأمال ١ : ٢٠٢)

* * *

وأصيب أعرابي بابن له ، فقال وقد قيل له أضرب : « أعلى الله أتجلد ، أم في مصيبتى
أتبلد ؟ والله للجزع من أمره أحبُّ إلى الآن من الصبر ، لأن الجزع استكانة ، والضرب
قساوة ، ولئن لم أجزع من النقص لم أفرح بالمزيد » . (زهر الآداب ٢ : ١٦٤)

* * *

وقيل لأعرابي : لم لا تضرب في الأرض ؟ فقال : « يمنعني من ذلك ، طفل
بارك ، ولصّ سانك ، ثم إنى لست بعد ذلك واثقاً بنجح طلبتي ، ولا معتقداً قضاء
حاجتي ، ولا راجياً عطف قرابتي ، لأنني أقدم على قوم أطغاهم الشيطان ، واستألمهم
السلطان ، وساعدهم الزمان ، وأسكروهم حدائنة الأسنان » .
(زهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

* * *

وقال بعض الأعراب : « نالنا ونسي^(٤) ، وخلفه وليّ ، فالأرض كأنها وشى^(٥) »

(١) الحضرة : خلاف البادية كالحضر بالعريك . (٢) الهلاك .

(٣) الوسى : مطر الربيع الأول ، والولى : المطر الذى يأتى بعد المطر .

(٤) الوشى : نقش الثوب ، والعبرى : المنقطع النظير ، نسبة إلى هجر ، موضع زعم العرب أنه من

أرض الجن ، ثم نسبوا إليه كل شيء تعجبوا من خلقه ، أو جودة صنعه .

عَبْقَرِيَّ ، ثُمَّ أَتْنَا غَيُومَ جَرَادٍ ، بِمَنَاجِلَ حَوَادٍ^(١) ، نَغْرَبُتِ الْبِلَادُ ، وَأَهْلُكْتَ الْعِبَادُ ، فَسَبْحَانِ مَنْ يُهْلِكُ الْقَوَىَّ الْأَكُولَ ، بِالضَّعِيفِ الْمَأْكُولِ .

(زهر الآداب ٣ : ٢٤٦)

٦١ - قولهم في العتاب والاعتذار

عاتب أعرابي أباه فقال : « يَا أَبَتِ ، إِنْ عَظِيمَ حَقِّكَ عَلَيَّ لَا يَذْهَبُ صَغِيرَ حَقِّي عَلَيْكَ ، وَالَّذِي تَمَّتْ بِهِ^(٢) إِلَى ، أُمْتُ مِثْلِهِ إِلَيْكَ ، وَلَسْتُ أَزْعِمُ أَنَا سَوَالًا ، وَلَكِنِّي أَقُولُ : لَا يَحِلُّ لَكَ الْاِعْتِدَاءُ . »

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، وزهر الآداب ٣ : ١٠٠)

* * *

وقال أعرابي لصديق استبطأه فَلَامَهُ : « كَانَتْ بِي إِلَيْكَ زَلَّةٌ يَمْنَعُنِي مِنْ ذِكْرِهَا مَا أَمَلْتُ مِنْ تَجَاوُزِكَ عَنْهَا ، وَلَيْسَ أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِنْهَا إِلَّا بِالْإِقْلَاعِ عَنْهَا . »

* * *

وقال آخر لابن عم له : « وَاللَّهِ مَا أَعْرِفُ تَقْصِيرًا فَأُقْلِعَ ، وَلَا ذَنْبًا فَأَعْتِبَ ، وَلَسْتُ أَقُولُ إِنَّكَ كَذَبْتَ ، وَلَا إِنِّي أَذْنَبْتُ . » (زهر الآداب ٣ : ١٦٣)

* * *

وقال آخر لابن عم له : « سَأَنْخَطِي ذَنْبَكَ إِلَى عُدْرِكَ ، وَإِنْ كُنْتُ مِنْ أَحَدِهِمَا عَلَى يَقِينٍ ، وَمَنْ الْآخِرُ عَلَى شَكٍّ ، وَلَكِنْ لَيْتِمُ الْمَعْرُوفُ مِنِّي إِلَيْكَ ، وَتَقُومَ الْحُجَّةُ لِي عَلَيْكَ . » (زهر الآداب ٣ : ١٦٤ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٥)

وَعَذَلَتْ أَعْرَابِيَّةُ أَبَاهَا فِي الْجُودِ وَإِتْلَافِ مَالِهِ ، فَقَالَتْ : « حَبَسُ الْمَالُ ، أَنْفَعُ لِلْعِيَالِ ، مِنْ بَذْلِ الْوَجْهِ فِي السُّؤَالِ ، فَقَدْ قَلَّ النُّوَالُ ، وَكَثُرَ الْبُخَالُ ، وَقَدْ أَتَلَفْتُ

(١) المناجل جمع منجل كنبر : حديدة يقضب بها الزرع . وحواد جمع حادة : أى قاطعة ، وفى الأصل « حراد » وأراه محرفا . (٢) تتوسل .

الطارفَ والتَّلاَدَ ، وبقيت تطالبُ ما في أيدي العباد ، ومن لم يحفظ ما ينفعه ، أوشكَ أن يسعى فيما يضرّه . (زهر الآداب ٣ : ٢٤٦)

٦٢ - قولهم في المدح

دخل أعرابي على بعض الملوك فقال : « رأيتني فيما أتعاطى من مدحك ، كالمُخْبِرِ عن ضوء النهار الباهر ، وَالْقَمَرِ الزاهر ، الذي لَا يَخْشَى على الناظر ، وأيقنت أني حيثُ انتهى بي القولُ ، منسوبٌ إلى الْعَجْزِ ، مُقَصَّرٌ عن الغاية ، فانصرفت عن الثناء عليك ، إلى الدعاء لك ، وَوَكَلْتُ الإخبار عنك ، إلى عِلْمِ الناس بك » . (الأماك ٢ : ٧٣)

* * *

وأثنى أعرابي على رجل فقال : « إن خيرك لَسَرِيحٌ ^(١) ، وإن منمك لمُريحٌ ، وإن رفدك لَرَبِيحٌ » . (البيان والتبيين ٢ : ١٠٥)

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً من بني كلاب يذكر رجلاً فقال : « كان والله أْفْهَمُ منه ذا أَذُنَيْنِ ، والجوابُ ذا لسانين ، لم أر أحداً كان أَرْتَقَ لِحْلَلٌ رأى منه ، ولا أبعدَ مسافةً رَوِيَّةً ، ومُرَادٌ ^(٢) طَرَفٌ ، إنما يرمى بهمته حيث أشار إليه للكرم ، وما زال والله يَتَحَسَّى مرارة أخلاق الإخوان ، ويسقيهم عُذُوبَةَ أخلاقه » . (الأماك ٢ : ١٦ ، والمعقد الفريد ٢ : ٨٩ : زهر الآداب ٢ : ٣)

* * *

وقال : سمعت أعرابياً ذكر رجلاً فقال : « كان والله للإخاء وَضُولاً ، وللمالِ بَدْزُولاً ، وكان الوفاء بهما عليه كَفَيْلاً ، وَمَنْ فَاضَلَهُ كان مفضولاً » .

(الأماك ١ : ١١٦ ، والمعقد الفريد ٢ : ٨٩)

* * *

(١) أي عطاء بلا مطل ولا إبطاء ، ومريح : أي من كنه الطلب .
(٢) ريماد الإبل : اختلافتها في المرعى مقبلة ومدبرة ، والموضع مراد ومستتراد .

ووصف أعرابي رجلاً فقال : « ذاك والله ممن ينفع سِلْمَه ، وَيَتَوَاصَف حِلْمَه ، ولا يُسْتَمَرُّ^(١) ظُلْمَه ، إن قال فعل ، وإن وَلَّى عدل . »

(البيان والتبيين ٢ : ١٥٨ ، والمقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٣)

* * *

وذكر أعرابي قوماً فقال : « أدبهم الحكمة ، وأحكمهم التجارب ، ولم تفرهم السلامة المنطوية على الهلكة ، وجانبوا التسوية الذي به قطع الناس مسافة آجالهم ، فذلت ألسنتهم بالوعد ، وانبسطت أيديهم بالإيجاز ، فأحسنوا المقال ، وشفعوه بالفعال . »

(الأمل ٢ : ٢٣ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والمقد الفريد ٢ : ٨٨)

* * *

عن عبد الرحمن عن عمه قال : وصفت أعرابية زوجها بمكارم الأخلاق عند أمها ، فقالت : « يا أمه ، من نشر ثوب الثناء ، فقد أدّى واجب الجزاء ، وفي كتمان الشكر جُودٌ لما وجب من الحق ، ودخولٌ في كفر النعم » ، فقالت لها أمها : « أي بُنية : أطبت الثناء ، وقمت بالجزاء ، ولم تدعى للذم موضعاً ، إني وجدت من عقل ، لم يجعل بدم ولا ثناء إلا بعد اختبار » ، فقالت : « يا أمه ، مامدحت حتى اختبرت ، ولا وصفت حتى عرفت » .

(الأمل ١ : ٢٢٥)

ووصف بعض الأعراب أميراً فقال : « إذا أوعد آخر ، وإذا وعد عجل ، وعيده غفوةً ، ووعدته إيجاز . »

(البيان والتبيين ٣ : ٢١٧)

* * *

ونعت أعرابي رجلاً فقال : « كأنَّ الألسن والقلوب رِيضَت له ، فما تنعقد إلا على ودّه ، ولا تنطق إلا بحمده . »

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣١ ، والمقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٣)

* * *

وذكر رجل عند أعرابي فوقع فيه قوم فقال : « أما والله إنه لا كلُّكم للمأدوم وأعطاكم للعزوم^(١) ، وأكسبكم للمعدوم ، وأعطفكم على المحروم . »

(الأماال ٢ : ١٦ ، والبيان والتبيين ١ : ١٦٢)

وأعطى رجل أعرابياً فأكثر له ، فقال له الأعرابي : « إن كنت جاوزت قدرى عند نفسى ، فقد بلغت أَمَلِي فيك . »

(الأماال ٢ : ٥٠)

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « كان والله يُعَنَّى^(٢) فى طلب المكارم ، غير ضالٍّ فى معارج طرقها ، ولا متشاغل عنها بغيرها . »

(الأماال ٢ : ٥٠ ، والعقد الفريد ٢ : ٨٩)

ودخل أعرابى على رجل من الولاة فقال : « أصلح الله الأمير : اجعلنى زماماً من أزممتك يُجرِّبُها الأعداء ، فإنى مسعر حرب^(٣) ، ورَكَّابُ نُجُبٍ ، شديد على الأعداء لئن على الأصدقاء ، منطوى الحصىلة^(٤) ، قليل الثميلة ، غرار النوم ، قد غدَّتْنى الحرب بأفاويقها^(٥) ، وحلبت الدهرَ أشطُرَه ، ولا تمنعك منى الدمامة^(٦) ، فإن من تحتها شهامة . »

(العقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٨٠)

(١) أى للمال المفروم ، فن لزمه غرم حمله عنه . (٢) أى يذهب وينصب .
(٣) أى موقدها ، والنجب جمع نجيب . (٤) حصل الشيء تحصيلاً : جمعه ، والاسم الحصىلة ، والمعنى مكنتم السر ، والثميلة فى الأصل : ما يبقى فى بطن الدابة من العلف والماء ، وما يدخره الإنسان من طعام أو غيره ، وفى حديث عبد الملك قال الحجاج : « أما بعد فقد وليتك المرافين ، فسر إليها منطوى الثميلة ، والمعنى فسر إليها مخفاً ، والفرار : التقليل من النون . (٥) الأفاويق جمع أفواق ، وهو جمع فوِقة بالكسر ، والفيفة : اسم اللبن يجتمع فى الضرع بين الحلبتين . (٦) الدمامة : قبح المنظر .

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « ذاك والله فسيح الأدب ، مستَحْكِمِ السبب ،
مِنَ أَى أَقْطَارِهِ أُتَيْتَهُ ، تَتْنَى عَلَيْهِ بِكْرَمِ فِعَالٍ ، وَحُسْنِ مَقَالٍ » .

(زهر الآداب ٢ : ٦ ، والمقد الفريد ٢ : ٨٩)

* * *

ومدح أعرابي رجلاً فقال « كَانَ وَاللَّهِ يَغْسِلُ مِنَ الْعَارِ وَجُوهًا مُسَوَّدَةً ، وَيَفْتَحُ
مِنَ الرَّأْيِ عِيُونًا مُنْسَدَّةً » .

(المقد الفريد ٢ : ٨٩ ، وزهر الآداب ٣ : ١٦٥)

* * *

وذكر أعرابي قومًا عبَادًا فقال : « تَرَكُوا وَاللَّهِ النِّعَمَ لِيَتَنَعَّمُوا ، لَهُمْ عِبَرَاتٌ
مُتَدَاكِقَةٌ ، وَزَفَرَاتٌ مُتَتَابِعَةٌ ، لَا تَرَاهُمْ إِلَّا فِي وَجْهِ وَجِيهِ عِنْدَ اللَّهِ » .

* * *

وذكر أعرابي قومًا فقال : « مَا رَأَيْتُ أَسْرَعَ إِلَى دَاخِ بَلِيلٍ ، عَلَى فَرْسٍ حَسِيبٍ ،
وَجَلَّ نَجِيبٍ ^(١) ، ثُمَّ لَا يَنْتَظِرُ الْأَوَّلُ السَّابِقُ ، إِلَّا خِرَ الْآخِرَ » .

* * *

وذكر أعرابي قومًا فقال : « جَمَلُوا أَمْوَالَهُمْ مَنَادِيلَ أَعْرَاضِهِمْ ، فَانْخِلِرْ بِهِمْ زَائِدٌ ،
وَالْمَعْرُوفُ لَهُمْ شَاهِدٌ ، يُعْطُونَهَا بِطِيبَةِ أَنْفُسِهِمْ إِذَا طُلِبَتْ إِلَيْهِمْ ، وَيَبَاشِرُونَ الْمَعْرُوفَ
بِإِشْرَاقِ الْوَجْهِ إِذَا بُغِيَ لَدَيْهِمْ » .

* * *

وذكر أعرابي قومًا فقال : « وَاللَّهِ مَا أَنَالُوا شَيْئًا بِأَطْرَافِ أُنَامِهِمْ إِلَّا وَطِئْنَا
بِأَخْصَاصٍ ^(٢) أَقْدَامَنَا ، وَإِنَّا أَقْصَى هِمَمِهِمْ لِأَذْنَى فِعَالِنَا » .

* * *

(١) النجيب : الحمل السريع الخفيف في السير .

(٢) جمع أخصر كأخصر : وهو من باطن القدم ما لم يصب الأرض .

وذكر أعرابي أميراً فقال : « إِذَا وَلِيَ لَمْ يُطَاقِ بَيْنَ جُنُونِهِ ^(١) ، وَأُرْسِلَ الْعُمُونَ عَلَى عِيُونِهِ ، فَهُوَ غَائِبٌ عَنْهُمْ ، شَاهِدٌ مَعَهُمْ ، فَالْحَسَنُ رَاجٍ ، وَالْمُسِيءُ خَائِفٌ » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً ببراءة المنطق فقال : « كَانَ وَاللَّهِ بَارِعَ الْمَنْطِقِ ، جَزَلَ الْأَلْفَاظَ ، عَرَبِيَّ اللِّسَانِ ، فَصِيحَ الْبَيَانِ ، رَقِيقَ حَوَاشِي الْكَلَامِ ، بَلِيلَ الرُّيْقِ ، قَائِلَ الْحَرَكَاتِ ، سَاكِنَ الْإِشَارَاتِ » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « رَأَيْتَ لَهُ حِلْمًا وَأَنَاءً ، يُحَدِّثُكَ الْحَدِيثَ عَلَى مَقَاطِعِهِ ، وَيُنْشِدُ الشَّعْرَ عَلَى مَدَارِجِهِ ^(٢) ، فَلَا تَسْمَعُ لَهُ لُحْنًا وَلَا إِحَالَةً ^(٣) » .

* * *

وذكر أعرابي قوماً فقال : « آلَتْ ^(٤) سِيُوفُهُمْ أَلَّا تَقْضِيَ دَيْنًا عَلَيْهِمْ ، وَلَا تَضِيعَ حَقَّهُمْ ، فَمَا أَخَذَ مِنْهُمْ مَرْدُودٌ إِلَيْهِمْ ، وَمَا أَخَذُوا مَتْرُوكٌ لَهُمْ » .

* * *

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « مَا رَأَيْتَ عَيْنًا قَطُّ أُخْرِقَ لِظُلْمَةِ اللَّيْلِ مِنْ عَيْنِهِ ، وَلَحْظَةً أَشْبَهَ بِلَهَيْبِ النَّارِ مِنْ لَحْظَتِهِ ، لَهُ هَزَّةٌ كَهَزَّةِ السَّيْفِ إِذَا طَرَبَ ، وَجَرُّاةٌ كَجَرُّاةِ اللَّيْلِ إِذَا غَضِبَ » .

* * *

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « كَانَتْ ظُلْمَةُ لَيْلِهِ كَضَوْءِ نَهَارِهِ ، أَمِيرًا بَارْتِيَادَ ، وَنَاهِيًا عَنِ فُسَادِ ، حَلِيبِ السَّوْءِ غَيْرِ مَنْقَادِ » .

* * *

(١) أى لم ينم عن شئون رعيته ، والعُمُونَ : الجواسيس .

(٢) مدارج جمع مدرج ومدرجة : المذهب والمسلك . (٣) أحال للكلام إحالة : إذا أفسده ،

والمحال من الكلام : ما عدل به عن وجهه ، وأحال : أتى بالمحال وتكلم به . (٤) حلفت .

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « اشترى والله عِرْضَه من الأذى ، فلو كانت الدنيا له قَانَقَمَها ، لَرَأَى بَعْدَها عليه حُقُوقًا ، وكان مِنْهَا جَاً للأُمُور المُشْكِلَة إذا تَنَاجَزَ الناسُ بِاللَّائِمَة » .

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « يُفَوِّقُ ^(١) الكلمة على المعنى ، فتمرقُ مُرُوقَ السَّهم من الرَّمِيَّة ، فما أصاب قَتَلَ ، وما أَخْطَأَ أَشْوَى ^(٢) ، وما غَطَّظَ ^(٣) له سهمٌ منذ تحرك لسانه في فيءٍ » .

وذكر أعرابي أخاه فقال : « كان والله رَكُوباً للأهوال ، غير أُلُوفٍ لِلْحِجَالِ ^(٤) إذا أُرْعِدَ ^(٥) لقوم من غير قُرٍّ ، يهين نفساً كريمة على قومها ، غير مُبْقِيَةٍ لعدٍ ما في يومها » .

• • •

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « كان والله من شَجَرٍ لَا يُخْلِفُ ثَمَرَه ، ومن بَحْرٍ لَا يُخَافُ كَدْرَه » .

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « ذاك والله فَتَى رماه الله بِالْخَيْرِ نَاشِئًا ، فأحسن لُبْسَه ، وزَيَّنَ به نفسَه » .

* * *

(١) يسدد ويصوب ، والرمية : ما يرمى . (٢) أشواه : أصاب شواه ، والشوى كمصا : اليدان والرجلان والأطراف وقحيف الرأس وما كان غير مقتل . (٣) النطنطة : حكاية صوت القدر في الغليان وما أشبهها ، وقد يكون الأصل « وما غطط » أى ما اضطرب من النطنطة وهى اضطراب موج البحر . (٤) الحجال جمع حجلة بالتحريك : اللقبة وموضع يزين بالذهب والستور المروس ، والمراد النساء . (٥) أرعد : أخذته رعدة .

ومدح أعرابي رجلاً فقال : « يُصِمُّ أذنيه عن استماع الخنا ، وَيُخْرِسُ لسانه عن التكلم به ، فهو الماء الشَّريب ^(١) ، وَالْمَصْقَعُ الخطيب » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « ذاك رجل سبق إلىَّ معروفة قبل طَلَبِي إليه ، فالعِرْضُ وافر ، والوجهُ بمائه ، وما أُسْتَقِلَّ ^(٢) بنعمة إلا أَقْلَنِي بأخرى » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « ذاك رَضِيعُ الجود والمفطومُ به ، عَقِيمٌ عن الفحشاء ، مُغْتَصِمٌ بالتقوى ، إِذَا حَدَفَتْ ^(٣) الألسن عن الرأى ، حَذَفَ بالصواب ، كما يَحْذِفُ الأرنب ، فَإِنْ طَالَتِ الغاية ، ولم يكن من دونها نهاية ، تَمَهَّلَ أمام القوم سابقاً » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « إِنْ جَلِيسُهُ لِعَظِيمٍ عِشْرَتِهِ أَطْرَبُ مِنَ الْإِبِلِ عَلَى الْحَدَاءِ ، وَالْتِمَلْ عَلَى الْغِنَاءِ » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « كَانَ لَهُ عِلْمٌ لَا يَخَالُطُهُ جَهْلٌ ، وَصَدَقَ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ ، كَأَنَّهُ الْوَبْلُ عِنْدَ الْمَحَلِّ ^(٤) » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « مَا رَأَيْتُ أُعْشِقَ لِلْمَعْرُوفِ مِنْهُ ، وَمَا رَأَيْتُ الْمُنْكَرَ أَبْغَضَ لِأَخْذِهِ بُغْضَهُ لَهُ » .

* * *

(١) الشَّريب والشرب : ما يشرب . المصقع : البليغ ، أو العالي الصوت ، أو من لا يرتج عليه في كلامه ولا يتنفع . (٢) أو وما أحل . وأقْلَنِي : أرجفني وردني . (٣) حذفت : رمت . (٤) البلب .

وقدم أعرابي البادية وقد نال من بنى بَرَمَك ، فقيل له كيف رأيْتهم ؟ قال :
« رأيْتهم وقد أنست بهم النعمة ، كأنها من ثيابهم » .

* * *

وذكر أعرابي رجلا فقال : « ما زال يَبْنِي المجد ، وَيَشْتَرِي الحمد ، حتى بلغ منه الجهد » .

* * *

ودخل أعرابي على بعض الملوك فقال : « إن جهلا أن يقول المادح بخلاف ما يعرف من المدوح ، وإني والله ما رأيت أعشقَ للكارم في زمان اللؤم منك ، وأنشد :

مالي أرى أبوابهم مَهْجُورَةٌ ؟ وكأنَّ بابك كَجَمْعِ الأسواق
حَابُوكَ أم هَابُوكَ أم شَامُوا النَّدَى بيدك فاجتمعوا من الآفاق
إني رأيْتُكَ للكارم عاشِقًا والمكرُماتُ قليلةُ العُشَّاقِ

(العقد الفريد ٢ : ٨٨ - ٩٠)

* * *

وضل أعرابي الطريق ليلا ، فلما طلع القمر اهتدى ، فرفع رأسه إليه فقال :
ما أدري ما أقول ؟ أم أقول : رَفَعَكَ الله ؟ فقد رَفَعَكَ ، أم أقول : نَوَّرَكَ الله ؟ فقد
نَوَّرَكَ ، أم أقول : حَسَّنَكَ الله ؟ فقد حَسَّنَكَ ، أم أقول : عَمَّرَكَ الله ؟ فقد عَمَّرَكَ ،
ولكني أقول : جعلني الله فِدَاكَ .

* * *

وذكر أعرابي قومه فقال : « كانوا والله إذا أُصْطَفُوا تحت القَتَامِ ^(١) ، خَطَرَتْ
بينهم السَّهَامُ بِوُفُودِ الحِمَامِ ، وإذا تصالحوا بالسيوف فَفَرَّتْ ^(٢) المنايا أفواهاها ، قُرْبَ

(١) القَتَام : الغبار . والخِمَام : الموت . ورواية العقد : « كانوا إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام »

- سفر بين القوم كضرب ونصر : أصلح » . (٢) ففرت : فتمت .

يوم عارم^(١) قد أحسنوا أدبه ، وحرب عُبُوس قد ضاحكتها أَسْتَهُم ، وَخَطْبِ شَرْ^(٢) قد ذَلُّوا مَنَا كِبَه ، ويوم عَمَّاس^(٣) قد كَشَفُوا ظَلَمَتَهُ بِالْصِرْ حَتَّى يَنْجَلِي ، إِنَّمَا كَانُوا الْبَحْرَ الَّذِي لَا يَنْكَشُ^(٤) غَمَارُهُ ، وَلَا يُنْهِنُهُ تَيَّارُهُ .
(الأمال : ١ : ١٢٩ ، والمقد الفريد ٢ : ٨٨ ، وزهر الآداب ٢ : ٤)

* * *

ووصف أعرابي رجلاً فقال : « هو أَطْهَرُ من الماء ، وأرقُّ طبعاً من الهواء ، وأَمْضَى من السَّيْلِ ، وأَهْدَى من النِّجَم » .
(زهر الآداب ٢ : ٢)

* * *

ووصف أعرابي قومه فقال : « لُيُوثُ حَرْب ، وَلُيُوثُ جَدْب ، إِنْ قَاتَلُوا أُبْلُوا ، وَإِنْ بَذَلُوا أُنُّوا » .
(زهر الآداب ٢ : ٤)

* * *

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « إِذَا ثَبَّتَ الْأُصُولُ فِي الْقُلُوبِ ، نَطَقَتِ الْأَلْسِنَةُ بِالْفُرُوعِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ قَلْبِي لَكَ شَاكِر ، وَلِسَانِي ذَاكِر ، وَمُحَالٌّ أَنْ يَظْهَرَ الْوُدَّ الْمُسْتَقِيمَ ، مِنَ الْفُؤَادِ السَّقِيمِ » .
(زهر الآداب ٢ : ١٦٥)

* * *

وسئل أعرابي عن قومه فقال : « يَقْتُلُونَ الْفَقْرَ ، عِنْدَ شِدَّةِ الْقُرَى^(٥) ، وَأَرْوَاحَ^(٦) الشِّتَاءِ ، وَهَبُوبَ الْجُرَبِيَاءِ^(٧) ، بِأَسِنَّةِ الْجَزُورِ ، وَمُتَرَعَاتِ^(٨) الْقُدُورِ ، تَحْسُنُ وَجُوهَهُمْ عِنْدَ طَلَبِ الْمَعْرُوفِ ، وَتَعْتَبِسُ عِنْدَ لَمَعَانِ السِّيُوفِ » .

* * *

(١) العرامة بالفتح والعرام بالضم : الشراسة والأذى ، حرم كنصر وضرب وكرم وعلم .
(٢) شَرْ : شديد مقلق . (٣) العماس من الليالي : المظلم الشديد ، وأمر لا يقيم له ولا يهتدى لوجهه .
(٤) لا ينكش : لا ينزع ، والغدار جمع غير كشمس : وهو الماء الكثير ، ونهجه : كفه وزجره . وفي رواية المقه : « إِنَّمَا قَوَى الْبَحْرَ مَا أَلْقَتْهُ لِقَتَم » . ورواية زهر الآداب : « إِذَا اصْطَفَوْا سَفَرْتَ بَيْنَهُمِ السَّهَامُ ، وَإِذَا تَصَافَحُوا بِالسِّيُوفِ فَفَرَقَهُ الْحَمَامُ » .
(٥) القر بتثنية القاف : البرد . (٦) جمع ريح كرياح . (٧) ريح الشمال أو بردها .
(٨) جمع قترعة : وهي الملوقة .

ووصف أعرابي قوماً فقال : « ثم جُود كرام اتست أحوالها ، وبأسُ ليوثٍ
تنبُّعها أشبالها ، وهَمَّ ملوكٍ انفسَحَت آمالها ، ونغرُ صميم آباء شرفَت أحوالها » .
(زمر الآداب ٢ : ١٦٧)

٦٣ - قولهم في الذم

وذكر أعرابي قوماً فقال : « أولئك سُلِخَت أبقاؤهم بالعِباء ، ودُبَّت وجوههم
باللؤم ، لبأسهم في الدنيا الملامَّة ، وزادهم إلى الآخرة الندامة » .

• • •

وذكر أعرابي قوماً فقال : « لهم بيوتٌ تُدْخَلُ حَبِوًا ، إلى غير نَمَارِقٍ ^(١) ،
ولا وسائد ، فُصِّحُ الألسُن برَدِّ السائل ، جِعَادُ الأَكْف عن النَّائِل ^(٢) » .

• • •

وقال أعرابي : « لقد صَفَّرَ فلانا في عيني عِظَمُ الدنيا في عينه ، وكأنما يَرَى السَّائِلَ
إذا أتاه ، مَلَكَ الموتِ إذا رآه » .

• • •

وسئل أعرابي عن رجل فقال : « ما ظَنُّكُمْ بِسِكِّيرٍ لا يَفِيق ، يَتَّهَمُ الصَّدِيق ،
وَيَعِصِي الشَّفِيق ، لا يكون في موضعٍ إلا حُرِّمَتْ فيه الصلاة ، ولو أَفْلَتَتْ كُلُّ سُوءٍ
لم تَصِرْ إلا إليه ، ولو نَزَلَتْ لعنةٌ من السماء لم تَقَعْ إلا عليه » .

• • •

(١) النمارق جمع نمرقة (بالضم) : وهي الوسادة الصغيرة . (٢) النائل : العطاء ، وهو جمع النالين
أو النائل (كشمس) : أي يخيل ، وقد جمعوا جمع الشعر على جماد ككتاب كذا في اللسان ، فليكن هذا
مثله ، وقد جاء في الأصل « جمه » بدون ألف ، وأراه محرفاً ، إذ لا يجمع جمه (بالفتح) على جمع يضم
فيسكون ، ولا على جمع يضمين .

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « إن فلاناً ليعدي يأممه ، من تسمى باسمه ، ولن خيبي فلرب باقية قد ضاعت في طلب رجل كريم » .

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « تغدو إليه مراكب الضلالة ، فترجع من عنده ببدور الآثام ، مُعِدِم مما تحب ، مُكثَر مما تكره ، وصاحب سوء قطعة من النار » .

• • •

وقال أعرابي لرجل : « أنت والله من إذا سأل أَلِف ، وإذا سُئِل سَوِّف ، وإذا حَدَّث حَلَف ، وإذا وعد أخلف ، تنظر نظر حَسُود ، وتُعْرِض إِعْرَاضَ حَقُود » .

• • •

وسافر أعرابي إلى رجل فخرمه ، فقال لما سُئِل عن سفره : « ما ربحنا في سفرنا إلا ما قصرنا من صلاتنا ، فأما الذي لقينا من الهواجر ^(١) ، وَلَقِيت منا الأباغر ، فمُعْقُوبَةٌ لنا فيما أفسدنا من حسن ظننا » ، ثم أنشأ يقول :

رجعنا سالمين كما خرجنا وما خابت سرية سالمينا

• • •

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « كان إذا رأيته قرَّب من حاجبٍ حاجباً ، فأقول له : لا تقبَّح وجهك إلى قبحه ، فوالله ما أتيتك لطمعٍ راعباً ، ولا لخوفٍ راهباً » .

• • •

وذم أعرابي رجلاً فقال : « غبذُ الفعَال ، حرُّ المَقَال ، عَظِيم الرِّوَاق ، دَنَى الأخلاق ، الدهر يرفعه ، ونفسه تضعه » .

• • •

وقال أعرابي : « دخات البصرة ، فرأيت ثيابَ أحرار على أجساد عبيد ، إقبالُ

(١) الهواجر جمع هاجرة : وهي شدة الحر .

حَظَّهم إِدْبَارُ حَظِّ الكرام ، شَجَرُ أَصُولِهِ عِنْدَ فُرُوعِهِ ، شَفَلَهُم عَنِ المَعْرُوفِ رَغْبَتُهُمْ
فِي الْمَنكَرِ .

* * *

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا فَقَالَ : « ذَاكَ سُمُّ الْمَجَالِسِ ، أَعْيَا مَا يَكُونُ عِنْدَ جُلُوسَاتِهِ ،
أَبْلَغُ مَا يَكُونُ عِنْدَ نَفْسِهِ » .

* * *

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا فَقَالَ : « ذَلِكَ مَنْ يُدَاوِي عَقْلَهُ مِنَ الْجَهْلِ ، أَحْوَجُ مِنْهُ إِلَى
مَنْ يُدَاوِي عَقْلَهُ مِنَ الْمَرَضِ ، إِنَّهُ لَا مَرَضَ أَوْجَعُ مِنْ قِلَّةِ عَقْلٍ » .

* * *

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا لَمْ يَدْرِكْ بَثْرَهُ فَقَالَ : « كَيْفَ يُدْرِكُ بَثْرَهُ مَنْ فِي صَدْرِهِ
مِنَ الْبَلْغَمِ حَشْوُ مُرَقَّةٍ ، لَوْ دُقَّتْ بِوَجْهِهِ الْحِجَارَةُ لَرَضَّهَا ^(١) ، وَلَوْ خَلَا
بِالْكُمْبَةِ لَسَرَقَهَا » .

* * *

وَذَكَرَ أَعْرَابِي رَجُلًا فَقَالَ : « تَسَهَّرَ وَاللَّهِ زَوْجَتَهُ جُوعًا إِذَا سَهَرَ النَّاسَ شَبَعًا ، نَمَّ
لَا يَخَافُ مَعَ ذَلِكَ عَاجِلَ عَارٍ ، وَلَا آجِلَ نَارٍ ، كَالْبَيْمَةِ أَكَلَتْ مَا جَمَعَتْ ، وَنَسَكَتْ
مَا وَجَدَتْ » .

* * *

وَسَمِعَ أَعْرَابِي رَجُلًا يَزَعَقُ فَقَالَ : « وَيْحَكَ ! إِنَّمَا يَسْتَجَابُ لِمُؤْمِنٍ أَوْ مَظْلُومٍ ،
وَلَسْتُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا ، وَأَرَاكَ يَخِيفُ عَلَيْكَ ثِقَلُ الذُّنُوبِ ، فَيَحْسُنُ عِنْدَكَ مَقَابِلُ الْعُيُوبِ » .

* * *

(١) رَضَّهَا : دَنَّهَا .

وذكر أعرابي رجلاً بضعف فقال : « سيء الروية ، قليل التقيّة ، كثير السّعاية ، ضعيف النّكايّة » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « عليه كلّ يوم من فعله شاهدٌ بفسقه ، وشهاداتُ الأفعال ، أعدل من شهادات الرجال » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً بذلّة فقال : « عاش خاملاً ، ومات مؤثوراً » .

* * *

وقال أعرابي لرجل شريف البيت ، ذنّب الهمة : « ما أحوجك أن يكون عِرْضُك لمن يصونه ، فتكون فوق ما أنت دونه » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « إن حدّثته يُسابقك إلى ذلك الحديث ، وإن سكّته عنه أخذ في التّرهات^(١) » .

* * *

وذكر أعرابي رجلاً راكباً هواه فقال : « والله لو أقصدُ إلى ما يهواه ، من الطُّرقِ إلى المياه ، أفقره ذلك أو أغناه » .

* * *

وقال أعرابي : « ليت فلاناً أقالني من حسن ظنّي به ، فأختم بصواب إذ بدأت بخطأ ، ولكن من لم تُحكّمه التجارب ، أسرع بالمدح إلى من يستوجب الذم ، وبالذم إلى من يستوجب المدح » .

* * *

(١) الترهات جمع ترعة : وهي الباطل .

وقال أعرابي لرجل : « هل أنت إلا أنت لم تَغْيَر ؟ ولو كنت من حديد مُحْتَمَى
وَوُضِعَتْ عَلَى عَيْنِي لم تَذُبْ » .

وقال أعرابي لأخيه : « قد كنتُ نَهَيْتُكَ أَنْ تَدْئُسَ عِرْضَكَ بعرض فلان ، وأَعْلَمَكَ
أنه سَمِينُ الْمَالِ ، مَهْزُولُ الْعُرُوفِ ، مِنَ الْمَرْزُوقِينَ فَجَاءَ ، قَصِيرُ عُمَرِ الْغِنَى ، طَوِيلُ
عُمَرِ الْفَقْرِ » .

وقال أعرابي : « لَا تَرُكْ اللَّهَ مُحَاً فِي سُلَامِي ^(١) نَاقَةٍ حَمَلْتَنِي إِلَيْكَ ، وَلِلدَّاعِي عَلَيْهَا
أَحَقُّ بِالِدْعَاءِ عَلَيْهِ ، إِذْ كَلَّفَهَا الْمَسِيرَ إِلَيْكَ » .

وذكر أعرابي رجلاً فقال : « لَا يُؤْنَسُ جَاراً ، وَلَا يُؤْهَلُ دَاراً ، وَلَا يَبْعَثُ نَاراً » .

وذكر أعرابي امرأةً قبيحةً فقال : « تُرْخِي ذَيْلَهَا عَلَى عُرْقُوبِي نَعَامَةً ، وَتُسَدِّلُ خَارَهَا
عَلَى وَجْهِهِ كَالْجُعَالَةِ ^(٢) » .

وقال أعرابي لامرأة : « وَاللَّهِ إِنَّكَ لَمُشْرِفَةُ الْأُذُنِينَ ، جَا حِظَّةِ الْعَيْنِينَ ، ذَاتُ خَلْقٍ
مُتَضَائِلٍ : يُعْجِبُكَ الْبَاطِلُ ، إِنْ شَبِعْتَ بَطْرَتِ ، وَإِنْ جُعْتَ صَخَبَتِ ^(٣) ، وَإِنْ رَأَيْتِ
حَسَنًا دَفَنْتَهُ ، وَإِنْ رَأَيْتِ سَيِّئًا أَدْعَتَهُ ، تَكْرِمِينَ مِنْ حَقْرِكَ ، وَتَحْقِرِينَ مِنْ
أَكْرَمِكَ » .
(الاعتد للفريه ٢ : ٩٠ - ٩٣)

(١) السلاحيات : عظام الأصابع . (٢) الجعالة : خرقه ينزل بها القدر .
(٣) للصخب : شدة الصوت .

وسأل أعرابي رجلاً فخرمه ، فقال له أخوه : « نزلتَ وأللهِ بوابٍ غيرِ مَمْطُورٍ ،
وأنتَ رجلاً بك غيرِ مسرورٍ ، فلم تُذكرْ ما سألتَ ، ولا نلتَ ما أُمّلتَ ، فارتحلْ
بنَدَمٍ ، أو أقيم على عَدَمٍ » . (المقد الفريد ٢ : ٩٢ ، وزهر الآداب ٢ : ٥)

• • •

ودخات أعرابية على خمدونة بنت المهدي ، فلما خرجت سألت فقالت : « والله
لقد رأيتها فما رأيت طائلاً ، كأن بطنها قرْبةٌ ، كأن ثديها دُبَّةٌ ، كأن استَهَا
رُفْعَةً^(١) ، كأن وجهها وجهُ ديكٍ قد نَفَسَ عَفْرِيتَهُ^(٢) يقاتل ديكاً » .
(المقد الفريد ٢ : ٩٢ ، والأمال ٢ : ١٥٦)

• • •

وذم أعرابي رجلاً فقال : « أَفْسَدَ آخِرَتَهُ بِصَلاحِ دُنْيَاهُ ، ففارق ما أُلصَحَ غيرَ
راجعٍ إليه ، وقَدِمَ على ما أَفْسَدَ غيرَ مُنتَقِلٍ عنه ، ولو صَدَّقَ رجلٌ نفسه ما كَذَبْتَهُ ، ولو
أَلْقَى زَمَامَهُ أَوْطَاهُ رَاحِلَتَهُ » . (زهر الآداب ٢ : ٦)

• • •

قال الأصمعي : سمعت أعرابية تقول لرجل تخاصمه : « والله لو صَوَّرَ الجَملُ لأَظْلَمَ
معهُ النهارُ ، ولو صَوَّرَ العَقلُ لأَضَاءَ معهُ الليلُ ، وإنك من أَفْضَلِهِمَا لَمُعْدِمٌ نَخَفَ اللهُ ،
واعلم أن من ورائك حَكماً لا يَحْتَاجُ الدَّعَى عِنْدَهُ إِلَى إِحْضَارِ بَيِّنَةٍ » .
(زهر الآداب ٢ : ١٦٢)

• • •

وقال أعرابي يعيب قوماً : « هم أَقْلُ الناسِ ذُنُوباً إِلَى أَعْدَائِهِمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ جُرُماً
إِلَى أَصْدِقَائِهِمْ ، يَصُومُونَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ، وَيُفْطِرُونَ عَلَى الْفَحْشَاءِ » .
(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٠ ، والمقد الفريد ٢ : ٩٠)

• • •

ووصف أعرابي رجلاً فقال : « صَغِيرُ الْقَدَر ، قَصِيرُ الشَّيْرِ ^(١) ، ضَيِّقُ الصَّدْر ، لَثِيمُ النَّجْرِ ^(٢) ، عَظِيمُ الْكِبَر ، كَثِيرُ الْفَخْرِ » .

(البيان والتبيين ١ : ١٥٧ ، والمقد الفريد ٢ : ٩١)

» » »

وذكر أعرابي أميراً فقال : « يَقْضَى بِالْعَشْوَةِ ، وَيُطِيلُ الدَّشْوَةَ ، وَيَقْبَلُ الرُّشْوَةَ ^(٣) » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥٠ ، والمقد الفريد ٢ : ٩١)

» » »

وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أعرابياً يقول : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَأُمِّ أَوْفَى »

قال : « وَمَنْ أُمُّ أَوْفَى ؟ » ، قال . « امرأتى ، وإنها لحَمَاقَةٌ مِرْغَامَةٌ ^(٤) ، أَكُولٌ قَامَةٌ ^(٥) لَا تَتَّبِقُ لَهَا حَامَةٌ ^(٦) ، غَيْرُهَا حَسَنَاءُ فَلَا تُفْرَكُ ^(٧) ، وَأُمُّ غِلْمَانٍ فَلَا تُتْرَكُ » .

(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

» » »

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهى تقول : « وَاللَّهِ إِنْ شُرِّبَكَ لَأَشْتَفَا ^(٨) ، وَإِنْ ضِجِّعَتْكَ لَأَنْجِمَا ^(٩) ، وَإِنْ شِئْتِكَ لَأَلْتَفَا ، وَإِنْكَ لَتَشْبَعُ لَيْلَةً تُضَافُ ، وَتَنَامُ لَيْلَةً تَخَافُ » ، فقال لها : « وَاللَّهِ إِنْكَ لَسَكْرَوَاءُ السَّاقِينَ ^(١٠) ، قَعْوَاءُ الْفَخْزَيْنِ ^(١١) ، مَقَاءُ الرُّفْعَيْنِ ^(١٢) ، مُفَاضَةٌ الْكَشْحَيْنِ ^(١٣) ضَيْفُكَ جَائِعٌ ، وَشَرُّكَ شَائِعٌ » .

(الأمال ١ : ١٠٤)

» » »

-
- (١) الشَّيْرِ : القَدْر . (٢) النَّجْرِ : الأصل . (٣) العَشْوَةُ والنَّشْوَةُ والرُّشْوَةُ بثلاثت الفاء فى الثلاثة ، العَشْوَةُ : ركوب الأمر على غير بيان ، والنَّشْوَةُ : السكر ، والرُّشْوَةُ : الجعل والبرطيل « يَكْسِرُ الْبَاءَ » . (٤) الْمِرْغَامَةُ : المَغْضِيَّةُ لِبَعْلِهَا . (٥) قَامَةٌ : اسم فاعل ، من قم : أى أكل ما على الخوان كانه ، وقم : كمنه . (٦) الْحَامَةُ : الخَاصَةُ . (٧) فَرَكُ زَوْجَتِهِ وَفَرَكْتَهُ كَسَمِعَ ، وَكُنْصَرُ شَاذٍ : أَبْغَضْتَهُ ، وَرَجُلٌ مَفْرَكٌ بِالْتَشْدِيدِ تَبْغِضُ النِّسَاءَ وَامْرَأَةٌ مَفْرَكَةٌ : يَبْغِضُهَا الرِّجَالُ . (٨) اشْتَفَى مَاتَ الْإِنَاءُ : شَرِبَهُ كُلَّهُ . (٩) الْأَنْجِمَاءُ : الْأَنْصَرَاعُ . (١٠) الْكَرَوَاءُ : الدَّقِيقَةُ السَّاقِينَ . (١١) الْقَعْوَاءُ : الدَّقِيقَةُ ، أَوِ الدَّقِيقَةُ الْفَخْزَيْنِ ، وَقِيلَ هِيَ الْمُتَبَاعِدَةُ مَا بَيْنَ الْفَخْزَيْنِ (كَالْفَجْوَاءِ) . (١٢) الرُّفْعُ : أَصْلُ الْفَخْزِ ، وَالْمَقَاءُ : الدَّقِيقَةُ الْفَخْزَيْنِ ، أَوِ الطَّوِيلَةُ مِنَ الْمَقِّقِ بِالتَّحْرِيكِ وَهِيَ الطَّوِيلُ . (١٣) الْمَفَاضَةُ : الْمُسْتَرْخِيَّةُ ، وَالْكَشْحَانُ : الْحَاصِرَتَانِ .

عن عبد الرحمن عن عمه قال : مرّ أعرابي برجل يكنى أبا الفعر - وكان ضخماً جسيماً ، وكان بواباً لبعض الملوك - فقال : « أَعِنِ الْفَقِيرَ الْحَسِيرَ ، فَقَالَ : مَا أَلْحَفَ سَائِلِكُمْ ، وَأَكْثَرَ جَائِعِكُمْ ، أَرَاخُنَا اللَّهُ مِنْكُمْ » ، فقال له الأعرابي : « لَوْ فُرِّقَ قُوْتُ جِسْمِكَ فِي جِسْمِ عَشْرَةِ مِنَّا ، لَكَفَانَا طَعَامُكَ فِي يَوْمٍ شَهْراً ، وَإِنَّكَ لِعَظِيمُ السَّرَطَةِ ^(١) ، شَدِيدُ الضَّرَطَةِ ، لَوْ ذُرِّي بِحَبَقَّتِكَ بَيْدَرٌ ، لَكَفَّتَهُ رِيحُ الْجُرَبِيَاءِ ^(٢) » .
(الأمالي ١ : ٢٢٩)

٦٤ - قولهم في الغزل

سئل أعرابي عن امرأة فقال : « هِيَ أَرْقُ مِنْ الْهَوَاءِ ، وَأَطْيَبُ مِنَ الْمَاءِ ، وَأَحْسَنُ مِنَ النَّعْمَاءِ ، وَأَبْعَدُ مِنَ السَّمَاءِ » .
(الأمالي ١ : ٢٠١ ، والمقد الفريد ٢ : ٩٤)

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال : « لَهَا جِلْدٌ مِنْ لَوْلُو ، مَعَ رَائِحَةِ الْمِسْكِ ، وَفِي كُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا شَمْسٌ طَالَعَةٌ » .

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال : « كَادَ الْغَزَالُ أَنْ يَكُونَهَا ، لَوْلَا مَا تَمَّ مِنْهَا وَمَا نَقَصَ مِنْهُ » .

وذكر أعرابي نِسْوَةً خَرَجْنَ مِنْتَزَهَاتٍ فَقَالَ : « وَجُوهٌ كَالْدَنَانِيرِ ، وَأَعْنَاقُ كَالْعُنَاقِ الْيَعَافِيرِ ^(٣) ، وَأَوْسَاطٌ كَأَوْسَاطِ الزَّيَابِيرِ ، أَقْبَلْنَ إِلَيْنَا بِحُجُولٍ ^(٤) تَحْفِقُ ، وَأَوْشِحَةٌ تُتَلَقَّى ، وَكَمْ أُسِيرَ لَهَا وَكَمْ مُطْلَقٍ » .

* * *

(١) البلهة ، من سرطه كنصر وفرح : ابتلعه . (٢) الحبقة : الضرطة ، والبيدر : الموضع الذي تداس فيه الحبوب ، والجربياء : ريح الشمال الباردة . (٣) اليعافير جمع يعفور : وهو ولد البهيمة الوحشية . (٤) الحجول جمع حجل بالكسر والفتح : وهو الخللخال . والأوشحة جمع وشاح بالضم والكسر : أديم يرضى برصع بالجواهر ، تشده المرأة بين عاتقها وكشحها .

ووصف أعرابي امرأة حسناء فقال : « تَبَسُّمٌ عَنْ خَشَمٍ ^(١) الْثَنَاتِ ، كَأَفَاحِي
النَّبَاتِ ، فَالْسَّعِيدُ مِنْ ذَاقِهِ ، وَالشَّقِيُّ مِنْ رَاقِهِ » .

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال : « هِيَ السُّقْمُ الَّذِي لَا بُرَّاءَ مِنْهُ ، وَالْبَرُّ الَّذِي لَا سَقَمَ مَعَهُ
وَهِيَ أَقْرَبُ مِنَ الْحَشَا ، وَأَبْعَدُ مِنَ السَّمَاءِ » .

* * *

ووصف أعرابي امرأة فقال : « بَيَاضُ جَعْدَةٍ ^(٢) لَا يَمَسُّ الثَّوْبُ مِنْهَا
إِلَّا مُشَاشَةً ^(٣) كَتَفَيْهَا ، وَحَلَمَةٌ تُدَيِّبُهَا ، وَرَضْفٌ رَكْبَتَيْهَا ، وَرَانَفَتَى أَلْيَتَيْهَا ،
وَأُنْشَدَ :

أَبَتِ الرَّوَافِ وَالْثَدْيُ لِقَمَصِهَا مَسَّ الْبَطُونُ وَأَنْ تَمَسَّ ظُهُورًا
وَإِذَا الرِّيحُ مَعَ الْعَشِيِّ تَنَاوَحَتْ نَبَّهْنَ حَاسِدَةً وَهَجُنَ غَيُورًا

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال : « تِلْكَ شَمْسٌ بَاهَتْ بِهَا الْأَرْضُ شَمْسَ سَمَاءِهَا ،
وَلَيْسَ لِي شَفِيعٌ فِي اقْتِضَائِهَا ^(٤) » ، وَإِنْ نَفْسِي لَكَتُومٌ لِدَائِهَا ، وَلَكِنَّهَا تَقِيضُ
عِنْدَ امْتِلَآئِهَا » .

* * *

وقال أعرابي في امرأة ودَّعَاهَا لِلْمَسِيرِ : « وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ دَمْعَةً تَرَقَّرَقُ مِنْ

(١) خدش ، والأفاحي جمع أفحوان بالغم : وهو نهت طيب الريح حواليه ورق أبيض ، ووسطه
صفر ، وراقه : أعجبه .

(٢) الجعد من الشعر : خلاف السبط ، أو القصير منه ، ورجل جعد الشعر والأنثى جعدة ، والجعدة أيضا
المدج الخلق لمجتمع بعضه إلى بعض ، والجعد إذا ذهب به مذهب الملح فله معنيان مستحبان : أحدهما أن
يكون مصوب الجوارح شديد الأمر والخلق غير مسترخ ولا مضطرب ، والثاني أن يكون شعره جمدا غير
سبط لأن سبوطه الشعر هي الغالبة على شعور المجمع من الروم والفرس ، وجمودة الشعر هي الغالبة على
شعور العرب . (٣) المشاشة : رأس العظم ، والرضف : عظام في الركبة كالأصابع المضمومة قد أخذ
بعضها بعضها ، والرانفة : أسفل الألية عند القيام .

(٤) اقتضى دينه وتقاضاه بمعنى .

عين بِأَمْعِدٍ^(١) على ديباجة خَدٍّ ، أحسن من عُبْرَةِ أمْطَرَتِهَا عَيْنِهَا ، فَأَعَشْتُ
بِهَا قَلْبِي .

* * *

وقال أعرابي : « إِنْ لِي قَلْبًا مَرُوعًا^(٢) ، وَعَيْنًا دُمُوعًا ، فإِذَا يَصْنَعُ كُلُّ وَاحِدٍ
مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ ، مَعَ أَنَّ دَاءَهُمَا دَوَاؤُهُمَا ، وَسُقْمُهُمَا شِفَاؤُهُمَا ؟ » .

* * *

وقال أعرابي : « مَا أَشَدَّ جَوَلَةَ الرَّأْيِ عِنْدَ الْهَوَى ، وَفِطَامَ النَّفْسِ عَنِ الصَّبَا !
وَلَقَدْ تَقَطَّعَتْ كَبْدِي ! لَوْ لَمْ الْعَازِلِينَ لِلْعَاشِقِينَ قِرْطَةَ^(٣) فِي آذَانِهِمْ ، وَلَوْ عَاتَى الْحُبُّ
نِيرَانًا فِي أَبْدَانِهِمْ ، مَعَ دُمُوعٍ عَلَى الْمَغَانِي^(٤) ، كَفُرُوبِ السَّوَانِي » .

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال « لَقَدْ نَعِمْتُ عَيْنٌ نَظَرَتْ إِلَيْهَا ، وَشَقَى قَلْبٌ تَفَجَّعَ
عَلَيْهَا ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَزُورُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا ، فَيُرْحِبُ بِي طَرْفُهَا ، وَيَتَجَهَّمُنِي لِسَانُهَا »
قِيلَ لَهُ فَمَا بَلَغَ مِنْ حُبِّكَ لَهَا ؟ قَالَ : « إِنِّي ذَا كِرٍّ لَهَا وَيْنِي وَبَيْنَهَا عَدُوَّةَ الطَّائِرِ ،
فَأَجْدُ لَذِكْرُهَا رِيحَ الْمَسْكِ » .

* * *

وقال أعرابي : « الْهَوَى هَوَانٌ ، وَلَكِنْ غُلِطَ بِاسْمِهِ ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ مَنْ يَقُولُ ،
مَنْ أَبْكَتْهُ الْمَنَازِلُ وَالطُّوُلُ » .

* * *

وذكر أعرابي امرأة فقال : « إِنْ لِسَانِي لَذِكْرُهَا لَذَنُورٌ ، وَإِنْ حَبِّهَا لِقَلْبِي
لَقَتُولٌ ، وَإِنْ قَصِيرَ اللَّيْلِ بِهَا لِيَطُولُ » .

* * *

(١) الإمعد : السكحل ، والديباجة : الخد . (٢) مفزء .

(٣) المغاني جمع مغي : وهو المنزل ، والفروب جمع غرب كشمس : وهو الدلو العظيم ، والسرائي جمع سانية : وهي الفقة يسق عليها ، والفروب وأداته .

ووصف أعرابي نساء ببلاغة وجمال فقال : « كَلَامُهُنَّ أَقْتَلُ مِنَ النَّبْلِ ، وَأَوْقَعُ بِالْقَلْبِ مِنَ الْوَبْلِ بِالْحَلِّ ، فَرَوْعُهُنَّ أَحْسَنُ مِنْ فَرَوْعِ النَّخْلِ » .
(العقد الفريد ٢ : ٩٣ — ٩٥)

* * *

وقال أعرابي : « دخلت البصرة ، فرأيت أعيناً دُمُجاً^(١) ، وَحَوَاجِبَ رُجَا ، يَسْحَبْنَ الثِّيَابَ ، وَيَسْكُبْنَ الْأَلْبَابَ » .
(العقد الفريد ٢ : ٩٣ ، وزهر الآداب ٣ : ١٧)

* * *

وذكر أعرابي نساء فقال : « ظَعَانٌ^(٢) فِي سَوَالِفِهِنَّ طَوْلٌ ، غَيْرَ قَبِيحَاتِ الْمَطُولِ^(٣) إِذَا مَشَيْنَ أَسْبَلْنَ الذُّيُولَ ، وَإِنْ رَكِبْنَ أَثْقَلْنَ الْحُمُولَ^(٤) » .
(زهر الآداب ٣ : ١٧)

* * *

وقال أعرابي : « لقد رأيت بالبصرة بُرُوداً كَأَنَّهَا صُبِغَتْ بِأَنْوَارِ الرَّيِّيعِ ، فَهِيَ تَرُوعُ^(٥) ، وَاللَّابِسُ لَهَا أَرُوعَ » .
(العقد الفريد ٢ : ٩٦)

* * *

وقال أعرابي : « شَيِّعْنَا الْحَيَّ وَفِيهِمْ أَدْوِيَةُ السَّقَامِ^(٦) ، فَقَرَأْنَا بِالْحَدَقِ السَّلَامَ ، وَخَرَسَتْ الْأَلْسُنُ عَنِ الْكَلَامِ » .
(الأمل ٢ : ٥٠)

* *

وسئلت أعرابية عن الهوى فقالت : « لَا مُتَّعَ الْهَوَى بِمَلَكِهِ ، وَلَا مُلِيَّ^(٧) »

(١) دُمُجاً جمع دُمُجَاء ، وصف من الدهج بالتحريك : وهو سواد العين مع سعتها . وزجاء جمع زجاء من الزجج بالتحريك أيضاً : وهو دقة الحاجبين في طول .

(٢) ظَعَانٌ جمع ظُعينة : والظُعينة في الأصل وصف للمرأة في هودجها ثم سميت بهذا الاسم وإن كانت في بيتها لأنها تصير مظعونة ، وهي فعيلة بمعنى مفعولة لأن زوجها يظمن بها ، والدوالت جمع سائلة :

وهي ناحية مقدم الدق من لدن . ملق القوط إلى نقرة الترقوة . (٣) عطلت المرأة كفرج عطلا بالتحريك وعطولا : إذا لم يكن عليها حل . (٤) الحمول : الحواجج : أو الإبل عليها الحواجج جمع حمار بالسكسر ويفتح . (٥) تعجب .

(٦) أي المحبوبات المداوية للسقام .

(٧) ملاء الله حبيبته تمليّة : مثله به وأعاشه معه طويلا .

بسلطانه ، وَقَبَضَ الله يده ، وأوهن عَصْدَه ، فإنه جائر لا يُنْصِفُ في حكم ، أعمى لا ينطق بعقل ، ولا يُقَصِّرُ في ظلم ، ولا يرعوى لذم ، ولا ينقاد لحق ، ولا يُبْنِي على عقل وفهم . لو ملك الهوى وَأَطِيع ، لَرَدَّ الأمور على أدبارها ، والدنيا على أعقابها .

* * *

وسئل أعرابي عن الهوى فقال : « هو داء تَدَاوَى به النفوس الصَّحَّاح ، وتُسَلُّ منه الأرواح ، وهو سُقْمٌ مُسْكَنٌ ، وَحَمِيمٌ ^(١) مُضْطَرَمٌ ، فالقُلوبُ له مُنْضِجَةٌ ، والعيون سَاكِبَةٌ . » (زهر الآداب ٣ : ١٨)

* * *

ووصف أعرابي امرأة يحبها فقال : « هي زينة الحُضُور ، وباب من أبواب السرور ، وَلَذِكْرُهَا في المغيب ، والبعدِ عن الرقيب ، أشهى إلينا من كل ولد ونَسِيب ، وبها عُرِفَ فضل الحُور العين ، واشتَيقَ بها إلين يوم الدين . » (زهر الآداب ٣ : ٢٤٤)

* * *

ووصف أعرابي نساء فقال :

« يَلْتَمِشْنَ على السَّبَائِكِ ^(٢) ، وَيَتَشَحَّنَ على النَّيَازِكِ ^(٣) ، وَيَأْتِرْنَ على العَوَانِكِ ^(٤) ، وَيَرْتَقِقْنَ على الأَرَائِكِ ^(٥) ، وَيَتَهَادَيْنَ على الدَّرَانِكِ ^(٦) ، ابْتِسَامُهُنَّ وَمِيضُهُنَّ ، عن وَلِيْعٍ كَالْإِغْرِيسِ ^(٧) ، وَهِنَّ إلى الصَّبَا صُورٌ ، وعن أَخْلَافٍ نُورٌ ^(٨) . » (الأملال ١ : ٤٤ ، وزهر الآداب ٣ : ١٨)

(١) الحميم : الماء الحار . وفي الأصل : « وحى » وأراه محرفاً عن حميم ، ويناسبه قوله بعد : « والعيون سَاكِبَةٌ » .

(٢) اللثام على الفم ، والاقام على طرف الأنف ، تلثمت المرأة وتلففت ، والسبائك هنا الأسنان شبهها لبياضها بالسبائك . (٣) النيازك جمع نيزك كجعفر : وهو الريح القصير .

(٤) العوانك جمع عانك : وهو رمل متعقد يشق فيه البعير لا يقدر على السير .

(٥) الأرائك جمع أريكة : وهي السرر أو الفرش ، وارتقق : اتكأ على مرفق يده ، أو على الخدة .

(٦) يتهادين : يمشين مشياً ضميماً ، والدرانك : اللطافس جمع درنوك كمصفور ، ودونك كزبرج .

(٧) الوميض : اللمعان الخفي ، والوليغ : الطلغ ، كأنه نظم اللؤلؤ في شدة بياضه . قال الشاعر يصف

نفر امرأة : وتبسم عن نير كالوليغ ، والإغريض : الطلغ حين ينشق عنه كافوره ، والبرد (بعجريك الغراء) .

(٨) صور : موائل ، ومنه قيل للمائل الضيق أصور ، ونور : نوافرات من الرية جمع نوار كصحاب .

قولهم في الوصف

٦٥- أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سئل أعرابي عن مطر فقال :

« استَقَلَّ سُدٌّ مع انتشار العَفَلِ ^(١) ، فَصَا وَاحْزَأَل ^(٢) ، ثم اكْفَهَرَتْ أَرْجَاؤُهُ ،
وَاحْمَوَتْ أَرْحَاؤُهُ ، وَابْدَعَتْ قَوَارِقُهُ ^(٣) ، وَتَصَا حَكَّتْ بَوَارِقُهُ ، وَاسْتَطَارَ وَاِدْقُهُ ، وَارْتَقَتْ
جُوبُهُ ، وَارْتَعَنَ هَيْدَبُهُ ^(٤) ، وَحَشَكَتْ أَخْلَافُهُ ، وَاسْتَقَلَّتْ أَرَادْفُهُ ، وَانْتَشَرَتْ
أَكْنَافُهُ ^(٥) ؛ فَالْعَدُّ مُرْتَجِسٌ ، وَالْبَرْقُ مُخْتَلِسٌ ، وَالْمَاءُ مُنْبَجِسٌ ^(٦) ، فَاتُّرَعَ
الْقُدْرُ ، وَانْتَبَثَ الْوُجُرُ ^(٧) ، وَخَلَطَ الْأَوْعَالَ بِالْأَجَالِ ، وَقَرَنَ الصَّيْرَانَ بِالرِّثَالِ ^(٨) ،

(١) استقل : ارتفع ، والحد : السحاب الذي يمد الأفق : والطفل : القمى إلى حد المغرب .

(٢) فصا : ارتفع ، واحزأل مثله . (٣) المكفهر من السحاب : الذي يركب بعضه بعضا ،
وأرجاؤه : نواحيه جمع رجا كعصا ، واحموت : اسودت ، وأرجاؤه : أوساطه : جمع رجا كعصا ، وابدعت
تفرقت : والقوارق جمع فارق ، وهو السحاب الذي ينقطع من معظم السحاب ، وأصله في الإبل ، يقال
ناقة فارق : وهى التى تندعن الإبل عند نتائجها .

(٤) استطار : انتشر ، والودق الذى يكون فيه الودق (كشمس) وهو المطر العظيم القطر ، وارتقت
الأمات ، وجوبه : فرجه ، وارقم : استرخى ، والهيدب : الذى يتدل ويدنو من الأرض مثل هذب للقطيفة
(٥) حشكت : امتلأت ، والأخلاف جمع خلف كحمل ، وهو الناقة كالفرع للبصرة ، أردافه : ماخيره
والأكناف : النواحي .

(٦) مرتجس : مصوت من الرجس كحمل وهو الصوت ، مختلس : كأنه يختلس البصر لشدة لمعانه ،
منبجس : متفجر .

(٧) أترع : ملأ والقدر جمع قدر ، والوجر جمع وجار ككتاب وسحاب : وهو جحر الضيق والثلث ،
وانتبث : أخرج نبيتها وهو تراب البئر والقبر ، أى أنه لشدته هدم الوجر حتى أخرج ما بداخلها من التراب

(٨) الأوعال جمع وعل ، (كشمس وكنت ودل) : التيس الجبل ، والأجال جمع أجل كحمل وهو
القطع من البقر أى أنه لشدته جمع بين الوهول - وهى تسكن الجبال - وبين البقر - وهى تسكن القيمان
والرمال ، والصيران جمع صوار كشجاع ، وصيار ككتاب وهو القطيع من البقر ، والرثال جمع رأل كشمس
فرخ النعام ، فالرثال تسكن الجله (بالتحريك وهى الأرض الصلبة المستوية المن) والصيران تسكن الرمال
والقيمان ، فترن بينهما .

فلأودية هدير، وللشراج خَرير، وللتلّاع زفير^(١)، وحطّ النّبع والّغمّ، من القلّل الشّمّ، إلى القيّمان الصّحْم^(٢)، فلم يَبْقَ في القلّل إلا مُعَصِمٌ مُجْرَنَسِمٌ، أو داحِضٌ مُجْرَجَمٌ^(٣)، وذلك من فضل ربّ العالمين، على عباده المُذنبين « .
(الأمال : ١ : ١٧٣)

٦٦- أعرابي يصف مطراً

عن الأصمعي قال : سمعت أعرابياً من غنيّ يذّكر مطراً أصاب^(٤) بلادهم في غيبٍ جَدَبٍ فقال :

« تداركَ رَبِّكَ خلقه ، وقد كَلَبْتَ الأَحْمالُ ، وتقاصرت الآمالُ ، وعَكَفَ الياسُ ، وَكُطِمَتِ الأنفاسُ ، وأصبحَ الماشي مُضْرمًا^(٥) ، وَالتَرَبُّ مُعْديماً ، وَجُفِيتِ الحلائِلُ ، وَامْتُهِنَتِ العقائِلُ ، فأنشأ سَحَاباً رُكَّامًا^(٦) ، كَنَهْوَرًا سَجَّامًا ، بُرُوقه متألّقة ، وَرُعوده مُتَقَفِّعة ، فَسَحَّ سَاجِيًا^(٧) راكِداً ، ثلثاً غيرَ ذِي فُوقٍ ، ثم أمر رَبُّكَ السَّيَالُ ، فَطَحَرَتْ^(٨) رُكَّامَه ، وَفَرَّقَتْ جِهَامَه ، فانتشع محموداً ، وقد أحيا

(١) هدير : أي صوت كهدير الابل ، الشراج جمع شرج كشمس وهو مسيل الماء من الحرة إلى السهل .
والفلاع : مسيل الماء من الجبال حتى ينصب في الوادي . (٢) النبع : شجر يعخذ منه القمى ينبت في الجبال ، والغم : الزيتون الجبل كقفل وحق ، والقلل : أمال الجبال جمع قلة كفرصة ، والشّم : المرتفعة جمع شماء والقيمان جمع قاع : وهي أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام ، والصحم : التي نطوها حرة جمع أصحم . (٣) المعصم : الذي قد تمسك بالجبال واستنع فيها (ويقال الرجل الذي يمسك بعرف فرسه خوف السقوط : معصم) مجرّئ : متقبض ، الداحض : الذي يفحص برجليه عند الموت ، والمجرّج : المصروع .
(٤) صاب : جاد ، وكلبت : اشتدت ، والأحمال جمع محل كشمس وهو القمط . وعكف : أقام .
(٥) الماشي : صاحب الماشية ، مشى الرجل وأمشى : كثرت ماشيته ، والمصرم : المقارب المال المقل ، والترّب للقنّى الذي له المال مثل التراب كثرة ، يقال : أترّب الرجل إذا كثرت ماله (وقل أيضاً : ضد) وترّب كفرح إذا افتقر كأنه لصق بالتراب ، وامتهنت : استخدمت واعملت ، والعقائل جمع عقيلة ، وأنشأ أحدث ، والنشء : السحاب أول ما يخرج .

(٦) الركام : المترام ، والكههور من السحاب قطع كأنها الجبال ، أو المترام منه ، واحده كهورة ، وسجام : صباب ، ومتألّقة : لامة ، ومتقفّعة : مصوقة .

(٧) سح : صب ، ساجياً : ساكناً ، راكداً : ثابتاً ، والفواق : أن يصب صبة ثم يسكن ، ثم يصب أخرى ثم يسكن مأخوذ من فواق الفاقة وهو ما بين الخلطين ، كأنه يحلب حلبة ثم يسكن ، ثم يحلب أخرى ثم يسكن . (٨) طحرت : أذهبت وأهدت ، والجهام : السحاب الذي قد هراق ماءه ، تكت : تحصى .

وَأَعْنَى ، وَجَادَ فَأَرَوَى ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تُسَكَّتْ نِعْمُهُ ، وَلَا تَنْفَدُ قِسْمُهُ ، وَلَا يَخْجِبُ سَائِلُهُ ، وَلَا يَنْزُرُ ^(١) نَائِلُهُ .
(الأمالي ١ : ١٧٦)

٦٧- أعرابي يصف مطرا

عن الأصمعي قال : « سألت أعرابياً من بني عامر بن صعصعة عن مطر صاب بلادهم فقال :

« نَشَأَ عَارِضاً ^(٢) ، فَطَلَعَ نَاهِضاً ، ثُمَّ ابْتَسَمَ وَامِضاً ، فَأَعَسَّ فِي الْأَفْطَارِ فَأَسْجَاهَا ، وَامْتَدَّ فِي الْآفَاقِ فَغَطَّاهَا ، ثُمَّ ارْتَجَزَ ^(٣) فَهَمَّهَمَ ، ثُمَّ دَوَى فَأَظْلَمَ ، فَأَرَكَّ وَدَثَّ ، وَبَفَشَ وَطَشَّ ثُمَّ قَطَّقَطَ ^(٤) ، فَأَفْرَطَ ، ثُمَّ دَيْمَمَ فَأَغْمَطَ ، ثُمَّ رَكَدَ فَأَنْجَمَ ، ثُمَّ وَبَلَ فَسَجَمَ ، وَجَادَ فَأَنْعَمَ ، فَقَمَسَ الرُّبَا ^(٥) ، وَأَفْرَطَ الزُّبَى ، سَبْعًا تَبَاعًا ، مَا يَرِيدُ انْقِشَاعًا ، حَتَّى إِذَا ارْتَوَتْ الْحُزُونُ ^(٦) وَتَضَحَّضَتْ الْمُتُونُ ، سَاقَهُ رَبُّكَ إِلَى حَيْثُ شَاءَ ، كَمَا جَلَبَهُ مِنْ حَيْثُ شَاءَ » .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٤٩)

-
- (١) ينزر : يقل ، ومنه قيل : امرأة زور : إذا كانت قليلة الولد .
(٢) العارض : السحاب المعترض في الأفق ، وومض البرق كوعده : لمع خفيفاً ، ولم أجده في كتب اللغة « أعس » وإنما الذي فيها « عمصص السحاب : دنا من الأرض » وأسجأها : غطأها ، وفي الأصل « أسجأها » بالماء وهو تصحيف . (٣) ارتجز الرعد : صات ، وارتجز السحاب : تحرك بطيئاً لكثرة مائه ، وههم الرعد : إذا سمعت له دويماً ، والهمهمة : كل صوت معه بحج ، وأرك : ألقى بالرك (بفتح الراء ويكسر) وهو المطر القليل أو هو فوق الدث ، والدث بالفتح : المطر الضعيف ، واليفشة بالفتح : المطرة الضعيفة وقد بغشت السماء كنع ، والطش : المطر الضعيف وهو فوق الرذاذ ، طشت السماء كنصر وضرب .
(٤) القلقط بالكسر : المطر المتتابع العظام القطر ، وقد قطعت السماء ، والديممة بالكسر : مطر يدوم في سكوه بلا رعد وبرق ، أو يدوم أياماً ، وقد ديمت السماء . أغط : دام ولازم ، وأنجمت السماء : أسرع مطرها ودام ، وللولب : المطر الشديد للضخم القطر ، وقد وبلت السماء كوعده : أمطرت ، وسجم كدخل : سال وانصب . (٥) قس الربا : كنصر وضرب : غوصها ، وأفرطها : ملاها حتى فاضت ، والزبي جمع زبية كفرصة ، وهي الراية لا يملؤها الماء ، وحفرة تحفر لصيد الأسد (وهو المراد هنا) سميت بذلك لأنهم كانوا يحفرونها في موضع حال .
(٦) الحزون جمع حزن كشمس وهو الغليظ من الأرض ، والمتون جمع من كشمس : وهو ماصلب من الأرض وارفع ، والضحضض والمتضضض والضحضض : الماء القليل ، وقيل هو مالا غرق فيه ، وقيل هو الماء إلى السكبين أو إلى أنصاف السوق — وفي لغة هذيل الكثير — وقد تضحضض الماء ، والتضضض أيضاً جرى للسراب ، فضحضض إذا تفرق .

٦٨ - ثلاثة غلّة من الأعراب يصفون مطرا

عن الأصمعي قال : مررت بِغِلْغَلَةٍ من الأعراب يتماقلون^(١) في غدير ، فقلت لهم : أيكم يصفلي الغَيْثَ وأعطيه دِرهما ؟ فخرجوا إلىَّ فقالوا : كلنا ، وهم ثلاثة ، فقلت لهم : صِفُوا ، فأيكم ارتضيت وضمّه أعطيته الدرهم ، فقال أحدهم :

« عَنْ لَنَا عَارِضَ قَصْرًا^(٢) ، تسوقه الصَّبَا ، وتُخَدِّدُوهُ الْجَنُوبُ ، يحبو حَبُو الْمُعْتَنِكِ^(٣) ، حتى إِذَا اِزْلاَمَتْ^(٤) صدوره ، وانتحت خُصُورُهُ ، وَرَجَّعَ هَدِيرُهُ ، وَصَقَّ زَيْبُهُ ، واستقل نَشَاصُهُ^(٥) ، وتَلَامَّ خَصَاصُهُ ، وارتعج ارتعاصُهُ ، وأوفدت سِقَابُهُ^(٦) ، وامتدت أطنابُهُ ، تدارك وَذْقُهُ ، وتَأَلَّقَ بَرَقُهُ ، وَحَفَزَتْ تَوَالِيهِ^(٧) ، وَانْسَقَحَتْ عَزَالِيهِ ، فغادر التَّرَى عَمِدًا^(٨) ، والعَرَازِئُ مَثِدًا ، والحَثَّ عِقْدًا^(٩) ، وَالضَّحَاضِحَ مُتَوَاصِيَةً ، وَالشَّعَابَ مُتَدَاعِيَةً »

(١) يتغاطون في الماء . (٢) عن : عرض ، والقصر : العشي ، والصبا : ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار . (٣) عنك الرمل كنصر : تعمق وارتفع فلم يكن فيه طريق ، ورملة عانك : فيها في تعمق لا يقدر البعير حل المشي فيها إلا أن يحبو ، واعتنك البعير واستمنك : حيا في العانك فلم يقدر حل السير . وقال رؤبة : أودعت إن لم تحب حيو المعتنك .

(٤) ازلامت : ارتفعت ، والخصور جمع خصر : وهو وهط الإنسان ، والترجيع : ترديد الصوت في الحلق . (٥) النشاص ككغاب وسحاب : السحاب المرتفع ، أو المرتفع بفضه فوق بعض وعصاه : فرجه ، وأصله الفرج بين الأثافي والثقب الصغير وكل خلل أو خرق في باب ومتنخل وبرقع ونحوه ، وارتعج : ارتعد ، وارتعص : تلوى وانفض ، وارتعص الريح : اشتد اهتزازة .

(٦) أوفدت : أشرفت ، والعقاب جمع سقب كشمس وهو عود الخباء ، والأطناب جمع طناب كتمنق وهو حبل طويل يشد به الوتة . (٧) حفزه كضربه : دفعه من خلفه ، والتوالي : الأجزاء والمآخير ، والعزالي بكسر اللام وفتحها جمع عزلاء : وهي مصب الماء من الراوية ونحوها ، وانسقحت : انصبت ، من سفح الدم أراقه . (٨) عمد الترى كفرج : بلله المطر حتى إذا قبضت عليه تعمق لندوته ، والعراز : الأرض الصلبة مكان ثند : ثد من الثأد بالعصريك وهو الثدى . (٩) الحث : اليابس الخشن من الرمل ، والعقد ككتف وجبل : ماتمق من الرمل وتراكم ، والضحاضح كجفجر والضحضاح : الماء القيسر ، متواصية : متواصلة ، والشباب : شعبة كفرصة : وهي المسيل في الرمل ، وما عظم من سواق الأودية ، وصعد في الجبل يأوى إليه المطر .

وقال الآخر : « تَرَأَتْ الْمَخَابِلَ ^(١) مِنَ الْأَقْطَارِ ، تَحْنُ حَنِينَ الْعِشَارِ ، وَتَتَرَامِي بِشُهْبِ النَّارِ ، قَوَاعِدُهَا مِتْلَاحِكَةٌ ^(٢) ، وَبَوَاسِقُهَا مِتْضَاحِكَةٌ ، وَأَرْجَاؤُهَا مِتْقَازِفَةٌ ، وَأَعْجَازُهَا مُتْرَافِفَةٌ ، وَأَرْحَاؤُهَا مُتْرَاصِفَةٌ ، فَوَصَلَتْ الْغَرْبَ بِالْشَرْقِ ، وَالْوَيْلَ بِالْوَدْقِ ، سَحًّا دَرًّا كَأَنَّ ^(٣) ، مُتَتَابِعًا لَكَا كَا ، فَضَخْضَخَتْ الْجَفَافِجَ ^(٤) ، وَأَنْهَرَتْ الصَّفَافِيفَ ، وَحَوَّضَتْ الْأَصَالِفَ ، ثُمَّ أَقْلَعَتْ مَحْمُودَةَ الْآثَارِ ، مَوْمُوقَةً الْخِيَارِ » .

فقال الثالث : وَاللَّهِ مَا خِلْتُهُ بَلَغَ خُسْفًا ، فَقَالَ : هَلُمَّ الدَّرْهَمَ أَصِفْهُ لَكَ ، فَقُلْتُ : لَا ، أَوْ تَقُولُ كَمَا قَالَا ، قَالَ : لَا بُدَّ لِنَهْمَا ^(٥) وَصَفًا ، وَلَا وَقِفْنِيهِمَا رَصَفًا ، فَقُلْتُ : هَاتِ لِي أَبُوكَ ، فَقَالَ : « بَيْنَمَا الْحَاضِرُ بَيْنَ الْبَاسِ وَالْإِبْلَاسِ ، قَدْ غَمَّرَهُمُ الْإِشْفَاقُ ، رَهْبَةً الْإِمْلَاقِ ، وَقَدْ جَفَّتِ الْأَنْوَاءُ ^(٦) ، وَرَفَرَفَ الْبَلَاءُ ، وَاسْتَوَلَى الْقُنُوطُ عَلَى الْقُلُوبِ ، وَكَثُرَ الْاسْتِغْفَارُ مِنَ الذُّنُوبِ ، ارْتَاحَ رَبُّكَ لِعِبَادِهِ ، فَأَنْشَأَ سَحَابًا مُسْتَجْبِرًا ^(٧) كَنْهَوْرًا مُعْنَوْنِيكَ مُخْلَوْلِكَ ، ثُمَّ اسْتَقَلَّ وَاخْزَلَّ ، فَصَارَ كَالسَّمَاءِ دُونَ السَّمَاءِ ،

(١) مخابيل جمع مخيلة « بضم الميم وكسر الخاء » والمخيلة والمخيلة « بتشديد الياء المكسورة » الصحابة التي تحسبها ما طرة ، والعشار جمع عشار كنفساء : وهي الناقة التي مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية ، أو هي كالنفساء من النساء ، والشهب جمع شهاب ككتاب : وهو شعلة من نار ساطعة .

(٢) قواعدها : أسافلها ، وأصله من قواعد البيت : أي أساسه ، متلاحكة : أي قد اشتد التماسها ، والمتلاحكة : الناقة الشديدة الخلق ، وبواسقها : أعاليها جمع باسقة ، من يسق : أي طال وارتفع ، ومتضاحكة أي يضحك فيها برقها ، متقاذفة : أي يفلد بعضها بعضا بالطر ، وأرجاؤها : أوساطها ، متراففة : متراكة قد رصف بعضها فوق بعض . (٣) أي صبا متتابعة ، ولكا كا : متزاها من السكك ككتاب وهو لازحام .

(٤) الجففاف جمع جفجف كجعفر : وهي الأرض المرتفعة ليست بالعليلة ، ونخصصتها : جعلت فيها ضحاضح والصفاف جمع صفصف كجعفر : وهو المستوى من الأرض ، وأنهر الماء : أساله ، والأصلف والصلفاء : ما صلب من الأرض ، والجمع أصالف ، وحوضت جعلت فيها حياضا .

(٥) بذة : فاتته وغلبه ، والحاضر : ساكن الحضر ، والباس : العذاب والشدة ، والإبلاس : التدمير واليأس : والاشفاق : الخوف ، والإملاق : الفاقة . (٦) الأنواء جمع نوء : وهو في الأصل سقوط النجم في المغرب مع الفجر وطلوع آخر يقابله في ساعته من المشرق ، وكانت العرب تصيف الأمطار والرياح والحر والبرد إليها . (٧) مستجبراً : لم أجده هذه الكلمة في كتب اللغة ، وربما كان الأصل : « مستنيراً » من استنير الشيء إذا اتسع ، والمخلوك : الشديد السواد ، وقد تقدم معنى اعتنك واستعتك : واعتونك أفعول من هذه المادة ، ولم أجده في كتب اللغة .

وكالارض المذخوة^(١) في نوح الهواء ، فأحسب السهول وأتأق الهجول ، وأحيا
الرجاء ، وأمات الضراء ، وذلك من فضل رب العالمين .
قال : فلا والله اليفع صدى ، فأعطيت كل واحد درهما ، وكتبت كلامهم .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٢)

٦٩ — أعرابي يصف مطرا

عن الأصمعي قال : سألت أعرابيا عن مطر صابهم بعد جذب فقال :
« ارتاح لنا ربك بعد ما استولى على الظنون ، وخامر القلب القنوط ، فأنشأ
بنو الجبهة^(٢) قزعة كالفرض من قبل العين ، فاحزألت عند ترجل النهار ،
لإزيم السرار^(٣) ، حتى إذا نهضت في الأفق طالعة ، أمر مسخرها الجنوب
فتنسمت لها ، فانتشرت أحضانها ، وأحموت أركانها ، وبسق عنانها^(٤) ، واكفهرت
رحاها ، وانبعجت كلالها ، وذمرت أخراها أولاهها ، ثم استطارت عقائتها ،
وتفققعت صواعقها ، ثم ارتفعت^(٥) جوانبها ، وتداعت سواكبها ، ودرت حوالها
فكانت الأرض طبقا^(٦) سح فهضب ، وعم فأحسب ، قعل القيعان ، وضحضح

(١) الميسوة ، واللوح : الهواء وأحسبها : أدواها ، من أحسبه إذا أطمعه وسقاه حتى شبع
وروى ، وأتأق : ملأ ، والهجول جمع هجل كشمس : وهو الماطق من الأرض ، واليفع واليانع :
الشاب .

(٢) الجبهة : منزل للقمر ، قزعة : قطعة من السحاب ، والفرض : الترس ، والعين : القيلة ، وترجل
النهار : ارتفع .

(٣) الإزيم : ليلة من ليالي الخاق — والحاق مثلثة : ثلاث ليال من آخر الشهر ، والسرار :
آخر ليلة من الشهر ، وأحضانها جمع حزن كحمل : وهو جانب الشيء وناحيته ، وأحموت : أسودت .
(٤) يسق : ارتفع ، والعنان : السحاب ، رحاها : وسطها ، وانبعجت : انشقت ، والكلية من
السحاب : أسفلها — ومن المزايدة رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة ، وذمرت : حففت — والتدامر :
التحاض على القتال ، عقائقها بروقها المشبهة للعقائق .

(٥) ارتعن المطر : ثبت وجاد . (٦) غيث طبق : هام واسع يطبق الأرض ، وهضب كضرب :
مطر .

النَّيْطَان ، وَجَوَّحَ الْأَضْوَاجَ ^(١) ، وَأَتَرَاعَ الشَّرَاجَ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ كِفَاءَ إِسَاءَتِنَا إِحْسَانًا ، وَجَزَاءَ ظَلَمْنَا غُفْرَانًا .
(بلوغ الأرب ٢ : ٢٥٢)

٧٠- أعرابي يصف مطرا

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابيا من بني عامر بن لؤي بن صَمْعَمَةَ يصف مطراً فقال :

« نَشَأُ عِنْدَ الْقَصْرِ ، بِنَوَى الْقَفْرِ ^(٢) ، حَبِيْبًا عَارِضًا ، ضَاحِكًا وَامِضًا ، فَكَلَّا وَلَا ^(٣) مَا كَانَ ، حَتَّى شَجَّيْتُ بِهِ أَقْطَارُ الْهَوَاءِ ، وَاحْتَجَبْتُ بِهِ السَّمَاءَ ، ثُمَّ أَطْرَقَ ^(٤) فَكَفَهَرُ ، وَتَرَكَمُ فَادْلَهَمَ ، وَبَسَقَ فَازْلَأَمَ ، ثُمَّ حَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ، فَحَنَّ ، فَالْبَرْقُ مُرْتَعِجٌ ، وَالرَّعْدُ مُتَبَوِّجٌ ^(٥) ، وَانْخَرَجَ مُتَبَعِّجٌ ، فَأَنْجَمَ ثَلَاثًا ، مُتَحَيِّرًا هُنْهَنَا ^(٦) ، أَخْلَافُهُ حَاشِكَةٌ ، وَدَفَعَهُ مَتَوَاشِكَةٌ ، وَسَوَامُهُ مُتَعَارِكَةٌ ، ثُمَّ وَدَّعَ مُنْجِمًا ^(٧) ، وَأَقْلَعَ مَتَهْمًا ، مَحْمُودَ الْبَلَاءِ ، مُتَرَعَّعَ النَّهَاءِ ، مُشْكُورَ النَّعَاءِ ، بِطَوَّلٍ ^(٨) ذِي الْكِبَرِيَاءِ .

(بلوغ الأرب ٢ : ٢٥٤)

(١) جَوْحُ السَّيْلِ الْوَادِي : إِذَا كَسَرَ جَنْبَيْهِ وَاقْتَلَعَ أَجْرَافَهُ ، وَفِي الْأَصْلِ « جَوْحٌ » وَهُوَ تَصْحِيفٌ .
وَالْأَضْوَاجُ جَمْعُ ضَوْجٍ كَشَمْسٍ : وَهُوَ مُعْطَفُ الْوَادِي ، وَالشَّرَاجُ جَمْعُ شَرَجٍ كَشَمْسٍ أَيْضًا : وَهُوَ مَسِيلُ الْمَاءِ مِنَ الْحَرَّةِ (يَفْتَحُ الْحَاءُ) إِلَى الْمَجْلِ .

(٢) الْقَصْرُ : الْعَتَى ، وَالْقَفْرُ : مَنَازِلُ الْقَمَرِ ، وَالْحَبِيْبُ : السَّحَابُ يَشْرِفُ مِنَ الْأَفْقِ عَلَى الْأَرْضِ ، أَوِ الَّذِي يَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ .
(٣) قَالَ فِي اللَّسَافِ : « وَالْعَرَبُ إِذَا أَرَادُوا تَقْلِيلَ مَدَّةِ فِعْلٍ أَوْ ظَهْوَرِ شَيْءٍ خَفِيَ قَالُوا : كَانَ فَعْلُهُ كَلَاهُ » وَرَبَّمَا كَرَّرُوا فَقَالُوا كَلَا وَلَا ، قَالَ الشَّاعِرُ : يَكُونُ زَوْلُ الْقَوْمِ فِيهَا كَلَا وَلَا : ، وَالشَّجَا : مَا اعْتَرَضَ فِي الْخَلْقِ مِنْ عَظَمٍ وَنَحْوِهِ ، وَقَدْ شَجَى بِهِ كَرَضَى .

(٤) هُوَ مَنْ أَطْرَقَتِ الْإِبِلُ : تَبِعَ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَادْلَهَمَ : اسْوَدَّ .

(٥) التَّبَوُّجُ : الصِّيَاحُ ، وَانْخَرَجَ : السَّحَابُ أَوَّلَ مَا يَنْشَأُ ، مُتَبَعِّجٌ : مُتَشَقِّقٌ .

(٦) الْمَتَهْمَاتُ : السَّرِيعُ ، حَاشِكَةٌ : كَثِيرَةُ الْمَاءِ ، مُتَوَاشِكَةٌ : يَسَارِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَالسَّوَامُ : الْإِبِلُ الرَّاعِيَةُ .

(٧) أَنْجَمَ الْمَطَرَ وَغَيْرَهُ : أَقْلَعَ ، وَمَتَهْمًا : أَيَّ سَائِرًا نَحْوَ تَهَامَةٍ ، وَالنَّهَاءُ جَمْعُ نَهْيٍ بِالسَّكْمِ وَالْفَتْحِ وَهُوَ الْقَدِيرُ .

(٨) أَيُّ بِفَضْلِهِ وَقُدْرَتِهِ .

٧١ - أعرابي يصف مطرا

عن أبي عبيدة قال : خرج النّمان في بعض أيامه في عَقِبِ سَما ، فلقى أعرابياً على ناقة ، فأمر فأُتِيَ به ، قال : كيف تركت الأرض وراءك ؟ فقال :

« فَبِحُ رُحَاب^(١) ، منها السهولُ ومنها الصَّعابُ ، منشوطة بِجِمالِها ، حاملة

لأنقالها » ، قال : إنما سألتك عن السماء ! قال :

« مُطَلَّة^(٢) مستَقِلَّة ، على غير سِقَاب ولا أَطْناب ، يَخْتَلِفُ عَصْرُها ، ويتعاقب

سِرَاجُها ، قال : ليس عن هذا أسألك ! قال : فَسَلْ ما بدا لك ، قال : هل صَابَ الأرضَ غَيْثٌ ؟ قال :

« نعم : أَغْمَطَت^(٣) السَّما في أرضنا ثلاثاً رَهْواً ، فَثَرَّتْ وأَرْزَعَتْ ، وَرَسَّعَتْ ،

ثم خرجتُ من أرض قومي أَقْرَوْها^(٤) » ، فإذا هي مُتَوَاصِيَّة ، لا خَطِيطَةٌ بينها ، حتى هبطتُ

بِعِشَارٍ ، فتداعى السحابُ من الأقطار ، فجاءنا بالسَّيلِ الخَرَّارِ ، ففعا^(٥) الآثارَ ، وملاً

الجفارَ ، وَقَوَّرَ عَالِيَ الأشجارِ ، فَأَجَجَرَ الحُضارَ ، ومنع السَّفَّارَ ، ثم أَقْلَعَ عن نفع

وإضرار ، فلما اتَّلاَّتْ^(٦) لى القِيَمَانِ ، ووضَحَتِ السُّبُلُ في الغِيْطَانِ ، وفاتِ العَنانُ ،

من أقطارِ الأَعْنانِ ، فلم أَجد وَزْراً إلا الغيرانَ ، ففاتَ وَجَارِ الضُّيْعِ ، فغادرتُ السهولَ

(١) فيح جمع فيحاء : واسعة ، وكذا رحاب ، منشوطة : مشدودة ، من نشط الجبل كنصر عقده (وأنشطه : حله) . (٢) مطلة : مرتفعة ، وكذا مستقلة ، والسقاب جمع سقب كشمس : وهو عود الخباء ، والعصران : الليل والنهار ، وسراجها : الشمس والقمر . (٣) أى دامت ولازمت ، والرهو : السكون والثرة من الميول : الغزيرة كالثرثرة ، وقد ثرت هى ، والرزغة بالتحريك : الوحل ، وأرزغ المطر الأرض بلها ولم تسل ، ورسغ المطر : كثر وثرى الأرض حتى تبلغ يد الحافر عنه إلى أرساغه .

(٤) أتبعها ، والخطيطة : الأرض لم تمطر بين مطورتين ، أو التى مطر بعضها ، وعشار : موضع . (٥) محابها وطمسها ، والجفار جمع جفر كشمس : البرأتى لم تطو ، وقورها : قطع من وسطها خرقاً مستديراً ، وأججر ، من أججر الضب : أى أدخله في جحره ، والحضار جمع حاضر وهو المقيم في الحضر ، والسفار جمع سافر وهو المسافر لا فعل له . (٦) استقامت ، والعنان : السحاب ، والأعنان من السماء : نواحيها ، والوزر الملجأ ، والغيران جمع غار : وهو الكهف في الجبل ، والوجار بالكسر والفتح : جحر الضيع وغيرها .

كالبحار ، تتلاطم بالتَّيَّار ، والحزُون متلفعةً بالْفُتَاء^(١) ، والوحوشَ مقذوفة على الأرجاء ، فزارلت أطاماً السماء ، وأخوض الماء ، حتى وَطِئَتْ أرضكم .
(بلوغ الأرب ٣: ٢٠٧)

٧٢ — أعرابي يصف مطراً

عن أبي عبيدة قال : وقف أعرابي على قوم من الحجاج فقال :
« يا قومي بدا شأني ، والذي أَلْفَجَنِي^(٢) إلى مسألتكم ، إن الغيث كان قد قَوَّى عَنَّا
نم تَكَرَّفًا السحابُ ، وَشَصَا الرَّبَّابُ^(٣) ، وَأَذْلَهَمَ سَيِّقَهُ^(٤) ، فارتجس رَيْقَهُ ، وقلنا :
هذا عامُّ بَاكِرُ الْوَسْمِيِّ^(٥) ، محمود السَّمِيِّ ، ثم هَبَّتْ له السَّمالُ ، فَأَحْزَلَّتْ طَخَارِيْرُهُ^(٦) ،
وتفرَّعَ كَرِفَتُهُ متباشراً ، ثم تتابع لمعانُ البرق ، حيث تَشِيْمُهُ الأبصارُ ، وتجدده النظَّارُ ،
وَمَرَّتِ^(٧) الجنُوبُ ماءه ، فقَوَّضَ الحَيُّ مُزَلِّمَيْنِ نحوه ، فَسَرَّحْنَا المالَ فيه وكان
وَنَحْمًا وَخِيَمًا ، فأساف المالَ ، وأضفَّ الحالَ ، فرحِمَ الله امرأً جادَ بِمَيْرٍ ، أو دل
على خَيْرٍ » .
(بلوغ الأرب ٣: ٢٠٨)

٧٣ — أعرابي يصف مطراً

عن عبد الرحمن عن عمه قال :
قال أبو مُجَيْبٍ - وكان أعرابياً من بني ربيعة بن مالك - : « لقد رأيتُنَا في أرضٍ

-
- (١) الفُتَاء : البالي من ورق الشجر المخالط لزبد السيل .
(٢) أَلْفَجَنِي : وقوى المطر : احتبس ، وتكرَّفاً : تراكم ، وشصا : ارتفع ، والرباب : السحاب الأبيض
(٣) ادلهم : اسود ، والسيق : السحاب لا ماء فيه ، والرَيْق : تردد الماء على وجه الأرض .
(٤) الوسْمِيُّ : مطر الربيع الأول ، سمى بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات ، والسَمِيُّ جمع سماء : وهو المطر
أو المطرة الجيدة . (٥) الطخاريير جمع طخروو كحصفور بالخاء والحاء : الطاخ من السحاب ، والكرفه :
السحاب المرتفع المتراكم ، وتفرَّعَ : تفرق وإنقشع ، وشام البرق : نظر إليه أين يقصه .
(٦) هو من مَرَى اللقاة كرمى : مسح ضرعها اندر ، مزَلِّمَيْنِ : ماضين مرتحلين إليه ، وأساف المال :
أهلسته ، والسواف كجبان وشجاع : الموت في الناس والمال ، ساف سوفاً أى هلك ، وأسافه الله ، ويقال
أيضاً أساف الرجل : وقع في ماله السواف أى الموت : وأضف من الضفف كسبب وهو الضيق والشدة ،
أصابهم من العيش ضفف أى شدة .

مَجْفَاء^(١) ، وزمان أَمْجَف ، وشجر أَعْصَم ، في قَفٍّ غليظ ، فبينما نحن كذلك ، إذ أنشأ الله تعالى من السماء غيثاً مُسْتَكِيفاً^(٢) نَشُوهُ ، مُسْبِلَةً عَزَالِيهِ ، ضِخَاماً قَطْرُهُ ، جَوْداً صَوْبُهُ زَاكِيَاً ، أنزله الله تعالى رزقاً لنا ، فَعَيْشَ به أموالنا ، وَوَصَلَ به طرقنا ، وأصابنا وإِنَّا لَبِنَوَاطَةٍ^(٣) بعيدة الأرجاء ، فاهرمع مطرُها ، حتى رأيتُنا وما نرى غير السماء والماء وَضَهَوَاتِ الطَّلَحِ^(٤) ، وَضَرَبَ السَّيْلُ النَّجَافَ ، وملاً الأودية فَزَعَبَهَا ، فإِ لَبِئْنَا إِلَّا عَشْرًا ، حتى رأيتها رَوْضَةً تَنْدَى .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥٩)

٧٤- أعرابي يصف مطرا

ودخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك فقال :
« أصابتك سماءٌ في وجهك يا أعرابي » ، قال : « نعم يا أمير المؤمنين ، غير أنها سَحَاءٌ طَحْنَاءٌ وَطَفَاءٌ^(٥) ، كَأَنَّ هَوَادِيَهَا الدَّلَاءُ ، مُرْجَجِنَةُ النَّوَاحِي ، مَوْصُولَةٌ بِالْأَكَامِ تَكَادُ تَمْسُ هَامَ الرِّجَالِ ، كَثِيرٌ رَجَلُهَا^(٦) ، قَاصِفٌ رَعْدُهَا ، خَاطِفٌ^(٧) بَرَقِهَا ، حَنِيتٌ وَدَقِهَا ، بَطِيءٌ مَسِيرُهَا ، مُتَعَنِّجٌ قَطْرُهَا ، مَظْلِمٌ نَوُوءُهَا ، قَدْ لَجِثْتُ الْوَحْشَ إِلَى أَوْطَانِهَا ، تَبَحُّثٌ عَنْ أَصُولِهَا بِأُظْلَافِهَا ، مُتَجَمِّعَةٌ بَعْدَ شَتَائِهَا ، فَلَوْلَا اعْتَصَامُنَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ

(١) ليس بها نبات ، وأصله من العجف بالتحريك وهو الخزال ، وأعم : يابس ، وأصله من العسم بالتحريك وهو يبس في مفصل الرسخ تعوج منه اليد والقدم ، والقف ، ما غلظ من الأرض وارتفع ، لم يبلغ أن يكون جبلاً : وأنشأ الله الصحاب : رفعه . (٢) مستكفاً : مستديراً كالسكفة ، (والسكفة بالسكسر وبضم كل مستدير) ، وصوبه : مطره . (٣) النوَاطَةُ : الأرض يكثر بها الطلح (والطلح : شجر عظام) والموضع المرتفع من الماء ، أو ليس بهواد ولا تلمعة بل بين ذلك ، واهرمع : كثر وأمرع . (٤) الضهوة : بركة الماء ، والنجاف جمع نجف بالتحريك وبهاء : مكان لا يملؤه الماء ، أو هي أرض مستديرة مشرفة على ما حولها ، وزعجها : ملأها .

(٥) سحابة وطفاء : مسترخية لكثرة ماؤها ، أو هي الدائمة السح الخثيثة ، هوادياها : أوائلها ومقادماها ، مرجحنة : ثقيلة مهتزة (٦) الزجل : الجلية ورفع الصوت ، متعجنز : سائل منصب ، ولجا إليه كنع وفرج ، وأظلاف جمع ظلف بالسكسر وهو للبقرة والشاة والظبي وشبهها كالقدم لنا ، والفتن جمع فنة ، وهي قبة الجبل . (٧) زدت هذه الكلمة كي يستقيم بها الكلام والظاهر أنها سقطت من الأصل في الطبع .

بَعْضَاهِ الشَّجَرِ ، وَتَمَلَّقْنَا بِقُنَنِ الْجِبَالِ ، لَكُنَّا جُفَاءً^(١) فِي بَعْضِ الْأَوْدِيَةِ ، وَلَقَمَ الطَّرِيقَ ، فَأَطَالَ اللَّهُ لِلْأُمَّهَاتِ بَقَاءَهُ ، وَنَسَأَ لَهَا فِي أَجَلِكَ بِيَرَكَتِكَ ، وَعَادَ اللَّهُ بِكَ عَلَى رَعِيَّتِكَ ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ .

فَقَالَ سُلَيْمَانُ : « لَعَمْرُؤُا أَيْبُكَ لَنَنْ كَانَتْ بِدِيهِه لَقَدْ أَحْسَنْتَ ، وَإِنْ كَانَتْ مُحَبَّرَةً لَقَدْ أَجَدْتَ » قَالَ : بَلْ مُحَبَّرَةٌ مَهْدُورَةٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : « يَا غَلَامُ أَعْطِهِ ، فَوَاللَّهِ لَصِدِّقُهُ أَعْجَبُ إِلَيْنَا مِنْ صِفَتِهِ » .

(العقد الفريد ٢ : ٩٦)

٧٥- أعرابية تصف مطرا

عَنِ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ : « كَانَ شَيْخٌ مِنَ الْأَعْرَابِ فِي خَبَائِهِ ، وَابْنَةٌ لَهُ بِالْفِئَاءِ^(٢) ، إِذْ سَمِعَ رَعْدًا فَقَالَ : مَا تَرَيْنِ يَا بَنِيَّةُ ؟ قَالَتْ : أَرَاهَا حَوَاءَ قَرَحَاءَ^(٣) ، كَأَنَّهَا أَقْرَابُ أَتَانِ قَرَاءَ ، ثُمَّ سَمِعَ رَاعِدَةً أُخْرَى فَقَالَ : كَيْفَ تَرِينَهَا ؟ قَالَتْ : أَرَاهَا حَجَّةَ التَّرْجَافِ^(٤) مُتَسَاقِطَةً الْأَكْنَافَ ، تَتَأَلَّقُ بِالْبَرْقِ الْوَلَّافِ ، قَالَ : هَلُمِّي الْمَعْرِفَةَ ، إِنِّي نُوِيًّا^(٥) .

(بلوغ الأرب ٣ : ٢٥١)

٧٦- أعرابية تضيف مطرا

عَنِ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ : كَانَ أَعْرَابِيٌّ ضَرِيرٌ يَقْوَدُهُ ابْنَتُهُ ، وَهِيَ تَرَعِي غَنِيَّاتِهَا ، فَرَأَتْ سَحَابًا فَقَالَتْ : يَا أَبْتَ جَاءَتْكَ السَّمَاءُ ، فَقَالَ : كَيْفَ تَرِينَهَا ؟ قَالَتْ : كَأَنَّهَا فَرَسٌ دَهْمَاءٌ^(٦) تَجْرُو جِلَالَهَا ، قَالَ : ارْعَى غَنِيَّاتِكَ ، فَرَعَتْ مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَتْ : يَا أَبْتَ جَاءَتْكَ السَّمَاءُ ، قَالَ : كَيْفَ تَرِينَهَا ؟ قَالَتْ : كَأَنَّهَا عَيْنٌ جَمَلٌ طَرِيفٌ^(٧) قَالَ : ارْعَى

(١) الفِئَاءُ : الزَّيْدُ ، وَلَقَمَ الطَّرِيقَ : مَعَطَهُ وَوَسَطَهُ ، وَفِي الْأَصْلِ : لَعَمْرُؤُا وَهُوَ تَحْرِيفٌ .

(٢) الْفِئَاءُ : مَا اتَّسَعَ أَمَامَ الدَّارِ . (٣) حَوَاءُ : وَصَفٌ مِنَ الْحَوَةِ بِالضَّمِّ وَهِيَ حَمْرَةٌ إِلَى السَّوَادِ ، وَالْقَرَحَاءُ بِالضَّمِّ : وَجْهُ الْفَرَسِ دُونَ الْغُرَّةِ ، وَالْوَصْفُ مِنْهُ أَفْرَحُ وَقَرَحَاءُ ، وَالْأَقْرَابُ جَمْعُ قَرَبٍ كَقَفْلٍ وَهَقٍّ ، وَهُوَ الْخَاصِرَةُ ، وَالْقَمَرَةُ بِالضَّمِّ : بَيَاضٌ فِيهِ كُدْرَةٌ ، حَمَارٌ أَقْرَ ، وَأَتَانٌ قَرَاءُ .

(٤) كَثِيرَةُ الْاضْطِرَابِ ، الْوَلَّافُ : الْمُتَتَابِعُ ، مِنْ وَلَفَ الْبَرْقُ كَوَعْدٍ وَلَفًا وَوَلَّافًا بِالْكَسْرِ : تَتَابَعَ .

(٥) النَّوْيُ : الْحَفِيرُ حَوْلَ الْخِيَاءِ يَمْنَعُ السَّيْلَ ، وَانْتَابَعَهُ عَمَلُهُ . (٦) سَوْدَاءُ ، وَالْجَلَالُ جَمْعُ جَلٍّ

بِالضَّمِّ وَالْفَتْحِ : مَا تَلْبَسُهُ الدَّابَّةُ لِلصَّانِ بِهِ . (٧) الْجَمَلُ يَنْتَقِلُ مِنْ مَرَعَى إِلَى مَرَعَى .

غَنِيَمَتِكَ ، فرعت ملياً ، ثم قالت : يا أبت جاءتك السماء ، قال : كيف ترينها ؟
قالت : سَطِحتْ وَايِضَّتْ ، قال : أدخلى غنيمتك ، قال : فجاءت السماء بشيء شَطَأً^(١) له
الزروع وأينع ، وَخَصِرَ وَنِصْرُ ، (بلوغ الأرب ٢٦٠٢)

٧٧ - أعرابي يصف أرضاً

ووصف أعرابي أرضاً أحمدَهَا فقال :

« خَلَعَ شَيْحُهَا ، وَأَبْقَلَ رِمْتُهَا ، وَخَضَبَ عَرَفُجُهَا^(٢) ، وَآتَسَقَ نَبْتُهَا ، وَاخْضَرَّتْ
قُرَيَانُهَا ، وَأَخْوَصَتْ بَطْنَانَهَا^(٣) ، وَأَحْلَسَتْ أَكْمُهَا ، وَاعْتَمَّ نَبْتُ جَرَاثِيمِهَا^(٤) ،
وَأَجَرَتْ بَقْلَتَهَا وَذُرْقَتَهَا وَحُبَّازَتَهَا^(٥) ، وَاحْوَرَّتْ خَوَاصِرُ إِبِلِهَا ، وَشَكِرَتْ
حَلُوبَتُهَا ، وَسَمِنَتْ قَتُوبَتَهَا^(٦) ، وَعَمِدَ ثَرَاها . وَعَقَدَتْ تَنَاهِيها ، وَأَمَاهَتْ ثَمَارُها .
وَوَثِقَ النَّاسُ بِصَاثِرَتِهَا^(٧) . »

(البيان والعبين ٢: ٧٧)

(١) شَطَأُ الزروع : أخرج شطأه ، أى فراخه .

(٢) خلع الشيع : أوردق (والخالع من الغضاه : الذى لا يسقط ورقه أبداً ، والغضاه ككتاب : كل شجر
له شوك) والرمث . مرعى للإبل ، وشجر يشبه الغضا ، والعرفج : شجر سهل ، وغضب الشجر كضرب
وسمع وعنى : اخضر . (٣) القرىان : مجرى الماء من الربو إلى الرياض جمع قرى كقنى ، وأخوص
العرفج : تفطر بورك ، أخوصت النخلة : أخرجت الخوص ، والبطنان جمع باطن وهو الغامض من الأرض
أى المطنن منها . (٤) أحلس النبت : غطى الأرض بكثرتة ، وأحلس الأرض فهى محلسة : صار
النبات عليها كالحلس كثرة الحلس كحمل كساء على ظهر البعير - والجراثيم جمع جرثومة بالضم ، وجرثومة
القي : أصله ، واعتم : أى كأنه ليس عمامة . (٥) أجزت البقلة : صارت لها جراء - وجراء ككتاب
جمع جرو بالثلاثين وهو صغير كل شيء - والذرة واحدة الذرق وهو نبات مثل الكراث الجبل الدقاق فى
رأسه حب حلو يؤكل رطباً تحبه الرعاة يأتون به أهليهم : والخيازة والخيازي : النبت المعروف .

(٦) احورت : ابيضت وذلك من الشد على خواصرها لثلا تحيط (والحيط بالتحريك : انتفاخ بطنها بن
مرعى ترعاه) والحلوبة : الحلوبة ، وشكرت الناقة : امتلأ ضرعها ، والداية : سميت ، والقنوبة : الإبل
التي تقتتها (وأقتب الناقة : شد عليها القتب (بالتحريك) وهو إكافر صغير على قدر سنام البعير) . -

(٧) عمد الأثرى : بلاء المطر حتى إذا قبضت عليه تبقه لدوته ، والتناهى جمع تنهى : وهى مستقر السيل
حيث ينتهى الماء من الوادى ، وعقدت تناهيها : أن يمر السيل مقبلاً حتى إذا انتهى منتهاه دار بالأبطح
حتى يلتقى طرفا السيل ، وأمَاهَتْ ثمارها : أى كثر ماؤها ، والصائرة : المطر والسكالا .

٧٨ - رائد يصف أرضاً جديدة

قال أبو الجيب : وصف رائد أرضاً جديدة فقال :

« أَغْبَرَتْ جَادَتْهَا ^(١) ، وَذَرَعَ مَرْتَمًا ، وَقَضِمَ شَجْرُهَا ، وَرَقَّتْ كَرِشَهَا ، وَخَوَّرَ عَظْمَهَا . وَالتَّقَى سَرَحَاهَا ^(٢) . وَتَمَيَّزَ ^(٣) أَهْلُهَا . وَدَخَلَ قُلُوبَهُمُ الْوَهْلُ . وَأُمُومَهُمُ الْهَزْلُ » .
(البيان والتبيين ٢ : ٧٧)

٧٩ - رائد يصف أرضاً

عن محمد بن كُنَاسَة قال : أخبرني بعض فصحاء أعراب طيء قال :

« بَعَثَ قَوْمٌ رَائِدًا . فَقَالُوا : مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : عُشْبٌ وَتَعَاشِبٌ ^(١) ، وَكَغَاةٌ مُتَفَرِّقَةٌ شَيْبٌ ، تَقْلَعُهَا بِأَخْفَافِهَا النَّيْبُ ^(٢) » ، قَالُوا : لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا ، هَذَا كَذِبٌ ! فَأَرْسَلُوا آخَرَ ، فَقَالُوا : مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : « عُشْبٌ نَادٌّ مَادُّ مَوْلِي ^(٣) » وَعَهْدٌ . مُتَدَارِكٌ جَعْدٌ ^(٤) ، كَأَنفَازٍ نَسَاءٍ بَنِي سَعْدٍ ، تَشْبَعُ مِنْهُ النَّيْبُ وَهِيَ تُعْدُّ ^(٥) » .
(البيان والتبيين ٢ : ٧٩)

(١) الجادة : الطريق إلى الماء ، وذرع المرقع : بعد عن الماء ، وقضم شجرها : تكسر ، يقال : سيف قضم كفرح : أي طال عليه الدهر فتكسر حده ، وقضم السن : انصدع وثلثم ، وإذا لم يكن للجمال مرعى إلا للشجر وحده وقت أكراشه . (٢) يعني أنه إذا أكل كل سائح ما يليه ، التقيا عند الماء . (٣) تفرقوا في طلب الكاذ ، والوهل : الفزع ، والهزل : موت مواشي الرجل .

(٤) العشب : السكاذ الرطب ، والتعاشيب : القطع المتفرقة منه . (٥) الذهب جمع ناب : وهو الناقة المسنة . (٦) جاء في اللسان : « قال الأصمعي : قيل لبعض العرب : أصب لنا موضعاً أه أطلب فقال رائدهم : وجدت مكاناً ثنداً مثداً (بفتح فكسر) وقال زيد بن كثوة : بحثوا رائداً فجاء وقال : عشب ثاد مَاد (بفتح فسكون) كأنه أسوق بني سعد » وثند الثبت كفرح : ندى فهو ثند ، ومَاد كنع اهتز وتروى وجرى فيه الماء وتنعم ولان والمَاد : الناعم من كل شيء ، والمولى : الذي أصابه الولي (والمولى : المطر الذي يأتي بعد المطر) ، والعهد : أول مطر الومي (والوسمي : أول مطر الربيع) .

(٧) من قولهم : زيد جمعد : أي متراكب مجتمع قد صار بعضه فوق بعض .

(٨) يعني أن العشب قد طال وتم ، والنيب تشيع منه وهي تعد : لأنها تتناولوه وهي قائمة لا تبرج مكانها ولا تعطاطي رأسها .

٨٠ — رائد يصف أرضاً

وبعث رجل أولاده يرتادون في خِصْب . فقال أحدهم : « رأيتُ بُقْلاً . وماء غَيْلاً^(١) . يسيل سَيْلاً . وخُوصه تميل مَيْلاً ، يحسبها الرائد ليلاً » وقال الثاني : « رأيت دِيمة على دِيمة ، في عهدا غير قديمة . وَكَلًّا تشبع منه النَّاب قبل الفطيمة » .
(البیان والتبيين ٢ : ٧٩)

• • •

وروى هذا الوصف عن ابن الكلبي بصورة أخرى قال :
« خطب هندَ بنتُ الخُصِّ الإيادية ثلاثة نَفَر من قومها ، وارتضت أنسابهم وجاهلهم ، وأرادت أن تسبر عقولهم ، فقالت لهم : « إني أريد أن ترتادوا إلى مرعى ، فلما أتوها قالت لأحدهم : ما رأيت ؟ قال : رأيت بُقْلاً وَبُقَيْلاً ، وماءً غَدَقًا^(٢) سَيْلاً ، يحسبه الجاهل ليلاً ، قالت : أمرعت^(٣) ، قال الآخر : رأيت دِيمة بعد دِيمة ، على عهد غير قديمة ، فالناب تشبع قبل الفطيمة ، قال الثالث : رأيت غَيْثًا تُعَدُّ مَعْدًا^(٤) ، متراكماً جَفْدًا ، كأنفاذ نساء بنى سعد ، تشبع منه النَّيب وهي تُعَدُّ » .
(بلوغ الأرب ٢ : ٢٥٦)

٨١ — أعرابي يصف أرضه وماله

عن أبي عمرو بن العلاء قال : لقيت أعرابياً بمكة فقلت له : ممن أنت ؟ قال :
أَسَدِيّ ، قلت : ومن أيهم ؟ قال : نهدي ، قلت : من أى البلاد ؟ قال : من عُمان ،

(١) الغيل : الماء الذى يجرى بين الشجر .

(٢) الغدق : الماء الكثير . (٣) أمرعه أصابه مريماً كخصيب وزنا ومعنى .

(٤) الغيث : المطر والكلأ ، وقيل : الأصل المطر ثم سمي ما ينبت به غيثاً ، والمراد هنا الثاقى ، وبقل

تعد معد : غرض رطب رحص .

قلت : فَأَنَّى لك هذه الفَصَاحَةُ ؟ قال : « إِنَّا سَكَنَّا قُطْرًا لَا نَسْمَعُ فِيهِ نَاجِحَةَ التِّيَّارِ ^(١) »
 قلت : صف لي أرضك ، قال : « سَيْفٌ أَفِيحٌ ، وَفَضَاءٌ صَحْصَحٌ ، وَجَبَلٌ صَرَدَحٌ ،
 وَرَمْلٌ أَصْبَحٌ ^(٢) » ، قلت : فما مالك ؟ قال : النخل ، قلت : فأين أنت من الإبل ؟
 قال : « إِنْ النخل حَمَلَهَا غِذَاءٌ ، وَسَقَفُهَا ^(٣) ضِيَاءٌ ، وَجَذَعُهَا بِنَاءٌ ، وَكَرْبُهَا صَلَاءٌ ،
 وَلِيْفَهَا رِشَاءٌ ، وَخَوْصُهَا وِعَاءٌ ، وَقَرْوُهَا إِيَاءٌ » . (ذيل الأمال ص ١٧)

٨٢ - أعرابي يصف بلدا

وذَكَرَ أعرابي بلداً فقال : « بلدٌ كَالثَّرْسِ ، مَا تَمْشِي فِيهِ الرِّيحُ إِلَّا عَابِرَاتٍ سَبِيلَ ،
 وَلَا يَمُرُّ فِيهِ السَّفَرُ إِلَّا بِأَدَلِّ دَلِيلٍ » . (العقد الفريد ٢ : ٨٠)
 وقال أعرابي : « مررت ببِلَدٍ أَلْقَى بِهِ الصَّيْفُ ^(٤) بَقَاعَهُ ، فَظَاهَرَ غَدِيرًا يَقْصُرُ
 الطَّرْفُ عَنْ أَرْجَائِهِ ، وَقَدْ نَفَتِ الرِّيحُ الْقَدَى عَنْ مَائِهِ ، فَكَأَنَّهُ سِلَاسِلُ دِرْعٍ ذَاتِ
 فُضُولٍ ^(٥) » . (العقد الفريد ٢ : ٩٦)

وسُئِلَ أعرابي عن مسافة ما بين بلدين فقال : « عُمرُ لَيْلَةٍ ، وَأَدِيمٌ ^(٦) يَوْمٍ » .
 وقال آخر : « سَوَادُ لَيْلَةٍ ، أَوْ بَيَاضُ يَوْمٍ » .

(البيان والتبيين ٢ : ٥١ ، والعقد الفريد ٢ : ٩٧)

وقال آخر : « إِنْ الْمَسَافِرَ وَمَتَاعَهُ لَعَلِّي قَلَّتْ ^(٧) إِلَّا مَا وَفَى اللَّهُ » .

(العقد الفريد ٢ : ٥٢)

الناجحة : الصوت ، والتيار : الموج . (٢) السيف : ساحل البحر ، وساحل الوادي ، أو
 لسكل ساحل سيف ، أو إنما يقال ذلك لسيف عمان ، وأفحيح : واسع ، والصحيح : ما استوى من
 الأرض ، والصرح : الصلب ، والأصبح : الذي يماو بياضه حمرة (٣) السعف : جريد النخل أو
 ورقه ، والكرب : أصول السعف للظلال العراض ، والرشاء : الحبل ، والقرو : أسفل النخلة ينتشر
 فينتبذ فيه - أي يعضد فيه النريد - .

(٤) الصيف كسيد ويخفف : المطر يهيج في الصيف أو بعد الربيع كالصيف .

(٥) جمع فضول : وهو الزيادة . (٦) أديم النهار : عامته أو بياضه . (٧) القلت : الحلاك .

٨٣ - أعرابي يصف أشد البرد

سئل أعرابي فقيل له : ما أشدُّ البرد ؟ قال : ريحٌ جَرِيْبَاءٌ ، في ظلِّ عَمَاءٍ ،
غِبِّ سَمَاءٍ^(١) . (البيان والعيّن ١ : ١٦٢)

٨٤ - أعرابي يصف إبلا

وقال : سمعت أعرابياً يصف إبلاً فقال :
« إنها لعِظَامُ الحَنَاجِرِ ، سِبَاطُ المَشَافِرِ ، كُومٌ بَهَازِرٍ^(٢) ، نُكْدُ خَنَاجِرٍ^(٣) ،
أجوافها رِغَابٌ^(٤) ، وأعطائها رِحَابٌ^(٥) ، تُنَمِّعُ من البُهْمِ^(٦) وتُبْذِلُ للْجَمِّمِ^(٧) .
(الأما ١ : ٥٢)

٨٥ - أعرابي يصف ناقة

ووصف أعرابي ناقة فقال : « إذا اكْأَلَتْ عَيْنُهَا ، وَأَلَّتْ^(٨) أَذُنُهَا ، وَسَجَّحَ^(٩)
خَدُّهَا ، وَهَدَلِ^(١٠) مِشْفَرُهَا ، واستدارت جُجْمَتُهَا ، فهي الكريمة » .
(الأما ١ : ٢١٧)

(١) الجرباء : ريح الشمال الباردة ، أو الريح بين الجنوب والسماء ، والعما : السحاب المرتفع : أو
الكثيف ، أو المطر ، في غيب سماء : أي عقب مطر . (٢) الخنجرة والخنجور كصفور : الخلقوم ،
وجمه حناجر ، والمشافر جمع مشفر ككبر : وهو البعير كالشفة للإنسان ، والكوم : النظام الأسنة جمع أكوام
وكوماه والجازر جمع بهزة كبندة : وهي العظيمة من النوق .

(٣) النكد : الغزيرات اللبن من الإبل (والى لا لبن لما أيضا ضد) ، والخناجر : الغزيرات اللبن
جمع خنجر كجفهر وبهاء وخنجورة بالضم . (٤) رغب : واسعة ، وأعطائها : مباركتها هذه الماء جمع
عطن كعيب . (٥) البهم جمع بهمة كفرصة : وهو الشجاع الذي لا يدرى من أين يؤق ، من شدة
بأسه ، والجمم جمع جمه كقبة ، وهم القوم يسألون في الديارات .

(٦) آل البعير : نصب أذنيه وحدهما . (٧) سج : سهل وحسن . (٨) هذل : استرخى .

٨٦ - أعرابي يصف خيلاً

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول : « خرجت علينا خيلٌ مستطيرةٌ النَّقعُ ^(١) ،
كأن هَوادِيها ^(٢) أعلام ، وآذانها أطرافُ أقلام ، وفُرسانها أسودُ آجامٍ » .

٨٧ - أعرابي يصف خيلاً

وذَكَرَ أعرابيٌ خيلاً فقال : « والله ما انحدَرْتُ في وادٍ إلا ملأتُ بطنه ،
ولا رَكِبْتُ بطنَ جبلٍ إلا أُمْهَلْتُ حَزَنَهُ » . (العقد الفريد ٧ : ١٥)

٨٨ - أعرابي يصف خيلاً

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يصف خيلاً فقال : « سِبَاطُ
الْخَصَائِلِ ^(٣) . ظِمَاءُ الْمَافِصِلِ ، شِدَادُ الْأَبَاجِلِ ^(٤) ، قُبُ الْأَيَاطِلِ ، كِرَامُ النَّوَاجِلِ ^(٥) » .
(الأمال ١ : ٥٢)

٨٩ - أعرابي يصف فرساً

ووصف بعض الأعراب فرساً فقال : « قد انتهى ضُؤوره ، وذَبُلَ فَرِيرُهُ ^(٦) ،
وظهر حَصِيرُهُ ^(٧) ، وتَفَلَّقَتْ غُرُورُهُ ^(٨) ، واسترخت شَاكِلتُهُ ^(٩) ، يُقْبَلُ بَزَوْرُ
الْأَسَدِ ، وَيُذَبَّرُ بِعَجْزِ الذُّبِّ » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٣ ، والأمال ٢ : ٢٥٦)

(١) اللقار . (٢) أوائلها . (٣) الخصائل جمع خصيلة : وهي كل قطعة من اللحم مستطيلة أو
مجتمعة ، وقيل : هي ما انماز من لحم الفخذ يعضه من بعض ، وسِبَاطُ جمع سبط ككف وشمس ، رجل
سبط الجسم إذا كان حسن القد والامتواء : وظِمَاءُ : ضمير . (٤) الأباجل جمع أبجل : وهو عرق
غليظ في الرجل أو في اليد ، يريد أنها شداد القوائم . (٥) الأياطل جمع أيطل : وهو الخاصرة ،
قب جمع أقب ، وصف من القبيب كسبب وهو دقة الحصر وضمور البطن ، والنواجل جمع ناجلة ، من
نجلته : أي ولدته . (٦) الفيرير : موضع الحجة من معرفة الفرس .
(٧) الحصير : عرق يمتد معترضاً على جنب اللدابة إلى ناحية بطنها ، أو لحمه كذلك .
(٨) الغرور : الفصوص التي في جلده ، واحدها غر بالفتح . (٩) الشاكلة من الفرس : الهلديين
عرض الخاصرة والدفنة - والشفة كفرحة : الركبة - .

٩٠ - أعرابي يصف خاتماً

وقال أعرابي يصف خاتماً : « شَفَّ^(١) تَقْدِيرُ حَلَقَتِهِ ، وَدُورُ كُرْسَى فِضْتِهِ ، وَأَحْكَمُ تَرْكِيبِهِ ، وَأَتَقَنُ تَدْبِيرِهِ ، فَبِهِ يَتِمُّ الْمُلْكُ ، وَيَنْفُذُ الْأَمْرُ ، وَيَكْرُمُ الْكِتَابُ ، وَيَشْرُفُ الْمَكْتُوبُ إِلَيْهِ » . (المقد الفريد ٢ : ٩٧)

٩١ - أعرابي يصف أطيب الطعام

وقال عبد الملك لأعرابي : « ما أطيبُ الطعام ؟ » ، فقال : « بَكْرَةٌ سِنَمَةٌ^(٢) ، مُتَعَبِّلَةٌ غَيْرُ ضَمِنَةٍ ، فِي قُدُورٍ رَذْمَةٍ^(٣) ، بِشْفَارٍ خَذِمَةٍ^(٤) ، فِي غَدَاةٍ شَبِيمَةٍ^(٥) » ، فقال عبد الملك : وَأَبْيَكُ لَقَدْ أَطْيَيْتَ^(٦) . (البيان والتبيين ١ : ١٦٢)

٩٢ - أعرابي يصف السويق

وعاب رجل السَّوِيقَ^(٧) بِحَضْرَةِ أَعْرَابِي فَقَالَ : « لَا تَعْبَهُ ، فَإِنَّهُ عُذَّةُ الْمَسَافِرِ ، وَطَعَامُ الْمَجْلَانِ ، وَغِذَاءُ الْمُبَكَّرِ ، وَبُلْفَةٌ^(٨) الْمَرِيضِ ، وَيَسْرُو^(٩) فَوَادَ الْحَزِينِ ، وَيَرُدُّ مِنْ نَفْسِ الْحُدُودِ^(١٠) ، وَجَيِّدٌ فِي التَّسْمِينِ ، وَمَنْعُوتٌ فِي الطَّبِّ ، وَقَفَّارُهُ^(١١) يَحْلُو

(١) رق .

(٢) البكرة : الفتية من الإبل ، والسمنة : العظيمة الضام ، وفعله كفرح ، عبط الذهبية كفرح واعتبطها : نحرها من غير علة وهي سميئة فتية ، والضمنة : الزمنة والمبتلاة في جسدتها من الضمنة كفرصة وهي المرض . (٣) رذمت القصعة كفرح فهي رذمة ورذوم كصبور : امتلأت وتصببت جوانبها . (٤) شفار جمع شفرة « بالفتح » : وهي للسكين العظيم ، وخذمه كفرحه : قطعه ، وسيف خذم ككتف وصبور ومعظم : قاطع . (٥) الغداة : البكرة « بالضم » أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس ، وشبمة : باردة ، وفعلها كفرح . (٦) أطاب الشيء وأطيبه : وجده طيباً .

(٧) السويق : ما يعمل من الخنطة والشمير . (٨) ما يتبلغ به . (٩) يسرو : يكشف ماعليه . (١٠) الحدود : الذي قد حد أي قد ضرب الحد . (١١) القفار : الذي لم يلت بشيء من آدم ، لا زيت ولا سمن ولا لبن . يقال طعام قفار .

الْبَلْغَمَ ، وملتوته يُصْقِي الدَّم ، وإن شئت كان شراباً ، وإن شئت كان طعاماً ، وإن شئت فتريداً ، وإن شئت فخييماً^(١) . (الأمال ٢ : ١٩٧)

٩٣ - أعرابي يصف الجمال

وقيل لأعرابي ما الجمال ؟ قال : « طُولُ القامة ، وَضَخْمُ^(٢) الهامة ، وَرُحْبُ^(٣) الشِّدْق ، وَبُعْدُ الصوت » . وسئل آخر : ما الجمال ؟ قال « غُثُورُ العينين ، وإشراف الحاجبين ، وَرُحْبُ الشَّدْقَيْنِ » . (البيان والتبيين ١ : ٦٧)

٩٤ - أبو المخش يصف ابنه

وسأل جعفر بن سليمان أبا المِخْش عن ابنه المِخْش^(٤) - وكان جزع عليه جزعاً شديداً - قال : صف لي المخش ، فقال : « كان أشدق خُرْطُمَانِيًّا^(٥) ، سائلاً لُعَابَهُ ، كَأَنَّمَا يَنْظُرُ مِنْ قَلَتَيْنِ^(٦) ، كَأَن تَرُقُوتَهُ بُوَانٌ ، أو خَالِفَةٌ ، كَأَن مَنَكِيهِ كِرْكِرَةٌ جَمَلٍ ثَقَالٍ^(٧) ، فَقَا الله عَيْنَيَّ إِن كُنْتُ رَأَيْتُ قُبْلَهُ أو بَعْدَهُ مِثْلَهُ » . (البيان والتبيين ١ : ٦٧)

٩٥ - أعرابي يصف بنيه

عن عبد الرحمن عن عمه قال : قلت لأعرابي بِحِمَى الرَّبْدَةِ : أَلَاكَ بَنُونَ ؟ قال : نعم ، وَخَالِقِهِمْ لَمْ تَقُمْ عَنْ مِثْلِهِمْ مُنْجَبَةً^(٨) ، فقلت : صِفْهُمْ لِي ، فقال : « جَهْمٌ ! وَمَا جَهْمٌ ؟

(١) الخبيص : نقي اللدقيق يخلط بالصل .

(٢) ضخم ككرم ضخماً وضخامة فهو ضخم . (٣) رحب ككرم وسع رحباً بالضم ورحابة فهو

رحب بالفتح . (٤) المخش في الأصل : الجريء على العمل في الليل .

(٥) أشدق : واسع الشدقين : خرطمانياً : طويلاً . (٦) القلت : المنقرة في الجبل .

(٧) البوان : عمود للخباء ، والخالفة : عمود من أعمدة البيت في مؤخره ، والكركرة : رحي زور

البعير وبمعير ثقالة : بطيء .

يُنْضِي الْوَهْمَ ، وَيَصُدُّ الدَّهْمَ^(١) ، وَيَفْرِى الصُّفُوفَ ، وَيَعْلُ السُّيُوفَ^(٢) » ، قلت :
 ثم من ؟ قال : « غَشَمَشَم ! وما غَشَمَشَم ؟ مَالُهُ مُقَسَّمٌ ، وَقِرْنُهُ مُجَرَّجَمٌ^(٣) ، جِذْلُ
 حِكَاكٍ^(٤) ، وَمِذْرَةُ لِكَالٍ^(٥) » ، قلت : ثم من ؟ قال : « عَشَرَب ! وما عَشَرَب ؟
 لَيْثٌ مُحَرَّبٌ ، وَسِمَامٌ مُقَشَّبٌ^(٦) ، ذِكْرُهُ بَاهِرٌ ، وَخَصْمُهُ عَاثِرٌ ، وَفِنَاؤُهُ رُحَابٌ^(٧) ،
 وَدَاعِيهِ مُجَابٌ » قلت : صف لى نفسك ، فقال : « لَيْثٌ أَبُو رِيَابِلٍ^(٨) ، رَكَابٌ مَعَاضِلٌ
 عَسَافٌ^(٩) ، بَجَاهِلٌ ، حَمَالُ أَعْبَاءٍ ، نَهَاضٌ بِيَزْلَاءٍ^(١٠) » . (الأملال ٢ : ٥٣)

٩٦ - أعرابي يصف أخويه

عن العُتْبِيِّ قال أَخْبَرَنِي أَعْرَابِي عَنْ إِخْوَةِ ثَلَاثَةٍ ، قَالَ : قُلْتُ لِأَحَدِهِمْ : أَخْبِرْنِي
 عَنْ أَخِيكَ زَيْدٍ فَقَالَ : « أَزَيْدٌ إِنِّيهِ^(١١) ؟ وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أُسْكِنَ قَوْرًا ، وَلَا أَبْعَدَ
 غَوْرًا ، وَلَا آخَذَ لِدَنْبٍ حُجَّةً قَدْ تَقَدَّمَ رَأْسُهَا مِنْ زَيْدٍ » ، فَقُلْتُ : أَخْبِرْنِي عَنْ أَخِيكَ
 زَائِدٍ قَالَ : « كَانَ وَاللَّهِ شَدِيدَ الْعُقْدَةِ ، لَيْنَ الْعُطْفَةِ ، مَا يُرْضِيهِ أَقْلٌ مَّا يُسْخِطُهُ ، فَقُلْتُ :
 فَأَخْبِرْنِي عَنْ نَفْسِكَ ، فَقَالَ : « وَاللَّهِ إِنْ أَفْضَلَ مَا فِيَّ لَمْ عَرَفْتِي بِفَضْلِهِمَا ، وَإِنِّي مَعَ ذَلِكَ
 لَغَيْرُ مُنْتَشِرٍ^(١٢) الرَّأْيِ ، وَلَا مَخْذُولُ الْعَزْمِ » . (الأملال ٢ : ١٤)

-
- (١) ينضى : يهزل ، والوهم : الضخم العظيم من الإبل ، والدهم : العدد الكثير .
 (٢) يفري : يشق ، ويمل : أى يوردها الدماء ثانية ، مأخوذ من الملل فى الشرب .
 (٣) المجرجم : المصروع . (٤) الجذل : أصل الشجرة ، وذلك أن الإبل الجرب تحتك به فتعجه
 له لذة ، والمعنى أنه من يستشق به فى الأمور بمنزلة ذلك الجذل الذى تستشق به الإبل .
 (٥) المذره : لسان القوم ، والمتكلم عنهم ، والدافع عنهم ، يقال : درهته فى ودراثة : أى دفعته ،
 واللكاز : الزحام . (٦) المحرب : المفضب الذى قد اشتد غضبه واحتد ، وحرب السكين : إذا
 أحدهته ، ومقشب : مخلوط . (٧) باهر غالب ، ورحاب : متسع .
 (٨) رهايل جمع ريبال بالكسر يهز ولا يهمز : وهو الأمد ، والمعاضل : الدواهي .
 (٩) العساف : الذى يركب الطريق على غير هداية ، والأعباء : الأثقال .
 (١٠) البزلاء : الرأى الجليد الذى يهزل (يضم الزاى) عن الصواب : أى يشق منه .
 (١١) قال أبو على فىقال : « هذه الزيادة تلحق فى الاستفهام وآخى الكلمة إذا أنكرت أن يكون
 رأى المتكلم على ما ذكر ، أو يكون على خلاف ما ذكر » انظر هذا المبحث فى الأملال ٢ : ١٥ .
 (١٢) أى مفرقة .

قولهم في الدعاء

٩٧ - دعاء أعرابي

قال أبو حاتم : أُملى علينا أعرابيٌّ يقال له مرثدٌ :

« اللهم اغفر لي ، والجِلْدُ بارد ، والنفسُ رَطْبَةٌ ، واللسانُ منطلق ، والصَّحْفُ منشورة ، والأقلامُ جارية ، والتوبةُ مقبولة ، والأنفسُ مَرِيحَةٌ ^(١) ، والتضرُّعُ مرجو ، قبل أنِ الفراق ، وَحَشَكِ النفسُ ^(٢) ، وَعَلَزَ الصدرُ ^(٣) ، وَتَزَيَّلَ الأوصالُ ^(٤) ، وَنُصُولُ الشعر ، واحتياف ^(٥) التراب ، وقبل أن لا أقدر على استغفارك حينَ يَفْنَى العمل ، ويحْضُرُ الأجل ، وينقطع الأمل .

أُعِنِّي على الموت وكرِّبته ، وعلى القبرِ وَغَمَّتِهِ ^(٦) ، وعلى الميزانِ وَخِفَّتِهِ ، وعلى الصَّراطِ وَزَلَّتِهِ ، وعلى يوم القيامةِ وَدَوَعَتِهِ ، اغفر لي مغفرةَ عَزَمًا ، لا تغادرِ ذنبًا ، ولا تدَّعِ كَرْبًا ، اغفر لي جميع ما افترضتَ عليّ ولم أؤدِّهِ إليك ، اغفر لي جميع ما تُبْتُ إليك منه ثم عُدْتُ فيه .

يا رب تظاهرت ^(٧) علىَّ منك النِّعمُ ، وتداركتُ عندك مني الذُّنوبُ ، فلك الحمد على النعم التي تظاهرت ، وأستغفرك للذنوب التي تداركت ، وأمسيتَ عن عذابِي غنيًّا ، وأصبحتُ إلى رحمتك فقيرًا .

(١) مرج كفرج : أشم ويطر ونشط واختال وتبختر فهو مرج ومرريح .

(٢) الحشك : شدة النزح . (٣) العلز : قلق وخفة وهلع يصيب المريض والمحتضر .

(٤) تزيلت وتزايلت : تفرقت ، والأوصال : المفاصل . (٥) الاحتياف : افتعال من الحيف وهو الجور ، والمراد أكل تراب القبر الجفّة ، والذي في كتب اللغة « التحيف » تحيفت الشيء : إذا نقصته من حافاته .

(٦) فعله من غم الشيء : أى غطاه فانغم ، أو هى « غمه » بالضم : أى بلائه وكره عذابه .

(٧) من تظاهروا إذا تعاونوا : أى تتابعت .

اللهم إني أسألك نجاح الأمل ، عند انقطاع الأجل ، اللهم اجعل خير على ما ولى
أجلى ، اللهم اجعلنى من الذين إذا أعطيتهم شكروا ، وإذا ابتليتهم صبروا ، وإذا
أذكرتهم ذكروا ، واجعل لى قلباً تواباً أواباً ، لا فاجراً ولا مرتاباً ، اجعلنى من
الذين إذا أحسنوا ازدادوا ، وإذا أساءوا استغفروا .

اللهم لا تحقق على العذاب^(١) ، ولا تقطع بى الأسباب ، واحفظنى فى كل ما تحيط
به شفقتى ، وتأتى من ورائه سبحتى^(٢) ، وتمجيز عنه قوتى ، أدعوك دعاء ضعيف عمله ،
متظاهرة ذنوبه ، ضنين على نفسه ، دعاء من بدنه ضعيف ، ومُنْتَه^(٣) عاجزة ، قد
انتهت عُدته ، وخلقت^(٤) جدته ، وتم ظمؤه . اللهم لا تخيبنى وأنا أرجوك ، ولا
تعذبنى وأنا أدعوك ، والحمد لله على طول النسيئة^(٥) ، وحسن التباعة^(٦) ، وتشنّج
العروق ، وإساعة الريق ، وتأخر الشدائد ، والحمد لله على حلمه بعد علمه ، وعلى عفوه
بعد قدرته ، والحمد لله الذى لا يودى^(٧) قتيله ، ولا يحيب سوله ، ولا يرّد رسوله ،
اللهم إنى أعوذ بك من الفقر إلا إليك ، ومن الذل إلا لك ، وأعوذ بك أن أقول
زوراً ، أو أغشى فجوراً ، أو أكون بك مغروراً ، وأعوذ بك من شماتة الأعداء ،
وعُضال الداء ، وخيبة الرجاء ، وزوال النعمة .

(العقد المفيد ٢ : ٧٧ ، والبيان والتبيين ٣ : ٢٢٤ — ١٣٧ — ١٣٨)

(١) يشير إلى قوله تعالى : « أَقْنِ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ » .

(٢) فملة من السبح : وهو القلب والانتشار فى الأرض ، والإبعاد فى السير ، والتصرف فى المعاش .

(٣) المنة : القوة .

(٤) خلق الثوب كنصر وكرم وسمع : بلى ، والنظم : ما بين الشربتين والوردين .

(٥) الإمهال والتأخير . (٦) التباعة مثل التبعة بفتح فكسر . قال الشاعر :

أكلت حنيفة ربحاً زمن التفحيم والمجاهة

لم يحدروا من ربحهم سوء العواقب والتباعة

• لأنهم كانوا قد اتخذوا لها من حيس فعيدوه زمناً ، ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه • — والحيس كشمس
تمر يخلط بالسمن والبن الخفيض فيمجن شديداً ، ثم ينذر منه نواه .

(٧) ودى القليل كوحى : أعطى ديته ، والسول : وهو ما سأله .

٩٨ - دعاء أعرابي

ودعا أعرابي وهو يَطُوف بالكعبة فقال :

« إِلَهِي مَنْ أَوْلَى بِالتَّقْصِيرِ وَالزَّلَالِ مِنِّي وَأَنْتَ خَلَقْتَنِي ؟ وَمَنْ أَوْلَى بِالْعَفْوِ مِنْكَ عَنِّي وَعِلْمُكَ بِي مَاضٍ ، وَقَضَاؤُكَ بِي مُحِيطٌ ؟ أَطْعَمْتُكَ بِقَوْتِكَ وَالْمِنَّةَ لَكَ ، وَعَصَيْتُكَ بِعِلْمِكَ ، فَاسْأَلْكَ يَا إِلَهِي - بِوَجُوبِ رَحْمَتِكَ وَانْقِطَاعِ حُجَّتِي ، وَافْتِقَارِي إِلَيْكَ وَغِنَاكَ عَنِّي - أَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي .

إِلَهِي لَمْ أَحْسِنْ حَتَّى أَعْطَيْتَنِي ، فَتَجَاوَزَ عَنِ الذُّنُوبِ الَّتِي كَتَبْتَ عَلَيَّ ، اللَّهُمَّ إِنَّا أَطْعَمْنَاكَ فِي أَحَبِّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْكَ : شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، وَلَمْ نَعْصِكَ فِي أَبْغَضِ الْأَشْيَاءِ إِلَيْكَ : الشِّرْكَ بِكَ ، فَاغْفِرْ لِي مَا بَيْنَ ذَلِكَ .

اللَّهُمَّ إِنَّكَ آتَسُّ الْمُؤْنِسِينَ لِأَوْلِيَائِكَ ، وَأَحْضَرُهُمُ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ ، إِلَهِي أَنْتَ شَاهِدُهُمْ وَغَائِبُهُمْ ، وَالْمَطْلَعُ عَلَى ضَمَائِهِمْ ، وَسِرِّي لَكَ مَكْشُوفٌ ، وَأَنَا إِلَيْكَ مَلْهُوفٌ ، إِذَا أَوْحَشْتَنِي الْغُرْبَةَ آتَسْنِي ذِكْرُكَ ، وَإِذَا أَاكَبْتَ عَلَيَّ الْغُمُومُ لَجَأْتُ إِلَى الْإِسْتِجَارَةِ بِكَ ، عَلِمًا بِأَنْ أَرْمَةَ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِيَدِكَ ، وَمَصْدَرَهَا عَنْ قَضَائِكَ ، فَأَقِلِّلْنِي ^(١) إِلَيْكَ مَغْفُورًا لِي ، مَعْصُومًا بِطَاعَتِكَ بَقِيَّةَ عَمْرِي ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ » .

٩٩ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : حَبَّجْتَ فَرَأَيْتَ أَعْرَابِيًّا يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ وَيَقُولُ :

يَا خَيْرَ مَوْفُودٍ سَعَى إِلَيْهِ الْوُقْدُ ^(٢) ، قَدْ ضَعُفَتْ قُوَّتِي ، وَذَهَبَتْ مُنَّتِي ، وَأَنْتَ إِلَيْكَ بِذُنُوبٍ لَا تَغْسِلُهَا الْأَنْهَارُ ، وَلَا تَحْمِلُهَا الْبَحَارُ ، أَسْتَجِيرُ بِرِضَاكَ مِنْ سُخْطِكَ ، وَبِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ ، ثُمَّ التَفْتُ فَقَالَ : « أَيُّهَا الْمَشْفِقُونَ ، ارْحَمُوا مَنْ شَمَلَتْهُ الْخَطَايَا ،

(١) أَقَلَّهُ : حَلَّهُ . (٢) وَفَهُ إِلَيْهِ وَطِيَهُ : قَدَمَ ، وَهَمَّ وَفُودَ وَفُودَهُ كَهَمَسَ وَرَكِعَ وَأَوْفَادَ .

وَعَمَّرَتْهُ الْبَلَايَا ، اَرْحَمُوا مِنْ قَطْعِ الْبِلَادِ ، وَخَلَّفَ مَا مَلَكَ مِنَ التَّلَادِ . اَرْحَمُوا مِنْ وَبْخَتِهِ
الذُّنُوبِ ، وَظَهَرَتْ مِنْهُ الْعُيُوبُ ، اَرْحَمُوا أَسِيرَ ضُرٍّ ، وَطَرِيدَ فَقْرٍ ، أَسْأَلُكُمْ بِالَّذِي
أَعْمَلْتُمْ الرِّغْبَةَ إِلَيْهِ ، إِلَّا مَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ أَنْ يَهَبَ لِي عَظِيمَ جُرْمِي » ، ثُمَّ وَضَعَ فِي حَلَقَةٍ
بِالْبَابِ خَدَّهُ وَقَالَ : ضَرَعَ خَدِّي لَكَ ، وَذَلَّ مَقَامِي بَيْنَ يَدَيْكَ ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

عَظِيمُ الذَّنْبِ مَكْرُوبٌ مِنْ الْخَيْرَاتِ مَسْلُوبٌ
وَقَدْ أَصْبَحْتُ ذَا فَقْرٍ وَمَا عَنْدَكَ مَطْلُوبٌ

١٠٠ - دَعَاءُ أَعْرَابِي

وَسَمِعَ أَعْرَابِي بَعْرَفَاتٍ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ وَهُوَ يَقُولُ :

« اللَّهُمَّ إِنْ هَذِهِ عَشِيَّةٌ مِنْ عَشَايَا مَحَبَّتِكَ ، وَأَحَدُ أَيَّامِ زُلْفَتِكَ ^(١) ، يَا مُلِّ فِيهَا مِنْ
جَلَاءِ إِلَيْكَ مِنْ خَلْقِكَ أَنْ لَا يُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا ، بِكُلِّ لِسَانٍ فِيهَا يُدْعَى ، وَلِكُلِّ خَيْرٍ فِيهَا
يُزَجَّى ، أَنْتَ الْغُصَاةُ مِنَ الْبِلَدِ السَّجِيحِ ^(٢) ، وَدَعَتِكَ الْعُنَاةُ ^(٣) مِنْ شُعْبِ الْمَضِيقِ ،
رَجَاءً مَا لَا خُلْفَ لَهُ مِنْ وَعْدِكَ ، وَلَا انْقِطَاعَ لَهُ مِنْ جَزِيلِ عَطَائِكَ ، أَبَدْتُ لَكَ وَجُوهَهَا
الْمُصُونَةَ ، صَابِرَةً عَلَى وَهَجِ السَّمَائِمِ ^(٤) ، وَبَرَدِ اللَّيَالِي ، تَرْجُو بِذَلِكَ رِضْوَانَكَ ،
يَا غَفَّارُ ، يَا مُسْتَزَادًا مِنْ نِعَمِهِ ، وَمُسْتَعَادًا مِنْ نِقَمِهِ ، اَرْحَمِ صَوْتَ حَزِينٍ دَعَاكَ
بِزَفِيرٍ وَشَهيقٍ » .

ثُمَّ بَسَطَ كِلْتَا يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ : « اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ بَسَطْتُ يَدَيَّ إِلَيْكَ دَاعِيًا

(١) الزلفة : القرية . (٢) البعيد . (٣) العنائة جمع عان من عنا : أى ذل وخضع ، وفى
رواية الأمالى : « أَنْتَ الْغُصَاةُ مِنَ الْفَجِّ الْعَمِيقِ ، وَجَابَتْ إِلَيْكَ الْمَهَارِقُ مِنْ شُعْبِ الْمَضِيقِ » وَالضُّوَامِرُ
الْإِبِلُ الْمَهْزُولَةُ ، وَالْمَهَارِقُ جَمْعُ مَهْرَقٍ (بضم الميم وفتح الراء) : الصَّحْرَاءُ الْمَلْعَاءُ .

(٤) السَّائِمُ جمع سَموم كصبور : وهى الريح الحارة تكون غالباً بالنهَار ، وفى رواية الأمالى : « عَلَى لَفْحِ
السَّائِمِ ، وَبَرْدِ لَيْلِ الْقَتَامِ » - وَلَيْلُ الْقَتَامِ (ككعباب) وَلَيْلُ تَمَامٍ : أَطْوَلُ لَيْلٍ إِلَى الشَّعَاءِ - وفى رواية
الأمالى : « نَعْمَتَكَ تَقَاهَرُهَا عَلَى عِنْدِ الْقَفَلَةِ ، فَكَيْفَ أَيَّامُهَا عِنْدَ الرَّجْمَةِ » - وَأَصْلُ الْفَعْلِ
(بِالْتَحْرِيكِ) : وَالرَّجُوعُ مِنَ السَّفَرِ : وَيُطْلَقُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ فِي السَّفَرِ كَمَا هُنَا تَقَاوَلَا بِالرَّجُوعِ - .

فطالما كَفَيْتَنِي ساهياً ، بنعمتك التي تظاهرتْ عَلَى عِنْدِ الغفلة ، فلا أَيْأسُ بها عند التوبة ، لا تَقْطَعْ رَجَائِي مِنْكَ لما قَدَّمْتَ مِنْ اقْتِرَافِ^(١) آثَامِكَ ، وإن كُنْتَ لَا أَصِلُ إِلَيْكَ إِلَّا بِكَ ، فهِبْ لِي يَا رَبُّ الصَّلاحَ فِي الْوَلَدِ ، وَالْأَمْنَ فِي الْبَلَدِ ، وَالْعَافِيَةَ فِي الْجَسَدِ وَعَافِيَتِي مِنْ شَرِّ الْحَسَدِ ، وَمِنْ شَرِّ الدَّهْرِ الْفَكَدِ^(٢) » .

(العقد الفريد ٢ : ٧٧ ، والأمل ٢ : ٣٢٣)

١٠١ — دعاء أعرابي

ودعا أعرابي فقال : « يَا عِمَادَ مَنْ لَا عِمَادَ لَهُ ، وَيَا رُكْنَ مَنْ لَا رُكْنَ لَهُ ، وَيَا مُجِيرَ الضَّغْنِ^(٣) ، وَيَا مُنْقِذَ الْهَلَكَى ، وَيَا عَظِيمَ الرِّجَاءِ ، أَنْتَ الَّذِي سَبَّحَ لَكَ سَوَادُ اللَّيْلِ ، وَبَيَاضُ النَّهَارِ ، وَضَوْءُ الْقَمَرِ ، وَشُعَاعُ الشَّمْسِ ، وَخَفِيفُ الشَّجَرِ ، وَدَوِيُّ الْمَاءِ^(٤) ، يَا مُحْسِنَ ، يَا مُجْمِلَ ، يَا مُفْضِلَ ، لَا أَسْأَلُكَ الْخَيْرَ بِخَيْرِهِمْ عِنْدَكَ ، وَلَكِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ ، فَاجْعَلْ الْعَافِيَةَ لِي شِعَارًا وَدِثَارًا^(٥) ، وَجَنَّةَ دُونَ كُلِّ بَلَاءٍ » .

١٠٢ — دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً في فلاة من الأرض ، وهو يقول في دعائه : « اللَّهُمَّ إِنْ اسْتَغْفَرِي إِيَّاكَ مَعَ كَثْرَةِ ذُنُوبِي لَلْوُثِ ، وَإِنْ تَرَكِي الْاسْتِغْفَارَ مَعَ مَعْرِفَتِي بِسَعَةِ رَحْمَتِكَ لَعَجَزَ ، إِلَهِي كَمْ تَحَبَّبْتَ إِلَيَّ بِنِعْمَتِكَ ، وَأَنْتَ غَنَيْتَنِي ، وَكَمْ أَتَبَغَّضَ إِلَيْكَ بِذُنُوبِي ، وَأَنَا فَقِيرٌ إِلَيْكَ ، سَبَّحَانَ مَنْ إِذَا تَوَعَّدَ عَفَا ، وَإِذَا وَعَدَ وَفَى » .

(١) اقتراف الذنب : آثامه وفعله .

(٢) يقال : رجل فكد ككفف وسبب وشمس وأنكد : شوم صر .

(٣) الضغنى جمع ضغيف . (٤) المعنى : أن هذه الكائنات تدعو المتأمل فيها إلى تسبيحه جل شأنه .

(٥) الشعار : ما يلبس على ظهر الجسد ، والدثار : ما يلبس فوق الشعار ، والجنة : الوقاية .

١٠٣ — دعاء أعرابي

قال : وسمعت أعرابياً يقول في دعائه : « اللهم إن ذنوبي إليك لا تنفرك ؛ وإن رحمتك إياي لا تنقصك ، فاعفر لي مالا يضرك ، وهب لي مالا ينقصك » .

١٠٤ — دعاء أعرابي

وقال : سمعت أعرابياً وهو يقول في دعائه : « اللهم إني أسألك عمل الخائفين ، وخوف العاملين حتى أتغنم بترك النعم^(٤) طمعاً فيما وعدت . وخوفاً مما أوعدت اللهم أعذني من سطواتك ، وأجرني من نعماتك ، سبقت لي ذنوبٌ ، وأنت تغفر لمن يحب^(٥) ، إليك بك أتوسل ، ومنك إليك أفِرُّ » .

١٠٥ — دعاء أعرابي

وقال : سمعت أعرابياً يقول : « اللهم إن قوما آمنوا بك بالستهم ، ليحققوا دماهم ، فأدرَكُوا ما أَمَلُوا ، وقد آمنَّا بك بقلوبنا ، لتُجيرنا من عذابك ، فأدرِك منا ما أَمَلناه » .

١٠٦ — دعاء أعرابي

قال : ورأيت أعرابياً متعلقاً بأستار الكعبة ، رافعاً يديه إلى السماء ، وهو يقول : « ربِّ أترك معذبتنا ، وتوحيدهُك في قلوبنا ؟ وما إخالك تفعل ! ولئن فعلت لَتَجْمَعُنَا مع قوم طالبا أبغضناهم لك » .

١٠٧ - دعاء أعرابي

وقال: سمعت أعرابياً يقول في صلاته : « الحمد لله حمداً لا يَبْلُغُ جديده ، ولا يُحْصَى عَدِيدُهُ ^(١) . ولا يُبْلَغُ حدودُهُ ، اللهم اجعل الموت خيراً غائباً ننتظره ، واجعل القبر خيراً بَدَتْ نَعْمَتُهُ ، واجعل ما بعده خيراً لنا منه . اللهم إن عينيّ قد أَغْرَوْرَقَتَا دموعاً من خشيتك ، فاغفر الزَّلَّةَ ، وَعُدْ بِحِمْلِكَ ، على جَهْلٍ مَنْ لَمْ يَرْجُ غَيْرَكَ » .

١٠٨ - دعاء أعرابي

وقال : رأيت أعرابياً أخذَ بِحِلْمَتِي بابِ الكعبة وهو يقول :
« سائِلُكَ عند بابِكَ ، ذَهَبَتْ أَيْامُهُ ، وَبَقِيَتْ آثَامُهُ ، وانقطعت شَهْوَتُهُ ، وَبَقِيَتْ تَبَاعَتُهُ ، فَارْضَ عَنْهُ ، وإن لم تَرْضَ عَنْهُ فَاعْفُ عَنْهُ غير راضٍ » .

١٠٩ - دعاء أعرابي

قال : ودعا أعرابي عند الكعبة فقال : « اللهم إنه لاشرفَ إلّا بِفِعَالٍ ، ولا فَعَالٍ إلّا بِمَالٍ ، فَأَعْطِنِي مَا أَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى شَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » .

١١٠ - دعاء أعرابي

عن طائوس قال : « بينا أنا بمكة إذ دَفَعْتُ إِلَى الْحَاجِّاجِ بْنِ يَوْسُفَ ، فَتَنَى لِي وَسَاداً فجلست ، فبينما نحن نتحدث إذ سمعتُ صوتَ أعرابي في الوادي رافعاً صوته بالتلبية ،

فقال الحجاج . علىّ بالملسّي . فأُتي به فقال : مَنْ الرَّجُلُ ؟ قال : مِنْ أَفْنَاءِ النَّاسِ ^(١) . قال : ليس عن هذا سألتك . قال : نَعَمْ سألتني . قال : من أى البلدان أنت ؟ قال : من أهل اليمن . قال له الحجاج . فكيف خلّفت محمد بن يوسف - يعنى أخاه . وكان عامِلَه عَلَى اليمن - . قال : خلّفته عظيماً جسيماً خَرَّاجاً وَلاَ جاً . قال . ليس عن هذا سألتك ، قال : نَعَمْ سألتني ، قال : كيف خلّفت سيرته في الناس ؟ قال : خلّفته ظلوماً غَشُوماً ^(٢) ، عاصياً للخالق ، مُطِيعاً للمخلوق ، فازور ^(٣) من ذلك الحجاج ، وقال . ما أقدمك لهذا ، وقد تعلم مكاتنته مني ! فقال له الأعرابي : أفتراه بمكانة منك أعزّ مني بمكانتي من الله تبارك وتعالى ، وأنا وَافِدُ بيته ، وقاضٍ دَيْنِهِ ، ومصدّق نبيه صلى الله عليه وسلم ؟ فَوَجَمَ ^(٤) لها الحجاج ، ولم يُجِرْ له جواباً ^(٥) ، حتى خرج الرجل بلا إذن .

قال طاوس : فتبعته حتى أتى المُلْتَزِمَ فتعلّق بأستار الكعبة ، فقال : بك أعوذ ، وإليك ألوذُ ، فاجعل لي في اللّهُفِ إلى جوارك ، والرّضا بِضمانك ، مندوحةً ^(٦) ، عن منع الباخلين ، ورَغْنِي عما في أيدي المستأثرين ، اللهم عُدْ بِقَرَجِكَ القريب ، ومعروفك . القديم ، وعادتلك الحسنة .

قال طاوس : ثم اختفى في الناس ، فألفيته بِعَرَافَاتٍ قائماً على قدميه وهو يقول : « اللهم إن كنت لم تقبل حجّي وَنَصَبِي ^(٧) وَتَعَبِي ، فلا تَحْرِمْنِي أَجَرَ الْمُصَابِ على مصيبتِهِ ، فلا أعلمُ مصيبةً أعظمَ مِنْ وَرْدِ حَوْضِكَ ، وانصرف محروماً من وجه رغبتك » .

(١) يقال « هو من أفناء الناس » إذا لم يعلم من هو ، واحده فنوكهمل أو فناكصا .

(٢) ظلوماً . (٣) ازور : انصرف وماال : أى غضب منه . (٤) وجم : سكت على غيظ .

(٥) أى لم يردّه . (٦) أى متسعاً .

(٧) في الأصل « ونسبى » وأراء محرفا عن « نصبى » ، ويؤيده قوله بعد « وتعبى » .

١١١ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي . رأيت أعرابياً يطوف بالكعبة وهو يقول :

« إلهي عَجَّتْ^(١) إليك الأصواتُ ، بضروبٍ من اللغات ، يسألونك الحاجات
وحاجتي إليك إلهي أن تذكرني على طول البكاء ، إذا نَسِيتني أهلُ الدنيا ، اللهم هب لي
حقك ، وأرض عني خلقك ، اللهم لا تُعَيِّنِي في طلب ما لم تقدِّره لي ، وما قدَّرتَه لي
فيسِّرَه لي » .

١١٢ - دعاء أعرابي

قال : ودعت أعرابية لابن لها وجَّهته إلى حاجة فقالت : « كان الله صاحبك
في أمرك ، وخليفتك في أهلك ، ووَلِيَّ نُجْحِ طَلِبَتِكَ^(٢) ، امْضِ مُصَاحِباً مَكْلُوءاً^(٣) ،
لا أشتت الله بك عدوًّا ، ولا أرى مُحِبَّيْكَ فيك سوءاً » .

(المقدم الفريد ٢ : ٧٦ - ٧٩)

١١٣ - دعاء أعرابي

وقال الأصمعي : خرجت أعرابية إلى مِيٍّ فَقَطَّعَ بها الطريقُ فقالت :

« يارب . أعطيت وأخذت ، وأنعمت وسلبت ، وكلُّ ذلك منك عدلٌ وفَضْلٌ ،
والذي عَظَّمَ على الخلائق أمرُك ، لا بَسَطْتَ لسانِي بِمَسْأَلَةٍ أَحَدٍ غيرك ، ولا بَدَّلْتَ
رغبتِي إلا إليك ، يا قُرَّةَ أعين السائلين : أَغْنِنِي بِجُودٍ مِنْكَ أَتَبْجِىحُ^(٤) في فَرَادِيسِ

(١) حج يعج بكسر العين وفتحها : صاح ورفع صوته .

(٢) النجح : النجاح ، والطلبة : ما طلبته . (٣) من كَلَّاهُ كَنَمَه : حرسه .

(٤) تبجیح : تمكن في المقام والحلول ، وتبجیح الدار : توسطها ، والفردايس جمع فردوس

نِعْمَتُهُ ، وَأَتَقَلَّبَ فِي رُؤَاقٍ نَضَرَتْهُ ^(١) أَحْلَنِي مِنَ الرَّجْلَةِ ^(٢) ، وَأَغْنَيْنِي مِنَ الْعَيْلَةِ ،
وَأَسْدِلْ عَلَيَّ سِتْرَكَ الَّذِي لَا تَحْرِقُهُ الرِّيحُ ، وَلَا تُزِيلُهُ الرِّيحُ ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ .
(البیان والتبيين ٢ : ٧٨ ، والمقد الفريد ٣ : ١٣٨)

١١٤ — أدعية شتى

ومات ابن لأعرابي فقال : « اللهم إني وهبتُ له ما قَصَّرَ فيه من برٍّ ، فهبْ لي
ما قَصَّرَ فيه من طاعتك ، فإنك أجود وأكرم » .
(المقد الفريد ٢ : ٧٩ ، والبيان والتبيين ٣ : ١٣٨)

* * *

ووقف أعرابي في بعض المواسم فقال : « اللهم إن لك عليَّ حقًّا فتصدَّقْ بها عليَّ ،
وللناس تبعاتٍ قبلي فتحمَّلْها عني ، وقد أوجبت لكل ضيفٍ قرى ^(٣) ، وأنا ضيفك
الليلة ، فاجمل قرأى فيها الجنة » .
(المقد الفريد ٢ : ٧٨ ، والبيان والتبيين ٢ : ٤٨)

* * *

وقال سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : سمعت أعرابياً يقول عَشِيَّةَ عَرَفَةَ :
« اللهم لا تحرمني خيرَ ما عندك لِشَرِّ ما عندي ، وإن لم تقبل تعمي ونصي ،
فلا تحرمني أجر المصاب عليَّ مصيبيته » .
(زهر الآداب ٣ : ١٦٣)

* * *

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً يقول لرجل : « أطعمك الله الذي أطعمتني له ،
فقد أحييتني بقتل جوعي ، ودفعت عني سوء ظني ، فحفظك الله على كل جنب ، وفرج
عنك كل كرب ، وغفر لك كل ذنب » .
(المقد الفريد ٢ : ٨٤)

* * *

(١) في الأصل « راوق » وهو المصفاة ، وأراه محرفاً عن « رواق » وهو الفسطاط ، والنضرة :
النعمة والفضي . (٢) رجل كفروح فهو راجل ورجلان : إذا لم يكن له ظهير يركبه ، والرجلة بالفتح
جوكسر : شدة المشي ، والعيلة : الفقر .
(٣) قرى الضيف كرى ، قرى : أحسن إليه ، والقرى أيضا : ما قرى به الضيف .

عن الأصمعي قال : رأيت أعرابيا يصلي وهو يقول : أسألك الغفيرة^(١) ،
والناقة الغزيرة ، والشرف في العشيرة ، فإنها عليك يسيرة . (الأمال ٢ : ٢٣)

* * *

عن عبد الرحمن عن عمه قال : سمعت أعرابياً يدعو لرجل فقال : « جَنِّبِكَ اللهُ
الْأَمْرَيْنِ^(٢) ، وكفأك شرَّ الأجوفين^(٣) ، وأذاك البردَيْنِ^(٤) » .
(الأمال ٢ : ٧٢ ، والبيان والتبيين ٣ : ١٣٧)

* * *

ودعا أعرابي فقال : « اللهم إني أسألك البقاء ، والنماء ، وطيب الإثاء^(٥) ،
وَحَطَّ الأعداء ، ورفع الأولياء » . (البيان والتبيين ١ : ١٦٣)

* * *

وقال أعرابي : « اللهم لَا تُنْزِلْنِي ماءً سوءً ، فَأَكُونَ أَمْرًا سَوْءً » وقال أعرابي :
« اللهم قِنِي عَثَرَاتِ الْكِرَامِ » . (البيان والتبيين ١ : ٢١٥)

* * *

ووهب رجل لأعرابي شيئاً فقال : « جعل الله للمعروف إليك سبيلاً ، وللخير
عليك دليلاً ، وجعل عندك رِفْدًا^(٦) جَزِيلاً ، وأبقاك بقاء طويلاً ، وأبلاك^(٧)
بلاء جميلاً » .

* * *

وقال الأصمعي : سمعت أعرابيا يدعو وهو يقول : اللهم ارزقني مالا أَكْبِتَ^(٨)
به الأعداء ، وَبَنِينَ أَصُولَ بِهِمْ عَلَى الْأَقْوِيَاءِ » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٤)

(١) الغفيرة : المغفرة . (٢) الأمران : الفقر والحرم ، أو الجوع والعري . (٣) الأجوفان :
البطن والفرج . (٤) البردان : برد العين وبرد العافية . (٥) الإثاء : الرزق ، من أئت الشجرة
أثوا وإثاء : طلع ثمرها ، أو بدا صلاحها ، أو كثر حملها . (٦) الرغد : العطاء والمصلحة .
(٧) الإبلاء : الإنعام والإحسان ، أبلت عنده بلاء حسناً ، وأبلاه الله بلاء حسناً .
(٨) كَبَتَهُ : صرعه وأذله ، ورد العدو بغيظه .

ودعت أعرابية على رجل فقالت : « أمكن الله منك عدوا حسودا ، وَجَّع بك صديقا ودودا ، وسلط عليك هما يُضْنِيكَ ، وجاراً يُؤْذِيكَ » .

(العقد الفريد ٢ : ٩١)

* * *

ودعا أعرابي فقال : « أعوذ بك من الفَوَاقِر^(١) والبواقر ، ومن جارٍ السوء ، في دار المُقَامَةِ وَالظَّعْنِ ، ومما يَنْكُسُ رأس المرء ، وَيُغْرِى به لثام الناس » .

* * *

وقال أعرابي : « أعوذ بك من سَقَم ، وعداوة ذى رَحِمٍ ودَعَوَاه ، ومن فاجرٍ وَجَدَوَاه^(٢) ، وعمل لا ترضاه » .

(البيان والقبين ٣ : ١٣٦)

* * *

ودعت أعرابية لرجل فقالت : « كَبَتَ اللهُ كُلَّ عدوك إلا نَفْسَكَ » .
ودعا أعرابي فقال : « اللهم هب لي حَقَّكَ ، وأَرْضِ عني خَلْقَكَ » .
وقال أعرابي : « اللهم إنك أمرتنا أن نَعْفُو عَمَّن ظَلَمَنَا ، وقد ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا فاعف عنا » .

(البيان والقبين ٣ : ١٣٧)

* * *

وقال أعرابي : « منحكم الله مِنْحَةً ليست بِجَدَّاء ، ولا نَكَدَاء ، ولا ذات داء » .
وقال أعرابي : « اللهم إنك حَبَسْتَ عنا قَطْرَ السماء ، فَذَابَ الشَّحْمُ ، وذهب اللحم وَرَقَّ العِظَمُ ، فارحم أنينَ الآتَةِ ، وحنين الحائَةِ ، اللهم ارحم تحيرها في مَرَاتِعِهَا ، وأنينها في مَرَابِضِهَا » .

* * *

(١) الفَوَاقِر جمع فاقرة : وهي الداهية ، والبواقر جمع باقرة : وهي الفتنة الصاحبة للألفة الشاقة للمصا .

(٢) الجدوى : العطية .

وحج أعرابي فقال : « اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله ، وإن كان في الأرض فأخرجه ، وإن كان نائياً فقرّبه ، وإن كان قريباً فيسرّه » .
(البيان والبيان ٣ : ١٣٨)

* * *

ومات ولد لرجل من الأعراب فصلى عليه ، فقال : « اللهم إن كنت تعلم أنه كريم الجدين ، سهل الخدين ، فاغفر له وإلا فلا » .
(الأمان ١ : ٢٠٢)

* * *

وقالت أعرابية لرجل : « رماك الله بليلة لا أخت لها » أى لا تعيش بعدها .
(الأمان ١ : ٢١٧)

* * *

ودعا أعرابي فقال : « اللهم إني أعوذ بك أن أفترق في غناك ، أو أضلّ في هداك ، أو أذلّ في عزّك ، أو أضامّ في سلطانك ، أو أضطهدّ والأمر إليك » .
(زهر الآداب ٣ : ١٦٤)

* * *

وقال الأصمى : سمعت أعرابية تقول : « اللهم ارزقني عمل الخافين ، وخوف العاملين ، حتى أنعم بترك التعم ، رجاء لما وعدت ، وخوفاً مما أوعدت » .
وقال آخر : « اللهم من أراد بنا سوءاً فأحطه به كإحاطة القلائد ، بأعناق الولائد^(١) ، وأرسخه على هامته كرسوخ السجيل^(٢) ، على هام أصحاب الفيل » .
(زهر الآداب ٣ : ٣٤٦)

(١) الولائد جمع وليدة : وهي الصبية . (٢) السجيل : طين مطبوخ ، يشير إلى قوله تعالى :

« وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ » .

١١٥ - نوادر وملح لبعض الأعراب

«غزا أعرابي مع النبي صلى الله عليه وسلم فقتل له : ما رأيت مع رسول الله في غزاتك هذه ؟ قال : وَضَعْنَا نِصْفَ الصَّلَاةِ^(١) ، وأرجو في الغزاة الأخرى أن يضع النصف الباقي » .

* * *

وَدَخَلَ أَعْرَابِي الْمَسْجِدَ ، وَالنَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا ، فَقَامَ يَصَلِّي ، فَلَمَّا فَرَغَ ، قَالَ : اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا ، وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا ، « فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : لَقَدْ تَحَجَّرْتَ^(٢) وَاسِعًا يَا أَعْرَابِي » .

* * *

وَخَرَجَ الْحِجَابُ مُتَصِيدًا بِالْمَدِينَةِ ، فَوَقَفَ عَلَى أَعْرَابِي يَرَعَى إِبْلَاءَ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَعْرَابِي ، كَيْفَ رَأَيْتَ سِيرَةَ أَمِيرِكُمُ الْحِجَابُ ؟ قَالَ لَهُ الْأَعْرَابِي : غَشُومٌ ظَلُومٌ ، لَا حَيَّاهُ اللَّهُ ، فَقَالَ : فَلِمَ لَا تَشْكُوهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ الْمَلِكِ ؟ قَالَ : فَأُظْلِمُ وَأُغْشَمُ ! فِينَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا حَاطَتْ بِهِ الْخِيلُ ، فَأَوْمَأَ الْحِجَابُ إِلَى الْأَعْرَابِي ، فَأَخَذَ وَحُلَّ ، فَلَمَّا صَارَ مَعَهُ ، قَالَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا لَهُ : الْحِجَابُ ، فَحَرَّكَ دَابَّتَهُ حَتَّى صَارَ بِالْقَرْبِ مِنْهُ ، ثُمَّ نَادَاهُ يَا حِجَابُ ، قَالَ : مَا تَشَاءُ يَا أَعْرَابِي ؟ قَالَ : السِّرَّ الَّذِي يَبْنِي وَبَيْنَكَ أَحِبُّ أَنْ يَكُونَ مَكْتُومًا ، فَضَحِكَ الْحِجَابُ ، وَأَمَرَ بِتَخْلِيَةِ سَبِيلِهِ .

* * *

« وَخَرَجَ أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَاحُ مُتَنَزِّهًا بِالْأَنْبَارِ ، فَأَمْعَنَ فِي نَزْهَتِهِ ، وَانْتَبَذَ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَوَافَى خِيبَاءَ الْأَعْرَابِي ، فَقَالَ لَهُ الْأَعْرَابِي : مِمَّنِ الرَّجُلُ ؟ قَالَ : مِنْ كِنَانَةَ ، قَالَ : مَنْ أَيْ كِنَانَةَ ؟ قَالَ : مَنْ أَبْغَضَ كِنَانَةَ إِلَى كِنَانَةَ ، قَالَ : فَأَنْتَ إِذَنْ مِنْ قَرِيشٍ ؟ قَالَ :

(١) یعنی صلاة القصر . (٢) أي ضيق ما وسعه الله وخصصته به نفسك دون غيرك .

نعم ، قال : فمن أى قریش ؟ قال : من أبغض قریش إلى قریش ، قال : فأنت إذن من ولد عبد المطلب ؟ قال : نعم ، قال : فمن أى ولد عبد المطلب ؟ قال : من أبغض ولد عبد المطلب إلى ولد عبد المطلب ، قال : فأنت إذن أمير المؤمنين ، السلام عليك يا أمير المؤمنين ، ووُثِبَ إليه ، فاستحسن ما رأى منه ، وأمر له بجائزة .

* * *

وولَّى يوسف بن عمر الثَّقَفِيَّ صاحب العراق أعرابياً على عمل له ، فأصاب عليه خيانة فَعَزَلَه ، فلما قَدِمَ عليه ، قال له : يا عدوَّ الله ، أَكَلْتَ مالَ الله ، قال الأعرابي : فَمَالَ مَنْ آكَلُ إِذَا لَمْ آكُلْ مالَ الله ؟ لقد راوَدْتُ إبليس أن يُعْطِنِي فَلَسًا واحداً فما فعل ، فضحك منه وخبلى سبيله .

* * *

وأخذ الحجاج أعرابياً لصاً بالمدينة فأمر بضربه ، فلما قرعه بِسَوْطٍ قال : يا رب شُكْرًا ، حتى ضربه سبعمئة سَوْطٍ ، فلقيه أَشْعَبُ ، فقال له : تَدْرِي لِمَ ضَرَبْتُكَ الحجاج سبعمئة سوط ؟ قال : لماذا ؟ قال : لكثرة شكرك ، إن الله تعالى يقول : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ » ، قال : وهذا في القرآن ؟ قال : نعم ، فقال الأعرابي :

يَا رَبِّ لَا شُكْرًا فَلَا تَزِدَّنِي أَسَاتُ فِي شُكْرِي فَاعْفُ عَنِّي
بَاعِدْ ثَوَابَ الشَّاكِرِينَ مِنِّي

* * *

ونزل عبد الله بن جعفر إلى خيمة أعرابية ولها دجاجة ، وقد دَجَّتْ ^(١) عندها ، فذبحتها وجاءت بها إليه ، فقالت : يا أبا جعفر هذه دجاجة لى كنت أدجنها وأعلفها من قوتي ، وألمسها فى آناء الليل ، فكأنما ألمس بنتى زلت عن كبدى ، فندرتُ لله أن

(١) دجن الحمام والغاة وغيرهما كنصر : ألقت البيوت .

أدفعها في أكرم بقعة تكون ، فلم أجد تلك البقعة المباركة إلا بطنك ، فأردت أن أدفعها فيه ، فضحك عبد الله بن جعفر ، وأمر لها بخمسة درهم .

* * *

وسمع أعرابي وهو يقول في الطواف : « اللهم اغفر لأمي » ، فقيل له : مالك لا تذكر أباك ؟ قال : أبي رجل يحتال لنفسه ، وأما أُمي فبأسة ضعيفة .

* * *

« وقال أبو زيد : رأيت أعرابياً كأن أنفه كوز ، من عظمه ، فرآنا نضحك منه ، فقال : ما يضحككم ؟ فوالله لقد كنت في قوم ، ما كنت فيهم إلا أفطس ! » .

* * *

« وجيء بأعرابي إلى السلطان ومعه كتاب قد كتب فيه قصته ، وهو يقول : « هاؤم أقرءوا كتابي » ، فقيل له يقال هذا يوم القيامة ، قال : « هذا والله شر من يوم القيامة ، إن يوم القيامة يؤتى بحسناتي وسيئاتي ، وأنتم جئتم بسيئاتي وتركتم حسناتي » .

* * *

« واشترى أعرابي غلاماً فقيل للبائع : هل فيه من عيب ؟ قال : لا ، إلا أنه يبول في الفراش ، قال ، هذا ليس بعيب ، إن وجد فراشاً فليبول فيه » .

* * *

ومر أعرابي بقوم وهو ينشد ابناً له ، فقالوا له ، صفه ، قال : كأنه دُنِينِير ، قالوا : لم نره ، ثم لم يلبث القوم أن أقبل الأعرابي ، وعلى عنقه جُعَل^(١) ، فقالوا ، هذا الذي قلت فيه دُنِينِير ؟ قال ، القرْنَبِي^(٢) في عين أمها حسناء .

* * *

(١) الجمل : الحرياء .

(٢) القرنبى : دويبة من خشاش الأرض فوق الحنفساء إذا مصها أحدها قبضت فصارت مثل النكرة .

وقيل لأعرابي ، ما يمنعك أن تغزو ؟ قال ، والله إني لأبغض الموت على فراشي ، فكيف أن أمضي إليه رَكْضًا ؟ » .

* * *

« وخرج أعرابي إلى الحج مع أصحاب له ، فلما كان ببعض الطريق راجعاً يريد أهله ، لقيه ابن عمّه ، فسأله عن أهله ومنزله ، فقال ، أعلم أنك لما خرجت ، وكانت لك ثلاثة أيام ، وقع في بيتك الحريق ، فرفع الأعرابي يديه إلى السماء ، وقال : ما أحسن هذا يارب ! تأمرنا بعمارة بيتك أنت ، وتخرب بيوتنا ! » .

* * *

وخرجت أعرابية إلى الحج ، فلما كانت في بعض الطريق عطبت راحلتها ، فرفعت يديها إلى السماء ، وقالت ، « يارب أخرجنى من بيتي إلى بيتك ، فلا يبتى ولا يبتك ! » .

* * *

وعُرضت السجون بعد هلاك الحجاج ، فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً ، لم ينج على واحد منهم قتل ولا صلب ، وفيهم أعرابي ، أخذ يبول في أصل مدينة واسط ، فكان فيمن أطلق ، فأنشأ يقول :

إذا ما خرجنا من مدينة واسطٍ خرينا وبُلْنَا لا نخاف عقابا

* * *

ونظر أعرابي إلى قوم يلتمسون هلال شهر رمضان فقال : « والله لن آثرتموه لتَمْسِكَنَّ منه بُذُنَابِي ^(١) عيش أغبر » .

* * *

ونظر أعرابي إلى رجل سمين فقال « أرى عليك قَطِيفَةً من نَسِجِ أضراسك » .

* * *

وقال أعرابي : « اللهم إني أسألك مِيتَةً كَمِيتَةِ أَبِي خَارِجَةَ ، أكل بَذْجًا ^(١) ،
وشرب مِشْعَلًا ^(٢) » ، ونام في الشمس ، فمات دَفَّانَ شَبْعَانَ رِيَّانَ .

* * *

وقيل لأبي النخس الأعرابي : أَيَسْرُكَ أَنْك خَلِيفَةُ ، وَأَنْ أُمَّتَكَ حُرَّةٌ ،
قال : لا والله ما يسرني ، قيل له : ولم ؟ قال ، « لأنها كانت تذهب الأمة ،
وتضيع الأمة » .

* * *

وحضر أعرابي سفرة سليمان بن عبد الملك ، فجعل يمرّ إلى ما بين يديه ، فقال له
الحاجب مما يليك فكلْ يا أعرابي ، فقال : من أجذب انتجع ، فشقّ ذلك على سليمان
وقال للحاجب : إذا خرج عنا فلا يعدّ إلينا .

* * *

وشهد بعد هذا سفرة أعرابي آخر ، فرّ إلى ما بين يديه أيضاً ، فقال له الحاجب ،
مما يليك فكل يا أعرابي ، قال : من أخصب تحيّر ، فأعجب ذلك سليمان ، فقربه
وأكرمه وقضى حوائجه .

« وحضر أعرابي سفرة سليمان بن عبد الملك ، فلما أتى بالفالوذج ، جعل يُسرّع فيه ،
فقال سليمان : أتدري ما تأكل يا أعرابي ، فقال : بلى يا أمير المؤمنين إني لأجد ريقاً
هنيئاً ، ومزْدَرْدًا ^(٣) ليناً ، وأظنه الصراط المستقيم الذي ذكره الله في كتابه ، فضحك
سليمان وقال : أزيدك منه يا أعرابي ؟ فإنهم يذكرون أنه يزيد في الدماغ ، قال :
كذبوك يا أمير المؤمنين ، لو كان كذلك لكان رأسك مثل رأس البغل ! » .

* * *

« وحضر سفرة سليمان أعرابي ، فنظر إلى شعرة في لقمة الأعرابي ، فقال : أرى

(١) البهج : وله اللسان .

(٢) المشعل : شيء من جلود له أربع قوائم ينبل فيه ، وشرب مشعلا أي شرب مافيه .

(٣) ازدرده : ابعلمه .

شعرة في لقمته يا أعرابي، قال، وإنك لتراعيني مراعاة من يبصر الشعرة في لقمته !
والله لا واكلك أبدأ» ، فقال : استرها يا أعرابي ، فإنها زلة ، ولا أعود لمثلها .

• • •

وقال الأصمعي : قلت لأعرابي : أتهنئ^(١) إسرائيل ؟ قال : إني إذن لرجل سوء ،
قلت له : أفتجر فلسطين ؟ قال : إني إذا لقوي .

• • •

وسمع أعرابي إماماً يقرأ : « وَلَا تُنْكِحُوا^(٢) الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا » - قرأها
بفتح التاء - فقال : ولا إن آمنوا أيضاً لم ننكحهم ، ف قيل له إنه يلحن وليس هكذا
يقرأ ، فقال : « أَخْرُوهُ قَبْضَهُ اللَّهُ ! لَا تَجْعَلُوهُ إِمَاماً ، فَإِنَّهُ يَحِلُّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ » .
(المعقذ الفرهد ٢ : ١٠٠ - ١٠٥)

• • •

وخطب أعرابي فلما أعجبه بعض الأمر عن التصدير بالتحميد ، والاستفتاح بالتمجيد ،
قال : « أما بعد ، بغير ملال لذكر الله ، ولا إثثارٍ غيره عليه ، فإننا نقول كذا ، ونسأل
كذا » فراراً من أن تكون خطبته بتراء وشوهاء^(٣) .
(البيان والتبيين ٢١٢ : ٢١٥)

• • •

ودفعوا إلى أعرابية علكاً^(٤) لتمضغه ، فلم تفعل ، ف قيل لها في ذلك ، فقالت :
« ما فيه إلا تعب الأضراس ، وخيبة الحنجرة » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

• • •

(١) من معاني الهمز : الفنز . (٢) أى تزوجوا .
(٣) وكانوا يسمون الخطبة التي لم يبتدىء صاحبها بالتحميد ، ويستفتح كلامه بالتمجيد « البتراء » ويسمون
التي لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « الشوهاء » .
(٤) العلك : اللبان (بالضم) .

وقيل لأعرابي : عند مَنْ تحب أن يكون طعمك ؟ قال : « عند أم صبي راضع ،
أو ابن سبيل شاسع ، أو كبير جائع ، أو ذى رحم قاطع » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٩)

• • •

وقال أعرابي :

« لولا ثلاث هُنَّ عيشُ الدهر ، الماء ، والنوم ، وأم عمرو ،
لما خَشِيتُ من مَضِيقِ القبر » .

(البياض والتبيين ٢ : ١٠١)

• • •

وسمع أعرابي رجلاً يقرأ سورة براءة فقال : « ينبغي أن يكون هذا آخر القرآن » ،
قيل له : ولم ؟ قال : « رأيت عهوداً تُنبَذ » .
(البيان والتبيين ٢ : ١٦٩)

• • •

وسمع أعرابي رجلاً يقرأ : « وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا
جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرًا^(١) » ، قالها بفتح الكاف ، فقال الأعرابي : « لا يكون » ،
فقرأها عليه بضم الكاف وكسر الفاء ، فقال الأعرابي : « يكون » .
(البيان والتبيين ٢ : ١٧٤)

(١) ذات الألواح والدر : هم السفينة ، والدر ما تشد به الألواح من المسامير وغيرها جمع دسار
ككتاب ، بأعيننا : بمرأى منا أى محفوظه ، وقد جرى كسر ما بيننا الفاعل ، أم الكافرين : أغرقوا
حقابيلهم .

الباب الرابع

في

خطب النكاح

١ - خطبة قريش في الجاهلية

روى الجاحظ قال :

كانت خطبة قريش في الجاهلية - يعني خطبة النساء :

« باسمك اللهم ، ذُكِرَتْ^(١) فلانة ، وفلانٌ بها مشغوفٌ ، باسمك اللهم ، لك ما سألت ولنا ما أعطيت » .

٢ - خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في زواج السيدة فاطمة

« الحمد لله الحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المرهوب من عذابه ، المرغوب فيما عنده ، النافذ أمره في سمائه وأرضه ، الذى خلق الخلق بقدرته ، وميزهم بأحكامه ، وأعزهم يدينه ، وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه . ثم إن الله تعالى جعل المصاهرة نسباً لاهقاً ، وأمسراً مفترضاً ، وشج^(٢) به الأرحام ، وألزمه الأنام ، قال تبارك اسمه ، وتعالى ذكره :

(١) ذكر فلان فلانة ذكراً (بفتح فسكون) : خطبها أو تعرض لخطبتها .

(٢) وشجت المروق والأغصان كوعد : اشتبكت والفتت وتداخلت ، ورحم واشجة ووشيجة : مشتبكة متصلة ، وقد وشجها الله توشيجاً ، وفي الأصل : « وشج به الأرحام » وأراه محرفاً .

« وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا » ، فَأَمَرَ اللَّهُ يَجْرَى إِلَى قَضَائِهِ ، وَلِكُلِّ قَضَاءٍ قَدَرٌ ، وَلِكُلِّ قَدَرٍ أَجَلٌ « يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » .

ثم إن ربِّي أمرني أن أزوجه فاطمة من علي بن أبي طالب ، وقد زوجه إياه على أربع مائة مثقال فضة ، إن رضى بذلك علي » .

٣ - خطبة الإمام علي - كرم الله وجهه

وخطب الإمام علي - كرم الله وجهه حين تزوج بالسيدة فاطمة رضى الله عنها فقال :
« الحمد لله الذي قرَّب من حامديه ، ودنا من سائليه ، ووعد بالجنة من يتقيه ، وَقَطَعَ بالنار عدد من يعصيه . أحمده بجميع محامده وأياديه ، وأشكره شكر من يعلم أنه خالقُه وباريه ، ومصوره ومُنشيه ، ومميتُه ومُحييه ، ومقرِّبه ومنجيّه ، ومُثيبُه ومجازيه ، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تبلغه وترضيه ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله صلاة تُزلفه وتُذنيه ، وتعزّه وتُعليه ، وتشرِّفه وتُجتيبه .

أما بعد : فإن اجتماعنا مما قدَّره الله تعالى ورضيه ، والنكاح ما أمر الله به وأذن فيه ، وهذا محمد صلى الله عليه وسلم قد زوجني فاطمة ابنته على صدّاق أربع مائة درهم وثمانين درهماً ، ورضيت به فأسأله ، وكفى بالله شهيداً » .

٤ - خطبة عتبة بن أبي سفيان

خطب عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان إلى عتبة بن أبي سفيان ابنته ، فأقعه على فخذه ، وكان حديثاً فقال :

« أقرب قريب ، خطب أحب حبيب ، لا أستطيع له ردّاً ، ولا أجد من إسعافه بُدّاً ، قد زوجتكها وأنت أعزُّ عليّ منها ، وهي ألصقُ بقلبي منك ، فأكرِّمها يعذبُ

عَلَى لِسَانِي ذِكْرُكَ، وَلَا تُهِنْهَا فَيَصْغُرَ عِنْدِي قَدْرُكَ ، وَقَدْ قَرَّبْتُكَ مَع قُرْبِكَ ، فَلَا تُبْعِدْ قَلْبِي مِنْ قَلْبِكَ » .

٥ - خطبة شبيب بن شيبه

وقال العُتْبِيُّ : زَوْجَ شَبِيبِ بْنِ شَيْبَةَ ابْنَةِ بَنْتِ سِوَارٍ^(١) الْقَاضِي ، فَقُلْنَا : الْيَوْمَ يَعْْبُ عُبَابُهُ^(٢) ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا تَكَلَّمُ فَقَالَ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، أَمَا بَعْدُ : فَإِنَّ الْمَعْرِفَةَ مِنَّا وَمِنْكُمْ ، بَنَّا وَبِكُمْ^(٣) ، تَمْنَعُنَا مِنَ الْإِكْثَارِ ، وَإِنْ فَلَانًا ذَكَرَ فَلَانَةٌ » .

٦ - خطبة الحسن البصري

« وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَقُولُ فِي خُطْبَةِ النِّكَاحِ ، بَعْدَ الْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ :

« أَمَا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ جَمَعَ بِهَذَا النِّكَاحِ الْأَرْحَامَ الْمُنْقَطِعَةَ ، وَالْأَنْسَابَ الْمَتَفَرِّقَةَ ، وَجَعَلَ ذَلِكَ فِي سُنَّةٍ مِنْ دِينِهِ ، وَمِنْهَا جَاضِحٌ مِنْ أَمْرِهِ ، وَقَدْ خَاطَبَ إِلَيْكُمْ فَلَانٌ ، وَعَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ نِعْمَةٌ ، وَهُوَ يَبْذُلُ مِنَ الصَّدَاقِ كَذَا ، فَاسْتَخِيرُوا اللَّهَ ، وَرُدُّوْا خَيْرًا ، يَرْحَمَكُمُ اللَّهُ » .

٧ - خطبة ابن الفقير

وقال العُتْبِيُّ : حَضَرَتْ ابْنَ الْفَقِيرِ خُطِبَ عَلَى نَفْسِهِ امْرَأَةٌ مِنْ بَاهِلَةٍ فَقَالَ :

« وَمَا حَسَنٌ أَنْ يَمْدَحَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَلَكِنَّ أَخْلَاقًا تَذُمَّ وَتُمدَحُ وَإِنْ فَلَانَةٌ ذَكَرَتْ لِي » .

(١) هو سوار بن عبد الله من قضاة البصرة وخطبائها - انظر البيان والتبيين ١ : ١٦١ - وقرأ في أمالي السيد المرتضى ٤ : ٢٢ حديثاً قريباً للجاحظ عنه في وقاره وضبطه من نفسه ولمسكه من حركته -

(٢) لأن والدي المروسين خطيبان . (٣) أي المعرفة منا بكم ؛ والمعرفة منكم بنا .

٨ - خطبة عمر بن عبد العزيز

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز :
« قد رَوَّجَكَ أمير المؤمنين ابنته فاطمة » ، قال : « جزاك الله يا أمير المؤمنين خيراً ،
فقد أجزلت العطية ، وكفيت المسألة » .

٩ - خطبة أخرى له

وحدث محمد بن عبيد الله القرشي عن أبي المقدم قال :
كانت قریش تستحسن من الخاطب الإطالة ، ومن الخطوب إليه التقصير ^(١) ،
فشهدت محمد بن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان خطب إلى عمر بن عبد العزيز أخته أم عمر
بنت عبد العزيز ، فتكلم محمد بن عبد الوليد بكلام جاز الحفظ ، فقال عمر :
« الحمد لله ذي الكبرياء ، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء ، أما بعد : فإن الرغبة
منك دَعَتَكَ إلينا ، والرغبة فيك أجابَتْكَ منا ، وقد أحسن بك ظناً من أودعك
كريمته ، واختارك ولم يَخْتَرْ عليك ، وقد زوجْتُكما على كتاب الله : إِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ
أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ » .

١٠ - خطبة بلال

وخطب بلال إلى قوم من خَشَعَمَ لنفسه ولأخيه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أنا بلال وهذا أخي ، كنا ضالَّين فهدانا الله ، عبدين فأعتقنا الله ، فقيرين
فأغنانا الله ، فإن تزوجونا فالحمد لله ، وإن ترُدُّونا فالاستعانةُ اللهُ » .

(١) وكذلك روى الجاحظ في البيان والتبيين (١ : ٦٤) قال : « والسنة في خطبة النكاح أن يطيل
الخطاب ، ويقصر المحب » ، والحصري في زهر الآداب (٢ : ٣١) قال الأصمعي : « كانوا يستحبون من
الخطاب إلى الرجل حرمة الإطالة ، لتدل على الرغبة ، ومن الخطوب إليه الإيجاز ليدل على الإجابة » .

١١ - خطبة خالد بن صفوان

وزوج خالد بن صفوان مولاة من أمته ، فقال له العبد : لو دعوت الناس وخطبت ! قال : أدعهم أنت ، فدعاهم العبد ، فلما اجتمعوا ، تكلم خالد بن صفوان ، فقال : « أما بعد : فإن الله أعظم وأجل من أن يُذكر في نكاح هذين الكلبيين ، وأنا أشهدكم أنني زوجت هذه الزانية من هذا ابن الزانية » .

١٢ - خطبة أعرابي

وخطب الفضل الرقاشي إلى قوم من بني تميم فخطب لنفسه ، فلما فرغ قام أعرابي منهم فقال : « تَوَسَّلَتْ بِحُرْمَةٍ ، وَأُولِيتَ بِحَقٍّ ، وَاسْتَنْدَتَ إِلَى خَيْرٍ ، وَدَعَوْتَ إِلَى سُنَّةٍ ، فَفَرَضْتُكَ مَقْبُولٍ ، وَمَا سَأَلْتَ مَبْذُولٌ ، وَحَاجَتُكَ مَقْضِيَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » . قال الفضل : لو كان الأعرابي حمد الله في أوّل كلامه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم لفصحني يومئذ » .

١٣ - خطبة المأمون

وقال يحيى بن أكثم : أراد المأمون أن يزوّج ابنته من علي بن موسى الرضا ، فقال : يا يحيى تكلم ، فأجلبته أن أقول : « أنكحت » ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنت الحاكم الأكبر ، والإمام الأعظم ، وأنت أوّل بالكلام ، فقال : « الحمد لله الذي تصاغرت الأمور بمشيئته ، ولا إله إلا هو إقراراً بربوبيته ، وصلى الله على محمد عند ذكره ، أما بعد : فإن الله قد جعل النكاح ديناً ، ورضيه حكماً ، وأنزله وحياً ، ليكون سبب المناسبة ، ألا وإني قد زوجت ابنة المأمون من علي بن موسى ،

وأمرتها أربعمائة درهم ، اقتداءً بِسُنَّةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتهاءً إلى ما دَرَجَ إليه السَّلفُ ، والحمد لله رب العالمين » .

* * *

وخطب رجل إلى قوم ، فَأَتَى بِنَ يَخْطُبُ له ، فاستفتح بحمد الله ، وأطال ، وصلى على النبي عليه الصلاة والسلام ، وأطال ، ثم ذكر الْبَدْءَ وَخَلْقَ السموات والأرض ، واقتصَّ ذِكْرَ القرون ، حتى ضَجِرَ مَنْ حَضَرَ ، والتفت إلى المخاطب ، فقال : ما أُسْمِكُ أعزَّكَ الله ؟ فقال : والله قد أُنْسِيْتُ أُسْمِي من طول خطبتك ، وهى طالِقٌ . إن تزوجتها بهذه الخطبة ، فضحك القوم ، وعقدوا فى مجلس آخر .

(مفتاح الأفكار ص ٦٢ ، ومواسم الأدب ٢ : ١٢٠ ، وللمتد الفريد ٢ : ١٦٣ ،

وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٢١٥ ،

٢١٧ - ٢ : ٥٠ : ١٣٠ - ٣ : ٢٢١ ، وزهر الآداب ٢ : ٣٠ ، ٣١)

البَابُ الْخَامِسُ

فِي

خُطْبٍ مِنْ أَرْتَجٍ عَلَيْهِم

وَنَوَادِرَ طَرِيفَةٍ لِبَعْضِ الْخُطَبَاءِ

روى الجاحظ قال : صَعِدَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ الْمَنَبَرُ ، فَأَرْتَجَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ :

« إِنْ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ كَانَا يُعِدَّانِ لِهَذَا الْمَقَامِ مَقَالًا ، وَأَنْتُمْ إِلَى إِمَامٍ عَادِلٍ أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ خَطِيبٍ » .

* * *

وروى ابن عبد ربه قال : أَوَّلُ خُطْبَةٍ خُطِبَهَا عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ أَرْتَجَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ أَوَّلَ كُلِّ مَرْكَبٍ صَعَبٌ ، وَإِنْ أَعِشَ تَأْتِيَكُمْ الْخُطْبَةُ عَلَى وَجْهِهَا ، وَسَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ » .

* * *

ولما قَدِمَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ الشَّامَ وَالْيَا عَلَيْهِمَا لِأَبِي بَكْرٍ ، خُطِبَ النَّاسُ فَأَرْتَجَ عَلَيْهِ ، فَعَادَ إِلَى الْحَمْدِ لِلَّهِ ، ثُمَّ أَرْتَجَ عَلَيْهِ ، فَعَادَ إِلَى الْحَمْدِ لِلَّهِ ، ثُمَّ أَرْتَجَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ :

« يَا أَهْلَ الشَّامِ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ بَعْدِ عُسْرٍ يُسْرًا ، وَمَنْ بَعْدَ عَيٍّْ بَيَانًا ،

وَأَتَمُّ إِلَى إِمَامٍ فَاعِلٌ^(١) ، أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ قَائِلٌ^(٢) » ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَوُ بْنُ الْعَاصِ فَاسْتَحْسَنَهُ .

* * *

وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ وَلِيُّ نَابِتَ قُطْنَةَ^(٣) بَعْضَ قُرَى خُرَاسَانَ^(٤) ، فَلَمَّا صَعِدَ الْمَنْبَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، ثُمَّ أَرْتَجَّ عَلَيْهِ ، فَنَزَلَ وَهُوَ يَقُولُ :

فَالَا أَكُنْ فِيكُمْ خَطِيبًا فَإِنِّي بَسِيفِي إِذَا جَدَّ الْوَعْيُ لَخَطِيبُ

فَقِيلَ لَهُ : « لَوْ قَلَّتْهَا فَوْقَ الْمَنْبَرِ ، لَكُنْتَ أَخْطَبَ النَّاسِ » .

* * *

وَخُطِبَ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ لِمَا وَلِيَ ، فَحَصَرَ فَقَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنِّي كُنْتُ أَعَدَدْتُ مَقَالًا أَقُومُ بِهِ فِيكُمْ ، فَحُجِبْتُ عَنْهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ، كَمَا قَالَ فِي كِتَابِهِ^(٥) ، وَأَتَمُّ إِلَى إِمَامٍ عَدْلٍ ، أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ خَطِيبٍ ، وَإِنِّي أَمْرُكُمْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ، وَأَنْهَاكُمْ عَمَّا نَهَاكُمْ اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ » .

* * *

وَصَعِدَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ يَوْمًا الْمَنْبَرَ بِالْبَصْرَةِ لِيَخْطُبَ فَأَرْتَجَّ عَلَيْهِ ، فَقَالَ :

(١) فِي عَيُونِ الْأَخْبَارِ : « إِمَامٌ عَادِلٌ » . (٢) وَفِي أَمَالِ السَّيِّدِ الْمُرْتَضَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ يَرَوِي لِعُمَانَ بْنِ عَفَانَ ، وَفِي رَوَايَتِهَا : « إِمَامٌ فَعَالٌ » وَ « إِمَامٌ قَوَالٌ » بِصِيغَةِ الْمُبَالَغَةِ ، وَفِي الْأَغَاثِيِّ أَنَّهُ يَرَوِي لِنَابِتِ قُطْنَةَ ، وَلِيهِ : « أَمِيرٌ فَعَالٌ » وَ « أَمِيرٌ قَوَالٌ » .

(٣) هُوَ ثَابِتُ بْنُ كَعْبٍ ، وَلَقَبَ قُطْنَةَ لِأَنَّهُ سَهَمًا أَصَابَهُ فِي إِحْدَى عَيْنَيْهِ ، فَلَذَبَ بِهَا فِي بَعْضِ حُرُوبِ الْبُرُكِ ، فَكَانَ يَجْعَلُ عَلَيْهَا قُطْنَةً ، وَهُوَ شَاعِرٌ فَارَسٌ شَجَاعٌ مِنْ شُعْرَاءِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ ، وَكَانَ فِي مَصَابِيحِ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ ، وَكَانَ يُولِيهِ أَعْمَالًا مِنْ أَعْمَالِ الثَّقُفِيِّ ، فَيَحْمَدُ فِيهَا مَكَانَهُ لِكِفَايَتِهِ وَشَجَاعَتِهِ ، وَقَدْ مَالَ إِلَى قَوْلِ الْمَرْجَنَةِ ، وَلَهُ قَصِيدَةٌ فِي الْإِرْجَاءِ ، انْظُرْ تَرْجُمَتَهُ فِي الْأَغَاثِيِّ ج ١٣ ص ٤٧ .

(٤) وَفِي رَوَايَةٍ : أَنَّهُ خُطِبَ عَلَى مَنِيرِ سَجِسْتَانَ ، وَفِي رَوَايَةِ الطَّبْرِيِّ : « فَخُطِبَ النَّاسُ فَحَصَرَ فَقَالَ : مَنْ يَطْعُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ » وَأَرْتَجَّ عَلَيْهِ فَلَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ ، فَلَمَّا نَزَلَ مِنَ الْمَنْبَرِ قَالَ الْبَيْتُ الْمَذْكُورُ .

(٥) الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ : « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » .

« أيها الناس : أما بعد ، فإن هذا الكلام يَحْيَى أحياناً ، وَيَعْزِبُ أحياناً ، فَيَسِيحُ عند بَحْيِثِهِ سَيِّئُهُ ^(١) ، وَيَعِزُّ عند عَزْوِهِ طَلَبُهُ ، وَلربما كُوبِرَ فَأَبَى ^(٢) ، وَعَوُلُجَ فَنَأَى ، فَالتَأْتِي ^(٣) لِحِيَّةٍ ، خَيْرٌ مِنَ التَّعَاطَى لِأَبِيَّةٍ ، وَتَرَكَهُ عند تَسْكُرِهِ ، أَفْضَلُ مِنْ طَلَبِهِ عند تَعَذُّرِهِ ، وَقَدْ يَخْتَلِجُ ^(٤) مِنَ الْجَرَىءِ جَنَانُهُ ، وَيَنْقَطِعُ مِنَ الذَّرْبِ ^(٥) لِسَانُهُ ، فَلَا يُبْطِرُهُ ذَلِكَ وَلَا يَكْسِرُهُ ، وَسَاعُودُ فَأَقُولُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَمَا رَأَى حَصِرٌ أَبْلَغَ مِنْهُ .

* * *

وصعد أبو العنْبَسِ مِنْبَرًا مِنْ مَنَابِرِ الطَّائِفِ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
أما بعد ، فَأُرتِجَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : أَتَدْرُونَ مَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ لَكُمْ ؟ قَالُوا : لَا ، قَالَ :
فَمَا يَنْفَعُنِي مَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ لَكُمْ ، ثُمَّ نَزَلَ ؛ فَلَمَّا كَانَ فِي الْجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ ، وَصَعِدَ الْمَنْبَرَ
وَقَالَ : أما بعد ، أُرتِجَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : أَتَدْرُونَ مَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ لَكُمْ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ،
قَالَ : فَمَا حَاجَتُكُمْ إِلَيَّ أَنْ أَقُولَ لَكُمْ مَا عَلِمْتُمْ ؟ ثُمَّ نَزَلَ ؛ فَلَمَّا كَانَتِ الْجُمُعَةُ الثَّالِثَةُ ،
قَالَ : أَمَّا بَعْدُ : فَأُرتِجَ عَلَيْهِ ، قَالَ : أَتَدْرُونَ مَا أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ لَكُمْ ؟ قَالُوا :
بَعْضُنَا يَدْرِي ، وَبَعْضُنَا لَا يَدْرِي ، قَالَ : فَلْيُخْبِرِ الَّذِي يَدْرِي مِنْكُمْ الَّذِي لَا يَدْرِي ،
ثُمَّ نَزَلَ .

* * *

وَوَلَّى الْيَمَامَةَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ يَعْرِفُ بِالْدَّئْدَنَانِ ، فَلَمَّا صَعِدَ الْمَنْبَرَ أُرتِجَ عَلَيْهِ ،
فَقَالَ :

(١) الْحَيْبُ : الْمَطَاءُ ، وَفِي رِوَايَةٍ : « فَيَتَسَبَّبُ عِنْدَ بَحْيِثِهِ سَبِيهُ » .

(٢) وَفِي رِوَايَةٍ : « فَعَسَا » أَيْ اِشْتَدَّ وَصَعِبَ . (٣) ثَأْنٌ لَهُ : تَرْفُقُ ، وَفِي رِوَايَةٍ :

« فَالتَأْنِي » بِالنُّونِ . (٤) يَضْطَرِبُ .

(٥) الْحَادُّ الْلسَانَ : وَفِي رِوَايَةٍ : « وَيُرْتِجُ عَلَى الْبَلِيغِ لِسَانَهُ » ، وَفِي أُخْرَى : « وَقَدْ يُرْتِجُ عَلَى الْلسَانِ لِسَانَهُ ، وَلَا يَنْظُرُهُ الْقَوْلُ إِذَا اتَّعَسَ » وَلَا يَقْبِرُ إِذَا امْتَنَعَ ، وَمَنْ لَمْ يُمْكِنْ لَهُ الْخَطْوَةُ ، فَخَلِيقٌ أَنْ تَعْنِ لَهُ النَّهْوَةُ ، وَفِي أُخْرَى : « وَقَدْ يَتَعَصَّى عَلَى الذَّرْبِ لِسَانَهُ » ، ثُمَّ لَا يَكْبُرُ الْقَوْلُ إِذَا امْتَنَعَ ، وَلَا يَرُدُّ إِذَا اتَّعَسَ ، وَأَوَّلُ النَّاسِ مَنْ عَدَرَ عَلَى النَّبَوَةِ ، وَلَمْ يُوَازِخْ عَلَى الْكِبَرَةِ ، مَنْ عَرَفَ مِيدَانَهُ ، اِشْتَهَرَ إِحْسَانَهُ ، وَسَاعُودُ وَأَقُولُ .

« حَيَّاَ اللهَ هذه الوجوه ، وجعلنى فِدَاءَهَا ، إني قد أَسْرَت طَائِفِي بِاللَّيْلِ أَنْ لَا يَرَى أَحَدًا إِلَّا أَنَا نِي بِهِ ، وَإِنْ كُنْتُ أَنَا هُوَ » ، ثُمَّ نَزَلَ .

* * *

وخطب عبد الله بن عامر^(١) بالبصرة في يوم أَضْحَى ، فَأُتِيَ عَلَيْهِ ، فمَكَثَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ :

« وَاللَّهِ لَا أَجْمَعُ عَلَيْكُمْ عِيًّا وَلَوْ مَاءً ، مِنْ أَخَذَ شَاةً مِنَ السُّوقِ فَهِيَ لَهُ ، وَثَمْنُهَا عَلَى » .

* * *

قال الجاحظ : وَلَمَّا حَصَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ عَلَى مَنْبَرِ الْبَصْرَةِ ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ زِيَادُ : « أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّكَ إِنْ أَقَمْتَ عَامَّةَ مَنْ تَرَى ، أَصَابَهُ أَكْثَرُ مِمَّا أَصَابَكَ » .

* * *

وكان سعيد بن جندب السكلي على قنشرين^(٢) ، فوثب عليه زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ ، فَأَخْرَجَهُ مِنْهَا ، وَبَايَعَ لَابْنَ الزَّيْبِرِ^(٣) ، فَلَمَّا قَعَدَ زُفَرُ عَلَى الْمَنْبَرِ قَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَقْعَدَنِي مَقْعَدَ الْغَادِرِ الْفَاجِرِ » ، وَحَصَرَ ، فَضَحَكَ النَّاسُ مِنْ قَوْلِهِ .

* * *

وصعد عدي بن أرطاة^(٤) المنبر ، فلما رأى جماعة الناس حَصَرَ فقال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُطْعِمُ هَؤُلَاءَ وَيُسْقِيهِمْ » .

* * *

وصعد رَوْحُ بْنُ حَاتِمِ الْمَنْبَرِ ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ شَفَّنُوا^(٥) أَبْصَارَهُمْ ، وَفَتَحُوا أَسْمَاعَهُمْ نَحْوَهُ ،

(١) انظر هامش الجزء الأول ص ٣٥٥ . (٢) مكورة بالشام . (٣) انظر هامش الجزء

الثاني ص ١٤١ .

(٤) كان عامل يزيد بن عبد الملك على البصرة .

(٥) شفتة كضربة وعلمه شفونا: نظر إليه بعُذْرٍ عَيْفِيهِ ، أَوْ رَفَعَ طَارِفُهُ نَظْرًا إِلَيْهِ كَالْمُنْتَجِبِ أَوْ كَالْكَارِهِ

بَحْصِرَ قَتَالَ : « نَكْسُوا رءُوسَكُمْ ، وَغَضُّوا أَبْصَارَكُمْ ، فَإِنَّ الْمَنِيرَ مَرَّ كَبَّ صَعْبٍ ، وَإِذَا يَسَّرَ اللَّهُ فَتَحَ قُفْلٍ تَيْسَّرَ » .

• • •

وكان عبد ربه اليشكريّ عاملاً لعيسى بن موسى^(١) على المدائن ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأرتج عليه ، فسكت ثم قال : « والله إني لأكون في بيتي فتجىء على لساني ألف كلمة ، فإذا قتُ على أعوادكم هذه جاء الشيطان فحأها من صدري ، ولقد كنتُ وما في الأيام يوم أحبُّ إلىَّ من يوم الجمعة ، فصرتُ وما في الأيام يوم أبغضُ إلىَّ من يوم الجمعة ، وما ذلك إلا لخطبتكم هذه » .

• • •

وأرتج على معن بن زائدة ، فضرب المنبر برجله ، ثم قال : « فتى حرُوب ، لا فتى منابر » .

• • •

وحدث عيسى بن عمر قال :

خطب أميرٌ مرةً فانقطع فجعل ، فبعث إلى قوم من القبائل عابوا ذلك وَلَفَّهِمْ^(٢) ، وفيهم يَرْبُوعِيٌّ جَلَدٌ ، فقال : اخطبوا ، فقام واحد فمرَّ في الخطبة ، حتى إذا بلغ « أما بعدُ » قال : أما بعد ، أما بعد ، ولم يدْرِ ما يقول ، ثم قال : فإن امرأتي طالقٌ ثلاثاً لم أُرِدْ أَنْ أَجْمَعَ^(٣) اليوم فمنعتني ، وخطب آخر ، فلما بلغ « أما بعد » بقي ونظر فإذا إنسان ينظر إليه ، فقال : لعنك الله ! ترى ما أنا فيه ، وتلمحني ببصرك أيضاً ! وقال أحدهم : رأيتُ القَرَاقِرَ^(٤) من السفن تجرى بيني وبين الناس ، وصعد اليربوعيّ فخطب فقال : « أما بعد » فوالله ما أدري ما أقول ، ولا فيم أقتموني ، أقول ماذا ؟ »

(١) هو عيسى بن موسى ابن أخى المنصور وكان أمير الكوفة . (٢) لفهم : جمعهم .

(٣) جمع الناس بالتشديد : أى شهدوا الجمعة ، كما يقال : عيدوا : أى شهدوا العيد .

(٤) القراقر : جمع قرقور كعصفور : وهى السفينة أو الطويلة أو العظيمة .

فقال بعضهم : قل في الزيت ، فقال : « الزيت مبارك^(١) ، فكلوا منه وادّهنوا » .
قال : فهو قول الشُّطَّار^(٢) اليوم ، إذا قيل لم فعلت ذا ؟ فقل في شأن الزيت ،
وفي حال الزيت .

* * *

وروى الجاحظ أنه قيل لرجل من الوجوه : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما صعد
حصراً وقال : « الحمد لله الذي يرزق هؤلاء » وبقي ساكناً فأنزلوه . وصعد آخر ،
فلما استوى قائماً ، وقابل بوجهه وجوه الناس ، وقعت عينه على صلعة^(٣) رجل فقال :
« اللهم العن هذه الصلعة » .

* * *

وقيل لوازع اليشكري : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما رأى جمع الناس قال :
« لولا أن امرأتى لعنبا الله حملتني على إتيان الجمعة اليوم ما جمعت ، وأنا أشهدكم
أنها منى طالق ثلاثاً » .

* * *

ودعى أيوب بن القريّة لكلام ، فاحتبس القول عليه ، فقال : « قد طال السمر ،
وسقط القمر ، واشتد المطر ، فإذا ينتظر ؟ » فأجابه فتى من عبد القيس فقال :
« قد طال الأرق ، وسقط الشفق ، وكثر اللثق^(٤) ، فلينطق من نطق » .

* * *

() يشير إلى الآية الكريمة : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره
كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري
يوقد من شجرة مباركة ، زيتونه لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء
ولو لم تمسسه نار ، نور على نور » .

(٢) الشطار جمع شاطر : وهو من أعياء أهله خبثاً ، والمراد به هنا أهل الدعارة وأصحاب النوادر
والنسكيت والفكاهات . (٣) الصلعة : موضع الصلع .

(٤) لثق يوماً كفرح : ركبت ربحه وكثر نداءه .

وجاء في أمالي السيد المرتضى :

روى أن بعض خلفاء بني العباس - وأظنه الرشيد - صعد المنبر ليخطب ، فسقطت على وجهه ذبابة ، فطردها ، فرجعت ، فحصر وأرتج عليه ، فقال : أعوذ بالله السميع العليم « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ ^(١) مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » ثم نزل ، فاستحسن ذلك منه .

• • •

وروى أن رجلا صعد المنبر أيام يزيد بن معاوية ، وكان والياً على قوم فقال لهم : « أيها الناس : إني إن لم أكن فارساً طبعاً ^(٢) بهذا القرآن ، فإن معي من أشعار العرب ما أرجو أن يكون خلفاً منه ، وما أساء القائل أخو البراجم حيث قال :

وما عاجلاتُ الطير يُدْنِينَ للفتى رشاداً ، ولا من ربيهن ينجب ^(٣)
وربَّ أمورٍ لا تضيرك ضيرةٌ وللقلب من نخشائهن وجيب ^(٤)
ولا خيرَ فيمن لا يؤطّن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب
وفي الشكّ تقريظٌ وفي الحزم قوةٌ ويخطي الفتى في حدسه ويصيب ^(٥)

فقال رجل من كلب : إن هذا المنبر لم ينصب للشعر ، بل ليحمد الله تعالى ،

(١) وكانوا يطلون أصنامهم بالطيب ولزعفران ويفلقون عليها الأبواب ، فيدخل للذباب من الكوى فيأكله . (٢) ماهراً حاذقاً .

(٣) كانت العرب تنومن بالطير الصانع ، وهو ماولاك ميامنه ، بأن يمر من ميسرك إلى ميامنك ، وتتشام بالبارح ، وهو ماولاك مياسره ، بأن يمر من ميامنك إلى ميسرك ، وذلك لأنه لا يمكنك رمية إلا بأن تنحرف له ، وربما كان أحدهم يبيع الطير ليطير ، فيتمدها ، وعاجلات الطير هي أن يخرج الإنسان من منزله إذا أراد أن يزجر الطير ، فامر به أول ما يبصر فهو عاجلات الطير ، وإن أبطأت عنه وانتظرا فقد رانت أي أبطأت ، والأول عندهم محمود ، والثاني مذموم .

(٤) خشية خشية ونخشة : خافه ، ووجب القلب وجيباً : خفق واضطرب . (٥) الحذر : القن والضمين ، والأبيات لضبان بن الحارث الجرجي (انظر زهر الآداب ٢ : ٨٨) .

وَيُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَلِلْقُرْآنِ ، فَقَالَ : أَمَّا لَوْ أَنْشَدْتُمْ
شعر رجل من كلب لَسَرَّكُمْ ، فَكُتِبَ إِلَى يَزِيدَ بِذَلِكَ فَعَزَلَهُ ، وَقَالَ : قَدْ كُنْتُ
أُرَاكَ جَاهِلًا أَحْمَقَ ، وَلَمْ أَحْسَبْ أَنْ الْحَقَّ يَبْلُغُ بِكَ إِلَى هَذَا الْمُبْلَغِ ، فَقَالَ لَهُ : أَحْمَقُ مِنْ
مَنْ وَلَّانِي !

* * *

وخطب عَتَّابُ بْنُ وَرْقَاءَ^(١) فُحْتُ عَلَى الْجِهَادِ فَقَالَ : هَذَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى
فِي كِتَابِهِ :

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْغَانِيَاتِ جَرُّ الدُّيُولِ^(٢)

* * *

وخطب يوما فقال : هَذَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « إِنَّمَا يَتَفَضَّلُ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ ،
وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ » قَالُوا لَهُ : « إِنْ هَذَا لَيْسَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ » قَالَ : « مَا ظَنَنْتُ
إِلَّا أَنَّهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ » .

* * *

وخطب وَكَيْعُ بْنُ أَبِي سُودٍ^(٣) بِخُرَّاسَانَ فَقَالَ : « إِنْ اللَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَشْهُرٍ » فَقِيلَ لَهُ : « إِنَّمَا سِتَّةُ أَيَّامٍ » فَقَالَ : « وَأَيُّكَ لَقَدْ قُتِلَتْهَا
وَإِنِّي لَأَسْتَقِلُّهَا ! » .

* * *

وَصَعِدَ الْمَنْبَرُ فَقَالَ : « إِنْ رُبِيعَةٌ لَمْ تَزَلْ غَضَابًا عَلَى اللَّهِ مَذْبَعُ نَبِيِّهِ مِنْ مُضَرٍّ ،

(١) انظر الجزء الثاني ص ٤٣٣ و ٤٤٥ . (٢) البيت لعمر بن أبي ربيعة ، وذلك أن مصعب بن الزبير
بعد أن قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي دحا امرأته - وهي بنت النعمان بن بشير - إلى البراءة من المختار ،
فأبى فقتلها ، فقال في ذلك ابن أبي ربيعة :

إن من أعظم الكبائر عندي	قتل جهنماء غادة عطبول
قتلت باطلا على غير ذنب	إن لله درهما من قتيل
كتب الفعل والقتال علينا	وعلى الغانيات جر الدويول

والمعطول كمصفور : المرأة اللقية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق . (٣) انظر الجزء الثاني ص ٣١٢

ألا وإن ربيعة قومٌ كُشِفَتْ^(١) ، فإذا رأيتموهم فاطمِنُوا الخيل في مَنَاخِرِهَا ، فإن فرسا لم يُطْعَنَ في مَنَاخِرِهِ إِلَّا كَانَ أَشَدَّ عَلَى فَارِسِهِ مِنْ عَدُوِّهِ^(٢) .

* * *

وضربت بنو مازن أَلْحَتَاتَ بن يزيد المَجَاشِعِيِّ ، فجاءت جماعة منهم ، فيهم غالبُ أبو الفرزدق فقال : « يا قوم كونوا كما قال الله : لا يَعْجِزُ القوم إذا تعاونوا » .

* * *

وخطب عدى بن زياد الإيادِيَّ ، فقال : « أَقول لكم كما قال العبد الصالح لقومه : « مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ، وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ^(٣) » ، قالوا له : « ليس هذا من قول عبد صالح ، إنما هو من قول فرعون » ، قال : من قاله فقد أحسن » .

* * *

وروى الطبرى أن عبد الله بن الزبير كان وَلَّى أخاه عُبَيْدَةَ عَلَى المدينة ، ثم نزعهُ عنها ، وكان سبب عزله إِيَاهُ أَنَّهُ خطب الناس ، فقال لهم : قد رأيتم ما صُنِعَ^(٤) بقوم في ناقة قيمتها خَمْسُمِائَةِ دِرْهَمٍ ، فسمى مَقُومَ الناقة ، وبلغ ذلك ابن الزبير فقال : إن هذا هو التكلف .

وروى الجاحظ وابن عبد ربه هذا الخبر فقالا : خطب والى اليمامة^(٥) ، فقال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُقَارَى^(٦) عِبَادَهُ عَلَى الْمَعَاصِي ، وقد أهلك الله أمة عظيمة في ناقة ما كانت تَسَاوِي مائتي درهم » ، فسمى مقوم ناقة الله .

* * *

(١) كشف جمع أكشف : وهو من ينهزم في الحرب ، ومن لا ترس معه في الحرب ، ومن لا بيضة على رأسه . (٢) وروى الطبرى أن عبد الله بن خازم قال ذلك القول لأصحابه بخراسان ، قال لهم : « إذا لقيتم الخيل فاطمِنوها في مَنَاخِرِهَا ، فإنه إن يطعن فرس في نَخْرَتِهِ إِلَّا أَدْبَرَ أَوْ رَمَى بِصَاحِبِهِ » . (الطبرى ٧ : ٤٦) . (٣) الآية الكريمة : « قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى » .

(٤) يشير إلى ثمود قوم صالح عليه السلام — انظر هامش الجزء الثاني ص ٣٥٢ .

(٥) لعلها المدينة . (٦) أى لا يقتره .

وخطب فَبَيَّصَةً ، وهو خليفة أبيه^(١) على خُراسان ، وأتاه كتابه ، فقال :
« هذا كتاب الأمير ، وهو والله أهلٌ لأنْ أُطِيعَهُ ، وهو أبى وأكبر منى » .

* * *

ودعى مُصْعَبُ بْنُ حَيَّانٍ ليخطب في نكاح خُصَيْرِ فقال : « لَتَقْنُوا موتاكم
شهادة أن لا إله إلا الله ، فقالت أم الجارية ، عَجَّلَ اللهُ موتك ، ألهذا دعوناك ؟ » .

* * *

وخطب أمير المؤمنين الموالى - وهكذا لقَّبه - خطبة نكاح خُصَيْرِ ، فقال :
« اللهم إنا نحمدك ونستعينك ولا نُشْرِكُ بك » .

* * *

وخطب قُتَيْبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ على منبر خُراسان ، فسقط القضيبي من يده ، فتفأَّل له
عدوه بالشرِّ ، واغتمَّ صديقه ، فعرف ذلك قتيبة ، فأخذه وقال : « ليس الأمر على ما ظن
العدو ، وخاف الصديق^(٢) ، ولكنه كما قال الشاعر :
فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرِ^(٣) »

* * *

وتكلم صَعَصَعَةُ عند معاوية فَعَرِقَ ، فقال معاوية : بهَرَك^(٤) القول ! فقال
صعصعة : إن الجياد نَضَّاحَةٌ بالماء .

* * *

وشخص يزيد بن عمر بن هُبَيْرَةَ إلى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فتكلم فقال هشام :
حامات من خلفَ مثلَ هذا ! فقال الأبرش الكلبي : ليس هناك ، أما تراه يَرَشِّحُ
جبينه لِضِيقِ صدره ! قال يزيد : ما لذلك رَشَحَ ، ولكن لجلوسك في هذا الموضع .

* * *

(١) هو المهلب بن أبي صفرة ، وكان والياً على خراسان - انظر الجزء الثاني ص ٢٨٥ .

(٢) وفي رواية : « كما ساء للصديق ، وسر العدو » . (٣) النوى : الغربة البعيدة .

(٤) أى غلبك .

وقال عبيد الله بن زياد : « نِعَمَ الشَّيْءُ الْإِمَارَةُ ، لَوْلَا قَعَقَعَةُ الْبَرِيدِ ، وَالتَّشْرِيفُ
لِلخُطْبِ » .

* * *

وقيل لعبد الملك بن مروان : عَجِّلْ عَلَيْكَ الْمَشِيبُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ : كَيْفَ
لَا يَعْجَلُ عَلَيَّ ، وَأَنَا أَعْرِضُ عَقْلِي عَلَى النَّاسِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ؟ «
» أَوْ قَالَ : شَيْبَنِي صُعُودُ الْمَنَابِرِ وَالْخُوفُ مِنَ اللَّحْنِ » .

(. العقد الفريد ٢ : ١٦٢ - ١٦٣ و ٣ : ٢٥٦ ، و عيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ و ٢٥٦ و ٢٥٩ ، و أمالي السيد المرتضى ٤ : ١٩ - ٢٢ ، و الأغاني ١٣ : ٤٧ ، ١٧ : ١١١ ، و تاريخ الطبري ج ٧ : ص ٩٠ ، ج ٨ : ١٨٨ ، و البيان و التبیین ١ : ٧٤ ، ١٦٣ ، ١٨٦ - ٢ : ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، و الأمالي ١ : ١١١ ، و تهذيب الكامل ١ : ١٧ ، و شرح العميون ص ١٢٥ ، ٢٠٥ ، و الصنائع ص ٢١) .

بدء الخطب وختامها

قال ابن قُتَيْبَةَ في عيون الأخبار :

تبعث خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدت أوائل أكثرها :
« الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ونتوب إليه ،
ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ،
ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » ، ووجدت
في بعضها : « أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحكم على طاعته » ، ووجدت
كل خطبة مفتاحها الحمد ، إلا خطبة العيد ، فإن مفتاحها التكبير .

(عيون الأخبار ٢ : ص ٢٢١)

وروى ابن عبد ربه في العقد قال :

« وكان آخر كلام أبي بكر الذي إذا تكلم به عرف أنه قد فرغ من خطبته :
اللهم اجعل خير زماني آخره ، وخير عملي خواتمه ، وخير أيامي يوم ألقاك » .
وكان آخر كلام عمر الذي إذا تكلم به عرف أنه قد فرغ من خطبته : « اللهم
لا تدعني في غمرة ، ولا تأخذني على غرّة ، ولا تجعلني من الغافلين » .
وكان عبد الملك بن مروان يقول في آخر خطبته : « اللهم إن ذنوبي قد عظمت
وجلّت أن تحصى ، وهي صغيرة في جنب عفوك فاعف عني » .

(العقد الفريد ٢ : ١٢٢ ، ١٤٢)

تم بحمد الله

فهرس ذيل الجهرة

الباب الأول

في خطب الأندلسيين والمغاربة

رقم الصفحة	الخطبة أو الوصية
١٦٢	خطبة عبد الرحمن الداخل يوم حربه مع يوسف الفهرى
١٦٣	عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده قنسرين
١٦٤	عبد الرحمن الداخل ورجل من جنده يهتته بفتح سر قسطة
١٦٤	تأديب عبد الرحمن الأوسط لابنه المنذر
١٦٦	عبد الرحمن الأوسط وابنه المنذر أيضاً
١٦٧	يعقوب بن عبد الرحمن الأوسط وأحد خدامه
١٦٨	وفاء الوزير بن غانم لصديقه الوزير هاشم بن عبد العزيز
١٦٩	خطبة منذر بن سعيد البلوطى فى الاحتفال بقدم رسل ملك الروم
١٧٣	خطبة أخرى له
١٧٣	أحد حساد الرمادى الشاعر والمنصور بن أبى عامر
١٧٧	ابن اللبانة الشاعر وعز الدولة بن المعتصم بن صمادح
١٧٨	دفاع ابن الفخار عن القاضى الوحيدى بحضرة ابن تاشفين
١٧٩	موعظة ابن أبى رندقة الطرطوشى للأفضل بن أمير الجيوش
١٨٠	خطبة ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين
١٨٣	مقال لسان الدين ابن الخطيب فى الحضر على الجهاد
١٨٤	ماخاطب به لسان الدين تربة السلطان الكبير أبى الحسن المرينى
١٨٧	وصية لسان الدين لأولاده
٢٠١	خطبة وعظية له
٢٠٨	وصية موسى بن سعيد العنسى لابنه
٢١٧	خطبة ابن الزيات المنزوعة الألف
٢١٩	القاضى عياض التى ضمنها سور القرآن

- ٢٢٢ خطبة سعيد بن أحمد المقرئ التي ضمنها سور القرآن
٢٢٤ » الكنعني التي ضمنها سور القرآن أيضاً

الباب الثاني

في خطب ووصايا مجهول عصرها أو قائلها

- ٢٢٦ خطبة أبي بكر بن عبد الله بالمدينة
٢٣٠ وصية أعمى من الأزد لشاب يقوده
٢٣١ » رجل لآخر وقد أراد سفراً
٢٣١ » » لابنه وقد أراد التزوج
٢٣٢ » بعض العلماء لابنه
٢٣٢ » لبعض الحكماء
٢٣٢ » أخرى
٢٣٣ » »
٢٣٣ عظة لبعض الحكماء
٢٣٤ نصيحة » »
٢٣٤ كلمات شتى لبعض الحكماء
٢٣٥ رجل من العرب والحجاج
٢٣٦ أحد الوافدين على عمر بن عبد العزيز
٢٣٦ كاتب وأميز
٢٣٧ وصف الهلباجة
٢٣٨ بعض البلغاء يصف رجلاً
٢٣٩ خمس جوار من العرب يصفن خيل آبائهن
٢٤١ رجل من العرب يصف مطراً

الباب الثالث

في نثر الأعراب

- ٢٤٢ قولهم في الوعظ والتوصية
٢٤٢ مقام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك

- ٢٤٣ أعرابي يصف هشام بن عبد الملك
 ٢٤٣ خطبة أعرابي
 ٢٤٤ » أخرى
 ٢٤٤ » »
 ٢٤٤ أعرابية توصي ابنها وقد أراد السفر
 ٢٤٥ أعرابية توصي ابنها
 ٢٤٦ أعرابي يوصي ابنه
 ٢٤٦ » ينصح لابنه
 ٢٤٦ » »
 ٢٤٦ » لأخيه
 ٢٤٧ » يعظ أخاه
 ٢٤٧ » » صاحبه
 ٢٤٧ » » أخاه
 ٢٤٨ » » رجلا
 ٢٤٨ » »
 ٢٤٨ » »
 ٢٤٨ كلام أعرابي لابن عمه
 ٢٤٩ كلمات حكيمة للأعراب
 ٢٥٤ أجوبة الأعراب
 ٢٥٤ مجاوبة أعرابي للحجاج
 ٢٥٥ مساءلة الحجاج أعرابياً فصيحاً
 ٢٥٥ مجاوبة أعرابي لعبد الملك بن مروان
 ٢٥٦ مجاوبة أعرابي لخالد بن عبد الله القسري
 ٢٥٦ أجوبة شتى
 ٢٥٩ قولهم في الاستمناح والاستجداء
 ٢٥٩ أعرابي يحتدى عقبة بن أبي سفیان
 ٢٦٠ أعرابي يحتدى عمر بن عبد العزيز

رقم الصفحة الخطبة أو الوصية

- ٢٦٠ خطبة أعرابي بين يدي هشام بن عبد الملك
 ٢٦٠ مقام أعرابي بين يدي هشام
 ٢٦١ أعرابي يستجدي عبيد الله بن زياد
 ٢٦٢ أعرابية تستجدي عبد الله بن أبي بكر
 ٢٦٣ أعرابي يستجدي خالد بن عبد الله القسري
 ٢٦٣ » » معمر بن زائدة
 ٢٦٤ خطبة الأعرابي السائل في المسجد الحرام
 ٢٦٥ » » » » الجامع بالبصرة
 ٢٦٥ صورة أخرى
 ٢٦٦ » »
 ٢٦٦ أعرابي يستجدي
 ٢٦٦ » »
 ٢٦٧ » »
 ٢٦٧ » »
 ٢٦٨ أعرابية تستجدي
 ٢٦٨ أعرابي يستجدي
 ٢٦٨ » »
 ٢٦٩ » »
 ٢٦٩ » »
 ٢٧٠ أعرابية تستجدي
 ٢٧٠ أعرابي يستجدي
 ٢٧١ » »
 ٢٧١ » »
 ٢٧١ » »
 ٢٧١ » »
 ٢٧١ » »
 ٢٧٢ » »
 ٢٧٣ » »

- ٢٧٢ أعرابي يسأل رجلا حاجة له
٢٧٣ قولهم في بكاء المولى
٢٧٣ أعرابية تبكي ابنها
٢٧٤ حديث امرأة سكنت البادية قريبا من قبور أهلها
١٧٥ حديث امرأة مات ابنها بين يديها
٢٧٦ قولهم في الشكوى
٢٧٦ أعرابي يشكو حائه
٢٧٧ كلمات شتى في الشكوى
٢٨٢ قولهم في العتاب والاعتذار
٢٨٣ قولهم في المدح
٢٩٢ قولهم في الذم
٢٩٩ قولهم في الغزل
٣٠٤ قولهم في الوصف
٣٠٤ أعرابي يصف مطرا
٣٠٥ » » »
٣٠٦ » » »
٣٠٧ ثلاثة غلمة من الأعراب يصفون مطرا
٣٠٩ أعرابي يصف مطرا
٣١٠ » » »
٣١١ » » »
٣١٢ » » »
٣١٢ » » »
٣١٣ » » »
٣١٤ أعرابية تصف مطرا
٣١٤ » » »
٣١٥ » » أرضا

رقم الصفحة	الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	الخطبة أو الوصية
٣٢٤	قولهم في الدعاء	٣١٦	رائد يصف أرضاً جديدة
٣٢٤	دعاء أعرابي	٣١٦	» » »
٣٢٦	» »	٣١٧	» » »
٣٢٦	» »	٣١٧	أعرابي يصف أرضه وآله
٣٢٧	» »	٣١٨	» » »
٣٢٨	» »	٣١٩	» » أشد للبرد
٣٢٨	» »	٣١٩	» » »
٣٢٩	» »	٣١٩	» » ناقة
٣٢٩	» »	٣٢٠	» » خيلا
٣٢٩	» »	٣٢٠	» » »
٣٢٩	» »	٣٢٠	» » »
٣٣٠	» »	٣٢٠	» » فرساً
٣٣٠	» »	٣٢١	» » خاتماً
٣٣٠	» »	٣٢١	» » أطيب الطعام
٣٣٠	» »	٣٢١	» » السويق
٣٣٢	» »	٣٢٢	» » الجمال
٣٣٢	» »	٣٢٢	أبو الخش يصف ابنته
٣٣٢	» »	٣٢٢	أعرابي يصف بنه
٣٣٣	أدعية شتى	٣٢٣	أعرابي يصف أخويه
٣٣٧	نواذر وملح لبعض الأعراب		

الباب الرابع

في خطب النكاح

٣٤٤	خطبة قريش في الجاهلية
٣٤٤	» النبي صلى الله عليه وسلم في زواج السيدة فاطمة
٣٤٥	» الإمام علي كرم الله وجهه
٣٤٥	» عتبة بن أبي سفيان

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة

خطبة شبيب بن شذبة	٣٤٦
الحسن البصري	» ٣٤٦
ابن الفقير	» ٣٤٦
عمر بن عبد العزيز	» ٣٤٧
أخرى له	» ٣٤٧
بلال	» ٣٤٧
خالد بن صفوان	» ٣٤٨
أعرابي	» ٣٤٨
المأمون	» ٣٤٨

الباب الخامس

٣٥٠ في خطب من أرتج عليهم ونوادير طريقة لبعض الخطباء

٣٦١ بدء الخطب وختامها

تم الكتاب بحسن توفيقه وعونه تعالى
وسيتبعه إن شاء الله كتاب

جمهرة رسائل العرب
في عصور العربية الزاهرة